ألبيرتو دانزول

اليَهُودِيَّة والغَيْرِيَّة

غير اليهُود في منظار اليهُودِيَّة

ترجمة : د. ماري شهرستان

الأوائل
2004

اليهُوديَّة والغَيْريَّة

غير اليهُود في منظار اليهُوديَّة



الكتــاب : اليهوديَّــة والغَيريَّــة
غـير اليـهُود فـي منظـار اليهُوديَّــة
تـأليـف : ألبـيرتو دانــزول
تــرجمـــة: د. مــاري شهرســتان
الإشــراف الفنِّـي : يـــزن يعقـــوب
تصـــميـــم الغـــلاف : هــلا خلوصـي
الإخــراج : دار الأوائــل ـ ســائــد الرَّاشــد
التَّـدقيـــق العـــامُّ : إسمــاعيـــل الكـــردي

الطَّبعة الأولى: ***2004*** م

النَّاشر : **الأوائل** للنَّشر والتَّوزيع والخدمات الطِّباعيَّة
سُوريَّة . دمشق
الإدارة : ص . ب 3397
التَّوزيع : ص . ب 10181
تلفاكس : 00963 11 2460063
جـــوَّال : 00963 93 411550
00963 93 418181
البــريد الإلكتــرونــي : alawael@scs-net.org
alawael@daralawael.com
موقع الدَّار على الإنتـرنت : www.daralawael.com

موافقة وزارة الإعلام : رقم 74150 تاريخ 2003/2/17

العُنوان الأصلي للكتاب باللُّغة الفرنسيَّة

Judaïsme et Altérité

Alberto D'Anzul

تنويهٌ هامٌّ

من أجل تواصُل أكثر مع السَّادة القُرَّاء ، فقد خَصَّصْنَا آخر (24) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدَّار ؛ حيثُ يجد السَّادة القُرَّاء قائمة بمنشورات الدَّار ، ولمحة إلى كُلّ كتاب أصدرتْهُ الدَّار .

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عامّاً عمّاً تنشرُهُ الدَّار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامَّةً إلى الخطّ الذي تنتهجُه الدَّار ، وهذا ـ بلا شكٍّ ـ سيجعل التَّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السَّادة القُرَّاء قراءة هذه الصَّفحات بتأنٍّ وتدبُّر ، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحظاتكُم واستفساراتكُم عن الكُتُب التي تنشُرُها دارُ الأوائل .

الفهرس

الإهداء

إلى الذين لا يعلمون أنَّ:

العالميَّة اليهُوديَّة هي الأكثر غمُوضاً من غيرها. فعلى مُستوى الشعُوب ؛ هي محدودة ، انتقائيَّة ، وتسلسُليَّة. وعلى مُستوى الأفراد ؛ ليس فيها مُساواة عقاريَّة ، فيها تمييز عنصُري ، وتفرض مُواطنيَّة جديدة ، واحترام حقٍّ عامٍّ جديد ، وباختصار ؛ تثبيت الواقع القومي العبراني.
هذه العالميَّة مبنيَّة على فكرة الشّعب الخاصٍّ الذي وُعد بمصير خاصٍّ : يجب أنْ يُصبح إبراهيم أُمَّة كبيرة وقويَّة ، وبه تتبارك كُلُّ شعُوب الأرض (تكوين 18.18) ، والشّعب الذي ندعوه باسم يَهْوَه يسمع الله مؤكِّداً : أنتم الذين تُصبحون لي مملكة كَهَنَة وأُمَّة قدِّيسة . سوف تُصبحون شعبي ، وأنا إلهكم يَهْوَه ، إلهك سوف يجعلك مُتفوِّقاً على جميع أُمم الأرض .

هل علموا الآن ؟!

دار الأوائل

تعريف بالمؤلِّف

السَّيِّد ألبيرتو دانزول كاتب فرنسي ذُو خلفيَّة ثقافيَّة علمانيَّة ، رمى ـ في هذه الدِّراسة ـ إلى إلقاء الضَّوء على هيكليَّة خفايا التَّفاسير والتَّلمُود ودوره الآثم في بناء شخصيَّة اليهُودي ، حتَّى أصبح أشدَّ المخلوقات عداوة لبني البشر ، كما أنَّه وضَّح البنى الذِّهنيَّة للأحبار والحاخامات ودأبهم المُستمرَّ لتكريس انعزال وانغلاق اليهُودي وتكبُّره وتغطرسه ، والذي كانت نتيجته عدم تفاعله في المُجتمعات الإنسانيَّة قاطبة ، وذلك كُلُّه مُسند إلى شريعة إلهيَّة . فالكنيس والتَّوراة المنحُولة والتَّلمُود هُم وطن اليهُودي وقضاء يَهْوَه وأوامره على الأرض ؛ بما فيها أوامر القتل والإبادة الجماعيَّة ؛ بدءاً من إبادة الكنعانيِّيْن ـ تاريخيَّاً ـ إلى مذبحة دير ياسين ؛ وصُولاً إلى مذبحة صبرا وشاتيلا ، ولا تزال هذه الجرائم والمجازر النَّفْسيَّة العُدوانيَّة في حالة حرب مُستمرَّة على أرضنا في فلسطين ، إذْ إنَّ أيَّ حالة سلْم أو تفاعل بشري طبيعي مُتكافىء لا يُمكن أنْ تظهر في أدبيَّاتهم ، ولا في تفاسير وتربية مُرشديهم.

فاليهُودي ـ بحسبهم ـ وُجد على هذه الأرض ليكون المُستفيد الوحيد والمُسيطر والمُذلَّ لباقي البشر.

عقيدة مُحرَّفة ، مُنحرفة ، جامدة ، مبنيَّة على اقتباس فاشل من ثقافة الرَّافدين والهلال الخصيب بمُجمله ، إنَّما تلك الثَّقافة كانت رهن زمنها وبيئتها ، لكنَّ اليهُود حنَّطوا تلك المفاهيم الثَّقافيَّة المُتجليَّة بالدَّساتير

والمُنتجات الأدبيَّة من ملاحم وقصائد وكتابات نثريَّة فلسفيَّة واجتماعيَّة، وبنوا منها نظاماً اجتماعيَّاً قاسياً، ظالماً، مُهتزَّاً، أساسه وقوامه التّمييز على الأصعدة والمُستويات كافَّة، للرّجال فيه الأفضليَّة والقوامة والسّيطرة، والانتقاص والذُّل للمرأة والفقير والرِّقُّ والمريض والمُعاق، الأهمُّ من هذا كُلِّه للأجنبي.

يذكر الكاتب أنَّ هذه المثالب قد تكون موُجُودة في مُجتمعات أُخرى استطاع العلم والتّطوُّر والوعي أنْ يُشذِّبها أو يقضي عليها، إنَّما عن الصّهاينة بقيت مُجذَّرة ومُمنهجة حسب شرع يَهْوَه الذي جعل اليهُود في مأزق حضاري في علاقتهم مع الإنسانيَّة.

جعل الشّريعة مطيَّة لتحقيق مآرب صُغرى.

مُقدِّمَة

هُناك بشر غير قادرين على مُقاربة الله : إنَّهم نوع البشر الذين هُم ليس لديهم أيُّ مُعتقد ديني ولا علمي ولا تقليدي، مثل آخر الأتراك في أقصى الشّمال والزُّنوج في أقصى الجنوب والذين يُشبهُونهم في مناخاتها. هؤلاء يُعدُّون مثل حيوانات غير عاقلة، فأنا لا أصنِّفهم في مُستوى البشر؛ إذْ إنَّهم من بين الكائنات الحيَّة صنفٌ أدنى من البشر وأعلى من القرد. بما أنَّ لديهم وجه وملامح الإنسان وفطنة أعلى من القرد. قال ذلك ابن ميمُون وهُو " عَلَمٌ من أعلام اليهُوديَّة الحاخاميَّة " في القرن الثّاني عشر[1] " لقد نفخ الله في كُلِّ كائن بشري نفخة الحياة؛ أيْ الرُّوح، والتي نُسمِّيها النَّفْس (**nefech abaa mith**). أمَّا فيما يخصُّ الشّعب اليهُودي[2]؛ فلقد أُودعت فيه نَفْس إضافيَّة **Nefech Alohit** أيْ (النَّفْس الإلهيَّة). بالنّتيجة كُلٌّ واحد منَّا (أيْ اليهُود) يمتلك نَفسَيْن تحت تصرُّفه ". وهُنا إنَّها الصّحيفة اليهُوديَّة المُسمَّاة كرونيكور **le chroniqueur** وهي تُعالج في " المعلومات اليهُوديَّة العالميَّة " التي عبَّرت عن ذلك في عددها **16** بتاريخ **3** حزيران **1992** :

وقد شرحت :

" فإذا كانت الرُّوح الحيوانيَّة المُوجُودة في الدّم تُثير "رغبات جسدنا" فإنَّ الرُّوح الإلهيَّة المُوجُودة في الدّماغ تكون المُقوِّي للرّابط المُستمدِّ مع خالقنا " .

نفهم ـ الآن ـ بشكل أفضل شُرُوحات ابن ميمُون. وبذلك يكون اليهُودي مُصنَّفاً في الأعلى، وهُو مُجهَّز بدماغ وبرُوح إلهيَّة قادرة أنْ تربطه بواسطة المعرفة بالخالق. وفي درجة

(**1**) مُوسى بن ميمُون "دليل الضّالِّين" باريس فيرديه، **1970**.

(**2**) (أيْ الطّائفة المذهبيَّة اليهُوديَّة)، استخدام كلمة شعب تحصل نتيجة الفُوبيا المَرَضيَّة اليهُوديَّة التي تجعلهم يعتقدون أنَّهم يُشكِّلُون أُمَّة.

أدنى يكون غير اليهُودي مجهزاً بدماغ ـ هذا أكيد ـ لكنَّه لا يملك رُوحاً إلهيَّة. وفي أقصى الأسفل؛ أيْ في حُدُود الحيوانيَّة يُوجد الزّنجي، وهُو كائن "غير عاقل"، وبالتّالي؛ تُحرّكه ـ فقط ـ رغبات جسده.

هذه الأقوال ليس هدفها التّعرُّض لُمعتقدات البعض التي هي مُحترمة طالما أنَّها نفسها تحترم الاختلاف.

إنَّها تعرض ظاهرة تخرج من ميدان الإيمان، وهي معروفة جيِّداً من قبَل الذين يهتمُّون بمسألة العُنصُريَّة: وُجُود تيَّار قويٍّ من عُقدة الآخر (Alterophope) في العالم اليهُودي الماضي والحاضر، وقد يبدو ـ في البدء ـ وكأنَّه مُتناقض. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا التيَّار ليس في الأغلبيَّة.

فغالبيَّة اليهُود ـ الذين تثقَّفوا بالأفكار العُنصُريَّة لابن ميمُون أو لبعض الحاخامات الأُخر ـ هُم يرفضونها، ونحنُ لا نشكُّ بذلك، فهؤلاء كُلُّهم يجب ألاَّ يشعروا أنَّهم مُستهدَفُون بأسطر غير مُوجَّهة لهم إطلاقاً. وليُفكِّر الآخرون ـ مليّاً ـ بالخطر المُحدق بالإنسانيَّة التي تُسبِّبه بعض المراجع العُنصُريَّة، أو بعض المزاعم بالتّفوُّق وعُلُوِّ الشّأن. فليُسلِّم الجميع أنَّ حقَّ مُساواة جميع البشر في العزَّة والكرامة ـ يهُوداً كانوا أم غير يهُود ـ تتطلَّب ـ اليوم ـ أنْ يكون البحث اللاَّعُنصُري كاشفاً العالم اليهُودي والعالم غير اليهُودي على حَدٍّ سواء. فما يقع ـ حاليّاً ـ على الفلسطينيِّيْن والإسرائيليِّيْن من أصل عربيٍّ يُبرِّر ضرورة هذه الخُطُوات. وعليه؛ ـ أيضاً ـ يتوقَّف مُستقبل حضارتنا.

هُناك عدَّة أعمال حديثة بيَّنت أنَّ اليهُود المُتديِّنين أو الأرثُوذُكس هُم أكثر حساسيَّة للموضوع العُنصُري من اليهُود المُلحدين[1]. هذه الظّاهرة هي واضحة جداً في (إسرائيل) على سبيل المثال. فبحسب سيمُون إيبشتاين[2] وهُو دُكتُور في العُلُوم السّياسيَّة وباحث

---

(1) انظر على سبيل المثال:

س كُوهين، "الله هُو برميل بُودرة". باريس، كالمان ليفي 1989.

س. إيبشتاين، القُمصان الصّفراء، حوليَّة اليمين المُتطرِّف العُنصُري في (إسرائيل) ـ باريس، كالمان ليفي 1990.

ي. هايمان، "في قلب الثّقافة اليهُوديَّة" فرنسا، (إسرائيل)، ولايات مُتَّحدة، باريس ـ البان ميشيل 1996.

(2) س. إيبشتاين.

إسرائيليٌّ مُتفرِّغ لدراسة العُنصُريَّة : إنَّ دعم العُنصُريَّة في (إسرائيل) "مُنتشر - بشكل واسع - عند جميع الشّباب ، لكنَّه أقوى - بشكل واضح - عند الشّباب المُتديِّن أكثر منه عند العلمانيِّيْن. ويُشير إيبشتاين - أيضاً - أنَّ مُدرسي المدارس الدِّينيَّة هُم حسَّاسون بجُزء على الأقلِّ من المواضيع العُنصُريَّة أكثر من طُلاَّب المدارس العلمانيَّة الذين "يُفضِّلون الصّمت" ومُنْذُئذ هُناك سُؤال أساسي يطرح نفسه في دراسة منشأ هذه "الغَيْريَّة المَرضيَّة" أو " فُوبيا الآخر" : هل يجب أنْ نُقيم علاقة بين العُنصُريَّة اليهُوديَّة والشّريعة الدِّينيَّة اليهُوديَّة .

هذا السُّؤال شرعيٌّ ، بقدر ما يُؤكِّد المُتديِّنون الغَيْريُّون المَرَضيُّون أنَّهم يتصرَّفون حسب تعليمات الشّريعة اليهُوديَّة. ولذلك وفي عام **1986** ، لم يُفوِّت هؤلاء فُرصة إعاقة مشروع قانون ضدَّ العُنصُريَّة ، وذلك خوفاً من أنْ تُمنَع بعض النُّصُوص اليهُوديَّة من النَّشْر ، وذلك حسب إيبشتاين. لن نستطيع الإجابة عن السُّؤال الأساسي الذي هُو أُصُول العُنصُريَّة اليهُوديَّة دُون أنْ نبحث في النُّصُوص المُؤسِّسة لليهُوديَّة ، التي هي - بحسب اليهُود الأرثُوذُكس أنفسهم - تُحدِّد - بقسط كبير - لاهوت التّمييز. نُريد أنْ نتكلَّم - بالتّأكيد ، وبشكل خاصٍّ - عن نُصُوص في العهد القديم. إنَّها في أساس الفكر اليهُودي ، لكنَّها طَبَعت - أيضاً بشكل جُزئي - ثقافةً وفكراً سياسيّاً غربيّاً لا تزال تداعياته في " الغَيْريَّة المَرَضيَّة " حاضرة في أذهاننا .

لماذا هذا التّساؤل؟ وماذا نفهم من كلمة **Alterophobie** "وهُم الغَيْر"؟ أو "فُوبيا الآخر" ، أو " أو الغَيْريَّة المَرَضيَّة " .

في الفلسفة ؛ الغَيْريَّة هي حالة وصفة ما هُو آخر و" ومُتميِّز " . في إطار هذا العمل سوف نضع - أوَّلاً - تعبيراً شاملاً يجمع مُختلف أصناف الشُّعُوب المعروفة في مجمُوعة مرجعيَّة على أنَّها "مُختلفة" .

فالغَيْريَّة المَرَضيَّة تدلُّ - إذاً - على بُغْض محسوس من هذه المجمُوعة "المرجع" تجاه هذه الأصناف من الشُّعُوب ومواقف الرّفض التي تنتج عنها . الغَيْريَّة المَرَضيَّة والعُنصُريَّة هما - إذاً - تعبيران مُتقاربان جداً. إلا أنَّ العرْق وحده لا يُحدِّد التّصرُّف الغَيْري المَرَضي ، بل - أيضاً - الجنس والمَرَض والوضع الاجتماعي والتّصرُّف الجنسي والدِّيني ، فالمصلحة في مثل هذا التّساؤل حول العُنصُريَّة اليهُوديَّة مُتعدِّدة الجوانب . وممَّا لا ريب فيه أنَّها تستطيع أنْ تُجدِّد كُلَّ

المُقاربة التّاريخيَّة للعُنصُريَّة بصفتها عقيدة. وبديهي أنَّه سيُصبح بإمكاننا أنْ نُحارب الإيديُولُوجيَّة عندما نعرف جُذُورها بشكل أفضل، مُجتازين الإطار الأوروبي جداً والمُعاصر جداً الذي تُنسب إليه عادةً. وذلك يجب أنْ يقود القارئ لطرح السُّؤال حول الصّدى التّاريخي لبعض الكتابات اليهُوديَّة المطروحة كمُقدَّسة وسليمة، كما أنَّها لا تُقصِّر في الدّفاع عن الإبادة الجماعيَّة المُخطَّط لها وتبريرها.

هل استخدام كلمة إبادة جماعيَّة مُبالغ به في النّصّ التّوراتي. ؟ في المُعجم: إبادة جماعيَّة تعني "قَتْلاً منهجياً مُنظَّماً لمجمُوعة بشريَّة قوميَّة أو إثنيَّة أو دينيَّة".

بالنّسبة لسيمُون فيل؛ إنَّها نتيجة لـ" إرادة إفناء مُنظَّم لصنف من البشر بأكمله (فرانس سوادر ـ ماغازين 7/ 3/ 1983)، سوف نرى أنَّ الأنبياء اليهُود يُعبِّرون ـ عدَّة مرَّات ـ عن الإرادة في إفناء بعض المجمُوعات الدِّينيَّة القوميَّة أو الإثنيَّة، وسوف نرى ـ حسب التّوراة ـ أنَّ هذه الإرادة كان لها نتائج مُرعبة.

إذاً؛ نحنُ نُكلِّف القارئ بالعمل الذي سوف يأتي. هدف هذا البحث هُو علاقة اليهُودي بالآخرين كما تظهر لنا في النُّصُوص اليهُوديَّة القديمة. هذه الدّراسة هي ـ إذاً ـ ليست هجاء، ولا تأويلاً للكتاب المُقدَّس، ولا حلَّ رُمُوز قَبَلانيَّة رمزيَّة أو باطنيَّة للكُتُب، ولا هي دَرْسٌ في اللاّهوت تأويلاً، توجُّهنا ومُرادنا تاريخيٌّ، ويتعلَّق بالمعنى الحَرْفي للنُّصُوص الذي يصنع الضّمائر. سوف نتبع بذلك الحاخامات الذين بالنّسبة لهم "لا يُمكن لأيِّ نصٍّ توراتي أنْ يُفصَل عن معناه الحَرْفي[1]". أردنا بعد ذلك وفي جُزءٍ ثاني قياس الأثر الذي تُحدِثه هذه النُّصُوص على الضّمائر.

إنَّ عمل فلافيُوس جُوزف يتناسب ـ تماماً ـ مع هذا التّمرين، كان باستطاعتنا أنْ نختار غرضاً للدّراسة أكثر مُعاصرةً، غير أنَّه يبدو لنا من الأفضل أنْ نبعد عن النّزاعات السّياسيَّة ـ الدِّينيَّة وعن الأحداث الجارية. اخترنا أنْ ندأب في عمل مُؤرِّخ، انطلاقاً من عناصر يكون تأثيرها العاطفي أقلَّ وطأة. ولماذا فلافيُوس جُوزف؟

---

(1) ش تواتي، أنبياء تلمُوديُّون، فلاسفة، باريس، سيرف 1990.

جُوزف هُو مُؤرِّخ يهُودي من القرن الأوَّل قد ترك لنا عملاً هاماً، وهُـو ـ أيضـاً ـ حبر في الشّريعة؛ أيْ يعرف ديانته جيِّداً. وهُو يهُودي يعتبره يهُود الأمس ويهُود اليوم خائناً. فـهُو في خضـمِّ الحـرب اليهُوديَّـة اختـار الفريـق الرُّومـاني الـذي هُـو مـن الآخريـن المُشـنَّع عليـهـم (أيْ المرفوضين).

فشهادة جُوزف ليست شهادة (زيلوتي) أو اندمـاجي أو مُتحمِّـس. إنَّـها شـهادة يـهُودي مُعتدل مشكوك فيه حتَّى من قبَل النُّقَّـاد المُعـاصرين، إنَّـه يتدبَّـر الغَيْريَّـة التـي هُـو مُتعلِّـق بـها، ويعمل لها. فجُوزف هُو المثل العاطل إذاً، وقابلٌ ـ على كُـلِّ حـال ـ لمُناقضـة الفَرَضيَّـة القائلـة بالأثر الحاسم للغَيْريَّة المَرَضيَّة التّوراتيَّة على الضّمائر: وهذا ما هُو ـ تحديداً ـ مُهمٌّ للمُؤرِّخ.

ومهما كان الأمر سوف نرى أنَّ شهادة جُوزف تُوحي بأنَّ بعض النُّصُـوص التّوراتيَّـة قـد حيَّدت حسَّه الأخلاقي وضميره، إذْ إنَّ جُوزف ـ في الواقع ـ حتَّى لو أنَّه من مُؤيدي الحوار مع الآخر، وحتَّى لو أنَّه يبحث عن وسيلة اتِّصال فيها صراع أقلُّ مع الأغيار، لكنَّه لا يستطيع أنْ يخرج تماماً من العُنصُريَّة اللاّهوتيَّة التي طبعت طائفته. وواضح أنَّ البحث عـن الحـوار الـذي هُو موضع انتقاد فيه لم يمنعه من أنْ يخضع لثقافة ألفيَّة، وأنْ ينتمـي بعُمـق للكتابـات الكبـيرة "الغَيْريَّة المَرَضيَّة" للدّيانة اليهُوديَّة، والتي فهمها حَرْفياً مثل كُلِّ مُعاصريه.

إن مُؤلَّف جُوزف يُبيِّن لنـا ـ أيضـاً ـ أنَّ المُقاربـة الحَرْفيَّـة للنّـصِّ هـي التـي يجـب الاسـتناد إليها، أوَّلاً؛ للحُكْـم علـى تـأثير الكتابـات التّوراتيَّـة علـى الضّمـائر. هـذا العمـل يسـمح لنـا ـ أخيراً ـ من تبيان الأثر المشؤوم لبعض النُّصُوص التّوراتيَّة على العلاقـات التّاريخيَّـة لليـهُودي مع غير اليهُودي.

فالعمل الذي سوف نعرضه الآن يقع في منظور مُراجعـة التّاريخ، ومسـألتنا تتوجَّـه إلـى خزَّان من الذّاكرة يبدو لنا أنَّه سُئل قليلاً أو بشكل سـيِّئ. ونـأمل أنْ نُسـاهم ـ بذلـك ـ في كسـر قُدسيَّتها، ونأمل ـ أيضاً ـ أنَّ هذا العمل سـوف يُسـاعد ـ مـع نواقصـه ـ بفَـهْم أفضـل لمنطقيَّـات الغَيْريَّة المَرَضيَّة التي تُغذِّي بعض الأفكار.

مدخل:

اليهُوديَّة (والغَيْريَّة) في القرن الأوَّل
لمحة سريعة

لقد أكَّد إرنست رينان في افتتاحيَّته لدُرُوس اللُّغات العبريَّة والكلدانيَّة والسّريانيَّة في المعهد الفرنسي أنَّ اليهُوديَّة في العصر الرُّوماني كانت تحتوي على مبدأ ذي شكليَّة ضيِّقة وتعصُّب مُطلق ومُحتقر للأجنبي. وحدَّد أنَّ ذلك كان بسبب الذّهنيَّة الفرِّيسيَّة التي أصبحت - في ما بعد - الذّهنيَّة التّلمُوديَّة.[1]

وفلافيُوس جُوزف يبدو وكأنَّه يُصادق على أقوال رينان، فيكتب أنَّ الحرب التي قامت بين اليهُود والرُّومان من 66 إلى 74 كان سببُها رفض قبُول التّقدمات والتّضحيات الآتية من الأجانب: إنَّه إليعازر ابن الكاهن الكبير حنانياس. فهُو شابٌّ ذُو جُرأة كبيرة، كان - في وقتها - قائد شُرطة المعبد، لقد أقنع الوُزراء في العقيدة أنْ لا يقبلوا - من الآن فصاعداً - أيَّ تقدمة أو ذبيحة من أيِّ أجنبي: كان ذلك أساس الحرب مع الرُّومان، إذْ أنَّهم رموا بالأضاحي المُقدَّمة لحساب الرُّومان وقيصر على حدٍّ سواء.. وقد أشار بيير فيدال - ناكيه من جهته أنَّ هذا القرار دفع بمنطق الانعزاليِّيْن[2] إلى حدِّه الأقصى.

هذا المنطق يبدو أنَّه قد طبع تيَّاراً كبيراً في المُجتمع اليهُودي للقرن الأوَّل، وقد يكون تيَّار الأغلبيَّة. وهُو يُفسِّر - جُزئيَّاً، بدُون شكٍّ - المُقاومة اليهُوديَّة للسّيطرة الأجنبيَّة والحرب التي تبعتها. ويُبيِّن - أيضاً - ثبات انشقاق الرّسول بُولُس. لأنَّ هذا المُجتمع بدا - وقتها - أنَّه قد انغلق على نفسه، وأخذ يُنشِّط عمليَّة إقصاء واستبعاد الآخرين؛ مثل التي كانت أيَّام (المُتحمِّسين للشّريعة) في زمن المكابيِّيْن. هذه السِّياسة - سياسة الانغلاق - تُناقض سياسة الانفتاح والتّسامح عند اليهُود المُتهلينين، التي أدَّت - عام 167 - إلى إقامة عبادة زيُوس الأولُومبي.

---

(1) رينان - يهُوديَّة ومسيحيَّة، نُصُوص مُقدَّمة من قبَل جان كويميرا، باريس كوبرنيك 1977.

(2) فيدال - ناكيه "في استخدام الخيانة"، مدخل إلى الحرب اليهُوديَّة لفلافيُوس جُوزف، باريس، مينوي 1977.

وتشهد عدَّة مصادر يهُوديَّة عن هذا التّقوقع على الذّات وهذه (الغَيْريَّة المَرَضيَّة) التي تُهمِّش وترفض أيَّ اختلاف واضح وكأنَّه مظهر تلوُّث أو نجاسة. وكذلك تشهد بها مصادر غير يهُوديَّة.

يُظهر الغليان الدِّيني بتلك الفترة - وكما يشهد به فلافيُوس جُوزف - حركة انغلاق على التّوراة تتكوَّن بشكل مُوازي لهذه الإدارة الانفصاليَّة واستعباد الآخرين، وإنَّه لمن الصّعب أنْ لا نُقيم علاقة بين هاتَيْن الظّاهرتَيْن وبين الانفصال الذي يأخذ شرعيَّته من النُّصُوص التّوراتيَّة القديمة كما سوف نرى في جُزء أوَّلي من التُّراث الشّفهي المنقول، الذي سوف يُصبح - بعد ذلك - كتابيّاً. وقد أكَّد جُول إسحق بهذا الصّدد: "لقد قلنا سابقاً لماذا هذا الانفصال يفرضه الإيمان اليهُودي (بيَهْوَه) و(يُحتِّمه) ويفرضه، وكذلك الاعتقاد بالتّوراة. وبالإضافة لذلك؛ إنَّ وحدانيَّة الله اليهُوديَّة هي مُتصلِّبة وصافية ("اسمع إسرائيل الرّبّ إلهنا هُو الرّبّ الوحيد")، كذلك، فإنَّ الانفصال يَثْبُت تجاه الوَثَنيَّة المُحيطة".(1)

"منطق المُنفصلين" هذا الذي يتحدَّث عنه فيدال - ناكيه ألا يفترض - بدوره - أنْ يكون منطق حرب؟ فالانفصال لا يُمكن أنْ يكون إلا نتيجة لمُجابهة، لكنْ؛ غير مُؤكَّدة. إنَّما سوف تحدث. وفلافيُوس جُوزف الذي موقعه في مفصل يهُوديَّة مُتجذِّرة في المعبد، وقد أصبحت ماديَّة بالأضحية، ويهُوديَّة مُقتلَعة من موضعها وبيئتها، مُهيَّأة لتُصبح رُوحيَّة في الكنيس، يكون هُو الشّاهد المُتميِّز.

ما هي الفكرة التي كوَّنها هذا المُؤرِّخ عن الغَيْريَّة؟

هل سيتبنَّى المُعتقدات السّائدة في شعبة وفي زمنه؟ أم أنَّه سيبعد عنها وإلى أيِّ مدى؟ هُناك كثير من الأسئلة سوف تُطرح في جُزءٍ ثان.

هذا الفصل - المدخل - غايته إعطاء لمحة سريعة إلى المُجتمع اليهُودي في القرن الأوَّل من وُجهة نظر علاقاته الغَيْريَّة (مع الآخرين).

سوف نفعل ذلك أوَّلاً انطلاقاً من مصادر يهُوديَّة وغير يهُوديَّة. الواحدة تُؤكِّد (الثّانية) والعكس صحيح. سوف نبحث - أيضاً - في مكانة التّوراة في هذا المُجتمع بالرُّجُوع (كمصادر) إلى الميشنا وفلافيُوس جُوزف بشكل خاصٍّ. سوف ندرس الغَيْريَّة في معناها الأوسع، ليس - فقط - الآخر الأجنبي، بل أيضاً "المُختلف": المرأة، المُنحرف، العاجز، والذي حُطَّ مقامه.

---

(1) ج - إسحق، تكوين اللاّساميَّة، باريس كالمان - ليفي 1956.

اليهُوديَّة والغَيْريَّة
مصادر يهُوديَّة

هذه المصادر مُتعدِّدة ومُختلفة، لكنَّها تُفسِّر بعضها البعض. فنحنُ سوف لن نُعالجها إفراداً، ولا بشكل شامل.

العهد الجديد يُقدِّم لنا أوَّل مُساهمة مُفيدة. وإذا وجب الإيمان بأعمال الرُّسُل نجد أنَّ اليهُودي لا يستطيع أنْ يُعاشر أجنبياً ولا حتَّى الاقتراب منه.

وفي مقطع شهير يتضمَّن هداية كُورني (قائد مائة رُوماني من الكتيبة الإيطاليَّة المُرابطة في قيصريَّة) ودُخُول الوَثنيِّين الأوَّلين في الكنيسة:

أعلن بُطرُس " أنتم تعلمون كيف أنَّه مُحرَّم على اليهُودي أنْ يحتكَّ بالأجنبي، أو أنْ يقترب منه " (أعمال: **10 . 28**).

أمَّا فلافيُوس جُوزف؛ فقد أوحى لنا وجعلنا نعتقد أنَّ المسألة هي مسألة ميل طبيعي أكثر منه شريعة:

" نحنُ لا ننشرح لُعاشرة الأجانب أو الغُرباء " (**C.AI , 60**).

أمَّا أجنبي أو غريب؛ فإنَّ فيدال ـ ناكيه يُشير إلى أنَّها كلمة مُستخدمة ـ غالباً ـ في النُّصُوص اليهُوديَّة ذات اللُّغة اليُونانيَّة للدّلالة على غير اليهُودي؛ أيْ الغويم[1]. بالنّسبة لبُطرُس؛ فإنَّ الشّكل الشّرعي للمسألة لا يُثير عنده أدنى شكٍّ، فهُو يتوجَّه إلى وَثنيِّين مثل فلافيُوس جُوزف تماماً، وهُنا إنَّهم أهالي وأصدقاء حميمين لكُورني (أعمال **26.10**)، فبُطرُس مُتأكِّد أنَّ هؤلاء يعرفون موقف اليهُود تجاههم. كيف يُمكن أنْ يكون الأمر غير ذلك؟

---

(1) فيدال ـ ناكيه، [illegible]

كذلك كان اندهاش السّامريّة التي طلب منها يسُوع ماءً للشُّرب، وكيف بدت مُتفهِّمة: « وقالت له المرأة السّامريَّة:

" كيف! أنت يهُودي(*) وتطلب الشُّرب منِّي أنا السّامريَّة ! " فاليهُود ـ فعلاً ـ وكما يُحدِّد يُوحنَّا، ليس لهم علاقات مع السّامريِّيْن ». يُوحنَّا (9.4).

فاليهُود ـ في الواقع ـ ليس لهم علاقات مع السّامريِّيْن، هذا صحيح، لكنْ؛ لا يتوقَّف الأمر عند ذلك، إنَّما حسب التّوراة OSTY (أوستي) فإنَّ مُرادف كلمة سامري تعني وكأنَّها شتيمة. وكذلك ففي يُوحنَّا 48.8 اتَّهموا يسُوع أنَّ به شيطاناً وأنَّه " سامري ". وهُناك شتيمة أُخرى مُستعملة تجاه الغُرباء وهي النَّجس (القذر، الدّنس): فبُطرُس أراد أنْ يُطوِّر العقليَّات فيُؤكِّد: " لقد أبان الله لي أنَّه يجب ألاَّ أُسمِّي أيَّ إنسان دِنس أو نجِس (أعمال 88.10).

إذاً؛ *يجب على اليهُودي ألاَّ يقترب من الأجنبي*: وقد أفادنا فلافيُوس جُوزف ـ عَرَضاً ـ في مقطع مُخصَّص للأسينيِّيْن أنَّه عندما يُلامس اليهُودي أجنبيّاً فهُو قد " تلوَّث "، ويجب عليه أنْ يستحمَّ (حرب 150.8II). ويبدو أنَّ فلافيُوس جُوزف يُحاول في مُقارنته أنْ يشرح هذا الموقف بفكرة " الدُّونيَّة ": " إنَّهم (اللاَّسينيُّون) مُوزَّعون وبحسب (قدمهم) (أو) أقدميَّتهم إلى أربع مجمُوعات يُعتبر فيها الشّباب درجة أدنى من القُدماء بشكل أنَّه إذا مسَّ قديمٌ شاباً يذهب ويستحمُّ وكأنَّه تلوَّث بأجنبي. في الظّاهر؛ إنَّ الإسرائيلي يتدنَّس بمُلامسة الغريب.

دنسٌ يُصبح مُلوَّثاً ومُعدياً. ولذلك يحظر عليه تناول الطّعام عند الغريب. وقد لاموا بُطرُس لذلك: " لقد دخلت عند غير المُطهَّرين، وأكلت معهم " (أعمال 3.11).

مُحرَّم عليه ـ أيضاً ـ أنْ يدخل منزله. كذلك عندما أخذ اليهُود يسُوع إلى بلاطس وإلى اليهُوديَّة وآدوم والسّامرة رفضوا أنْ يدخلوا مقرَّ الحاكم؛ أيْ إلى المحكمة الرُّومانيَّة المُخوَّلة الوحيدة في نطق حُكْم بالموت. إذاً؛ أخذوا يسُوع من عند قيفا إلى مقرِّ الحاكم، وكان ذلك صباحاً. لكنْ؛ هُم لم يدخلوا المقرَّ، حتَّى لا يتدنَّسوا، وبذلك؛ يستطيعون أنْ يأكلوا الفصح (يو 28.18).

(*)المسيح سُوري المولد واللُّغة والفكر، كما يشهد الإنجيل بذلك (هُنا؛ كما في باقي أنحاء سُوريَّة).

تُعطي أعمال الرُّسُل إيضاحاً مُهمّاً حول الدّنس والنّجس من الأجنبي. هي - في الحقيقة - رُؤية ظهرت لبُطرُس، وفيها شُرُوط للوثَنيِّين الأوائل عند دُخُولهم الكنيسة: ينزل من السّماء غطاء في داخله ذوات الأربع وزواحف أُخرى وكثير من الحيوانات "النّجسة" الغير صالحة للاستهلاك (أعمال 13.11.10) وحول التّحريم الغذائي (انظر لاوي 11)، لكنَّ صوتاً يأمره بأكلهم: وبذلك؛ أُلغيت المُحرَّمات الغذائيَّة التي تجعل العلاقات بين اليهُود وغير اليهُود مُستحيلة. والذي يجعل هذا المقطع مُهمّاً هُو تفسير بُطرُس لهذه الرُّؤيا: "ما أعلنه الله طاهر لا تُسمِّيه أنت دنس" (أعمال 15.10).

هكذا قال له الصّوت بما يخصُّ ذوات الأربع والزّواحف وعصافير السّماء "من هُنا استنتج بُطرُس: لقد أبان لي الله أنَّه يجب ألاَّ تدعو أيّاً إنسان دنس أو نجس" (أعمال 28.10).

وبذلك ضُغِمتَ نجاسة الأجنبي بنجاسة الحيوانات، ودنس غير اليهُودي هي في نفس درجة الزّواحف... (فرانسيس سميت) المسألة التي تشغل الحاخامات هي معرفة القيمة المُعادلة الحقيقيَّة التي يجب فيها تقييم نجاسة الأغيار هذه. في هذا المجال هُناك مُؤيِّدو الحدَّ الأدنى ومُؤيِّدو الحدَّ الأقصى. فبالنّسبة لبعضهم هي مُعادلة لنجاسة الحيَّة. وبالنّسبة لغيرهم تُعادل تعقيبة. ولغيرهم - أيضاً - تُعادل نجاسة جُثَّة. ثلاث أنواع من النّجاسة يجب أنْ يبعد عنها اليهُودي المُدقِّق. أمّا في حال تلوُّثه؛ يُمكن إزالتها بواسطة طُقُوس للطّهارة، وذلك بآليَّات مُختلفة، فعندما تكون خفيفة ومحدودة بنهار واحد، ذلك في حال الحيَّة، أمّا في حال الجُثَّة[1] فتُصبح الطُّقُوس جبريَّة إلى الحدِّ الأقصى، وتمتدُّ لمُدَّة أُسبُوع.

في مثل هذا النّصِّ يُصبح الزّواج المُختلط دنساً أعظم، وهُو ممنوع - طبعاً - ومُستحيل شرعيّاً. والذين يجهلون ذلك يتوعَّدونهم بالموت: *إذا كان هُناك أحدهم في إسرائيل يُريد أنْ يُعطي ابنته لأيِّ رجل من جنس الأغيار فليُحكَم عليه بالموت، ولنرجمه؛ لأنَّه ارتكب فعلاً مُعيباً في إسرائيل، ولنحرق المرأة؛ لأنَّها دنسَّت اسم عائلتها، ولتُقتَلع من إسرائيل، يجب ألاَّ نجد في إسرائيل لا زنى ولا دنس طالما استمرَّت الأجيال الأرضيَّة، لأنَّ إسرائيل هي طاهرة للرّبِّ. كُلُّ إنسان يرتكب دنساً يجب أنْ يُحكَم بالموت، ويجب أنْ يُرجَم* (gubile's

(1) فال شميت، فكرة معبد أُورشليم في قمران، باريس - سوي - 1994.

xxx. 7 ـ 8). المُعاشرة غير الشّرعيَّة والعلاقات الجنسيَّة مع الأجنبي يُمكن أنْ تُقمع بقسوة. ونجد في الميشنا أيضاً: *إذا أحدهم... جعل من الآراميَّة عشيقته فهُو مُهدَّد بضربات الزّيلوت(أيْ الحماسيِّين)* (zelote) (sauh.9.16) *وأيُّ امرأة تُعطي نفسها لأجنبي تُصبح زانية (حَرْفيّاً)*، فهي تتلوَّث إلى الأبد، ولن تستطيع أنْ تتزوَّج كاهناً. وعلى العكس؛ فهذا الكاهن باستطاعته أنْ يتزوَّج (وبدُون أيِّ مُشكلة) امرأة أعطت نفسها لعدَّة رجال، بشرط أنْ يكون هؤلاء يهُوداً، ولا يكونوا أقرباء.[1]

رَفْضُ الآخرين هذا يبدو أنَّه جذري أكثر منه عاماً.

فيسُوع نفسه وهُو رابي يشُوع (يجب ألاَّ ننسى ذلك) لم تكن مواقفه مُتحرِّرة أكثر من ذلك. فقال للاثنَيْ عشر: لا تأخذوا طريق الأُمم، ولا تدخلوا مُدُن السّامريِّين.

أفضل أنْ تتوجَّهوا إلى الخراف الضّائعة من بني إسرائيل (متَّى 10. 5) وحتَّى بُولُس نفسه الذي هُو رسول الأُمم قال أيضاً " لليهُود أوَّلاً، ثُمَّ لليُونانيِّين بعد ذلك (رو 1. 16) وفي مقطع معروف حول شفاء البنت الكنعانيَّة عبَّر يسُوع بأُسلُوب أوضح عن هذه الغَيْريَّة المَرَضيَّة. كنعانيَّة (يُونانيَّة من أصل سرياني ـ فينيقي حسب (مَرْقُس 7. 26) أتت وركعت عند قدمَيْ ابن داود حتَّى يشفي لها ابنتها، فلم يُجبها يسُوع، لكنَّ رُسُله أصرّوا حتَّى تعود، ثُمَّ قال لهذه المرأة: " أنا لم أُرسل إلا للخراف الضّائعة من بني إسرائيل " المرأة أصرَّت وركعت، فأجابها يسُوع مُقارناً اليهُود بالأولاد وغير اليهُود بالكلاب:[2]

" إنَّه ليس جيِّداً أنْ نأخذ خُبز الأولاد ونرميه للكلاب الصّغار ".

عندها خضعت المرأة بشكل عَلَني، وأعلنت لليهُود بشكل عامٍّ أكثر منها جواباً ليسُوع: نعم سيِّدي، لكنَّ الكلاب الصّغار يأكلون الفتات التي تسقط من طاولة أسيادهم ". (متَّى15. 21. 28). عندها شفى يسُوع لها ابنتها بسبب هذه الجُملة حسب (مَرْقُس 7. 29)

---

(1) انظر ش ـ تواتي، المامزر، الزّنا ووضع الأطفال المُنحدرين من زواج مُختلط في القانون الحاخامي في أنبياء تلمُوديِّين فلاسفة للكاتب نفسه، باريس، سيرف 1990.

(2) بازناج، تاريخ ديانة اليهُود مُنذُ يسُوع المسيح حتَّى الآن، يُفيد كمُلحق وتتمَّة لتاريخ جُوزف رُوتردام، 5 أجزاء 1716 ـ من قبَل ف. شميدت. أبسيت.

basnage : " الفرِّيسيُّون عوضاً عن أنْ يعملوا على هداية الأغيار كانوا ينظرون لهم ككلاب".

واضح أنَّ هذا الموقف كان شائعاً. ويظهر ـ هُنا ـ موضوع الخُضُوع المُنقذ، والذي نجده ـ بعد ذلك ـ موضوعاً يتحوَّل إليه جُزءٌ كبيرٌ من العالميَّة اليهُوديَّة، هكذا يبدو لي.

ويُلخَّص رفض الأجنبي في المُجتمع اليهُودي للقرن الأوَّل باثنَيْ عشر إجراء اتُّخذت بفترة قصيرة قبل الحرب الأُولى ضدَّ رُوما، وذلك من قبَل مُمثِّلي مدرسة هلال ومدرسة شاماي:

يُمنَع على اليهُود خُبز الأُمم ونبيذهم وجُبنهم وزيتهم وبناتهم ومنيهم وبولهم...

وبإعلانهم أنَّ الأجانب أنجاس، وبمَنْعهم خُبزهم ونبيذهم وزيتهم وجُبنهم. هذه الإجراءات التي انتُخبت بتحريض من الشّامانيِّين تهدف إلى الحدِّ من العلاقات بين اليهُود وغير اليهُود، وذلك بإقامة حواجز طَقْسيَّة، بدءاً من ميدان المائدة. هذا الفصل قابل للتّغيير حسب درجة خُطُورة التّلوُّث المأخوذة كمعيار.[1]

هذه المُقاربة الخاصَّة بالغَيْريَّة، وتُعرف ـ أيضاً ـ في الهندسة المعماريَّة لهيكل أُورشليم. وهُنا نرجع إلى دراسة فرانسيس شميت الذي هُو بالنّسبة له مُؤسَّسة تتَّخذ لنفسها شكلاً معمارياً يُجسِّد ـ في المدى ـ النّظام الرّمزي الخاصَّ بها[2]. وليفي شتراوس لم يقل غير ذلك عندما أقام العلاقة بين انهيار النّظام الاجتماعي لهُنُود بُورُورُو في البرازيل والتّعديلات في النّظام الهندسي لمساكنهم والتي قامت بها الإرساليَّات السّاليزيَّة.

فالمعبد مُهندَس بشكل أنَّ غير اليهُودي يجد نفسه في الخارج، مفصولاً عن العالم اليهُودي بحاجز أو soreg. فنجد من الأسفل إلى الأعلى ومن الخارج إلى الدّاخل (ألواح).

ـ فناء الأغيار (الأُمم).

ـ الحاجز ـ SOREG.

ـ فناء النّساء وتحتوي غُرفة مَرْضى الجُذام.

---

(1) ف شميت.
(2) ف شميت.

- فناء الإسرائيليِّين .

- فناء الكَهَنَة .

- قُدس الأقداس ؛ حيثُ يدخل - فقط - رُؤساء الكَهَنَة ، وذلك حسب فلافيُوس جُوزف .

وقد كُتب على الحاجز باليُوناني واللاَّتيني التّنبيه التّالي : *ممنوع على أيِّ أجنبي الوُلوج إلى داخل الدّرابزون الذي يُحيط بقُدس الأقداس وحَرَمه . وأيُّ كان يُمسك فيه يُصبح تجاه نفسه السّبب في موته كنتيجة مُباشرة لعمله* ، ويُشير شميت أنَّه بين أنطيُوخُوس الثّالث وهيرُود تغيَّرت العُقُوبة المُطبَّقة على الذي يُخالف التّحريم من ثلاثة آلاف دراخما من الفضَّة 3000 إلى عُقُوبة الموت . هذا القانون - برأي شميت - ساهم في تمكين العُزلة ، بجَعْلها منيعة .[1]

إنَّ تنظيم المعبد بهذا الشّكل يُثبت على الصّعيد الرّمزي إقصاء الأجنبي ، كما أنَّه يُوحي - أيضاً - بمُجتمع مُنضَّد وتمييزي عُنصُري يُدرج مُكوِّناته بإبعاد بعض العناصر إلى المُحيط .

وهُناك مغزىً أنْ يكون بعد فناء الأغيار فناء النّساء الذي يحوي - أيضاً - غُرفة مُخصَّصة لمرض الجُذام . المرأة والجُذامي هُما مُبعدان أكثر من الإسرائيلي الذي هُو بصحَّة جيِّدة عن قُدس الأقداس ، ممَّا يُشير إلى درجة أقلَّ من الطّهارة . درجة الطّهارة هذه هي التي تُحدِّد إدخال الفرد إلى المجمُوعة وقُدرته على القيام بدوره فيه .

وأمَّا فيما يخصُّ المرأة ؛ لنذكر الإمكانيَّة الممنوحة للرّجل بتطليقها (العكس لا يصحُّ وهذا عكس العادات اليُونانيَّة - والرُّومانيَّة) (ويسُوع الذي منع هذه المُمارسة أجابه التّلامذة : إذا كان وضع الرّجل مع المرأة هكذا فلا يُوجد مصلحة للزّواج (متَّى 19 . 10) أو قانون اللِّيفيرا **LEVIRA** أيْ زواج السّلفة ، زوجة الأخ الأرملة ، وقد أشار **Will** و **Orrieux** (أوريُو) : لقد لاحظنا أنَّ مصير الأرملة واليتيم في إسرائيل كان أسوأ منه في آشور وبابل[2] . إنَّ ضعف وضع النّساء يُمكن أنْ يظهر - أيضاً - في عادات الأسينيِّين . فبحسب فلافيُوس

---

(1) ف شميت .

(2) ويل وأوريو ، تبشير يهُودي؟ تاريخ غلطة باريس ، الأداب الجميلة ، 1992 .

جُوزف؛ يُفضِّل بعضهم أنْ يحمي نفسه مـن فسق النّسـاء (حرب II 8 . 21) غير أنَّ آخرين يضعون نساءهم موضع التّجربة لُمدَّة ثلاثة سنين، ولا يتزوَّجونهنَّ إلاَّ عندما يتبيَّن أنَّها خصبة (حرب 8II . 161) ونذكر ـ أيضاً ـ الميشنا؛ حيثُ: إكثار النّساء هذا يعني إكثار السِّحْر، وإكثار الخادمات هذا معناه إكثار الفسق. (بحث الآباء ـ 7 II)[1]. ويُؤكِّد الميشنا: الذي يتحدَّث كثيراً إلى المرأة، فهُو يُؤذي نفسه، وهُو يترك كلمات التّوراة وينتهي بوراثة جهنَّم (1 بحث الآباء ـ 5)، تُبدي القوانين المُتعلِّقة بالزّواج تميزاً عنصُريّاً اجتماعيّاً مُمارساً من قبَل هذا المُجتمع، وبذلك؛ فإنَّ الـ tannaites وزَّعوا الشّعب الإسرائيلي إلى عشرة شرائح نسبيَّة: الكَهَنَة اللاَّويِّيْن ـ عوامّ الإسرائيليِّيْن ـ أولاد غير شرعيِّيْن ـ الكَهَنَة المُهتدين حديثاً من الوَثَنيَّة، المعتوقين، أولاد غير شرعيِّيْن، أولاد موهوبين، أولاد ذوي آباء غير معروفة، وأولاد لُقطاء.

فإذا استطاع المُهتدون حديثاً أنْ يتزوَّجوا من مُهتدين حديثين أو من أبناء غير شرعيِّيْن ـ لكنَّهم لن يستطيعوا ـ أنْ يتزوَّجوا من طبقة الكَهَنَة، وذلك على عكس العوامّ الإسرائيليِّيْن، فأولاد الزّنى والمهديُّون والأولاد غير الشّرعيِّيْن أو اللُّقطاء يُمنع عليهم الزّواج من طبقة الكَهَنَة، هذا أكيد، إنَّما ـ أيضاً ـ يُمنع عليهم اللاَّويُّون وعوامُّ الإسرائيليِّيْن، فالمازيريم mamzerim أبناء وُلدوا من زنى أو من محارم ليس لهم الحقُّ إلاَّ الزّواج فيما بينهم، وذلك حتَّى الجيل العاشر[2]، والمعيار الفيزيائي ـ أيضاً ـ يشترط رفض الذي يبعد عن الشّكل القانوني. فنعرف أنَّ العاجز ذا العاهة لا يستطيع أنْ يُصبح كاهناً حتَّى لو كان من الرّعيل السُّلالي الأوَّل، يتحدَّث فلافيُوس جُوزف عن الذين مُنعوا من مُمارسة الكَهَانة بالرّغم من أنَّهم من عائلة كَهَنُوتيَّة، وذلك بسبب عاهةٍ ما فيهم وكَهَنَة بدُون عيب هُم الذين يصعدون إلى مذبح الأضاحي وإلى هيكل (guerre حرب v 7 288 . 289). كذلك الأمر عند الآسينيِّيْن، فَهُم يُخرجون من طائفتهم كُلَّ شخص مُصاب بجلده أو مشلولة قدماه أو يداه، أعرج أو أعمى أو أخرس أو أطرش أو مصاب بجلده بعاهة واضحة للعيان (قاعدة مُلحقة 7 . 5 . 2)[3].

---

(1) ألبيركه ـ أفوت أو بحث الآباء، أُعيد نشره في إصدارات فيرديه (باريس 1990).

(2) ش تواتي.

(3) قاعدة مُلحقة لجمعيَّة قمران، الكتابات القمرانيَّة، موضوع التّرجمة منشورة في مكتبة البلياد، التّوراة كتابات

فالاختلاف الفيزيائي هُو ـ تماماً ـ كاختلاف التّصرُّفات يستوجب الإبعاد والرّفض، فبذلك إنَّ: الشُّذُوذ الجنسي: " إذا حصل وضبط ذَكَرٌ أو أنَّه يتحمَّل مثل ذلك الانتهاك فالعُقُوبة هي الموت"، هكذا يقول فلافيُوس جُوزف (215 II ca) أو الخطأة (الخاطئين) (أيْ الذين لا يُطيعون ولا يتّبعون قانون الطّهارة، ويتصرَّفون على هواهم مع تعليمات الشّريعة بحسب توراة أوستي): " ماذا! فهُو يأكل مع العشَّاريّن والخاطئين (مَرْقُس 16 . 2) العشَّارون هُم يهُود جُباة ضرائب ورُسُوم، جريمتهم أنَّهم وضعوا أنفسهم في خدمة الأجنبي، في هذه الحالة الرُّومان أجنبي مرفوض قطعاً. . . والذي يحمل عداء وضغينة، لذلك؛ فإنَّ هذا الأجنبي إنْ كان رُومانياً أو يُونانياً أو مصرياً يروي في كتاباته مطولاً عن عُنصُريَّة يهُوديَّة، وذلك في زمن مُبكِّر جداً، هذه الشّهادة لا يُستهان بها، ويجب أنْ لا نُبعدها عنَّا، إنَّها رُؤية من الخارج لواقع اجتماعي وإيديُولُوجي أساسي في الحياة اليهُوديَّة.

اليهُوديَّة والغَيْريَّة (والآخرون)

مصادر غير يهُوديَّة

لقد رأينا سابقاً أنَّ الرُّوماني كُورني cor neille وأهله وأصدقاؤه كانوا يعرفون النَّبذ الذين هُم واقعون فيه، كذلك السّامريَّة التي طلب منها المسيح ماء واندهشت - أو الكنعانيَّة - اليُونانيَّة من أصل سرياني - فينيقي حسب مَرْقُس التي قبلت التّصنيف الذي وضعته إسرائيل بين البشر، وذلك حتَّى تُشفى ابنتها على يد ابن داود، هُناك سبعون أُمَّة تعيش على الأرض، وأقدس هذه الأُمم هي إسرائيل، وأقدس قبيلة في إسرائيل هي اللاَّويّين، وبين هؤلاء أقدس إنسان هُو ا لكاهن الأكبر[1]. أنْ لا نجد في هذا التّصنيف التّنظيم الهندسي لمعبد أورشليم؟ هذه الكنعانيَّة تجد - بشكل عفوي - الكلمات اللاَّزمة: والمُحتمل أنَّها تعرفها جيِّداً، كونها قد تعرَّضت لها في حياتها اليوميَّة. هذه النّظرة اليهُوديَّة للطّاهر والنّجس، للسّليم والمُلوَّث، للخارج والدّاخل، فالنُّصُوص التّوراتيَّة القديمة ذاتها تُشير إلى أنَّ غير اليهُود لا يجهلون شيئاً عن التّمييز اليهُودي، فهامان - وهُو مُوظَّف كبير في بلاط أرتاكسيريس artaxeres - أعلم الملك أنَّ إسرائيل هي " شعب عُدواني، فهُو - بقوانينه - ضدَّ كُلّ الشُّعُوب، وأنَّ هذه الأُمَّة هي في صراع مع جميع البشر، وأنَّها تعيش حياة ترفة لوحدها وبحسب قوانينها (E III . 4 - 5 ST) فنحنُ في نظرهم لسنا سوى رجس مُخرِّب"، هكذا تقول السّجلاَّت الملكيَّة حسب التّلمُود[2]. هذا الانغلاق الذي يدينه هامان يجب أنْ يُبرِّر الإبادة: "*لذلك قرَّرنا - بالإجماع - إبادتهم من هذا العالم*".

كيف اضطلع هؤلاء الأجانب في فلسطين بمثل آليَّة الرّفض هذه؟ هل كان هذا الرّفض أحد أسباب مذابح اليهُود على يد اليُونان (سُوريّين - فينيقيّين، مُتهلينين) في قيصريَّة

---

(1) ورد من قبل أ - نيهير الهُويَّة اليهُوديَّة، باريس سيفير 1989.

(2) وكامي أقوال التّلمُود - باريس م ستوك - 1980.

عام 66؟ وإلى أيٍّ مدى: في أقلٍّ من ساعة ذبحوا عشرين ألفاً، ووُجدت المدينة بأكملها فارغة من كُلِّ اليهُود (فلافيُوس جُوزف: حرب 457II).

هل ساهم في إثارة تمرُّد الشّعب ضدَّ اليُونان عند موت هيرُود أو مذبحة اليُونان في طبريَّا عام 66؟ وبأيٍّ نسبة؟

بماذا يُحرِّك الانفصال اليهُودي الضُّغُوط الطّائفيَّة "انفصال" يعني استثناء تميز ذاتي - أو رفض - أيْ فصل الآخر واستثنائه؟

الأجنبي يبدو مُبعداً إلى خارج المعبد، كما طُرِدَوا خارج الأرض المُقدَّسة، وحتَّى أُبيدتْ شُعُوب المُدُن الهلينيسيَّة في زمن الحشمونيِّيْن. فصل أو رفض: هل هي مسألة علاقات قوى؟

ومن جهة الكُتَّاب القُدامى يبدو أنَّهم على علم بهذا الرّفض حتَّى لو أنَّهم لم يعيشوه. وهُو الذي سوف يُحرِّك - أساساً - مُناهضة اليهُوديَّة الوَثَنيَّة. فإلى المصادر اليهُوديَّة تُضاف مصادر غير يهُوديَّة تُؤكِّدها وتُعزِّزها (العهد الجديد، الميشنا، هندسة المعبد العُمرانيَّة، القواعد للأسينيِّيْن، فلافيُوس جُوزف) كُلُّها تدلُّ أنَّ الاختلاف هُو بالنّسبة لقطاع كبير من المُجتمع اليهُودي تلوُّث أكثر منه غنىً.

مانيتون Manethon وهُو كاهن كبير في هيليو بوليس يتكلَّم من وقتها في القرن الثّالث وفي تاريخ مصر مكتوبٌ باليُونانيَّة عن أُناسٍ (ينسبهم جُوزف - خطأً - بالعبرانيِّيْن) تقضي شريعتهم " ألاَّ يعبدوا آلهة، وألاَّ يمتنعوا عن أيٍّ من الحيوانات التي تجعلها الشّريعة الإلهيَّة مُقدَّسة في مصر، وذبحها كُلّها وأكلها. . ".

وما يهمُّنا خُصُوصاً "ألاَّ يُتزوَّج إلا برجال مُرتبطين بنفس العهد (فلافيُوس جُوزف C.A.I. 239).

"هيكاته دابدير" هُو كاتب يُوناني يُعتبَر جيِّداً - بشكل عامٍّ - بالنّسبة لليهُود[1]. فهُو مذكور من قبَل "ديُودُور دي سيسيل". فهُو كان يعيش في مصر في القرن الثّالث. ويُؤكِّد بأنَّ

(1) ل - بُولياكُوف - تاريخ اللاَّساميَّة - جُزء أوَّل، باريس كالمان - ليفي 1981.

مُوسى كونه كان في مصر نتيجة الإجراءات ضدَّ الأجانب، أَسَّس نوعاً من الحياة الكارهة للمُجتمع وللبشر[1] والكارهة للأجانب.

" فجُول إسحق " يرى بذلك إشارة واضحة للانعزال اليهُودي دُون تحيُّز نقدي.[2]

مع " بُوزيدُونيُوس " تمَّ رسم الخُطُوات الأُولى لمُناهضة السّاميَّة الأزليَّة، وذلك حسب "جُول إسحق". " بُوزيدُونيُوس " هُو يُوناني من أُصُول سُوريَّة، وُلد في أفاميا حوالي عام 135 قبل عصرنا. أَسَّس في رُودس مدرسة فلسفيَّة، وكان بين تلامذته شيشرُون وبُومبي. وهُو مُؤلِّف كتاب " تاريخ " في 52 كتاب يُتمِّم فيهم عمل بُوليب. مات في رُوما عام 51 ق. م. وهُو لم يذكر شيئاً غير الذي ذكره هيكاتيه " بالنِّسبة للانعزال اليهُودي. فهُو يُؤكِّد: الوحيدون بين جميع الشُّعُوب الذين كانوا يرفضون أنْ يكون لهم أيُّ علاقة مع مُجتمع الآخرين، إذْ كانوا يعتبرون الجميع كأعداء "، وفي مكان آخر يتحدَّث عن مُوسى(*) "مُؤسِّس أُورشليم ومُنظِّم الشّعب هُو الذي أعطى اليهُود قوانين حرَّضتهم على كُره البشر وعلى الانحراف..".

وفي الفترة نفسها؛ هُناك " أبُولينُوس مولون " اتَّهم اليهُود بكُره البشر، وذلك حسب جُوزف (C.A.II 148) وعدم استقبالهم - فيما بينهم - الأشخاص الذين خضعوا سابقاً لمُعتقدات دينيَّة أُخرى وعدم قبُول الاجتماع مع الذين يُفضِّلون عادات أُخرى في الحياة. (C.A.II 258).

أمَّا " ليزيماك " - وهُو كاتب إسكندري عاش في حوالي القرن الثّاني - ؛ فقد كَتَبَ من جهته والحديث - دوماً - حسب جُوزف: ***لقد نصحهم مُوسى... ألاَّ يكون عندهم رفق بأيِّ إنسان، وألاَّ ينصحون أحداً بالجانب الحَسَن، إنَّما بالأسوأ، وأنْ يُهدِّموا المعابد وهياكل الآلهة التي يُقابلونها.***

---

(1) كتابات المُؤلِّفين اليُونان والرُّومان حول اليهُوديَّة واليهُود التي نُوردها جُمعت من قبَل ت - رايناخ في: "نُصُوص كتاب اليُونان والرُّومان المُتعلِّقة باليهُوديَّة " - باريس 1895 - نجدها في مُعظم الأعمال التي تُعالج اللاّساميَّة في العُصُور القديمة (مثلاً بُولياكُوف (أوب سيت) أو إسحق (أوب - سيت).

(2) ج إسحق - أوب سيت.

(*) النّبي هُو الذي ينقل للبشر مفهوم المحبَّة والرّحمة والتّآخي، ولا يُمكن أنْ يُحرِّض على كُره البشر والانحراف كما هُو مذكور في النُّصُوص المُحرَّفة من قبَل الكَتَبَة والأحبار.

فالآخرون وافقوا و . . . هُم مُحقِّرين النّاس، ناهبين وحارقين المعابد، أتوا إلى البلد المُسمَّى اليوم اليهُوديَّة، وبنوا مدينة واستقرّوا (C.A.I 305 - 310).

من كتابات أبيون ضدَّ اليهُود لم يصلنا شيء، ويجب - دوماً - العودة إلى ما يقوله فلافيُوس جُوزف. وبحسب جُوزف؛ وُلد " درومون في الإسكندريَّة " في مصر، وهُو خطيب يُوناني ومُواطن في هذه المدينة. هُو النّاطق بلسان البعثة الوَثَنيَّة المُرسلة إلى رُوما بعد الاضطرابات التي قامت في الإسكندريَّة في 88 من عصرنا، والتي تَوَاجه فيها يهُود وغير يهُود. بالمُقابل له؛ كان الشّريف "فيلُون". ومن بين الاتِّهامات التي رفعها " أبيون " ضدَّ اليهُود هي كُرههم للأجنبي؛ وخُصُوصاً اليُونان. وقد زعم أبيون - فعلاً - أنَّ اليهُود يُؤدُّون قَسَماً يحلفون فيه ألاَّ يُبدون أيَّ رفق تجاه أيِّ أجنبي، لكنْ؛ خُصُوصاً ضدَّ اليُونان (C.A.II 121).

الحُكْم نفسه كان من قبَل "كنتيليان " وهُو خطيب لاتيني من القرن الأوَّل، وُلد في كالاغُوريس ناسيكا في إيبيريا، فهُو تحدَّث عن " أُمَّة ضارَّة بالآخرين " (Institutio oratoria III 7.21).

أمَّا " تاسيت " Tacite ؛ فهُو مُؤرِّخ قد تعود أُصُوله إلى بلاد الغال gaule (55 v. - v. 120) وقد صاغ في كتابه الخامس من كُتُبه تاريخ Histoire، وهُو كتاب يعود إلى السّنين الأُولى من القرن الثّاني وُجهة نظر مُماثلة: " اليهُود . . عندهم فيما بينهم تعلُّق عنيد، وعندهم رحمة قويَّة نشيطة تتناقض مع البُغْض الثّابت الذي (يُكنُّونه) لباقي البشر.

فَهُم لا يأكلون أبداً، ولا ينامون أبداً مع أجانب، وهذا العرْق ولو أنَّه يميل إلى فسق يمتنع عن أيِّ زنى مع النّساء الأجنبيَّات . . "

بالنّسبة " لتاسيت " إن اليهُود يستخدمون الختان ليُبرزوا اختلافهم عن الآخر؛ " لقد وضعوا ختان الأعضاء الجنسيَّة حتَّى يُعرَفوا بهذا الاختلاف (Histoire V 5.4).

وجُوفينال شاعر لاتيني عاش سابقاً عصره، وذلك في القرن الأوَّل والثّاني من عصرنا هذا شرح وُجهة نظر مُماثلة: " نشأ في كُره القوانين الرُّومانيَّة وهُو [ابن الذين يخافون الله] لا يتعلَّم ولا يُطيع ولا يُقدِّس إلا القانون اليهُودي، كُلّ ما نقله مُوسى إلى مُؤمنيه، وذلك في

كتاب عجيب: المُسافر الذي لا يُمارس نفس الطُّقُوس " لا تدلُّه على الطّريق ا الصحيح: لا تدلَّ على نبع الماء إلا " المُختتنين " فقط (satires XVI) (أيْ هجائيَّات). لنختم هذا التّعداد " بفيلُو سترات الأثيني " وهُو سفسطائي يُوناني (V. 175 – V 249) علَّم البيان في أثينا، ثُمَّ عاش في رُوما. ففي مُؤلَّفه " حياة أبولُوينُوس دي يتان " كَتَبَ: " ***هذا الشّعب [اليهُود] قد انتفضوا مُنذُ مُدَّة طويلة، ليس - فقط - ضدَّ الرُّومان، إنَّما ضدَّ البشريَّة بأكملها، أشخاص تصوَّروا الحياة وحدهم في عُزلة لا يُشاركون أمثالهم، لا المائدة ولا الخمر ولا الصّلوات ولا الأضاحي، هُم بعيدون عنها من بُعْد سوزا وباكتارا أو من الهند أو أبعد بكثير.*** ونرى هذه التُّهمة بالغَيْريَّة المَرَضيَّة وبحسب (جُول إسحق)[1] " هي الوحيدة التي لها قيمة، وليست بدُون أساس " تجوب القُرُون الوُسْطى وتظهر في بلاد عديدة " بلاد فارس، مصر، اليُونان، رُوما، وحتَّى فلسطين وعند الكثير من الكتاب "هيكاته دابدير ديودوري سيسيل، فيلو ستارت، تروغ بُومبي، جوفنال، تاسيت " وبحسب بُولياكُوف[2] آخرون - أيضاً - قد عرفناهم . . ج إيزنبرغ: الانطوائيَّة: هي رفض الاختلاط بالآخرين (AMIXIA) شعُور عدائي سريع بكُره الآخرين (MISOXENIA) وحتَّى للجنس البشري (MISANTHROPIA) هذا هُو المطعن الرّئيسي الذي يملأ كُلَّ الأدب اليُوناني - الرُّوماني[3] غير أنَّ هذا الاتِّهام في كُره البشر والذي ظهر في العالم اليُوناني - الرُّوماني في حوالي القرن الثّالث ق. م، وذلك حسب جُول إسحق يُوحي بتطوُّر الفكرة التي كوَّنها القُدماء عن اليهُود واليهُوديَّة؛ أيْ الدِّين اليهُودي.

في الواقع؛ إذا نحنُ لم نجد أيَّ إشارة عن اليهُود عند "هيرُودُوت" ولا "أفلاطُون" ولا "أرسطو" نجد في القرن الرّابع "تيُوفراست" يُؤكِّد أنَّ سُكَّان اليهُوديَّة هُم "فلاسفة أصليُّون"، وأنَّ الفلاسفة في سُوريَّة يُدعون "يهُوديِّين"(*) وذلك نسبة إلى اسم البلد الذي يسكنونه؛ هؤلاء اليهُوديُّون هُم "سليلو فلاسفة الهند"، وذلك حسب كليارك؛ ويُؤكِّد "فيغاستين" أنَّ براخمان الهند يُصنِّفون اليهُوديِّين بين الفلاسفة الغريبين عن اليُونان.

---

(1) ج إسحق ON IT.

(2) بوليكوف.

(3) إيزنبرغ تاريخ اليهُود، باريس س - 1 - ل 1970.

(*) توضيح: اليهُوديُّون سُكَّان منطقة اليهُوديَّة تاريخياً، وحسب مرجعه التّاريخي كان يقطنها مجمُوعة من اليهُود.

هذه الصُّورة الإيجابيَّة عن اليهُود "كشعب فيلسوف تُعطي مكانها مُنذُ القرن الثّالث إلى صُورة سلبيَّة"؛ ظُهُور هجائيَّات ساخرة تتعلَّق بأصل اليهُود، وهي مُعاصرة - تقريباً - لنُشُوء اليهُوديَّة الإسكندرانيَّة (إيزنبرغ)[1].

بماذا تغيَّرت الأُمُور حتَّى طرأ هذا التّعديل على هذه الصُّورة؟ بين الصُّورة الإيجابيَّة لليهُوديَّة وصُورتها السّلبيَّة يُوجد الإسكندر: التّماس بين العالم اليُوناني والعالم اليهُودي التّهليُن وشتات اليهُود في كُلِّ الشّرق وخُصُوصاً في الإسكندريَّة؛ حيثُ استوطنوا مُنذُ تأسيسها، ومُنذُ القرن الثّاني هاجروا إلى الغرب: فاستوطنوا في اليُونان وفي آسيا الصُّغرى إيطاليا، وسيسيليا، وسردينيا، وإسبانيا... واعتباراً من ذلك الوقت؛ لم يعد اليهُودي فيلسوفاً معنويّاً؛ إنَّه حاضر تحت أنظار الغَيْريَّة اليُونانيَّة - الرُّومانيَّة التي سوف تُدين تصرُّفه (والعكس صحيح)، وهذا ما تغيَّر.

فلا نستطيع أنْ نُلغي بضربة واحدة الانتقادات التي صاغها الكتاب الوَثَنيُّون، ونضعها في خانة الكتابات الشّائنة، بعضها مُحقٌّ، والبعض الآخر قد يكون مُجاوزاً للحَدِّ.

إذاً؛ ماذا يُبرِّر هذه الشّائنة؟ الاغتياب أم مُناهضة السّاميَّة أم نقص المعلومات؟

إذا كان ذلك نقصاً في المعلومات فكيف نُفسِّر أنَّ "أبيون" يشهد عن حقيقة القتل الطَّقْسي، و (بترون PETRONE) يُؤكِّد أنَّ اليهُود يعبدون (أُلُوهيَّة الخنزير) و(تاسيت) يروي أنَّ اليهُود يُولون عبادة للحمار. هل كُلُّ هؤلاء الأشخاص والذين هُم من كبار العُقُول في زمانهم يُمكن أنْ يكونوا قد استعلموا خطأً حول هذه الدّيانة نيقة عن مجمُوع الذين يخافون الله والذين يتهافتون على أعتاب اليهُوديَّة؟ (جُوزف C.A.II 282) إذا كان الأمر اغتياباً، كيف نُفسِّر انتشاره بهذه الفظاظة حتَّى أصبح يُعرف بهذه الصّفات؟ ولَّما كان هُناك كثير من النّاس قد انجذبوا لليهُوديَّة أ ليس لأنَّ هذه الدّيانة قد عرَّفت بنفسها؟.

في حقيقة الأمر؛ عندما نتفحَّص الأُمُور عن قُرب، نجد أنَّ الكُتَّاب القُدامى هُم على علم أفضل حول المظاهر الاجتماعيَّة لليهُوديَّة (الانفصال، التّضامن الطّائفي، السّبت، . .) من أُسُسها الدِّينيَّة (فبالنِّسبة للبعض؛ إنَّ ديانة إسرائيل هي "مُعتقد باطل" (سيشرُون)،

---

(1) إيزنبرغ ON IT.

وبالنِّسبة لآخرين هي إلحاد (أبُولُونيُوس مولُون). ووحدة الوُجُود (سترابُون) حتَّى إنَّها طَقْس بربريٌّ لا يكترث بالأضاحي البشريَّة. .)، ألم يحصل للمُهتدين الجُدُد أنفسهم هذا الأمر؟. وهؤلاء ألم ينجذبوا أكثر فأكثر من قِبَل هذه الدّيانة الغريبة والغامضة، طائفة مُتضامنة، مصلحة ماديَّة، النّظرة إلى السّبت، وبتوراة تعمَّقوا فيها نظريّاً؟ ("إيزنبرغ": إنَّه الزّمن؛ حيثُ يُشَكِّل الكائن اليهُودي مصلحة عوضاً عن عاهة[1].) ويقولون مثلاً إنَّ اليهُوديَّة بها سُلطان على النّساء، ونذكر بُوبي POPEE، لكنْ؛ دُون أنْ نُقلِّل من قيمة قانون التّبعيَّة للمرأة في العالم اليُوناني - الرُّوماني، هل يُمكن لنا أنْ نتخيَّل أنَّ أثينيَّة تيهُودت وتُعرف حقّاً أنَّها عند اليهُود سوف تكون بمثابة شيء من المُمتلكات، وهي التي تستطيع أنْ تُصبح كاهنة في أثينا؟. وهذه النّبيلة الرُّومانيَّة المُسمَّاة "فُولفيا" والتي يتحدَّث عنها (جُوزف A.J.XVIII 82) وهي التي تستطيع أنْ تُطلِّق زوجها كما فعلت ذلك سبع مرَّات، هذه الزّوجة التي يدلُّ عليها "جُوفينال"[2] بالإصبع، هل تعلم أنَّها - في طائفتها الجديدة - سوف تؤول إلى شقيق زوجها عندما يُتوفَّى هذا؟ هل هي الشّريعة اليهُوديَّة التي تجتذب المُهتدي؟ وهُو ماذا يعرف عنها؟ أهي الصُّورة المُشوَّهة ليهُوديَّة مُتحيِّزة ومُتضامنة؟ هُنا؛ يطرح السُّؤال نفسه؛ وهُو عن واقع الاهتداء إلى اليهُوديَّة: إذا اتضح أنَّ العلاَّمة مثل المُهتدي يجهلون كُلَّ شيء تقريباً عن داخل اليهُوديَّة، ولا يعرفون إلا المظهر الخارجي والمرئي المنظور من الخارج، ألا يجب إعادة النّظر بوُجُود مثل هذا النّشاط الرّسولي اليهُودي، أو على الأقلِّ بفعاليَّته؟ يُمكننا - كذلك - أنْ نتساءل حول دوافع الرّسالة، إذا كان هُناك رسالة تُعلِّم السّبت مثلاً دُون أنْ تُعلِّم اللاّهوت الذي يدعمه، الشّريعة التي تأمر به، وبعد ذلك الإله الذي أسَّسه؟.

لكنْ؛ هل يستطيع اليهُودي أنْ يكشف عن التّوراة للأجنبي: "وبذلك سأكشف أنا بنفسي للكنعانيَّة وصايا الله وأسرار يعقُوب أبي "والتي منعني الله من الكشف عنها". (عهد يهُوذا 4, XIV).

من الطّبيعي أنَّنا لن نستطيع لا تعليم، ولا فَهْم السّبت، ولا القوانين الغذائيَّة، ولا الختان، ولا التّضامن الطّائفي، ولا رفض الأجنبي، دُون اللُّجوء للتّوراة. لكنْ؛ أنْ تكون التّوراة مجهولة من عدد كبير من المُتيهودين، هذا أمر مُحتمل، وأنْ تكون قد طبعت المُجتمع اليهُودي للقرن الأوَّل، هذا أكيد بدُون شكٍّ: هذا يعني تمجيد ذكرى إبراهيم عندما نحترمها.

---

(1) إيزنبرغ.
(2) سُارد من قبَل كاركُوبينُو، الحياة اليوميَّة في رُوما في أوج الإمبراطُوريَّة، باريس، هاشيت 1939.

يهُوديَّة وغَيْريَّة

ذكرى إبراهيم

المصادر اليهُوديَّة والمصادر غير اليهُوديَّة تبدو مُؤكِّدة رفض اليهُود للغَيْريَّة ؛ أيْ للآخرين. هذا الموقف الغَيْري المَرَضي هُو ظاهرة تاريخيَّة حدَّدت ـ بشكل كبير ـ حياة اليهُود وعلاقاتهم مع الآخرين.

ما هي العلاقة التي يُمكن أنْ نُحدِّدها ـ مثلاً ـ بين الحرب الأُولى لليهُود ضدَّ الرُّومان، وهذا التّشنج على الذّات والكاره للأجانب؟ حتماً في العُقُود التي سبقت هذه الحرب نُلاحظ ازدياداً كبيراً في ظاهرة الرّفض، ازدياداً مُماثلاً للّذي عرفته الفترة المكابيَّة. فمثلاً؛ رأينا أنَّ الأجنبي الذي يتعرَّض لغرامة بسيطة لاجتيازه حَرَمَ المعبد المُقدَّس يُحكَم عليه بالعُقُوبة القُصوى اعتباراً من زمن هيرُود (حوالي عام 15) (أي 6 من عصرنا) وقد أسَّس " يهُوذا الجليلي " باسم الحماس للشّريعة حركة "(الزّيلوت) المُتحمِّسين" zÉLOTE " لمُقاومة الرُّومان. وفي عام 58، اتُّهِم "بُولُس" أنَّه جعل غريباً يجتاز حاجز المعبد (أعمال 29 . 28 . 21) وبفترة قليلة قبل بداية الحرب اتُّخذ ثمانية عشر إجراء لإقامة حاجز طَقْسي شعائري بين اليهُود والأجانب، وانفجرت حوادث بين يهُود وغير يهُود عام 66، وامتدَّت في المُدُن كُلِّها، وفي العام نفسه مَنَعَ " إليعازر" الأضاحي المُقدَّمة من الأجانب، وهذا ما كان سبب الحرب. . . بحسب (جُوزف) هذه الفترة تُشبه فترة المَدِّ الدِّيني المُتصاعد، وذلك حسب تعبير استخدمه " بيير شُونُو " في موضوع القرن السّادس عشر.

أمَّا فيدال ناكيه؛ فيتحدَّث عن تطوُّر وانطلاق شَرْعَوي عند موت هيرُود.[1]

وقد أصبح مَرَض الأيقونة (الصُّور) مُلحّاً[2] أكثر فأكثر، لكنْ؛ ليس في التَّيَّار اللِّيبرالي المُتهلين. وقد ثاروا عندما أدخل بيلاطس النّبطي إلى أُورشليم شعارات تحمل الختم الإمبراطُوري (جُوزف: حرب 169 ـ 170II).

---

(1) فيدال ناكيه.

(2) انظر. ب بريجنت، الصُّورة في اليهُوديَّة، جنيف ـ لابور وفيديس 1931.

وبشكل عامٍّ؛ فإنَّ الرُّومان يحترمون هذه العـادات: فمثلاً؛ إنَّ "فيتـالُوس" الحـاكم فـي سُوريًا عام 35 ـ 39، أرجع فرقه من اليهُوديَّة حتَّى لا تُصدم مشاعر اليـهُود وحساسيَّتهم مـن الصُّور التي على الرّايَات.

والمغزى أنَّ التيَّارات السّياسيَّة الكبيرة الأربعـة والتـي أثبتـت حُضُورهـا عنـد اليـهُود هـي تيَّارات مُتجذِّرة في الميدان الدِّيني ومُنقسمة حول هذا الموضوع:

التَّيَّار الصَّدوقي: يُمثِّل الأرستقراطيَّة الكَهَنُوتيَّـة، ويُثبِّـت أولويَّـة الشّريعة المكتوبـة التـي هي وحدها السُّلطة. ويتعلَّق الصّدوقيُّـون بـالطَّقْس والتّضحيـة، وهُـم " لا يُؤمنـون بالقيامـة " ويُدافعون عن النّظام القائم.

التَّيَّار الفرِّيسي: يتناقضون مع الصّدوقيِّين، ويجدون أتباعهم بين الحرفيِّيــن، التُّجَّـار، الوُجهاء، ويحترمون ـ أيضاً ـ سُلطة الشّريعة الشّفهيَّة. وكلمة فرِّيسي تعني ـ حَرْفيَّاً ـ (المُتفـرِّد ـ المُنعزل)، وهُو يُؤمن بالقيامة، ويُعلِّم في الكنيس. هُو رابـيّ (أيْ مُعلِّمـي فـي الآراميَّـة؛ ربّ في العبريَّة). وأشهرهم في القرن الأوَّل هُو هلِّيل.

التَّيَّار الآسيني: فـهُو يُقيـم بعيـداً عـن معبـد أُورشليم؛ لأنَّ ـ مـن وُجهـة نظرهـم ـ هُـو مخدوم من قبَل كَهَنَة غـير جديريـن. ويعتقـد الآسـينيُّون أنَّـهم يُؤلِّفـون طائفـة مـن الأطـهار، يُمكن لها أنْ تحترم الحُضُور الإلهي.

التَّيَّار الحماسي: "الفلسفة الرّابعة" كما سمَّاها فلافيُوس جُوزف، يتألَّف هذا التَّيَّـار التَّقـي من الفلاَّحين والعُمَّال بشكل أساسي، وهُو يتأمَّل دَحْرَ الرُّومان فقط باسم ملكيَّة الله على اليهُود.

هُناك تيَّارات أُخرى تُضـاف إلـى هـذه التَّيَّارات الرّئيسـة، لكنَّـها أكثر هامشيَّة مـن تيَّـار " الـهافيريم "، والـذي يدَّعـي أتباعـه أنَّـهم يُطبِّقـون ـ بدقَّـة فائقـة ـ القواعـد المُتعلِّقـة بالطَّـهارة الطَّقْسيَّة، وخُصُوصاً أثناء وجبات الطّعام، أو التَّيَّار المسيحي الـذي يُؤكِّـد باعثـه: لا تعتقـدوا أنِّي جئت لأُناقض الشّريعة أو الأنبياء، ما جئتُ لأنقض، بل لأُتمِّم (متَّى 5 . 17).

مناخ ديني إذاً؛ الهدف: إتمام التّوراة وحمايتها: ويقول الميشنا: اصنعوا حاجزاً للتّـوراة (ببركة أفوت) (بحث الآباء).

"العادل يعيش بإيمانه" (هاب 2. 4)، فيجب على الإنسان أنْ يهتمَّ دائماً بالتّوراة ووصاياها. (شابات 302)، بالنّسبة للوصايا يعد التّلمُود ستمائة وثلاث عشر وصيَّة. ستمائة وثلاث عشر نصيحة وتحريم، تُنظِّم، وتُؤطِّر، وتُمنهج، وتُهذِّب حياة الفرد مُنذُ ولادته حتَّى مماته، اعتباراً من أُسلُوبه في الصّلاة إلى مُمارسة الحُبِّ، إلى هندامه، تصرُّفه مع المرأة أثناء الحيض (نيدا)، المرأة التي يتزوَّجها أم لا، أُسلُوب تربية الأطفال الذين يُولدون... ولا يكفي أنْ تُنَفَّذ الوصيَّة، بل يجب أنْ تكون مقبولة من أعماق النَّفْس:

"هذه الأقوال التي أقولها لكم، ضعوها في قُلُوبكم وفي عُقُولكم" (سفْر تثنية الاشتراع 18. 11) هكذا يقول يَهْوَه. سوف تُعلِّمونها لأبنائكم، هكذا يأمر، وفي كُلِّ أوقات النّهار: سوف تكتبونها على أعمدة بُيُوتكم وعلى أبوابكم، علِّقوها كعلامة على يدكم، فهي تُفيد كفاتحة بين أعينكم (سفْر تثنية الاشتراع 20. 18. 11). فالشّريعة هي كُلِّيَّة الوُجُود. يجب - إذاً - الخُضُوع "لنير التّوراة": مَنْ يقبل بنير التّوراة يتحرَّر من نير الأمير ونير حاجات العالم. لكنَّ الذي يتحرَّر من نير التّوراة يتعيَّن عليه نير الأمير ونير حاجات العالم. (pirke avot III5 بيركيه آفوت)، ففي هذا النّصِّ يُمنع على الذّهن أنْ يلهو أو أنْ يُفتن بجمال العالم؛ مثلاً: "الذي يذهب في طريق وهُو يُردِّد درسه، ثُمَّ يتوقَّف ليقول: يا للشّجرة الجميلة! أو يا للحرث الجميل!: فيحسب له الكتاب وكأنَّه أذنب في نفسه" (pirque avol III7)، وفي الفلسفة اليُونانيَّة: "ابحث في أيِّ ساعة لا يكون نهار ولا ليل، وخصِّص تلك السّاعة لدراسة الفلسفة اليُونانيَّة". (menakhoth 99 b) وحتَّى للمائدة الجيِّدة: إن كان هُناك ثلاث أشخاص يأكلون على المائدة نفسها، ولا يقولون كلاماً من التّوراة يكون ذلك وكأنَّهم يأكلون أضحية أموات (بيركيه آفوت III.3)؛ التّوراة تغار، ولا تتردَّد في تأسيس سُلطانها حول الخشية (أو المخافة) مفهوم توراتي أساسي ("مبدأ الحكمة هُو مخافة يَهْوَه. والعاقلون هُم الذين يُمارسونها. مزامير (111. 15) "الإنسان الذي مخافته من الخطيئة تسبق الحكمة، حكمته تدوم. أمَّا الذي بالنّسبة له الحكمة تسبق المخافة من الخطيئة؛ فإنَّ حكمته لا تدوم" (pirque avot III,q) "ولتُؤثِّر فيكم خشية السّماوات" (pirque avot 1.3) (مبحث الآباء) (بيركيه آفوت).

فالنّظام القمعي الذي أُقيم وضع الشّريعة وكأنّها الهدف الوحيد لحياة اليهُودي: "إذا درستَ التّوراة كثيراً لا تجعل لنفسك استحقاقاً نَفْسيّاً، لقد خُلقت من أجل ذلك (pirque avot 11.8)" اجعل من توراتك اهتمامك الثّابت (pirque avot 1.15) إذْ إنَّ "الذي يُهمل أقوال التّوراة ينتهي بأنْ يستحقَّ جهنَّم" (pirque avot 1.5) "الذي لا يدرس مُستحقٌّ الموت" (pirque avot 1.13)، لذلك يجب "مُضاعفة التّعليم" (pirque avot 11.7) "دراسة التّوراة هي - لكُلِّ شخص - واجب"؛ هكذا يقول راشي في تعليقه على الميشنا 8، الفصل الثّاني من "دراسة الآباء". وهي واجب صارم بما أنَّه حسب الميشنا: "الذي ينسى شيئاً واحداً من الذي تعلَّمه فالكتاب يحسبه له وكأنَّه أخطأ في نفسه" (pirque avot 111.8)، وهُناك توضيح آخر لانكفاء الهُويَّة نفَّذه في المُجتمع اليهُودي في القرن الأوَّل صديق لفلافيُوس جُوزف الذي بادر وأسَّس أوَّل شبكة مدرسيَّة لتعليم التّوراة وذلك حسب التّلمُود. واسم هذا الشّخص في الحقيقة هُو "يشوع بن كامالا" وهُو يستحقُّ أنْ يُبارَك، إذْ بدُونه كانت التّوراة نُسيت في إسرائيل. في الماضي كان للولد أبٌ يُدرِّسه، فإذا لم يكن لديه أبٌ لم يكن يتلقَّى تعليماً. لذلك أقرّوا أنَّه يجب إيجاد مُعلِّمين في كُلِّ منطقة، وأنَّ على الصّبيان أنْ يرتادوا المدرسة في عُمر السّادسة عشر أو السّابعة عشر.

وهذا ما فعلوه، لكنْ؛ إذا عاقبهم المُعلِّم كانوا يثورون ويتركون المدرسة. وأخيراً؛ قرَّر "يشُوع بن كامالا" أنَّه يجب تعيين مُعلِّمين للمدارس في كُلِّ قرية، وأنَّه على الأطفال أنْ يرتادوا المدرسة من عُمر السِّتِّ سنوات[1] أو السّبع سنوات. وفي الميشنا "بيركه أفوت PIRQUE AVOT" تُؤكِّد: في سنِّ الخمس سنوات يكون الإنسان جاهزاً للكتاب، وفي سنِّ العاشرة للميشنا، وفي سنِّ الثّالثة عشر للوصايا. " (بيركه أفوت 7 . 21).

يشهد فلافيُوس جُوزف - بدوره - عن انطباع المُجتمع اليهُودي بالتّوراة: لنسأل عندنا عن الشّرائع للقادم الأوَّل، سوف يتلوها لك كُلّها أسهل من اسمه الشّخصي. وبذلك؛ ومُنذُ وعي الذّكاء تكون الدّراسة المُعمَّقة للشّرائع حُفرت في نُفُوسنا: نادراً ما يُخالفها أحد، ولن يكون هُناك أيُّ عُذر يشفع عند العُقُوبة الكُبرى" (C.a.II 178).

---

(1) تلمُود بابا باترا، T21 من قِبَل م. هاداس يوبل في فلافيُوس جُوزف، فايار - باريس 1989.

نادراً ما يُخالفها أحد. . . وبحسب كُلِّ الاحتمالات؛ فإنَّ استبعادات الأجنبي والمرأة والعاجز... هي ليست ضدَّ الشّريعة. وعندها نتساءل: إنْ لم تكن ضدَّ الشّريعة أ ليست هي شرع؟ هذه الإقصاءات هي منهجيَّة جداً في الواقع، ومُنظَّمة، ولا يُمكن إلا أنْ تكون آليَّتها مباشرة، فالشّريعة مالئة كُلَّ ميدان تصرُّفات اليهُودي، فكيف لا يكون لها قوانين تُنظِّم موقف الإسرائيلي تجاه الغَيْر.

فبالشّريعة ينعزل اليهُودي، ويُصبح "آخر" (نيهير: *عُزلة طقسيَّة وكَهَنُوتيَّة أوَّلاً بإطاعة شرع، وتوراة مُختلفة عن كُلِّ الآخرين تمنع اليهُودي ابن إسرائيل من الأكل على مائدة واحدة مع الجميع. . .*). [1]

فسوف نتحقَّق في القسم الأوَّل من النّظريَّة التي هي الأساس الشّرعي للاستبعاد. سوف يكون مرجعنا التّوراة العبرانيَّة: يعني التّوراة فقط (أيْ الكُتُب الخمسة للتّوراة: "سفر التّكوين، الخُرُوج، الأحبار، العدد، سفْر تثنية الاشتراع"، ومن الأنبياء "الأنبياء: يشُوع وحُكماء، وكتابَيْ صمُوئيل، وكتابَيْ المُلُوك، وآخر الأنبياء: أشَعيًا، إرْميا، حَزْقيال، والأنبياء الاثنَيْ عشر الصّغار: الكتيوبيم، ويُسمّون هاجيوغراف (مزامير، أمثال، أيُّوب، نشيد الأناشيد، روث، كَهَنَة، أسْتِيْر، دانيال، عَزْرَا")، وسوف لن تُوفَّر الكُتُب المُبعدة من القانون العبري: باروخ، ماكابي I و II، وكذلك بعض أجزاء من كتاب أسْتيْر ودانيال). هذه النُّصُوص التّوراتيَّة القديمة تُؤلِّف مراجعاً تُظهر العقل وذهنيَّة الحقبة من جهة، ومن جهة أُخرى؛ تمتلك القيمة الحقيقيَّة المعياريَّة لمادَّة الإيمان: وهي لم تُبعد عن القانون الرّسمي الكَنَسي إلاَّ في سنودس جبنة في أعوام 96 و 100 من عصرنا. سوف نعود أيضاً - وللأسباب نفسها - إلى الكتابات القمرانيَّة "كتابات في التّوراة" والمنقوشات المنحولة من العهد القديم.

وسوف نُحاول - في الجُزء الثّاني - أنْ نبحث ونُحلِّل مُختلف الأصداء التي بعثتها هذه الغَيْريَّة المَرَضيَّة التّوراتيَّة في أعمال جُوزف.

---

(1) آ- نيهير ON IT.

الفصل الأوَّل:

مُجتمع مُنفصل أو مُنعزل

تبدو كتابات العهد القديم وكأنَّها تُقدِّم عالماً تحتلُّ فيه السُّلالة مكاناً بارزاً وسائداً ومُقرِّراً لمصير الأفراد والشُّعُوب.

فإذا كانت فكرة النُّشُوء الآدمي الواحد لمجمُوع البشريَّة قد ثبت، فإنَّ نُصُوص سفر التَّكوين تعرض نوعاً بشريّاً جذريّاً بدأ تشكُّله اعتباراً من نُوح.

هذا التَّنوُّع يبدو وكأنَّه مُحرِّك لتاريخ اليهُود والعالم؛ فإسرائيل - بمُقاومتها للآخر - سوف تتعلَّق إلى الأبد بالموقف الرَّحيم ليَهْوَه، أمَّا الآخر؛ فبخُضُوعه لإسرائيل عندئذٍ لن يُقتَل، ولن يُباد.

فالتَّنوُّع البشري الذي تُوضحه فترة بُرج بابل وتشتُّت الشُّعُوب هُو فكرة أساسيَّة(مفتاح) في اليهُوديَّة، هذا ما يُؤكِّده "أندريه نيهير" أحد كبار المُفكِّرين المُعاصرين في اليهُوديَّة (تقسيم البشريَّة إلى شعُوب نوعيَّة هُو أحد المبادئ الأساسيَّة لنظرة اليهُود للعالم).[1]

لكنَّ هذا التَّقسيم ليس حياديّاً؛ إنَّه تسلسليٌّ. فبالنِّسبة "لنيهير"، إنسان يهُودي هُو على عكس البشريَّة الحياديَّة؛ إنَّه الإنسان الآخر، إنسان ليس كالآخرين.

إنَّها النَّظرة الإلهيَّة التي تجعل من اليهُودي شيئاً غير عادي، ليس إنساناً بالمعنى الأرضي أو التَّقني أو بالمعنى التَّافه للكلمة، إنَّها تُكلِّله بقداسة مثاليَّة[2]. بالنِّسبة لنيهير؛ إنَّ اليهُود[*]

---

(1) آ- نيهير، أُلوهيَّة اليهُوديَّة، باريس، سيفير 1989.

(2) آ. نيهير ON IT.

(*) توضيح: هذه النَّظرة هي مُناقضة لمفهُوم الأُلوهيَّة، فالله كُلِّيُّ العدل بين البشر، ولا يُمكن أنْ يُفضِّل طائفة على أُخرى، ولا شعباً على آخر، إنَّما هذه النَّظرة هي حلقة في سلسلة التَّحريف المُتجلِّي في التَّوراة بمُجملها.

شعب يقع على حُدُود الإلهي والإنساني، هُو كاهن، ومُربّي، ونموذج[1] يقع في قمَّة الهَرَم الإنساني.

هذه النّظرة التّراتُبيَّة التي تُعطي الفوقيَّة والتّفوُّق لليهُود هي موروثة من التّوراة. إنَّها معروضة ومشروحة بوُضُوح، وليس من جدوى بأنْ نبحث عن معنىً رمزيٍّ مُثير للجَدَل. وقد أكَّد الحاخامات[2] أنّه ولا نصّ توراتي يُمكن أنْ يُنتزَع من معناه الحَرْفي.

كذلك تتغلغل التّوراة إلى داخل البشريَّة الحياديَّة، حتَّى تُجري تصنيفات وانتهاكات لها أهمِّيَّة مُقرَّرة في عالم يجعل من السُّلالة مبدأً تفسيرياً وقضائياً أساسياً.

هذه المُقاربة في "الغَيْريَّة المَرَضيَّة" أو "فُوبيا الآخر" التّوراتيَّة تجعلنا ننتبه إلى أهمِّيَّة (القطيعة البُولُسيَّة) قطيعة الرّسول بُولُس[*] التي تُلغي (تفصل) المرجعيَّة السُّلاليَّة وتجعلها رُوحيَّة: " لا يُوجد يهُودي أو يُوناني، لا يُوجد عَبْدٌ أو حُرٌّ، لا يُوجد رجل أو امرأة، إنَّكم كُلُّكم واحد بالمسيح، لكنْ؛ إذا كُنتم من المسيح فإذاً أنتم أحفاد لإبراهيم ووَرَثَته بحسب وعده"، برفضه اعتبار السُّلالة مرجعاً، وبرفضه التّمييز الذي هُو السّبب والنّتيجة، أَسَّس "بُولُسْ" ديانة سهلة البُلُوغ إلى جميع الأعراق.[3]

في هذا الفصل سوف نبحث في هَوَس اليهُود السُّلالي، ثُمَّ سوف نُقدِّر آليَّات الإبعاد التي ضمَّها، ثُمَّ سوف نُبرهن ونُظهر منطقيَّة الإبادة للآخر التي يتضمَّنها.

" الهَوَس السُّلالي ":

قد يكون العبرانيُّون - سليلي الحابيرو - شعباً هامشيّاً نما في أطرف الهلال الخصيب، ولم يكن قد اختار - بَعْدُ - بين الحياة المُستقرَّة والحياة البدويَّة. ومعنى كلمة " حابيرو" (أبيرو بالمصري قبطي) تعني جنساً أو صنفاً اجتماعيّاً يُعادل - في يومنا - كلمة "غجر"، وفقهيّاً تعني

---

(1) آ. نيهير ON IT.

(2) ش. تواتي، أنبياء - تلمُوديِّين فلاسفة، باريس - سيرف 1990، نهير OP.IT: "يبقى سرُّ التّوراة في الحَرْفيَّة".

(*) الرّسول بُولُس (يهُودي المنشأ) قاد حملة الفكر العالمي ومُحاربة العُنصُريَّة، وخلَّص المسيحيَّة من التّأثير اليهُودي المُنغلق.

(3) ي - رينان، يهُوديَّة ومسيحيَّة - نُصُوص مُقدَّمة من قبَل جان غولمير. باريس كوبيرنيك 1977.

غير مُستقرّ، مُتشرِّد (بوبر)[1] . ومجمُوعة الحابيرو مكوَّنة من مجمُوعة عشائر قد انجذبت من أماكن بعيدة إلى أراضي الهلال الخصيب الغنيَّة وإلى الشُّعُوب المُتطوِّرة التي تقطن فيه، فتأمَّلتْ أنْ تُوظَّف كأجير أو جُندي مُرتزق أو يد عاملة لتنفيذ الأعمال الكبيرة. إحدى هذه العشائر فشلت في مصر، وخرجت بقيادة مُوسى.[*]

وبحسب "أندريه لومير"؛ هُناك أربعة مجمُوعات عشائريَّة هي في أُصُول الاتِّحاد العبراني[2] . هذه المجمُوعات الأربعة تتعلَّق بالآباء الأربع: إبراهيم - إسحق - يعقُوب - يُوسُف/ إسرائيل، واستقرّوا - تدريجيّاً - في كنعان. فالمجمُوعة المُتحدِّرة من إبراهيم سكنت جبل يهُوذا غير بعيد عن حبرون. والمجمُوعة المُتحدِّرة من يعقُوب، وتعود أُصُولها إلى شمال الرّافدين لم تدخل كنعان تماماً إلاّ في القرن الثّالث عشر قبل عصرنا، لتستقرّ في منطقة مدينة زيشم؛ حيثُ ذبحوا أهاليها.[**]

والمجمُوعة المُتحدِّرة من يُوسُف/ إسرائيل، خَدَمٌ في مصر، هي المجمُوعة التي عاشت تجربة الخُرُوج، والتي أدخلت - بواسطة مُوسى - الوحي الإلهي للشّريعة الأُحاديَّة. وعند وُصُولهم إلى كنعان سكنوا في جبل إفرائيم.

أمَّا المجمُوعة التي تعود لإسحق؛ فسكنت في النّقب قُرب برسابه. هذه العشائر الأربعة البدويَّة ليس لديها - عمليّاً - أيّ شيء مُشترك، إلاّ - ربَّما - في الأراضي التي يحتلُّونها. فلُغاتهم مُتباينة؛ فمُنذُ عهد شاؤول إلى سُليمان كانوا في عهد المملكة المُتَّحدة يتكلَّمون في الشّمال لُغة مُختلفة، وفي الجنوب عباراتهم كانت مُتغيِّرة الواحدة عن الأُخرى: عند يعقُوب كانوا يُكرِّمون الإله باهاد، وعند إفرائيم الإله بعل، وعند يُوسُف الإله مولك، أو السَّحَرَة، واهتدوا جميعهم إلى عبادة الإله الغيور لاحقاً فقط. لكنَّ هذا الاتِّحاد الدِّيني - مثل الاتِّحاد اللُّغوي - كان طويلاً وصعباً: كانت الأنبياء لا تزال تُهدِّد عندما كان الشّعب يعود لعبادة

---

(1) م. بوبر "مُوسى" باريس - بوف مجمُوعة كادريج 1957.

(*) هُو النّبي مُوسى عليه السّلام.

(2) آ - لومير - تاريخ الشّعب العبراني، باريس - بوف 1981.

(**) يُمكن المُقارنة مع مذبحة دير ياسين، إذْ يبدو أنَّ الصّهاينة يستعيدون مثاليَّتهم المشبوهة من المذابح الواردة في التّوراة التي بين أيديهم.

الآلهة القديمة ، فالطّبائع الإثنيَّة ذاتها اختلفت من مجمُوعة لأُخرى ("بوبر" : هذا النّموذج الإنساني يتألَّف من رعايا من مُختلف المجمُوعات الإثنيَّة ؛ من بينها المجمُوعة السّاميَّة التي هي سائدة أكثر الأحيان . [1]

فشعب قبيلة يعقُوب يُشبه شُعُوب الرّافدين الأعلى ، أمَّا شعب قبيلة يُوسُف ؛ فهي مُؤلَّفة من خَدَم عاشوا أربعة قُرُون في مصر ، واكتسبوا - هُناك - نوعيَّة إثنيَّة وثقافيَّة . فمُوسى نفسه ذُو ثقافة مصريَّة ، زوجته غريبة ؛ وهي مديانيَّة (خُرُوج 2 . 21) ، فأولاده - إذاً - لم يعودوا عبرانيِّيْن أقحاح (الفصل الثّامن عشر من سفْر الخُرُوج يُظهر التّأثير المدياني على تنظيم مجمُوعة يُوسُف) .

" مارتان بوبر" يعتمد في دراساته على أعمال "يهُودا فيشر" إلى أنَّ اسم مُوسى هُو اسم مصري ، وأنَّ العُنصُر الإثني الذي خرج منه هُو مصري أو مُتمصِّر [2] بجُزءٍ كبير ، وهذا واضح جداً .

فنعرف - بذلك - أنَّ أسماء اللاَّويِّيْن هي - غالباً - أسماء ذات أُصُول مصريَّة . والشُّعُوب التي سكنت فيلستيا هي الأُخرى قد تمازجت مع شُعُوب البحر . وقبيلة يهُوذا الكبيرة هي الأُخرى ممزوجة بدم كنعاني (سفْر التّكوين 1 . 38 - 30) وهكذا ؛ فلا التّاريخ ولا اللُّغة ولا الطّبائع الإثنيَّة ولا الدّيانة استطاعت أنْ تُوحِّد هذه المجمُوعات التي - على أيِّ حال - قد تحاربت فيما بينها (الحرب الإفراميَّة - البنجامانيَّة (قُضاة 19 . 21) مثلاً) ، مع أنَّ الوحدة تبدو ضرورة لأجانب على أراضٍ يحتلُّونها . فمصالح كُلِّ هذه المجمُوعات هي نفسها : ضرب السُّلطات الكنعانيَّة بشكل (يُؤمِّن) استقلالهم . فتشكَّل - بذلك - "تحالف إسرائيلي" أو "طائفة مصالح" برئاسة قائد : وهذه هي فترة "القُضاة" . وعندما تنتهي الحرب يترك القاضي وظيفته في القيادة ، وتستعيد القبائل حُكْمها الذّاتي . غير أنَّه أمام الخطر الذي يُمثِّله التّوسُّع الفلسطيني ، وجب على التّحالف أنْ يتطوَّر إلى دولة مُوحَّدة على رأسها قاضٍ آخر لا رُجُوع لحُكْمه : هُو الملك . فالمملكة التي تكون أكثر تجانساً وأفضل تنظيماً من التّحالف يُمكن لها أنْ

---

(1) م بوبر OP.AT .

(2) م بوبر OP.CIT .

تُقاوم الغـازي بنجـاح. حتَّى تكـون هـذه الوحـدة قابلـة للحيـاة كـانت بحاجـة إلـى شـرعيَّة. ويُمكن لنا أنْ نعتقد أنَّها وجدتـها مـن جهـة فـي مُعتقـد الأصـل الواحـد، ومـن جهـة أُخـرى؛ بسُلطة شـريعة واحـدة صدَّقـها وأوحاهـا "إلـه غيـور" (دويـت 5. 10) وهُـو أيضـاً واحـد، إلـه لا يقبل الانشقاق تحت طائلة الموت (سفْر الخُرُوج 22. 19).

أو ليست ظاهرة أعراض أنْ تتشكَّل الكتابـات التّاريخيَّـة والنّبويَّـة الكبيـرة خـلال الفتـرة الملكيَّة من القرن الحادي عشر إلى السّادس قبـل الميـلاد، وأنْ تصـاغ التّـوراة والشّـريعة اللّتَيْـن كانتا شفهيَّتان حتَّى الآن: فعندما تُنشأ إدارة دولة على غرار مصر الفرعونيَّة يلعب فيها الكَتَبَـة الدّور الرّئيسي فإنَّ المملكة التي أَسَّسها داود (1000ق م) وسُـليمان تسـمح لكُـلِّ هـذا التُّـراث الغني الذي انتقل بالطُّرُق الشّفهيَّة بأنْ يتجمَّـد وينحفـظ فـي النُّصُـوص المكتوبـة التـي لا تُذكِّـر باستمراريَّة التّاريخ المُقدَّس فقط، بل ـ وفوقها ـ تُغذِّي الحياة الدِّينيَّة لشـعب إسـرائيل فـي ظلِّ المعبد[1]؟ فبوضـع السُّلالة الوحيدة، الله الواحد، والعبادة الوحيدة، المعبد الوحيـد، ألا تُـبرِّر للتّابع المملكة الواحدة؟.

ومُنذُئـذٍ؛ نسـتطيع أنْ نفـهم تجـاور المجمُوعـات المُستقلَّة التـي لـم يعـد لديـها لا شـرعيَّة تاريخيَّة ولا شـرعيَّة دينيَّـة، فعندهـا تسـتطيع الملكيَّـة أنْ تُقيـم دولـة مركزيَّـة مالكـة لعاصمتـها أُورشليم، ولها هيئة فيها مُوظَّفون، ولها جيشها واقتصادها وقضاؤها.

فمُعتقد الأصل الواحد بقدر ما كان ضروريّاً إثباته دليل على أنَّ هـذه الوحـدة ليـس لـها وُجُود. لذلك؛ ففكرة "شعب" وهُو تعبير مُحتمل لهذه الإرادة فـي الوحـدة الإثنيَّـة والدِّينيَّـة والثّقافيَّة تراها موجُودة في كُلِّ العهد القديم. وتظهر هذه الفكرة وكأنَّها فكرة مركزيَّة حقيقيَّة (فنحنُ إذا استندنا على الموسُوعة التّوراتيَّة البروتستانتيَّة "لفرانك رايسدورف ـ ريس" نسـتطيع أنْ نسـتخلص أنَّ فـي النُّصُـوص القديمـة استُعملت كلمـة شعب أكثر مـن 1670 مـرَّة. وفـي التّوراة الثّانية ـ وهي أيضاً بروتستانتيَّة يُغطِّي منها العهد القديم 832 صفحة ـ يظـهر فيـها كلمـة شعب مرَّتَيْن في كُلِّ صفحة وسطياً. وللمُقارنة مع العهد الجديد فإنَّ كلمة شـعب تظـهر 115 مرَّة في 233 صفحة؛ أيْ مرَّة في الصّفحتَيْن؛ أيْ أنَّها أقلُّ بأربع مرَّات.

---

(1) ج. لاهون: العبرانيُّون، باريس سوي 1963.

إنَّ مفهوم الشّعب الذي يعود إلى فكرة الانتقاء يستند على مُعتقد السُّلالة الواحدة والمُشتركة الذي يعود - بدوره - إلى إبراهيم وإلى أبناء يعقُوب الاثنَيْ عشر أجداداً، أسباط إسرائيل الاثنَيْ عشر.

إنَّ كتّاب سفر التّكوين (الذين يروون - في فصلَيْن[1] اثنَيْن - قصَّة خَلْق السّماء والأرض والحيوانات والجنَّة والإنسان والمرأة (تكوين 1 . 2) وفي عشرة فُصُول يروون السُّقُوط، قايين وابيل، نُوح، الطُّوفان، أصل الأُمم، بُرج بابل) فهُم يعرضون على مدى ثمانية وثلاثين فصلاً؛ أيْ ما يُعادل أربعة أخماس الكتاب، الانقلابات السُّلاليَّة للشّعب العبري (تكوين 12 - 50)، فيها الانتماء هُو الاهتمام الرّئيسي. فالسُّلالة وتاريخ العرْق مُفصَّلة بشكل لا تدعو مجالاً للشّكّ في تجانسها. فيُعلموننا أنَّ الآباء في الأصل هُم المجمُوعات الكبيرة الأربعة المُسمَّاة حابيرو (إبراهيم، إسحق، يعقُوب، يُوسُف) هُم كُلُّهم أقرباء في نسب مُباشر: يُوسُف هُو ابن يعقُوب، يعقُوب هُو ابن إسحق، إسحق هُو ابن إبراهيم.

الأُمُور كُلُّها تبدأ من النّبي إبراهيم الذي هُو ابن تارح. وهُو من بلد اسمها أور الكلدانيِّيْن في الرّافدين - السُّفْلي، تزوَّج من ساراي؛ وهي نفسها ابنة تارح (تكوين 20 . 21) وهي تُؤمِّن بذلك صفاء السُّلالة. مهما كان الأمر، فهُو بهذا الاختيار للقرابة الدّمويَّة التي يحترمها بالغريزة والفطرة، يحترم القانون المُحرِّم للاختلاطات والذي لن يُعبّر عنه إلاَّ لاحقاً.

للأسف؛ كانت ساراي عقيمة: وبدا صفاء الدّم العائلي مُهدَّداً، لكنْ؛ على طلب ساراي (تكوين 16 . 2) أقام إبراهيم علاقة مع هاجر جاريتهم المصريَّة. ومنها وُلد له ولد أسماه إسماعيل. طُرِد هذا الولد ووالدته إلى صحراء برسابه، وذلك حتَّى لا يرث إبراهيم. وقد أعطوهما - بكَرَمٍ - قربة ماء وخُبزاً، (تكوين 21 . 14) ولولا التّدخُّل الإلهي لكان حُكْم عليهما بالموت، تكوين (21 . 15 . 19) عاش إسماعيل رغم كُلِّ ذلك، وأصبح جَدَّ أُمَّة كبيرة (تكوين 21 . 13)؛ لأنَّ يَهْوَه قد أكَّد أنَّه من نسل إبراهيم: أمَّا بالنّسبة لابن الجارية؛ فأصنع منه أُمَّة كبيرة؛ لأنَّه من نسلك (تكوين 21 . 13)، وبذلك يبدو أنَّه ارتسمت هُنا نظريَّة ومُعتقد

(1) إنَّ التّقسيم الحالي للتّوراة بفُصُول قد أُنجز في القرن الحادي عشر من قبَل "لانفرانك"، ثُمَّ عُمِّم في القرن الثّالث عشر من قبَل ستيفان لانغتون، أستاذ في السُّوربُون. وتبنَّاه اليهُود - فقط - في القرن السّادس عشر.

يُحاول إخضاع التّاريخ لقرابة الأسلاف، ويُقيم رابطاً بين المنشأ الإثني والمجد القومي، وهذا ما سيثبت لاحقاً. وإبراهيم - أيضاً - كان له أولاد من قيطورة، وهي أجنبيَّة طُردت بدورها، (مديان جَدُّ المديانيّين) هُو أنَّ النبأ الجديد الجيِّد الذي بشَّر اللهُ به إبراهيمَ قد تحقَّق أخيراً: سارة ولدت إسحق، فعلى عكس إسماعيل أو مديان فإنَّ إسحق ليس ثمرة خليط. هُو وحده سوف يرث إبراهيم ("لقد أعطى إبراهيم كُلَّ ما يملك لإسحق" تكوين 25. 5) هُو وحده فقط لن يُطرد.

وإسحق - بدوره - سوف يتزوَّج. وإبراهيم كان قد أصبح عجُوزاً أعطى أمراً لخادمه بألاَّ يترك إسحق يأخذ "امرأة له من بين بنات الكنعانيِّين" تكوين (24. 3). "فمن بلدي ومن بين أهلي سوف تذهب وتأخذ امرأة لابني" (تكوين 24. 4)هكذا أمره، ومرَّة أُخرى يجب أنْ تُحفظ السُّلالة وهي رفقة REBECA البنت الصُّغرى لناحور شقيق إبراهيم، وهي التي تزوَّجها إسحق. (تكوين 25. 14) وصار له منها ولدان: عيسُو البكر ويعقُوب الثّاني. عيسُو وهُو الوريث الشّرعي سوف يُطرد من السُّلالة الأبويَّة. لقد ارتكب عاراً بأنَّه تزوَّج من نساء حثِّيَّات، وسبَّب غضباً فظيعاً لإسحق ورفقة. لقد تنجَّست ذُرِّيَّة إبراهيم بذلك. لحُسن الحظِّ أنَّ يعقُوب قد سرق البَركَة الأبويَّة، فورث - بذلك - إسحق، وجعل - من جديد - الذُّرِّيَّة اللّحميَّة بدُون دنس أمراً مُمكناً. لقد خدم عيسُو أخاه إذاً (تكوين 27. 41) وذُرِّيَّته الأدوميِّين سوف يُصبحون عبيداً لأبناء يعقُوب (سام 8. 14). لكنْ؛ هل سوف يخون يعقُوب قرابته أيضاً؟ فإنَّ أمه خافت وقلقت. وقالت لإسحق (تكوين 27. 46): قد سئمتُ حياتي بسبب بنات حثّ (النّساء الحثِّيَّات). وإذا اتَّخذ يعقُوب امرأة مثل هذه النّساء من بين بنات حثّ من بين بنات البلد فمالي وللحياة؟ لحُسْن الحظِّ أنَّ يعقُوب هُو ابن صالح، فهُو يسمع ما يقوله له إسحق. وهذا الأخير مُحترم كما كان والده للعادات في منع الزّيجات المُختلطة وأمر بدوره: "لن تأخذ امرأة من بين بنات كنعان. (...)" خُذْ لنفسك امرأة من بين بنات لابان شقيق والدتك" (تكوين 28. 1 - 2) في الواقع يتزوَّج يعقُوب راشيل وليا بنات لابان ابن ناحور شقيق إبراهيم (تكوين 25. 5 - 6) أمَّا عيسُو؛ فعندما سمع بأوامر أبيه التي أُعطيت ليعقُوب: "لن تأخذ امرأة من بين بنات كنعان" تأمَّل بأنْ يُرضي إسحق عندما يتزوَّج إسماعيليَّة: رأى

عيسُو أنَّ بنات كنعان لا يُعجبنَ إسحق أباه، فذهب عيسُو إلى إسماعيل، واتَّخذ له امرأة (بنت إسماعيل) اسمها محلاة (تكوين 28 ـ 8 ـ 9) لم يفهم عيسُو الخزي الذي يرتبط "بالغَيْريَّة" بأنْ تكون المرأة كنعانيَّة أو حثِّيَّة أو إسماعيليَّة. الزّواج من أقربائه هُو ـ فقط ـ الذي يردُّ له اعتباره، أمَّا مع الإسماعيليَّة؛ فهُو يُثبت سُقُوطه. أصبح ليعقُوب اثنا عشر ولداً؛ أربعة منهم من بيلها وزيلبا جاريات نسائه، تكوين (25. 23) الأب الرّابع، يُوسُف هُو ابن السُّلالة التي بدُون لوث، وهُو من يعقُوب وراشيل. ويُحاول سفْر التّكوين أنْ يُبرهن أنَّ الأجداد الكبار الأربعة هُم من العائلة نفسها وبدُون دنس، كُلُّهم من ذُرِّيَّة "تارح"، فإسماعيل وعيسُو ـ بما أنَّ لهم حقّ البكوريَّة ـ كان يجب أنْ يظهروا بين الآباء على عكس إسحق ويعقُوب الذين هُم أصغر منهم. لكنَّ الأوَّل هُو ابن المصريَّة، فذُرِّيَّته مُلوَّثة، والثّاني يتزوَّج من نساء أجنبيَّات، فذُرِّيَّته غير طاهرة: لذلك أُبعدوا. فما هُو سبب هذا التّفضيل لابن على آخر، ولذُرِّيَّة على ذُرِّيَّة أُخرى؟ يتساءل "دانييل روبس" بشأن يعقُوب وعيسُو. ثُمَّ يُجيب، نحنُ لا نشكُّ بأنَّ الشّرح يكمن في آيات التّوراة التي تقول لنا إنَّ عيسُو قد تزوَّج من نساء حثِّيَّات وكنعانيَّات، مُخالفاً ـ بذلك ـ القانون الأساسي للقبيلة، ومُدخلاً دماء غريبة في الجنس. هذه الزّيجات كانت مُرَّة لنَفْس إسحق ورفقة. أمَّا يعقُوب؛ فهُو ـ على العكس ـ سوف يكون الشّخص الذي فيه ستستمرُّ السُّلالة السّليمة.[1]

فإذا كانت سُلالة الآباء المُؤسِّسين هي سليمة فإنَّ سفْر التّكوين يُؤكِّد أنَّ سُلالة الأبناء لم تكن كذلك دوماً. كانَ هُناك خليط: دان، نفتالي، غاش، آسر، هُم أبناء خادمات؛ حيثُ إنَّ التّوراة لا تذكر الأُصُول. منسى وأفرائيم هُم أبناء يُوسُف وأسنات (تكوين 41. 45) وهي مصريَّة. والأبناء الخمسة ليهُوذا هُم أبناء كنعانيَّة (تكوين 38. 1 ـ 30).

ويصدق سفْر التّكوين إذاً الحَدَث التّاريخي الذي لا يُشكُّ به؛ وهُو الخليط الإثني، لكنَّه أسَّس أُسطُورة العرْق الصّافي، بإقامة سُلالة الآباء بدُون دنس، بنوة واحدة وحيدة. لذلك؛ يحتلُّ نَسَبُ الشُّعُوب والأفراد ـ وذلك بدُون شكٍّ ـ مكانة هامَّة في العهد القديم (وذلك على عكس العهد الجديد؛ حيثُ لا نُقابل إلا نسبَيْن ليسُوع (متَّى 12. 17 ولُوقا 3. 23. 28)

---

(1) دانييل ـ رويس ـ شعب التّوراة، باريس، ديسليه دي بروير 1970.

مُوسى ويُوشع - إلى فلسفة النَّبْذ. فالمجمُوعة قد اختتنت، وقد حدَّدت ما يُسمِّيه الإثنيُّون أحياناً الـ: الدّاخل والخارج الـ in و الـ out، يُمكنها أنْ تستقرَّ بمُعارضتها.

من القرابة إلى النَّبْذ والإقصاء:

يبدو أنَّ العهد القديم قد طوَّر نظريَّة العالم المبني على غير الخليط، مبني على الفصل. مزج المُتنافر، ويبدو أنَّه يُنظر إليه وكأنَّه وصمة لنظام الخلق، وكأنَّه إعادة نظر في المُخطَّط الإلهي وتهديد لتوازن العالم. وقد أمر سفْر الأحبار بألاَّ يُمارَس مزيج الأنواع. "لا تزوِّجْ في ماشيتك حيوانات من نوعَيْن (جنسَيْن)، لا تبذرْ في حقلك حُبُوباً من نوعَيْن، نسيج ممزوج" سفْر الأحبار (18. 19) ويأمر - أيضاً - بالتّمييز بين "الطّاهر" و"غير الطّاهر" النّجس: "سوف تُميِّزون بين حيوان طاهر وحيوان غير طاهر، بين عُصفور غير طاهر وطاهر.." (سفْر الأحبار 20. 25).

ويُكرِّر سفْر تثنية الاشتراع هذه النّواحي: لن تزرع في كرمك نوعَيْن من الحُبُوب... لن تحرث ببقرة وحمار سويَّة.. لن تلبس ثوباً ممزوجاً مُختلطاً من صوف وكتَّان سويَّة". (سفْر تثنية الاشتراع 11 - 9. 22).

إنَّ دور الكاهن هُو (التّمييز بين المُقدَّس والدُّنيوي، بين النّجس والطّاهر" (الأحبار 10. 10) بل - أيضاً - تعليم التّمييز: "سوف يُعلِّمون شعبي الفرق بين المُقدَّس والدُّنيوي، وسوف يجعلونه يعرف الفرق بين الطّاهر والنّجس" (حَزْقِيَال 44. 23) إنَّ كتاب دمشق يُوسِّع مدى التّعليمات والنّواهي على جميع الإسرائيليِّيْن: "وكُلّ الذين أُدخِلوا في العهد... وسوف يهتمُّون بفصل أبناء القبرة... والتّمييز بين النّجس والطّاهر، وبتعريف التّمييز بين المُقدَّس والدُّنيوي، وبحسب "فرانسيس شميت"؛ تمييز "بآدال" تعني في الوقت نفسه: فعل "وضع جانباً، انتقاء، ونَبْذ[1]، إقصاء وإبعاد".

وهذا القانون الذي يمنع اختلاط النّباتات والحيوانات، يتوجَّه - أيضاً - للبشر، أو تحديداً للعبرانيِّيْن. فلأنَّ يَهْوَه قد ميَّز شعب إسرائيل عن باقي الشُّعُوب فوجب - بحسب المبدأ

---

(1) ف. شميت، فكرة معبد أورشليم في قمران، باريس - سوي 1994.

الفصل الوحيد في سفْر التّكوين - وهُو الفصل العاشر - يُعطينا أصل الآشوريِّين والسّينيِّين والميديِّين واليُونان والأثيوبيِّين والمصريِّين والكنعانيِّين والفينيقيِّين... وقد رأينا أنَّ الطّوارئ السُّلاليَّة لليهُود تحتلُّ - من جهتها - ثمانية وثلاثين فصلاً من الكتاب نفسه. وتُشير النُّصُوص القديمة التّوراتيَّة إلى نَسَب جُدُود كثير من الأفراد المعروفين، مثل مُوسى وهارون، وذلك في (سفْر الخُرُوج 6. 20)، أو أقلّ شُهرة مثل كُوريه، داتان، إيرام. إنَّ كُتُب الحوليَّات لنَحَميَا وإيسدراس تحوي عدداً كبيراً من الأنساب، ويبدو أنَّه من المُمكن أنْ نُعيد تسجيل قرابة أيٍّ شخصيَّة توراتيَّة شرط أنْ تكون من قرابة عبرانيَّة. وبشكل لا يرقى إلى الشّكّ؛ فإنَّ هذه النُّبوَّة ترقى إلى يعقُوب وإسحق وإبراهيم. هذه الأنساب التي تُظهر شرعيَّة فكرة الشّعب، هي تُقوِّي أحفاد البدو الحابيرو في شُعُورهم بالانتماء. هذا الشُّعُور يتمفصل في البدء حول فكرة قرابة الدّم المُشترك، ثُمَّ يقوى ويثبت - أيضاً - من خلال رمز آخر غير الدّم.

في الواقع؛ فإنَّ يَهْوَه قد ميَّز بالدّم أوَّل وليدي إسرائيل عن وليدي مصر الذين أبادهم: يُفيد الدّم كعلامة لكم على البُيُوت؛ حيثُ تكونون... (خُرُوج 12. 13). من جهة أُخرى؛ فإنَّ دم العهد الذي رشَّه النّبي مُوسى كثيراً على المذبح وعلى الشّعب (خُرُوج 24. 8) يبدو أنَّه أسَّس - تقريباً - علاقة القرابة بين إسرائيل ويَهْوَه وبين العبرانيِّين: وبالاشتراك في الدّم نفسه يُصبحون أقرباء، حُلفاء يتشاركون في الحياة نفسها، هكذا تُعلِّق "توراة أوستي"؛ فبرابطة الدّم يُصبح العبرانيُّون "أبناء ليَهْوَه: أنتم أبناء ليَهْوَه إلهكم". (سفْر تثنية الاشتراع 41.1) وهذا يُمكن أنْ يعني أيضاً: أنتم جميعاً أخوة! في العهد القديم؛ أخ ومُواطن لهما المعنى نفسه من أجل الذي من إخوانكم أبناء إسرائيل. . . . أو إِرْميَا 34. 9. . . ("بشكل ألاَّ يُمسك أحد في العُبُوديَّة يهُوديّاً، أخاه").

والدّم المُطهّر يُثبت - بدوره - الوحدة الإثنيَّة للتّنوُّع القَبَلي ("حسب الشّريعة، كُلُّ شيء - تقريباً - يُطهَّر بالدَّم"). إنَّ النُّبوَّة المُشتركة ورمزيَّة الدَّم تصنع الشّعب الواحد.

لقد تحقَّق - الآن - تماسك الشّعب الواحد، وذلك بدَم الجُدُود ودَم العهد، وإنَّ عظمة مصيره مُؤكَّدة باختياره، فإنَّ رسالة الزّواج الدّاخلي لإبراهيم يُمكنها أنْ تتحوَّل - اعتباراً من

التّسلسلي نفسه - تميز الحيوانات الطّاهرة من الحيوانات النّجسة : " هذا أنا يَهْوَه ، إلـهك الـذي ميَّزك بين الشُّعُوب . فتُميِّزون - إذاً - بين حيوانات طاهرة ونجسـة " . . . (أحبـار 20 . 24 - 25) . وترى توراة أُورشليم أنَّه : طاهر الذي يستطيع الاقتراب مـن الله ، ونجس الـذي غـير صـالح لعبادتـه أو ممنـوع مـن العبـادة " فالله - إذاً - يُقيـم مُسـاواة بـين إسـرائيل الصّالحـة لعبـادة يَـهْوَه والحيوان الطّاهر الذي يُمكن أنْ يستهلكه الإسرائيلي ويأكله . وهُنـاك مُسـاواة أُخرى أُقيمـت بين الحيوان النّجس غير الصّالح للاستهلاك والشُّعُوب الأجنبيَّة غير الصّالحة لعبادة يَهْوَه . في الحقيقـة ؛ إسـرائيل مُقدَّسـة بفضـل يَـهْوَه الـذي يُقـدِّس (الأحبـار 20 . 8) ويُمـيِّز (الأحبـار 20 . 26) ، إسرائيل ليسـت نجسـة (الأحبـار 11 . 44) ، وهـذا ليـس حـال بقيَّـة الأُمـم الشّبيهة بالحيوان النّجس الذي نفر منه الله ، وسوف يطرده (الأحبار20 . 23) .

الفرق بين إسرائيل والآخرين هُو - إذاً - في مرتبة : طاهر ونجس ، مُقدَّس ودُنيوي . فمُنذُ ذلك الحـين أصبـح الاختـلاط والمزج والاحتكـاك مُسـتحيلاً ، إذْ إنَّـه فـي مرتبـة الدُّنيـوي غـير الطّاهر . ومن جهة أُخرى ؛ عندما يُصبح الإسرائيلي نجساً لاحتكاكـه بـالأجنبي فـهُو يُجـازف - بدوره - بتدنيس الهيكل . إنَّ علـم اللِّسـانيَّات يُؤكِّـد هـذه المكانـة الخاصَّـة لإسـرائيل . وعلـى عكس اللُّغة اليُونانيَّة واللاَّتينيَّة فإنَّ اللُّغة العبرانيَّة لا تُفرِّق بين مفهوم (القـدس) الطّـهارة وبـين المُقـدَّس (المُحـرَّم) . وعندمـا حـدَّدوا أنفسـهم "كأُمَّـة طـاهرة " (خُـرُوج 18 . 6 مثـلاً) دخلـت إسرائيل في حقل المُقدَّس ، وهذا ما يفصلها ويُحرِّمها على شُعُوب العالم الدُّنيوي . كُلُّ شيء مثل الكاهن "المُكرَّس" " المنذور لله " (الأحبار 21 . 7) الذي لا يستطيع أنْ يتزوَّج مـن عـاهرة ، امرأة "نجسة" أو مُطلَّقة (" فقط عذراوات من جنس بني إسرائيل" حَزْقِيـال 44 . 22) . إسـرائيل مملكة الكَهَنَة (خُرُوج 19 . 6) و"ملك خاص" ليَهْوَه (خُرُوج 19 . 5) ومُكرَّس هُو أيضـاً (تثنيـة الاشتراع) فلا يُمكن أنْ يتدنَّس بالاحتكاك مع باقي الشُّعُوب . وبذلك قبحت "تـوراة أوسـتي" فإنَّ تعبير سليم ، مُقدَّس ، أو مُكرَّس يعني - بحسب النّصِّ وبشـكل أساسـي - : " وضـع علـى حدة " "فصل" لخدمة الله . فيجب المُحافظة على المسافة الضّروريَّة بين الدُّنيوي والمُقدَّس تحـت طائلة خرق نظام العالم واحتمال الطَّرْد .

فالعهد القديم الذي يشهد عمليَّة اختلاط الأجناس ـ كما رأينا ـ سوف يُسرع إلى منعها بسُرعة. ويحظر سفْر الخُرُوج ـ مثلاً ـ على العبرانيِّين إبرام عُقُود مع سُكَّان البلاد الكنعانيِّين، خوفاً من أنْ يأخذوا من بناتهم لأبنائهم (خُرُوج 34. 15) ويُعيد سفْر تثنية الاشتراع هذا الحظر: لن تتَّحد معها بالزّواج مُطلقاً (أيْ الأُمم الأُخرى)، لن تُعطي ابنتك لابنهم، ولن تأخذ ابنتهم لابنك؛ لأنَّ ذلك يُبعد ابنك من خلفي، وسوف تخدم آلهة أُخرى. عندها يثور ضدَّك غضب يَهْوَه، ويُدمِّرك بسُرعة. (تثنية الاشتراع 4 ـ 3. 7). تحت ستار الإخلاص "لله الإثني" (بوبر)[1] (إذاً بالإسقاط على القبيلة نفسها؟ وهكذا؛ فإنَّ الاشتراع يقول: يُسمُّونك شعب إسرائيل باسم يَهْوَه، ويُشير جُوزي إيزنبرغ: الله وإسرائيل والتّوراة ليسوا إلا أمراً واحداً[2]. ويُؤكِّد "أندريه شُوراكي": الرّسالة غير مُنفصلة عن الشّعب الذي يتلقَّاها)[3] يبدو أنَّه أوَّل قانون يظهر في التّاريخ كقانون (وَهْم) مَرَض الاختلاط **be mixophobe**. لقد هدَّد النّبي يُوشع بدوره ..." لأنَّه إذا بدَّلتم فعلاً في الاتِّجاه، وارتبطتم بعُقُود زواج معها، ودخلتم لعندها، ودخلت لعندكم، فاعلموا جيِّداً: أنَّ يَهْوَه إلهكم لن يستمرَّ بإزالة هذه الأُمم من أمامكم، سوف يُصبحون بالنّسبة لكم مصيدة وفخَّاً وسوطاً على جنوبكم، وإبراً في عيُونكم، حتَّى تزولوا من على وجه هذه الأرض الطّيِّبة التي أعطاكم إيَّاها يَهْوَه إلهكم، (يشُوع 23. 12. 13) وهكذا؛ فإنَّ الزّواج الدّاخلي ـ الذي كان في زمن الآباء عادةً ـ أصبح قانوناً وضعه الله شخصيّاً. فعيسُو عندما لم يأخذ له امرأة من أقربائه أغضب إسحق. لكنْ؛ بعد ذلك سيغضب الله نفسه، ويكون ذلك تعبيراً عن عدم إخلاصه وقلَّة اهتمامه لوصاياه: فإذا احتقرتم قوانيني... إليكم ماذا سأفعل بكم. سوف أُرسل عليكم العُنف والهلاك والحرارة... سوف تزرعون بُذُوركم بلا فائدة: أعداؤكم سوف يلتهمونكم ... سوف تُهزمون أمام أعدائكم. وإذا ـ رغم كُلِّ ذلك ـ لم تسمعوني، سوف أُعاقبكم سبع مرَّات أكثر بسبب خطاياكم. سوف أُحطِّم كبرياء قُوَّتكم، سوف أجعل سماءكم مثل الحديد، وأرضكم جافَّة. سوف تُهدر قُوَّتكم بدُون فائدة، ولن تُعطي أرضكم منتوجها، وأشجار الأرض لن

---

(1) م ـ بوبر OP.CIT.

(2) ج إيزنبرغ، تاريخ يهُود (أو قضيَّة يهُود) باريس ـ ك ـ 1 ـ ل ـ 1970.

(3) آ ـ شوراكي، تاريخ اليهُوديَّة ـ باريس، بوف 1987.

تُعطي ثمارها، سوف أُرسل ضدَّكم حيوانات الحُقُول، ليحرموكم من أبنائكم، ويقتلون ماشيتكم (...) سوف أرسل الطّاعون فيما بينكم، وسوف تُسلَّمون لأيدي العدوِّ (...) سوف تأكلون، ولن تشبعوا أبداً (...) فإذا ـ رغم كُلِّ ذلك ـ لم تسمعوني، وإذا قاومتموني سوف أُقاومكم بغضب (...) سوف تأكلون لحم أبنائكم... وتأكلون لحم بناتكم (...) سوف أحوِّل مُدُنكم إلى صحراء (الأحبار 26. 25. 14). غير أنَّ الكُتُب التّوراتيَّة تُظهر أنَّ قوانين mixophobe وَهْم الاختلاط قُوبلت بمُعارضين. وهكذا؛ أليس كتاب "روت" الصّغير احتجاجاً لطيفاً ضدَّ الغَيْريَّة المَرَضيَّة السّائدة؟ "روت"، هي مُؤابيَّة أتت إلى بلاد يهُوذا، تزوَّجت "بوز"، عبراني، وخلَّفت "عبيد"، الذي منه "داود" الملك اللاَّحق يكون حفيدها. قُدِّمت لنا "روت" على أنَّها امرأة تقيَّة، مُخلصة، خاضعة، فاضلة، ونشيطة، مُناقضة للصُّور السّلبيَّة النّمطيَّة عن الأجانب التي طوَّرتها الأيديُولُوجيَّة اللاَّهوتيَّة. بالإضافة لذلك؛ يُحاول هذا الكتاب أنْ يقول: هل كان داود ليَلِدَ لو أنَّ هذه الأجنبيَّة طُردت؟ إلا أنَّ "نعيمة" حماة "روت" هي التي أصبحت ـ حُقُوقيّاً ـ أُمَّ "عبيد" ابن "روت". لذلك؛ فإنَّ "نعيمة" الإسرائيليَّة هي التي تُعتبر في التّاريخ جَدَّة الملك الشّهير، وليس "روت".

وسُليمان ذاته قد تزوَّج بعدَّة نساء أجنبيَّات حوَّلن قلبه: مُؤابيَّات، أمونيَّات، آدوميَّات، وصيداويَّات، وحثِّيَّات... سبعمائة، هكذا يُقال، دُون عَدِّ العشيقات اللَّواتي عددهُنَّ ثلاثمائة. فهُو ـ بسبب ذلك ـ يُعتبر مسؤولاً عن انهيار المملكة، والذي لم يحصل إلاَّ بعد عهده: لأنَّه صدر عنك ذلك، ولأنَّك لم تُطع عهدي ولا أوامري التي أوصيتُك بها، سوف أُمزِّق المملكة من فوقك، وأُعطيها لخادمك. ويذكر كتاب القُضاة أنَّ إسرائيل فعلت "ما هُو سيِّئ في عيُون يَهْوَه". في الواقع؛ سكن أبناء إسرائيل بين الكنعانيِّين والحثِّيِّين والأمُوريِّين والبيريزيِّين، فأخذوا بناتهم كزوجات، وأعطوا بناتهم لأبنائهم، وخدموا آلهتهم. (قُضاة 6 ـ 5.3). أمَّا أهل شمشون؛ فكانوا قد انزعجوا من تصرُّف ابنهم، فاستعادوا لهجة "رفقة": "ألا يُوجد نساء بين بنات إخوتك وفي كُلِّ شعبك حتَّى تذهب وتأخذ امرأة من عند الفلسطينيِّين؛ هؤلاء غير المُختتنين؟" (قُضاة 14. 3).

أمَّا بنحاس من جهته؛ فقد خُوزق زوجاً مُختلطاً، وكَسِب مُباركة يَهْوَه، والأنبياء ناحوا غالباً بألم، فانفجر إرْمِيَا ضدَّ الذين يُحبُّون الأجانب (1 . 2 . 25) واشتكى أَشَعْيَا أنَّهم "يُضربون في أيدي الأجانب" (أَشَعْيَا 2 . 6) واتَّهم حَزْقِيَال أُورشليم: "من أجل أشخاص أتوا من بعيد... اغتسلتِ، وكحَّلت عيُونك، وتزيَّنت بزينتك (حَزْقِيَال 23 . 40). موقف يُوضع في علاقة مع انحطاط الكَهَنَة المُعلن عنه في بعض الآيات أعلاه: "لم يُميِّزوا بين المُقدَّس والدُّنيوي، ولم يعلموا الفرق بين النّجس والطّاهر (حَزْقِيَال 22 . 21). وإسدراس من جهته بكى؛ لأنَّ "العرْق المُقدَّس اختلط بشُعُوب البلاد (esdras 9.2) وإيسدراس كاتب بارع في قانون مُوسى (ايس 7 . 6) يُعتبر وكأنَّه الشّخصيَّة الرّئيسيَّة في اليهُوديَّة.

وبحسب إيزنبرغ؛ يُؤكِّد التّلمُود أنَّه كان يستحقُّ أنْ يتلقَّى التّوراة لو لم يسبقه مُوسى في الزّمن[1]. ويتركَّز فعله - بشكل أساسي - على منع الزّيجات المُختلطة من جديد، وعلى فسخ اللَّواتي عُقدن سَلَفَاً. وهكذا؛ وبعد العودة من الأسر البابلي، عندما أعلموا إيسدراس أنَّ شعب إسرائيل - الكَهَنَة واللاّويِّيْن - لم يفترقوا عن شُعُوب البلاد. . . " وأنَّهم أخذوا من بناتهم لهم ولأبنائهم"، "وأنَّ العرْق المُقدَّس اختلط مع شُعُوب البلاد"، وأنَّ القادة والقُضاة قد مدّوا يدهم - في البدء - لهذه الخيانة" (إيسدراس2 - 1.9) كانت الصّدمة لهذا الكاهن كبيرة، لدرجة أنَّه مزَّق ثوبه ومعطفه، واقتلع شعره وذقنه، ثُمَّ جلس مُندهشاً. ويعترف بعاره: ألم يمنع يَهْوَه الاختلاطات عندما أمر: "البلد؛ حيثُ تدخلون لتمتلكوه، هُو بلد دنس بدنس شُعُوب البلاد الذي ملؤوه من أوَّله لآخره برجسهم وقذارتهم. والآن لا تُعطوا بناتكم لأبنائهم، ولا تأخذوا بناتهم لأبنائكم...(إيسدراس 9 . 11). فبينما كان إيسدراس والشّعب يبكون بغزارة، أخذ أحدهم واسمه شيكانيا الكلام، وقال لإيسدراس: لقد كُنَّا غير مُخلصين لله عندما تزوَّجنا نساء أجنبيَّات بين ناس البلاد، لكنْ؛ رغم ذلك يُوجد - الآن - أمل لإسرائيل. فَلْنُقم - الآن - عهداً مع إلهنا، مُلتزمين بأنْ نطرد كُلَّ نسائنا الأجنبيَّات والأولاد الذين وُلدوا منهنَّ حسب نصيحة سيِّدنا، والذين يرتجفون لوصيَّة إلهنا، وليَكُن معمول حسب الشّريعة !وقوفاً! هذا الأمر مفروض عليك. وسوف نكون معك. كُنْ قويَّاً

(1) ج إيزنبرغ OP.CIT.

وإلى العمل! (إيسدراس 5 ـ 2.10) وهكذا؛ أُعطي الأمر لكُلِّ الذين كانوا قد أُسِروا بأنْ يجتمعوا في أُورشليم خلال ثلاثة أيَّام من تاريخه، تحت طائلة الطَّرْد والحرمان. فاجتمع أبناء إسرائيل، ونقلوا إليهم الإجراءات الجديدة: "لقد كُنتم خَوَنة غير مُخلصين عندما تزوَّجتم نساءً أجنبيَّات، مُضيفين ـ بذلك ـ إضافة إلى ذنب إسرائيل...

"انفصلوا عن ناس البلاد والنّساء الأجنبيَّات" (إيسدراس 11 ـ 10.10) وخلال ثلاث أشهر أصدرت المحكمة قائمة بأسماء "المُجرمين"، قائمة بأسماء الذين أخطؤوا. وبعدها يُنفَّذ الطَّرْد. دراما إنسانيَّة حقيقيَّة: "كُلُّ هؤلاء قد اتَّخذوا لهم نساءً أجنبيَّات، فطردوهم نساءً وأطفالاً (إيسد 44.10) ونجد حبكة مُماثلة في كتاب نَحميَا؛ حيثُ الموضوع هُو فصل إسرائيل عن كُلِّ عُنصُر ممزوج بها: لقد رأيت يهُوداً قد تزوَّجوا من نساءٍ أشكوديَّات وأمونيَّات ومُؤابيَّات، فنصف أبنائهم كانوا يتكلَّمون الأشدوني، أو لُغة هذا الشّعب أو ذاك، لكنَّهم لم يكونوا يتكلَّموا لُغة يهُودا. وجَّهتُ لهم اللَّوم، ولَعَنْتُهُم، وضربتُ بعضهم، واقتلعتُ لهم شعرهم، وحلَّفْتُهُم بالله: "لن تُعطوا بناتكم لأبنائهم، ولن تأخذوا من بناتهم لأبنائكم ولكم، ويتكلَّم نَحَمْيَا عن الرّجس ويُقيم ـ في النّهاية ـ الطّهارة الأصليَّة: لقد طهّرتهم من كُلِّ عُنصُر غريب، وأقمتُ قواعد للكَهَنَة واللاَّويِّين؛ كُلٌّ في عمله، وختم: "اذكرني يا الله بالخير". عند إيسدراس ونَحَمْيَا، تبدو الاهتمامات الإثنيَّة مُحرِّكة نحو الرّفض والنَّبْذ أكثر من الاهتمامات الدِّينيَّة. في الواقع؛ ليست المسألة هي فصل المُؤمنين (مثل روت المُؤابيَّة، يبدو أنَّه كان يُوجد منهم حتَّى عند الأجانب بشكل خاصٍّ) عن غير المُؤمنين أو المُؤمنين غير الجيِّدين (وتشهد التّوراة ـ غالباً ـ أنَّه يُوجد بين الإسرائيليِّين أنفسهم عدد كبير منهم: "ينحنون أمام يَهْوَه، ويحلفون بملكوم، "ويرمون بالشّريعة وراء ظهرهم"، فيجب فصل اليهُود مهما كانت قناعاتهم الدِّينيَّة عن الأجانب مهما كان إيمانهم. ولم يُؤخذ بعين الاعتبار في أيِّ وقت أنْ يحصل اهتداء مُحتمل قد يُجنِّب المأساة البشريَّة.

وفي مُختلف المقاطع الأُخرى للتّوراة، يبدو المنشأ الإثني هُو مُحرِّك وسبب الرّفض أكثر من الدّيانة. وهكذا؛ فقد طَرْد إسماعيل رغم أنَّه قد اختتن (تكوين 26.17) (والاختتان هُو علامة العهد (تكوين 10.17).

وأُبيد السّيشميُّون، مع أنَّهم اختتنوا حتَّى يختلطوا بسبط يعقُوب (تكوين 34). ورُفض السّامريُّون، رغم أنَّهم عبَّروا عن إيمانهم بيَهْوَه، واقترحوا تقديم مُساعدتهم لبناء المعبد الثّاني.

وقد رأينا أنَّ عادة الزّواج الدّاخلي قد مُورست قبل أنْ يجعل منها الله قانوناً، ووصيَّة. هي - إذاً - فكرة الصّفاء الإثني، هي الفكرة الأُولى والمُقرَّرة: احرص يا بني من كُلِّ زنا، وقبل كُلِّ شيء خُذْ امرأة من ذُرِّيَّة آبائك [من بذرة آبائك "ترجمة شوراكي"] لا تأخذ امرأة أجنبيَّة لا تكون من عشيرة أبيك؛ لأنَّنا أبناء الأنبياء. تذكر يا ولدي نُوحاً وإبراهيم وإسحق ويعقُوب، آباءنا الأصليِّيْن. كُلُّهم أخذوا امرأة من بين إخوانهم، وبُوركوا بأولادهم، وحصلت ذُرِّيَّتهم على ميراث الأرض. إذاً؛ فضِّلْ - يا ولدي - إخوانكَ، ولا تحتقرْ في قلبكَ، ولا يكن عندك كبرياء تجاه إخوانكَ وأبناء وبنات شعبك، لتأخذ لك امرأة من بينهم... إنَّ التّهديد بالانحراف الدِّيني الذي يُثار - غالباً - لتبرير فُوبيا الاختلاط أليست وظيفته تثبيت تصرُّف فُوبيا الاختلاط خشية العقاب الإلهي؟ فإذا كانت كُلِّيَّة وُجُود السُّلالة وأهمِّيَّة مُفردات الانتماء مثل("شعب، أُمَّة، ابن فلان ...") أتت لتُناسب المظهر الدِّيني الصّرف لفُوبيا الاختلاط فإنَّ الأمر نفسه ينطبق على رُدُود الفعل تجاه الثّقافات الأجنبيَّة، وأنَّه ساخط لتراجع "اليهُوديَّة" أمام لُغات مثل الأشدونيَّة. أمَّا صوفوني؛ فمن جهته قد ناضل ضدَّ دُرجات الملابس الأجنبيَّة، وهكذا؛ نرفض من الأجنبي كُلَّ شيء: آلهته التي يُمكن أنْ تُقدِّم غنىً ثقافيّاً، أبناءه، بناته، ملابسه، ولُغته.

وإذا قطن - رغم كُلِّ ذلك - في إسرائيل سوف يُواجه هذا الأجنبي وضعاً اجتماعيّاً صعباً هامشيّاً، في بيئة لا تحترم هُويَّته، عندها تميز عُنصُري، لا تُطبِّق حياله الوصايا المُتعلِّقة "بالقريب" (لا تستغلّه، لا تسرقه، لا تكرهه...).

فإذا كانت كلمة "قريب" بالنّسبة للتُّراث المسيحي كما بالنّسبة (للاروس، المُعجم) تعني "كُلَّ إنسان أو مجمُوع البشر" فبالنّسبة لليهُوديَّة كان الأمر مُختلفاً، فاليهُوديَّة لم تُخفِ - أبداً - أنَّ القريب في العهد القديم (وأحياناً العهد الجديد) هُو الإسرائيلي عدا أيِّ إنسان آخر. وقد كَتَبَ "أبراهام كُوهين" في كتاب مرجعه التّلمُود: يجب - مع ذلك - أنْ نُبيِّن الزَّعْم الصّادر تكراراً، والذي - بحسبه - يكون قانون الحُبِّ كما يعرضه التّلمُود مُقتصراً على أعضاء المُتَّحد

الإسرائيلي. وصحيح أنَّه عندما يشرح كلمة "قريب" في إطار التّشريع التّوراتي فإنَّ التّلمُود يُحدِّد - غالباً - أنَّ المقصود هُو الإسرائيلي دُون الوَثَني: ذلك لأنَّ النّصَّ الكتابي التّوراتي يفرض هذا التّفسير[1]. ويشرح جُوزف كارو، وهُو كاتب (شولهان آروك) كتاب آخر معياري لليهُوديَّة، التّوراة كما يلي: إنَّه فرض أنْ تحبَّ كُلَّ إنسان في إسرائيل مثل نفسكَ كما كُتِب: "تحبُّ قريبكَ مثل نفسكَ..." وفي مكان آخر يُحدِّد: الذي يكره في قلبه شخصاً من إسرائيل يرتكب مُخالفة؛ لأنَّه قيل: "لن تكره أخاكَ في قلبكَ..." لكنَّه فرض - أيضاً - أنْ تُعْلمه، وتقول له: لماذا فعلتَ لي هذا، أو فعلت ذاك؟ ولماذا أسأتَ لي في هذه الحالة؟ إذْ قد قيل: "تُعاتب قريبكَ"[2] هُنا تفقد الكلمتان أخ وقريب مفهومهما العالمي، وتستعيدان معناهما التّوراتي والإثني الأُصُولي. وقد شرح اسبينوزا في مُؤلَّفه تراكتاتوس **Tractatus**. التّناقض بين كُره اليهُود للأجنبي وهذا القانون في حُبِّ القريب، وحدَّد لقُرَّائه أنَّه في العالم العبراني كلمة "قريب" تعني "مُواطن". إنَّما كُلُّ هذا واضح جداً في التّوراة، ولا يشكو من أيِّ خطأ في التّفسير. لماذا نرى في كلمة قريب المُترجمة بدقَّة شيئاً آخر عمَّا تعنيه حَرْفيّاً؟ لماذا هذا الانحراف عن المعنى، لدرجة أنَّه أصبحت هذه الكلمة تعني في الضّمير الغربي المسيحي عكس ما تعنيه في أُصُولها؟ وتشرح توراة أوستي هذه الكلمة "قريب" عاميت **(amit)** - تعني حَرْفيّاً: "من نفس الشّعب" مُجانس، مُواطن.

هذا التّعبير في اللُّغة اللاَّويَّة هُو مُرادف لـ **rea** (رياع) والذي يُترجَم - غالباً - بـ "قريب"، والذي له معنى "رفيق، صديق" شوراكي في نصِّه التّوراتي الأكثر حَرْفيَّة يُترجم كلمة **amit** أو **rea** بـ رفيق، وذلك حتَّى لو كان النّصُّ عهداً قديم أو عهداً جديداً. وقد كَتَبَ "دونيز بوزي" من جهته: "بالنّسبة لليهُود؛ القريب كان أوَّلاً الرّفيق، أو الشّريك، أو الصّديق" إنَّ الكلمة العبرانيَّة رِياع **rea** من فعل رعى تعني في أصل اشتقاق الكلمة فكرة راعيَّين اشتركا في حراسة قطعان الماشية، وذلك لتقديم خدمات مُتبادلة تتطلَّبها حياة المرعى أو "الميدبار". كانت كلمة قريب في الأصل تعني المُجاور؛ أيْ الشّخص من العائلة نفسها، أو على الأقلِّ من العشيرة أو القبيلة نفسها، هُو الذي نعيش معه في مُتَّحد ذي مصالح حميدة مُشتركة.

---

(1) آ - كُوهين - التّلمُود - باريس، بايو 1986.

(2) شولهان آروك، الاحلة الحاخام ك. آ. كوتل باريس، كولبو 1990.

هذه الفكرة الأصليَّة توسَّعت قليلاً عبر العُصُور. إذْ كان القريب - بالنّسبة لليهُودي - هُو - دوماً - يهُودي آخر. ولا تحوي التّوراة إشارات تدلُّ على أنَّ الأغيار من الأُمم كانوا مشمولين بفكرة القرابة هذه والأُخُوَّة والصّداقة. والحاخامات الذين كَتَبوا التّلمُود ناقشوا ببُرُود ما إذا كان يحقُّ لليهُودي المارِّ بقُرب غريب منكوب، أنْ يُنقذه أو لا. وكانا الجواب بالنّفي (عبُودا زارا (ف). At26). [1]

القريب هُو - إذاً - ليس البعيد. فوجب الانتظار حتَّى أُمثولة "السّامري الطّيِّب" التي فيها يُعلِّم المسيح أنَّ القريب هُو الذي يُساعدنا في المصاب، مهما كان الانتماء، حتَّى تفقد هذه الفكرة مفهومها الإثني.

هُناك - إذاً - مُترادفان في المُفردات العبرانيَّة تُترجمان مفهوم القريب: عاميت؛ أيْ من الشّعب نفسه، ورياع؛ أيْ رفيق. والمُترادفيَّة تبدو وكأنَّها تُشير إلى أنَّ الرّفيق لا يُمكن أنْ يعني إلاَّ أحداً "من الشّعب نفسه"، باستثناء أيِّ أجنبي. وإنَّ اشتقاق الكلمات والنُّصُوص التّوراتيَّة كُلُّها تُشير إلى أنَّ الاستثناء هُو عمليَّة نوعيَّة ذاتيَّة مُتجذِّرة بعُمق: إنَّ المُفردات في اللُّغة العبرانيَّة تُجبر على تكوين مفهوم انطلاقاً من فكرة أنَّ الأجنبي لا يُمكن أنْ يكون صديقاً، فهُو - إذاً - عدوٌّ مُحتمل.

إلاَّ أنَّه على هامش الاستثناء وبتناقضٍ معه، هُناك فرض إلهي استُخرج من عدَّة مواقع في كُتُب التّوراة (خُرُوج 20.22 و 9.23 الأحبار 33.19 الاشتراع 19 - 18.10) يبدو أنَّه يهتمُّ بوضع الأجنبي وباتِّجاه تحسين هذا الوضع. يُوصي يَهْوَه بألاَّ تُزعج الأجنبي، وألاَّ تقمعه، وحتَّى أنْ تُحبَّه مثل نفسك تماماً (الأحبار 34.19) عندما يسكن أجنبي معك يُصبح - بالنّسبة لك - مثل أهل بلدك، سوف تحبُّه مثل نفسك، إذْ إنَّكم كُنتم ساكنين في بلد مصر: أنا يَهْوَه إلهكم (الأحبار 34 - 33.19) وقد نبَّه "دونيز بوزي" إلى فكرة: "يجب أنْ نتذكَّر أنَّ هذا الأجنبي في الأحبار 34.19) ليس هُو أيَّ وَثَني، إنَّه **ger**: غير الأجنبي المُقيم في إسرائيل، المُنصهر مع الإسرائيلي الحقيقي بنوع من التّبنِّي الشّرعي. وإنَّ مُراعاة هؤلاء المُهاجرين لا

---

(1) د. بوزي الحكَم 1932.

يُمكن لها أنْ تجعلنا نحكم على سُلُوك إسرائيل في موقع غير إسـرائيلي[1]، مـهما كـان الأمـر يجب ألاَّ نُبالغ في تقييم المُراعاة تجاه هؤلاء الأجـانب المُقيمـين، الذيـن يخضعـون ـ رغـم كُـلِّ شيء ـ لمُعاملة فيها تمييز عنصُري. وقد نُبِّه إلى أنَّ هذا الغير ger يجـب أنْ يبقـى اجتماعيّاً فـي الذّنب، وعكس ذلك يكون لعنة (اشتراع 44 ـ 43.28). وقـد لاحـظ "إدوارد ويـل" و" كلـود أوريو" أنَّ كلمة غير ger ترِد سبع عشـرة مرَّة فـي العـهد القديـم إلـى جـانب الأرملـة واليتيـم (وحتَّى العبد، الضّيـف، والعامل بالأُجرة) وهذا يعني أنَّه مُصنَّف مع الأكثر حرماناً. بالنّسـبة لهؤلاء الكُتَّاب؛ يُذكِّر وضع الغير GER بعُبُوديَّة الـرِّقّ: لقـد حرَّمـوا عليـه الملكيَّـة العقاريَّـة. والحقُّ لا يحميهم أبداً[2]. وتُحـدِّد النُّصُـوص أنَّـه ـ فقـط ـ للغـير GER، وليـس للإسـرائيلي يُمكن تقديم الطّعام من الحيوانات الميِّتـة (اشـتراع 21.14) وأنَّ عنـده وليـس عنـد الإسـرائيلي يُمكننا أنْ نجد عبيداً يُصبحـون عبيـداً للأبـد (أحبـار46 ـ 45.25). إذا فرضنـا ـ فعليّـاً ـ أنَّـه لـن يكون هُناك إلاَّ قانون واحد للإسرائيلي والغير GER، عندها وجب ألاَّ ننسى أنَّ هذا القانون هُو قانون ديني: هذا الفرض يمنع على الغير أنْ يُمارس ديانتـه الخاصَّـة (اشـتراع 12.31 مثـلاً) تُجبره على السّبت (خُرُوج 10.20) تُجبره أنْ يتَّبع وصايا إله إسـرائيل. وفـي الميشـنا، وضـع الغَيْر يفترض الختان. غير أنَّ هذا الحقَّ موْجُود. إنَّه امتياز بدُون شكٍّ، لكـنْ؛ لا يسـتفيد منـه كُلُّ الأجانب. إذْ لا يُمكن للجميع أنْ يُصبح "جيريم"، ويتحدَّث "ويل وأوريو" عن فَرْز ذي طابع إثني[3]. بالنّسبة للبعض؛ هذا الفرز هُو قاس، بما أنَّه يُوصي بإبادة البعيد جداً.

من النَّبْذ إلى الإبادة:

وقد أشار "جان ـ بـول فيرنـان" ومـن بعـده "مـادلين جوسـت" أنَّـه ـ فـي اليُونـان القديـم ـ كان يُنظر للدّم على أنَّه أقوى عامل تطهير، أكثر بكثير من الماء الذي يكفـي عـادة لتطـهير مَـنْ يرغب الوُصُول إلى الهيكل[4]. وفي Eschyle (اومينيد) يغسل أوريست رجس جرائمه بدم خنزير صغير.

---

(1) د. بوزي OP.CIT.

(2) ي ويل واوريو م تبشير يهُودي؟ تاريخ غلطة باريس، الآداب الجميلة 1992.

(3) ي ويل واريو OP.CIT.

(4) م جوست، مظاهر الحياة الدّينيَّة في اليُونان، باريس ـ سيديس 1992.

فالتّطهير بالدّم ليس خاصّاً ببلاد اليُونان وحدها، بما أنّه وُجد - أيضاً - على أرض إسرائيل. هُنا مثل هُناك يبدو هذا النّمط من التّطهير هُو الأقوى والسّائد. أمّا الظُّرُوف التي تتطلّب استعماله؛ فهي مُوحية للأيديُولُوجيَّة التي تسوقها هذه الطّائفة. أمّا دراسته المُعمَّقة؛ فستكون غزيرة جدّاً، لكنّنا - هُنا - لن نستطيع إلاَّ أنْ نتطرَّق إليها بشكل مُقتضب.

تحصل الطّهارة الطَّقْسيَّة عند الإسرائيليِّيْن - بشكل عامٍّ - بالماء، وهكذا؛ فإنَّ مُوسى غسل كَهَنَتَه بالماء وهُو يُعلِّمهم (الأحبار 6.8 خُرُوج 21.19.30.10.29) إلاَّ أنّه تُوجد حالات استثنائيَّة يُصبح فيها التّطهير المادِّي بالماء غير كافٍ؛ وحيثُ يظهر أنَّ استخدام الدّم هُو الطّريقة الوحيدة لتأمين القُوَّة المُطهِّرة اللاّزمة (مع أنَّ استعمال الدّم ممنوع تحت طائلة الطَّرْد أو النّفي. (الأحبار 10.17) "لأنَّ رُوح الجسد هي في الدّم" (الأحبار 11.17). وكاتب الرّسالة إلى العبرانيِّيْن يُؤكِّد: حسب الشّريعة؛ كُلُّ شيء - تقريباً - يطَهَّر بالدّم. لقد تمَّ إبرام العهد بنَضْح الدّم: أخذ مُوسى الدّم، ورشَّه على الشّعب (خُرُوج 24. 8). الموضوع - هُنا - تطهير طَقْسي، إذاً؛ اعتباراً من ذلك الوقت فقط تأسَّس الهيكل، وتقدَّس الكَهَنَة (خُرُوج 31 - 25). من جهة أُخرى أصبحت إسرائيل مُكرَّسة بهذا النّضح، كما أنَّها أصبحت الملك الخاصَّ ليَهْوَه. لقد غُسل رجس أبنائها، ولم يعد مُلوَّثاً، فيستطيع يَهْوَه - إذاً - أنْ يبقى في وسطهم (خُرُوج 8.25). يجب أنْ نفهم - بدُون شكٍّ - أنَّ هذا الحُضُور الإلهي في وسط إسرائيل هُو أحد الأسباب العميقة التي تُعلِّل رفض الأجنبي: إذْ إنَّه يُمكن للأجنبي أنْ ينقل تلوُّثه ورجسه بالعدوى إلى الإسرائيلي، والذي - بدوره - قد ينقله لله، وهذا معناه تدنيسه. فعلى كُلِّ حال؛ إنَّ يَهْوَه يطلب - باستمرار - المُحافظة على هذه الطّهارة الطَّقْسيَّة: ستكونون لي رجالاً مُقدَّسين سليمين (خُرُوج 30.22) فبالدّم المُطهِّر والمُنسب تُصبح إسرائيل - إذاً - عرْقاً مُقدَّساً (ايد إيسد 1.9) (التّوراة شوراكي: "بذرة مُقدَّسة") يستطيع الله أنْ يبقى بين أبنائه: حلقة أساسيَّة. وهُناك حلقات أُخرى فيها أحداث هامَّة وحاسمة في تاريخ إسرائيل. ختان إبراهيم (خُرُوج 17. 26) الذي يختم فيه عهده مع الله، هُو - حتماً - دموي. والنّضال العنيف الذي قام به يعقُوب ضدَّ يَهْوَه خلال ليلة كاملة (تكوين 33 - 23.32) والذي انتهى بجُرح، (جرح دموي نازف؟) على أيِّ حال، فهي كافية لتكون سبباً لمنع غذائي) والذي

جعل يعقُوب يفهم أنَّ التّقي هُو أقوى من كُلّ شيء. إنَّ الدّم المطروح النّاجم عن الصّراع والختان هُما الأصل في تحوُّل (أونطُولُوجي) كَيْنُوني يُقرُّ - كُلّ مرَّة - بتغيير الاسم، فبإرادة الله أصبح أبرام، أبراهام، وأصبح يعقُوب إسرائيل. ونعرف من التّوراة أنَّ التّسمية هي التّملُّك. فإعطاء اسم لأحد ما أو لشيءٍ ما معناه أنْ تُصبح سيِّده. وهكذا حصل آدم على سُلطته على الحيوانات عندما أعطاها أسماء (تكوين 20.2).

وعندما يمتلك ملكٌ مدينةً يُعطيها اسمه (سام 28.12)، لذلك يُمنع - تحت طائلة الموت - أنْ يُسمَّى الله.

عندما سمَّى يَهْوَه إبراهيمَ ويعقُوبَ بعدما سيل دمهم، امتلك شخصيَّتهم. عَرَضيَّاً، أصبحت إسرائيل المُلكَ الخاصَّ والشّعب الخاصَّ ليَهْوَه بعد العهد والدّم اللّذَيْن مُهرت بهما (خُرُوج 5.19) (اشتراع 6.7). حَرْفيَّاً؛ شعب ذُو ملكيَّة خاصَّة حسب توراة أوستي (شعب ملك واسع، في توراة شوراكي، شعب خاصٌّ في توراة رابينات). بهذه الأمثلة الثّلاث، إنَّ الاحتكاك غير الدّنس مع الله، المُصدّق بالامتلاك يبدو أنَّه يفترض - مُسبقاً - تطهيراً بالدّم المسفوح. (المُراق).

هُناك مثل رابع يخطر في الذّهن: هُو مثل الأرض المُقدَّسة: هذه الأرض الكنعانيَّة المُقدَّسة هي أبعد ما تكون عن القُدسيَّة بما أنَّها مُدنسة بقذارة الشُّعُوب التي تسكنها: أصبح البلد "دنِس" (الأحبار 25.18). في التّوراة، ينقل البشر - أيضاً - دنسهم إلى الأرض التي يسكنونها. تدنَّست الأرض تحت ساكنيها لأنَّهم خالفوا القوانين. إنَّ قذارة الأُمم الكنعانيَّة الوَثَنيَّة تُلوِّث الأرض الموعودة؛ لأنَّ هذه الأُمم تُمارس الأضاحي البشريَّة: "حتَّى أبناءهم وبناتهم يحرقونهم بالنّار تقدمة لآلهتهم" (الاشتراع 31.12) إنَّ التّضحية لآلهة كنعان هي "تلويث للبلد بالدّم" (أناشيد 38.106) في الواقع؛ هُو الدّم الذي يُدنِّس البلد، هكذا قال كتاب العدد (33.35). ومُنذُ ذلك الحين ارتسم خلف التّطهير الضّروري منطق الإبادة؛ لأنَّه - ويتابع الكتاب - "من أجل البلد لا يُمكننا أنْ نُكفِّر عن الدّم الذي سال إلا بدم الذي سيَّله (أو سَفَحَه)، لذلك أمر الله بأنْ يحكم على الشُّعُوب الكنعانيَّة باللّعنة (اشتراع 2.7) مثلاً. محكوم باللّعنة: تُشير توراة أوستي إلى أنَّ هذا التّعبير هُو تعبير طَقْسي للحرب المُقدَّسة.

الموضوع هُو تكريس أرباح النّصر لله بالإبـادة التّامَّـة. تكريـس لله يعنـي (تقدمة لله حسـب قامُوس توراة بورداس): أ ليس الموضـوع ـ هُنـا ـ موضوع أضحيـة؟ أضحيـة بشريَّة مُطهَّرة، وفوق ذلك جماعة؟ هُنا؛ يظهر بوُضُوح المنطق الطَّقْسي لإبادة الشُّعُوب الكنعانيَّـة: يجب تطهير البلد بضحِّ دمهم، حتَّى يستطيع شعب يَـهْوَه من تملُّك الأرض دُون تدنيسـها. سوف يُسـمَّى بلـد كنعـان عندهـا القُطـر المُقـدَّس (مزامـير 78.54). الأرض المُقدَّسـة (حكمـة 17.3sag). فالدّم والطّهارة والتّملُّك، ثلاث مُعتقدات لا تفترق عن بعضها لأيديُولُوجيَّة الطّهارة الطَّقْسيَّة التي تُؤدِّي ـ بشكل حتمي ـ إلى إبادة جماعيَّة مُخطَّطة.

لقد أشرنا إلى وُجُود أُسلُوبَيْن لإثبات القرابة في النُّصُوص القديمة بالبُرهان السُّلالي وبطَقْس دم العهد. كذلك هُناك أُسلُوبان لبرهنة حُسْن أساس إبادة البعيد جداً الذي يُمثِّله الكنعانيُّون: بالتّطهير الطَّقْسي الضّروري للأرض الموعودة وبالبُرهان السُّلالي. هـذا البُرهـان السُّلالي ـ مرَّة أُخرى ـ ليس بريئاً، يُخفي إرادة تصنيفيَّة وفيها تمييز عُنصُري، وفيها تبريرات أخلاقيَّة للنَّبْذ والإبادة. لقد رأينا أنَّ الفصل الوحيد هُو العاشر في سفْر التّكوين يُسجِّل أصـل كُلِّ الشُّعُوب التي يعرفها الإسرائيليُّون. ثُمَّ ثمانية وثلاثون فصلاً يصف سُلالة شعب إسرائيل. ويُشير كُوهين: "يُمكن لسُكَّان العالم أنْ يتوزَّعوا بين إسرائيل وباقي الأُمم بمجمُوعها، إسرائيل هُو الشّعب المُختار: عقيدة رئيسيَّة"[1]. هُناك أُسطُورة تلمُوديَّة تُظهِر الفكرة التي صنعتها إسرائيل عن نفسها وعن الآخرين: كان يُوجد ملك يمتلك بُستاناً عظيماً. جعله في عهدة مُزارع. وبعد فترة من الزّمن عاد الملك لزيارة ملكه، فثار غضبه؛ لأنَّه لم يجد إلا عليقاً وأشواكاً وشوكيَّات. وبشكل طبيعي؛ طلب من نازعي الأعشاب، نَزْع كُلّ هذه النّباتات السَّيِّئة، لكنَّه رأى في وسط الأشواك ظُهُور وردة لها عطر فائق الجمال. فقال الملك: بسبب هذه الوردة أُنقذ البُستان بأكمله. البُستان هُو العالم، والملك هُو الله، والوردة هي إسرائيل، والأشواك هي باقي الأُمم[2]. هكذا يشرح التّلمُود الأمر، هذا الفرق الأونطُولُوجي بين إسرائيل وكُلّ الباقي يظهر ـ بوُضُوح تامٍّ ـ في التّوراة. ***فيصف كتاب (الحكمة) إسرائيل بالشّعب المُقدَّس*** (حكمة 85.10) ***والعرْق الذي "لا عيب فيه"***

---

(1) أ ـ كُوهين ـ OP.CIT.

(2) آ ـ كُوهين ـ OP.CIT.

(حكمة15.10) ***مُؤلّف من عادلين*** (20.10) ***مُستوطنة تليق بأبناء الله*** (حكمة 7.2) ***بينما للكنعانِيِّيْن طبيعة فاسدة*** (10.12) ***خُبث غريزي***. "***وأنَّهم عرْق ملعون مُنذُ البدء***" (11.12) ونجد مثل هذه الصّفات في كُلِّ موقع: ففي كتاب سفْر الخُرُوج: ***إسرائيل هي مملكة الكَهَنَة وأُمَّة مُقدَّسة*** (خُرُوج 6.19)، في سفْر الاشتراع هي ***أُمَّة مُكرَّسة ليَهْوَه*** (7.6) ***مُتفوِّقة، مُختارة، مولودة بِدُون عاهة***.

وفي كتاب أَشَعْيَا إسرائيل: ***هي نُور الأمم*** (42.6) ***شعب وُزراء ليَهْوَه*** (16.6) وفي كتاب إيسدراس هي ***عرْق مُقدَّس***. وعلى عكس ذلك؛ لا تنقص النُّعُوت لوصم الأُمم الأُخرى: هي خبيثة، دنسة، وَثَنِيَّة، وميَّالة للخزي والعار، إنَّها مصيدة وفخٌّ لإسرائيل، عندهم عادات تُثير الاشمئزاز (الأحبار23.20). لقد رأينا أنَّ هذه المسألة (الأونطُولُوجيَّة) الكَيْنُونيَّة) التي تُفضِّل إسرائيل عن باقي الأُمم، تُبرِّر قوانين فُوبيا الآخر، وتمنع - بشكل خاصٍّ - الزّيجات المُختلطة. غير أنَّ هذه المسافة تختلف حسب الشُّعُوب. ويبدو أنَّ الفكر العبراني يُقسِّم الجنس البشري إلى ثلاث أصناف سُلاليَّة كبيرة: صنف المُؤتمنين على الشّريعة (اليهُود)، وصنف الذين رفضوا سُوء قلبهم بإمكانهم أنْ يخضعوا لها، وصنف الذين هُم مُدنّسون بشدَّة، ورجسون، ولا يعرفون إلاَّ الخطيئة (الكنعانيُّون)، تعود هذه الأصناف إلى أبناء نُوح الثّلاث: سام وحام ويافث. وإلى الفترة؛ حيثُ انتشى أبُو الإنسانيَّة (تكوين 28.18.9).

في الواقع[*]؛ وفي ذلك اليوم تعرَّى نُوح تحت تأثير الكُحُول، فلاحظ حام العُري عند والده ونبَّه إخوته. فسارع هؤلاء، وستروا أباهم. وعندما استيقظ نُوح لعن حاماً، لكنَّنا لا نفهم تماماً الخطأ المُرتكب ومداه (يُشير "مُوريس دوري" أنَّه في التّلمُود صَرَّح أحد الأسياد أنَّ حام قد لاط نُوحاً، وآخر أنَّه خصاه. وبالنّسبة "ماهارال براغ" في القرن السّادس عشر؛ إنَّ نُوحاً قد ارتكب الأمرَيْن)[1]. وأمر وقرَّر أنَّ حاماً وذُرِّيَّته يُصبحون عبيداً لسام. هُناك تعليق في "زُهار" أو "كتاب الرّوائع" يقول عن أولاد نُوح: الأوَّل فاضل أو مليء بالفضيلة، والثّاني

(*) هذا في جُملة تشويه اليهُود للأنبياء وتحريف التّاريخ والكلام الإلهي.

(1) (م. دوريس) (جمال الحام)، عوالم يهُوديَّة، عوالم سوداء، باريس باللان - 1992.

مليء بالرّذائل، والثّالث بين الاثنين[1]. ومفهوم أنّ العبرانيّين هم ذُرّيّة الفاضل سام، والكنعانيّين ذُرّيّة الرّذيل حام (تكوين 10) وبما أنّ الفضيلة يجب أنْ تدحر الرّذيلة فيجب على العبرانيّين أنْ يُبيدوا الكنعانيّين، وهكذا يأمر الله. ولتبرير إبادة ذُرّيّة حام الكنعانيّة، توجّهت التّوراة إلى توظيف الانتقال الوراثي لبعض التّصرُّفات: ويشرح كتاب الحكمة أنّ طبيعة الكنعانيّين كانت عاطلة، وأنّ خُبثهم كان غريزيّاً، وأنّ إمكانيّاتهم لن تتغيّر أبداً (حكمة 10.12) ويبدو أنّ مثلب حام انتقل - تماماً - كما هُو من جيل إلى جيل. وإلى فسق حام تُجيب العادات الكنعانيّة التي يصفها الفصل 18 من الأحبار: زاني (مثل حام، يكتشفون عُري آبائهم وأُمّهاتهم وأخواتهم وبناتهم..) فُسق، أضاحي أطفال، شُذُوذ جنسي، حُبّ الحيوانات.

فالانتقال الوراثي لبعض الاستعدادات يصيب كُلّ الشُّعُوب. وقداسة إسرائيل هي استمرار لفضيلة سام. والكُفْر المُستمرّ (حزْقيال 5.35) والغضب والحقد والغيرة عند آدوم هي صدى المثالب التي كانت عند جَدّه عيسُو تجاه يعقُوب. وفُسق المُؤابيّين وخُصُوصاً نساءهم تُفسَّر بالأصل الفاسق لجَدِّهم مُؤاب الذي ضاجعت أمه لُوطاً أباها (تكوين 37-31.19).

ويبدو - هُنا - أنّ الشُّعُوب تمتلك طبيعة ثابتة. هذه الطّبيعة تتحكّم بالعلاقات بين الأُمم، وتُوجّه أفعالهم ومصيرهم. وبما أنّ إسرائيل قد وصفت هذه الطّبيعة وحدّدت ثباتها ورسّختها بالبُرهان السُّلالي، فهي سوف تستطيع أنْ تقوم بالإبادة الكاملة للشُّعُوب الكنعانيّة على طريقة استئصال الشّرّ، وبكُلّ ضمير مُرتاح.

هذه الإبادة قد وعد الله بها كمُكافأة: سوف تمتلك ذُرّيّتك باب أعدائها، وبذُرّيّتك سوف تُبارك جميع أمم الأرض (تكوين17.22). سوف تلتهم كُلّ الشُّعُوب التي يُسلّمها لك يهْوَه إلهك، عينك عليهم بدُون رحمة (اشتراع 16.6) وسوف يجعلهم يَهْوَه إلهك عُرضة لك (الشُّعُوب الكنعانيّة)، سوف يُصيبهم بضربات كبيرة، حتّى يُدمّرهم. سوف يُسلّم مُلوكهم لبين يدَيْك، وسوف تُزيل أسماءهم من الوُجُود، ومن تحت السّماوات لا أحد سوف يُقاومك حتّى تُدمّرهم. سوف يمشي ملاكي أمامك، ويجعلك تدخل عند الأموريّين والحثّيّين والبيريزيّين والكنعانيّين الحيويّين والجيبوزبيّين، وسوف أُبيدهم (خُرُوج 23.23). وَعْد

(1) الزّهار - مُقتطفات مُنتقاة ومُقدّمة من قبَل جيرسهوم شوليم، باريس - سوي 1980.

يَهْوَه هُو ـ أيضاً ـ أمر: عندما يُدخلك يَهْوَه إلهك في البلد الذي سوف تمتلكه، ويكون قد أخرج أمامك أمماً عديدة: الحثِّيِّيْن، الغيركاشيِّيْن، الأموريِّيْن، الكنعانيِّين، البيريزيِّين والهيويِّيْن والجبوزيِّيْن، سبع أمم أكثر عدداً وأقوى منك، ويكون يَهْوَه إلهك قد وضعهم تحت رحمتك، وتهزمهم أنت، وتُؤدِّي بهم إلى اللَّعنة، فلن تُبرم معهم عهداً، ولن تُشفق عليهم (اشتراع 7.1.2). قدَّم إلينا الهُولوكُوست الكنعاني وكأنَّه عمليَّة مُخطَّط لها وأبعد ما تكون عن عمل عشوائي غير مدروس. ويقول سفْر الخُرُوج إنَّ هذه العمليَّة يجب أنَّ تتمّ بالتَّدريج؛ رُويداً رُويداً، فالإبادة الجماعيَّة السّريعة جدّاً قد تُؤذي إسرائيل، هكذا يشرح يَهْوَه وهُو جاعل من البلد خراباً، عُرضة لحيوانات الحُقُول. ولكي يحصل الاستئثار المُبيد في ظُرُوف صالحة يجب الانتظار حتَّى تُثمر إسرائيل، وترث البلد؛ أيْ حتَّى يُصبح عدد أبنائها أكثر وأكثر ثقافة، ليستطيعوا زراعة واستثمار الأرض الكنعانيَّة (كان ما يزال العبرانيُّون بدواً حابيرو). يجب ـ إذاً ـ أنْ يكون هُناك عدد لا بأس به من الكنعانيِّيْن على قيْد الحياة وخاضعين للعُبُوديَّة يقومون ـ مُؤقَّتاً ـ بسدِّ حاجات الإسرائيليِّيْن. لقد حصلت الإبادة ـ إذاً ـ في مراحل مُتتالية. فحالما يُباد السُّكَّان الأصليُّون، نسكن مُدُنهم الكبيرة والجميلة (لم تحرق إسرائيل ولا مدينة من المُدُن القائمة على تلالها إلاَّ واحدة اسمها هاسور، حرقها يشُوع. كُلُّ بقايا هذه المدينة وماشيتها أخذها أبناء إسرائيل كغنيمة لهم. لكنَّهم ضربوا كُلَّ الرّجال بحَدِّ السّيف، حتَّى قتلوهم، ولم يتركوا شيئاً فيه نَفَس حياة (يُوشع yos 11.13 ـ 14) شبعوا من كُرُومهم وزيتونهم، وشربوا من ماء بيرهم "الذي لم يحفروه" لقد أعطيتُكم بلداً لم تتعذَّبوا فيه، مُدُناً لم تبنوها وأنتم تسكنوها، كُرُوماً وأشجار زيتون لم تزرعوها وتأكلوا منها (يُوشع 13).

خلف الأسباب الدِّينيَّة، ثُمَّ الأسباب الأخلاقيَّة للإبادة، تختفي دوافع أكثر دناءة ومادِّيَّة، وربَّما هي الوحيدة الحقيقيَّة، لكنْ؛ لا يُعترف بها، فهي ـ إذاً ـ مُقنَّعة بتبريرات كبيرة وذات مُستوى عالٍ. إنَّها دوافع تُذكِّرنا بالدّوافع الاعتياديَّة للغزو ونهب الأجنبي بالعُنف.

وطبقاً لأوامر يَهْوَه تُرتكب المذابح بدُون رحمة. فاحتلال مُدُن شرق الأردن: جعلناهم في اللَّعنة كما فعلنا لسيحون ملك حشبون لعنة لكُلِّ مدينة: رجالاً ونساءً وأطفالاً، لكنَّ كُلَّ

المواشي وبقايا المُدُن أخذناهم لنا غنائم. (اشتراع 3.6) ومن الاستيلاء على أريحا لم تحفظ الذّاكرة الغربيَّة إلا مشهد " الأبواق"، ويبدو أنَّها نسيت أنَّ الإسرائيليِّيْن جعلوا اللَّعنة على كُلِّ مَنْ وجدوا في المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً وعجائز، حتَّى البقر والماشية الصّغيرة والحمير، ضاربين الجميع بحَدِّ السّيف (يشوع yos 6.21). كذلك الأمر في ماكيدة؛ حيثُ لم يُبق يشُوع على أيِّ كائن حيٍّ. في ليبني؛ حيثُ ضرب يشُوع ـ بحَدِّ السّيف ـ كُلَّ الكائنات الحيَّة التي كانت مَوْجُودة، وفي لاكيش وغيرزير وايلكون وهيبرون وديبير ضرب يشُوع كُلَّ البلد: الجبل، النّقب، الجُزء المنخفض من البلد، والمنحدرات، وكُلَّ المُلوك. لم يُبق على أحد حيّاً: أرسل إلى الجحيم كُلَّ مَنْ كان له نَفَس حياة، وذلك حسب ما أوصى يَهْوَه إله إسرائيل (yos 10.18.40). والفصل الثّاني عشر من كتاب يشُوع يُراجع ـ باختصار ـ المُلوك المهزومة والشُّعُوب المبادة: حثِّيِّيْن، أموريِّيْن، كنعانيِّيْن، بيريزيِّيْن، هيوبيِّيْن، يبوسيِّيْن، والفصل الثّالث عشر يصف توزيع الأرض المُقدَّسة بالدّم الطّهر؛ وهي الآن مسكونة كما يجب من قبَل شعب الكَهَنَة. ومثل معبد أورشليم هذه الأرض التي ليست كالأراضي الأُخرى[1] هي محجوزة له، هي ممنوعاً على الدّنس، إذاً؛ على البعيد تحت طائلة الموت.

ويُشير "بيير كريبون" أنَّ أيديُولُوجيَّة الحرب المُقدَّسة (حرب أهليَّة لا تبحث أبداً عن الهداية)[2] تعود إلى الفترة التي تلي الإصلاح المُوسوي. وإنَّه من المُمكن أنْ يكون الأنبياء الذين أدلجوا هذه النّظريَّة قد عدَّلوا مُحتوى بعض النُّصُوص بهدف تبرير مُعتقداتهم. مهما كان الأمر فإنَّ هذه التّفسيرات للكتاب المُقدَّس لا تهمُّ دراستنا، بما أنَّ هذه النُّصُوص قد وضعت مُنذُ زمن بعيد قبل القرن الأوَّل للمسيح، وعُرفت كما هي، وكما نعرفها، ولا يُوجد أيُّ نقد أو دراسة نقديَّة وضعها موضع الشّكِّ من ناحية طابعها التّاريخي والمُقدَّس. كان يجب الانتظار لزمن الخطيب ريشار سيمُون واسبينوزا وبيير بايل في القرن السّابع عشر ليظهر النّقد النَّصِّي، وبعد ذلك تجريد النُّصُوص من قُدسيَّتها التي تُقدِّم الإبادة الجماعيَّة لشعب والنَّبْذ في يوم مُناسب. حتَّى لو لم تكن الإبادة عامَّة مثلما زعم يشُوع المُهمُّ في الموضوع، إنَّه نُظر إليها كمثال أعلى وكواجب مُقدَّس يجاوز حُدُود الضّمير؛ لأنَّ الله يُفرغ

---

(1) آ ـ نهير OP.CIT.

(2) كريبون ـ ديانات الحرب، باريس ـ البان ميشيل 1991.

الضّمير، زاعماً أنّه يُملي سُلُوكاً جيِّداً لا يُمكن التّحرُّر منه أو مُخالفته دُون التّعرُّض والخُضُوع - بالمُقابل - لعقاب عادل يكون عبرة لمَنْ يعتبر. فلا يُمكن أنْ يُوجد في مثل هذا النّصّ كابح للإبادة، إبادة الإنسان: يكفي أنْ نجعل الله يتكلَّم لنُسكِت الضّمير، ونخلق تصرُّف مُجرم موعود بمُستقبل جميل في أرض مُوحِّدة الله.

لقد تكلَّم الله - إذاً - لصالح الإبادة الجماعيَّة للأجناس ولصالح القتل. لكنَّه قد قال أيضاً: "لن تقتل أبداً". وكما يذكر شالوم كُوهين[1] فإنَّ الوصيَّة السّادسة لا تقول "لن تقتل أبداً" إنَّما في العبراني الأصلي: "لن تغتال أبداً" توراة شوراكي (خُرُوج 13.20). فالتّوراة لا تمنع التّمويت، إنَّما تمنع (الاغتيال / القتل)، فالفرق مُهمٌّ؛ لأنَّ الشّريعة تُحدِّده، إذْ هي التي تُحدِّد الحُدُود بين الفعلَيْن. الجُندي يُميت، أمَّا المُجرم؛ (فيغتال/ فيقتل). فالشّريعة تغفر أو تدين، تُحرِّر أو تسجن الضّمير. وهكذا؛ فإنَّ يَهْوَه لم يقتل الأطفال الوليدين في مصر، بل أماتهم. فمُوسى لم يقتل ثلاثة آلاف إسرائيلي خَوَنة ليَهْوَه، إنَّما أماتهم. ولم يقتل بنحاس الزّوج المُختلط الذي خوزقه، بل أماته. فلا يقتلون لا ساحرة، ولا شاذّاً جنسيّاً، ولا كنعانيّاً، إنَّما أماتوهم! فالاختلاف الدِّيني والجنسي والإثني يُبرِّر الإعدام باسم الشّريعة. يجب أنْ يقتلوا بالوصيَّة الإلهيَّة دُون أنْ يكون للضّمير أيُّ كلام يقوله؛ ذلك لأنَّ يَهْوَه يرغب بذلك بكُلِّ بساطة (اسمعوا صوتي، وافعلوا حسب ما أُوصيكم (إِرْمِيَا 4.11)، فالضّمير - هُنا - مُلغى، دوره ككابح للظُّلم. وفي عهد سيناء قال الشّعب: كُلُّ ما يقوله يَهْوَه سوف نفعله ونسمعه (خُرُوج 24 . 7). وبحسب توراة شوراكي فهُو يُترجم: سوف نفعل ونسمع: (نسمع: تعني فَهْم المعنى بحسب اللاروس) الموضوع - هُنا - طاعة عمياء وغير مشروطة: يأتي الفَهْم بعد الفعل.

إنَّ تصرُّف إبراهيم المُتعصِّب - وهُو يُقدِّم ابنه أضحية دُون احتجاج - أصبح مثالاً يُحتذى به لمخافة الله.

---

(1) شالوم كُوهين - الله هو برميل بُودرة، باريس - كالمان - ليفي 1989.

لكنَّ نظام القتل ـ هُنا ـ يُعيِّن البعيد جداً كضحية قُربان، الذي بسُلالته ومُمارساته وآلهته هُو الأبعد عن الإسرائيليِّيْن، فالاختلاف هُو الذي يدفع ـ حقيقةً ـ إلى القتل: اختلاف ديني بالتّأكيد، واختلاف ثقافي أو إثني.

سوف نرى في الفصل القادم آليَّة الرّفض، وأحياناً قتل الإنسان داخليَّاً، والاختلاف الذي هُو ليس ـ فقط ـ موقفاً مُرتبطاً برفض الوَثَنيَّة.

في الواقع؛ تقوم في المُتَّحد الإسرائيلي نفسه عمليَّة نَبْذ، تُهمِّش أو تُلغي بعض أعضائها ـ مع أنَّهم إسرائيليُّون ـ بمُجرَّد أنْ يظهر اختلاف في منشئهم، أو تصرُّفهم، أو مظهرهم الفيزيائي... هُنا مثل هُناك، هُو كلام يَهْوَه طبعاً، هُو الذي يُقدِّس النَّبذ، ويُعطيه شرعيَّته التي لا تُناقَش.

الفصل الثّاني:

مُجتمع مُحَوْجَب (مُحَوْجَز)

الأرض المُقدَّسة هي معبد. ومثل معبد هيرود له حواجزه وحُدُوده، وإسرائيل فقط - شعب الكَهَنَة - يُمكن لها أنْ تقطن فيها. وعندما وصلوا إلى هذا الحرم المُقدَّس سمع الإسرائيليُّون أقوالاً تأمر بإبادة الشُّعُوب التي تُدنِّسه. أقوال تُبشِّر بالتي سوف تُنقش ذات يوم على حرم معبد أُورشليم، ولها نفس مفعول التّهديد بمنع الدُّخُول إليه لكُلِّ الأجانب، وذلك تحت طائلة الموت.

يُمكن لنا أنْ نُقيم تشابهاً بين الأرض المُقدَّسة ومعبد أُورشليم، يُشكِّل فيها المعبد صُورة مُصغَّرة وأرقى من الأرض.

كما أنَّنا يُمكن أنْ نُماثل بين إسرائيل التي تقطن الأرض المُقدَّسة والكَهَنَة الذين يخدمون المعبد: هؤلاء يُجسِّدُون مُقدَّسي الشّعب المُقدَّس وجوهره.

يُمكن لنا - كذلك - أنْ نُقيم تشابهاً بين قواعد الطّهارة التي تُقيم العلاقات بين الأرض المُقدَّسة والشّعب المُختار والقواعد التي تُكرِّس الكاهن لخدمة المعبد. هذا مثل ذاك، المكان المُقدَّس يُناديه هُو وحده. فكرة المعبد هي مُتجذِّرة - بشكل أساسي - في فكرة نُصُوص العهد القديم. الأُولى مثل الأُخرى تُحاول اختتان الطّاهر وعزله داخل مكان مُقدَّس لحفظه سليماً وإلى إقامة حاجز نَفْسي وفيزيائي لإخراج (النّجس) غير الطّاهر وإبقائه خارج المكان. الواحدة مثل الأُخرى تفصل و(تُحَوْجب) تُحَوْجز (من حَجَبَ وحَاجَزَ).

لقد رأينا في المُقدِّمة أنَّ داخل معبد هيرُود مُجزأً إلى حُجيرات، فلا تسود فيه الفوضى وخلط الأجناس. فنجد فناء الكَهَنَة، وفناء الرّجال، وفناء النّساء، وغُرفة للجُذاميِّين. يبدو

أنَّ هـذا الفصـل مُرتبـط بأسـباب دينيَّـة ورُوحيَّـة ، بمـا أنَّ الكَهَنَـة هُـم مفصولـون عـن بـاقي الإسرائيليِّيْن وبأسباب مُتعلِّقة أكثر فأكثر بالطّبيعة الفيزيائيَّة للأفراد ، بما أنَّ الرّجل ـ مثلاً ـ مفصول عن المرأة أو عن الجُذامى . في الواقع ؛ إنَّ درجة الرُّوحانيَّة التي يتميَّز بها الفرد تبدو غير مُنفصلة عن جنسه وسُلالته ولياقته الفيزيائيَّة . فالكاهن هُو ـ أوَّلاً ـ رجل ، وثانياً ؛ مُمثِّل لطبقة تعود إلى هارون ، وثالثاً ؛ شخص بدُون عاهة . فالجسد بمُكوِّناته الظّاهرة نسبياً وتحديد جنسه وبأمراضه وعاهاته هُو انعكاس للرُّوح . وهذا يصحُّ في المعبد أو في المُجتمع ، فالفارق الفيزيائي هُو ذريعة للتّهميش .

التّهميش الاجتماعي يثبت بالمسافة المفروضة التي تُبعد الفرد عن المُقدَّس عندما لا يكون هذا من السُّلالة النّقيَّة بدُون لوث الإسرائيليَّة ، وعندما لا يكون رجلاً ، ولا ثُنائي الجنس ، وليس بدُون عاهة .

في هذا الفصل سوف نذكر عدَّة مجمُوعات بشريَّة تبتعد عن النّموذج المثالي ، مع أنَّها داخلة في تركيبة المُجتمع اليهُودي (على عكس الكنعانيِّيْن مثلاً) .

الكُلّ يُقدِّم "اختلافاً" فيزيائياً أو سُلُوكياً ، الكُلُّ مرفوضون ومنبوذون خارج المُجتمع ، أو على الأقلِّ في الأطراف .

وسوف نبحث بالتّتابع وضع المرأة والعاجز والجُذامي والشَّاذِّ جنسياً والخادم .

المرأة :

لقد ورثت المسيحيَّة عن اليهُوديَّة[1] الفكرة السّلبيَّة التي بنتها هذه الأخيرة عن المرأة والأُنُوثة كما سوف نرى .

بُولس ـ الذي كان يهُودياً ومن طائفة الفرِّيسيِّيْن ـ يُعبِّر ـ بشكل تامٍّ ـ عن بُغْض النّساء ، هذا الذي تنهل منه المسيحيَّة "أيَّتها النّساء اخضعنَ لأزواجكنَّ مثلما تخضعنَ للرّبِّ ، لأنَّ الزّوج هُو رأس المرأة ، مثلما المسيح هُو رأس الكنيسة ، والتي هي جسده وهُو مُخلِّصها (إف 23 ـ 22.5) . أو أيضاً "فَلْتُصْغ المرأة ـ بصَمْت ـ إلى التّعليمات ، وبكُلِّ خُضُوع . لا أسمح للمرأة

---

(1) آ بواسات ، الأعجوبة اليهُوديَّة ، باريس ، البان ميشيل 1932 .

أنْ تُعلِّم، ولا أنْ تصنع القانون للرّجل، فَلْتَبْقَ صامتة: لأنَّ آدم هُو الأوَّل في التّكوُّن، ثُمَّ بعده حوَّاء. وليس آدم الذي خُدِع، إنَّها المرأة المُغويَة هي التي قامت بالمخالفة والانتهاك." (itm 2.11-14) وقد كَتَبَ "ترتوليان" في بحثه "زينة النّساء" (decultufeminarum) والذي كُتبَ عام (202)؛ فتناول الاتِّهامات نفسها: " *وجب أنْ تعيشي - إذاً - كمُتَّهمة. أنتِ باب الشّيطان، أنت التي قصفت ختم الشّجرة، وأنت التي خدعت مَنْ لم يستطع إبليس أنْ يُهاجمه: أنت التي تغلّبت على الرّجل ببساطة وهُو صُورة الله. هذا جزاؤك الموت، والذي تسبَّب بموت ابن الله (2.1) وبذلك؛ توضَّحت في المسيحيّة النّاشئة عقيدة دُونيَّة المرأة المبنيَّة - أساساً - على فكرة العهد القديم القائلة بالخطيئة الأصليَّة التي هي مسؤولة عنها ومُتَّهمة بها.*

في الواقع؛ مُنْذُ سفْر التّكوين تشكَّل وتوضَّع الأساس في الخانة التي سمحت بوضع المرأة وموقعها في المُعتقدات اليهُوديَّة والمسيحيَّة، فالمكانة الثّانويَّة التي نُسبت "للجنس الثّاني" كانت مكتوبة في الأسطر الأُولى حول "تكوُّن المرأة": "قال يَهْوَه: ليس حسناً أنْ يبقى الرّجل وحده: أُريد أنْ أصنع له عوناً يكون كُفؤاً له، (تكوين 18.2) ففي ذهن الله ذاته تبدو المرأة بوُضُوح مخلوقاً ثانوياً، وليس من مُبرِّر لوُجُودها إلا من خلال الذَّكَر الذي خُلقت لأجله، وللعون الذي سوف تُقدِّمه له. وهُنا - ومُنذُ ذلك الحين - يبدو أنَّ الدّور الثّانوي للمرأة المرؤوسة ومراتب الأجناس كانا قد تثبَّتا بشكل قويٍّ وصلب، إذْ إنَّهما يُعبِّران عن الإرادة الإلهيَّة الأُولى التي تتضمَّن علاقات الرّجال / بالنّساء.

وهُناك مقطع آخر للمرأة يذكر - أيضاً - أنَّ الرّجل هُو الأساس الواجب اللاّزم للمرأة، ويُعلمنا النّصُّ الثّاني للخَلْق أنَّه وفي الزّمن الأوَّل عاش الرّجل وحده في جنَّة عَدَن. فهُو يحرسها ويزرعها ويمتلك امتياز أنَّه يعيش بالقُرب من الله. المنع الوحيد: هُو ألاَّ يأكل من "شجرة معرفة الخير والشّرّ تحت طائلة الموت" ولاحظ يَهْوَه أنَّه يلزم للرّجل مُساعدة. لذلك فهُو كوَّن من الأرض كُلَّ أنواع الحيوانات، وقدَّمها للرّجل. فقام هذا بتسميتهم، لكنَّه لم يجد أيَّ واحد منهم يُمكن أنْ يكون له عوناً مُكافئاً (مُناسباً). عندها؛ قام يَهْوَه بتنويم الرّجل، وأخذ واحدة من أضلاعه، ثُمَّ أغلق الجُرح، ومن هذا الضّلع بنى يَهْوَه المرأة.

فجلبها عندئذ إلى الرّجل، وقدَّمها له مثلما قدَّم الحيوانات السّابقة. مُنذُ ذلك الوقت تعلّق مصير المرأة كاملاً بإرادة الرّجل. فبرفضه لها يُمكن له أنْ يُرسلها بين البهائم "وبين حيوانات الحقل الأُخرى"، وبكلمة واحدة يستطيع أنْ يختار مخلوقة أُخرى ويربطها بمصيره. كلمة واحدة تكفي لتُصبح المرأة كناية عن حيوانة لبونة بدُون رُوح. ***لحُسْن الحظّ أنّ الرّجل قبلَ هذا الكائن المُتحدِّر منه ذاته، ولأنَّه مُتحدِّر منه: "إنَّها من رجل أُخذت" (تكوين 24.2) ومثلها مثل الحيوانات الأُخرى أعطاها اسماً: هذه سوف تُدعى امرأة (تكوين 23.2)***. إنَّ مُعتقد تكوُّن المرأة هذا ألا يضعنا في ظَرْف ثقافة بطريركيَّة أبويَّة (ذُكُوريَّة) بدائيَّة، مجروحة في كبريائها من الأولويَّة الطّبيعيَّة للمرأة الأمِّ في دورة ا لحياة؟ لذلك؛ وجب أنْ تُوضع الأُمُور في مكانها الصّحيح: في البَدْء كان الرّجل، والمرأة وُلدت من جسده.

لكنَّ الرّجل يتميَّز من المرأة ـ أيضاً ـ بشكل أساسي أكثر من ذلك، فهُو يجد في الواقع مبدأه الحيوي مثل كُلِّ الحيوانات (مزامير 104.29 ـ 30)، مُباشرة في نفخة الحياة التي نفخها يَهْوَه بذاته: "لقد نفخ في منخرَيْه نَفَس حياة، فأصبح الرّجل كائناً حيّاً" (تكوين 7.2). أمَّا المرأة؛ فهي لا تتمتَّع بهذا الامتياز، إذْ إنَّها تكوَّنت اعتباراً من مادَّة حيَّة سابقاً، فهي تأخذ نَفَس حياتها من الرّجل، وليس من الله مُباشرة. هذا النَّفَس هُو إلهي في منشئه، لكنَّ الرّجل كان هُو الوسيط الضّروري المُعطي الكريم، ومُنذُئذ؛ وضعوها بشكل منطقي، المُرُور الإجباري، المنخل بين المرأة والأُلوهيَّة: الرّجال ـ فقط ـ بإمكانهم الختان ـ وأنْ يتَّحدوا بيَهْوَه، الرّجال ـ فقط ـ يستطيعون الدُّخُول في مُستوى الكاهن.

وُجدت المرأة ـ إذاً ـ في وضع تبعيَّة كاملة بالنّسبة للرّجل: تبعيَّة فيزيائيَّة، إذْ إنَّها قد أُخذت منه: تبعيَّة رُوحيَّة، بما أنَّها أقرب للطّبيعة، فبواسطة الرّجل يُمكن للمرأة أنْ تصل للإله، أمَّا هذه التّبعيَّة؛ فلا يُمكن للمرأة إلا أنْ تتمنَّاها، فهي شرط لخلاصها. ألم يقل بُولُس ـ بدوره ـ إنَّ الرّجل هُو "مُخلِّص" المرأة؟!

ومع عقيدة "السُّقُوط" تمَّ تشكُّل المُعتقد الذي يُهمِّش المرأة نهائياً. ونعرف ماهيَّة الحبكة الأساسيَّة: يجب على الرّجل ألاَّ يأكل من ثمر الشّجرة المُوجُودة في وسط البستان. فهُو لم يلمسها كونه يحترم أوامر يَهْوَه. أمَّا المرأة؛ فهي كائن ضعيف الذّهن، قابل للتّأثُّر، وعندها

ميل ونزعة للاستسلام لجميع الإغراءات. وبما أنَّ الحيَّة من جهتها هي حيوان ماكر، عالمة نَفْس داهية، فهمت ـ بسُرعة ـ القُصُور العقلي الأُنثوي. بضع كلمات جميلة، التّأمُّل بآفاق مُستقبل عظيم، إطراء وتملُّق، كبرياء الجنس الضّعيف، كُلُّ ذلك يكفي لإقناع المرأة. فهذه سوف تُخالف الأمر الإلهي، وترتكب ما لا تُحمد عقُباه. وبما أنَّها المُلهم السيِّئ للذَّكَر؛ فهي تُحرِّضه على مُحاكاتها وتقليدها. وبما أنَّه ـ هُو ـ بريء، واثق، طيِّع، فسيرتكب الخطيئة نفسها.

ومُنذُ ذلك الحين وعى آدم وحوَّاء لعُريهما. فعالجا الأمر بحياكة ألبسة(وزرة) من أوراق شجرة التّين. لكنَّ هذا الحياء الجدِّي خانهما. إذْ إنَّ يَهْوَه يكتشف أنَّهما أخطأا، وبعد التّحقيق؛ يُعاقب الأبطال الثّلاثة بقسوة. فلُعِنَت الحيَّة، وحُكِم عليها بأنْ تسير على بطنها، وحُكِم على المرأة بأنْ تُولد في الآلام، وأنْ يحكمها زوجها. وحُكِم على الرّجل بأنْ يعمل "بعَرَق جبينه" ليكسب خُبزه. (تكوين 3) طُرِد آدم وحوَّاء من الفردوس. عندها؛ بدأت ـ بالنّسبة لهما ـ الآلام، العمل تاريخ مُتواتر بحُرُوبه، ومجاعاته وأحقاده. وبما أنَّ المرأة هي المسؤولة فيجب عليها أنْ تتحمَّل كُلَّ مصائب العالم: "لا يأخذنَّكَ جمال المرأة: لا تشته المرأة. غضب وصفاقة وعيب كبير عندما تعيل المرأة زوجها! قلب حزين، ووجه شاحب، وجُرح في القلب، هذا هُو عمل المرأة السيِّئة؛ يدان خائرتان، وركُبتان مُتزعزعتان، هذا هُو عمل التي لا تجعل زوجها سعيداً. بدأت الخطيئة بالمرأة، وبسببها سوف نموت جميعاً. "لا تعط الماء مخرجاً، ولا للمرأة السيِّئة أيَّة حُرِّيَّة. فإذا لم تسلك على هواكَ اقطعها من لحمك" (sir 26.21.26).

وبانتهاك الأمر الإلهي تكون المرأة مسؤولة عن موت الرّجل وهلاكه الأبدي. وهذا الموت الفيزيائي والرُّوحي الذي جلبته حوَّاء من أوَّل عمل لها مُعاكس لتلك الحياة التي أعطاها إيَّاها الرّجل من خلال قطعة من لدنه. وجب ـ لذلك ـ التّأمُّل وانتظار رجل آخر. المسيح الفادي حتَّى يُزيل ـ ذات يوم ـ نتائج (الخُبث/ المكر) الأُنثوي. ويقول التُّراث اليهُودي: بالانتظار؛ يجب أنْ نتجنَّب النّساء: "لا تستطيع المرأة أنْ تُوقع بالرّجل بوجه سافر، لكنْ؛ بتصرُّفات عاهرة، فهي تُوقعه في الفخِّ." (عهد روبن 4.7) أو "آمركم يا أولادي ـ إذاً ـ ألاَّ تُحبُّوا المال، وألاَّ تُلقوا بأنظاركم على جمال النّساء؛ لأنِّي ـ أنا ـ بحُبِّي للذّهب والجمال

اتَّجهتُ وانجذبتُ نحو " باتشوا " الكنعانيَّة. وأعلم أنَّ هذَيْن المَثَلَيْن سوف يُوقعـان بذُرِّيَّتـي فـي الأذى ". عهد يهُوذا (xuii ـ 1 ـ 2) وقد قال فيلُون عن الآسـينيِّين: فـي الواقـع؛ لا أحـد مـن الآسيِّين يأخذ له امرأة؛ لأنَّ المرأة أنانيَّة وغيورة بشـدَّة إلـى أبعـد الحُـدُود، مـاهرة فـي الإيقـاع بأخلاق زوجها وإغوائه بالسِّحْر المُستمرّ، تسعى المرأة ـ بكُـلّ جُـهُودها ـ لاستخدام الكلمـات المُغرية المُمالقة وكُلّ أنواع الأقنعة؛ مثل المُمثِّلين في المسرح، ثُمَّ عندما تسحر العُيُـون، وتأسـر الأُذُنَيْن؛ أيْ عندما تخرج الحواس التي هي عنـاصر مـأمورة، تضـلّ الذَّكـاء الحـاكم " (تمجيـد اليهُود apologie 15 ـ 14) ويتَّجه الـــ Siracide فـي الاتِّجـاه نفسـه: " لا تكـن غيـوراً مـن المرأة التي تستند إلى صدرك، ولا تُعطيها ضدَّك أفكاراً سيِّئة. لا تُعـط نَفْسـك لامـرأة، حتَّـى لا تغتصب (تتطاول على) قُوَّتك. لا تقترب من عاهرة، حتَّى لا تقع في شباكها، ولا تتـأخَّر مع مُغنِّية، خوفاً من أنْ تُؤخذ بألاعيبها. ولا تحطّ بأنظارك على بنت صبيَّة، خوفاً من أنْ تُجرَّ بحُكْمـها. لا تذهـب إلـى العـاهرات، حتَّـى لا تضيِّـع ميـراثك.... غُـضَّ عينَيْك عـن امـرأة جميلة، ولا تنظر إلى جمال أجنبي، فجمال المـرأة يُضيِّـع كثـيراً، والحُـبُّ يلتـهب كالشُّعلة، لا تجلس ـ أبداً ـ بالقُرب من امرأة مُتزوِّجة، ولا تشرب معها الخمر في الولائـم، خوفـاً مـن أنْ تتَّجه رُوحكَ نحوها، وفي اندفاعك تنزلق إلى ضياعك (sir 9.1 ـ 9).

وهكذا يبدو أنَّه ـ من خلال كُلّ هـذه الوصايـا الباغضـة للنِّسـاء ـ ارتسـم مثـال آدم الـذي غوته حوَّاء، والذي ضلّ ذكاؤه المُطلق بسبب أسحار المرأة، فانزلق في الضّياع ".

هذه هي تقنيَّة كبش الفداء التي تتضمَّن تحميل ضحية بريئة الشُّرُور، فتراها تُوضـع ضـدَّ المرأة. لكنَّها هي لن تُطرد، ولن تُباد، مثلما يحدث للأجانب، إنَّمـا تُحجـز فـي دور ثـانوي. فالمرأة هي ـ أوَّلاً هُنا ـ بطن. فهي مُكرَّمة ليس لكونها امرأة، وإنَّما لكونها أُمّاً. فتوليـد الذُّرِّيَّة العبرانيَّة تمرُّ من هذا البطن. لذلك؛ فـإنَّ رفـض الأجنبيَّـة هُـو أشـدُّ ـ بـدُون شـكٍّ ـ مـن رفـض الأجنبي. فعدا عن هذا المظهر المُرتبط بالإنجاب والذي يعزل المـرأة فـي دور مـنزلي محمـول، فإنَّ موقعها الدِّيني والاجتماعي والقضائي والأخلاقي يجعل منها كائناً من المرتبة الأدنى.

إنَّ المكانة التي تشغلها المـرأة فـي المُعتقـدات والمفـاهيم الدِّينيَّـة العبرانيَّـة هـي مُقلقـة بقـدر ما تُحدِّد هذه المفاهيم ـ دوماً ـ حُكْماً نهائيّاً للبنية الفوقيَّة القضائيَّة والأخلاقيَّة أو العائليَّة.

إنَّ قصَّة ولادة المرأة اعتباراً من ضلع الرّجل، وخُصُوصاً قصَّة مُخالفة الأمر الإلهي تُشكِّل - بصُورة أساسيَّة - البنية الأخلاقيَّة (للأبارتايد) للعُنصُريَّة الحقيقيَّة الدِّينيَّة والاجتماعيَّة التي تخضع لها المرأة.

تمركزت هذه العُنصُريَّة (الأبارتايد) في موضعها مُنذُ أنْ أقام يَهْوَه في ترتيب الدّرجات بين الأجناس. هُناك الرّجل ومُساعده المرأة. فيَهْوَه يحترم هذا التّرتيب (الرّجل يجب أنْ يُسيطر على المرأة (تكوين 16.3)) هكذا يُؤكِّد: لقد أُوحي بالشّريعة إلى الرّجل.

والمرأة؛ هذه الصُّورة المُشوَّهة عن الرّجل - وذلك ببَتْر القضيب منها (**Freud**) - هي لا تمتلك - تحديداً - ما يُمكن أنْ تُنفِّذ به العهد (ويبدو أنَّه قبل تهديم المعبد الأوَّل وحتَّى الجَغرافي سترابون كان استئصال البَظَر يُمارَس - أحياناً - كطُهُور للمرأة)[1] هذا النّقص (أو العيب) في جسد المرأة هُو دليل على نقص في رُوحها وابتعادها عن الإلهي، وتُشير التّوراة المئويَّة إلى أنَّه: "لا تستطيع المرأة أنْ تسكن في بناء مُقدَّس: ديانة يَهْوَه هي قبل كُلِّ شيء ديانة رجال: فبمعبد هيرُود لا يُمكن للنّساء أنْ يجتزنَ الفناء الثّاني أو فناء النّساء، لكي يدخلنَ - مثل الرّجال - في الفناء الثّالث، الذي هُو فناء الإسرائيليِّين. في المعبد، المسافة الرُّوحيَّة التي تفصل المرأة عن الله مُشار إليها في المسافة.

فيَهْوَه لا يُوحي - فقط - بالشّريعة للرّجل، إنَّما يبدو - أيضاً - أنَّه يمنع أنْ تُعلَّم التّوراة للمرأة. وكان هذا رأي مُعظم الأحبار.[2]

التّوراة هذه الشّجرة الأرضيَّة لمعرفة الخير والشّرّ تضع مسافة بين الرّجل والمرأة، مثل الشّجرة في الجنَّة التي جعلت مسافة بين الله والإنسان: المعرفة - هُنا - هي شكل من السُّلطة، ويُعلِّم سفْر تثنية الاشتراع: "الكلام الذي أقوله لكم سوف تضعونه في قُلُوبكم، وفي رُوحكم، وسوف تُعلِّقونه كعلامة على يدكم. فهُو يخدم كجبهة بين أعينكم. سوف تُعلِّموه

(1) ج.ڤالنّسين، اليهُود والجنس - باريس كرانشر 1983. للاستزادة في موضوع ختان الأُنثى والذَّكر؛ يُراجَع كتاب "مُؤامرة الصَّمت ختان الذُّكُور والإناث عند اليهُود والمسيحيِّين والمُسلمين الجَدَل الدِّيني الطِّبِّي الاجتماعي القانوني، د. سامي الذِّيب، تقديم د. نوال السّعداوي، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003.

(2) أ. كُوهين. التّلمُود - باريس - بايو 1986.

لأبنائكم، وتُكلِّموهم وإنْ كُنتُم جالسين في المنزل، أو سائرين علـى الطّريـق، وعنـد المنام، وعند القيام". (اشتراع 11.18.19).

أمَّا التّلمُود، فهُو يُؤكِّد: مَنْ يُعلِّم ابنته التّوراة يتصرَّف وكأنَّه يُعلِّمها الفُجُور" (sota 3.4) ولاحقاً: "الأفضل أنْ تحترق كلمات التّوراة في النّار من أنْ تُنقل إلى النّساء" (sota 19.8) وقد أجاب أحد الحاخامات امرأة سألت عن العجل الذّهبي فأجابها: " ليس على المرأة أنْ تتعلَّم شيئاً؛ إلاَّ معرفة استخدام المغزل" (yoma 66.b).

أمَّا الحاخام كُوهين؛ فقد فهم ذلك النُّفُور تجاه تعليم النّساء وكأنَّه ردٌّ فعل لرفض النّماذج اليُونانيَّة والرُّومانيَّة التي كانت تسمح بتعليمها وتضعها بعلاقة مُتَّصلة ومُتواصلة مع الرّجل، لكنْ؛ كان يحدث تراخٍ في الأخلاقيَّة.[1]

وإلى فكرة أنَّه من الفُجُور تعليم التّوراة للنّساء، انعكس دأبهنَّ في السِّحْر الذي يبدو أنَّه ارتبط بشخصيَّتهنَّ في مُجمل الأدب التّوراتي أو الحاخامي "النّساء كونهنَّ أكثر أُمِّيَّة - بشكل عامٍّ - وأكثر تطيُّراً من الرّجال كُنَّ مُنجذبات - بشكل لا يُقاوم - إلى الفُنُون السِّحْريَّة" هكذا علَّمنا (s.w. baron)[2] بارون، وقد أكَّد التّلمُود أنَّ النّساء تُركنَ للسِّحْر" (يوماً b83) " وأنَّ مُعظم النّساء تخضعنَ للرُّقية المُؤذية" سنهدرين"، وأنَّ إكثار النّساء هُو إكثار الأسحار (...) ويأمر سفْر الخُرُوج بما يلي: " لن تترك السّاحرة تعيش (سفْر الخُرُوج 22.17). وبذلك؛ أعدم الحاخام بن شيتاح ثمانية نساء في عسقلان.[3]

فالموقع الاجتماعي للمرأة هُو - بدُون شكٍّ - الانعكاس الدّقيق لموقعها الدِّيني. فالمرأة - هُنا - هي قاصر أبدي، معزولة عن الحياة العامَّة، وقضائيّاً؛ هي ثروة ملك الرّجل. والرّجل هُو الذي سمَّى المرأة، وهذا يُشير إلى أنَّه امتلكها. ومُنذُ السُّقُوط لم تعد المرأة العون المُساعد، إنَّما الخادمة لزوجها، وهُو يمتلكها (nb 5.15) " أنتِ ملك لزوجكِ (حَزْقِيال 5.23) (ohola أوهولا كانت ملكي)، وحَرْفيّاً - حسب توراة أوستي - تعني العبارة أنَّ المرأة هي "تحت زوجها"

---

(1) كُوهين OP.CIT.

(2) س. و. بارون - تاريخ إسرائيل، جُزء II باريس 1957.

(3) س و بارون OP.CIT.

يعني تحت سُلطته. وتفرض الوصايا العشر " ألاَّ تشتهي ما هُو لقريبك " بما مضمونه: "منزله، زوجته، خادمه، خادمته، بقرته، وحماره" (سفْر الخُرُوج 17.20) أمَّا سفْر تثنية الاشتراع؛ فيُجدِّد المَنْعَ، إنَّما مع إعطاء المرأة المرتبة الأُولى (اشتراع 5. 21) إنَّ الرّجل يستطيع أنْ يبيع ابنته كجارية (خُرُوج 7.21)، فإبراهيم عند وُصُوله إلى مصر سلَّم زوجته لفرعون، لينال من عطاءاته (تكوين 15.10 n)، ذلك لأنَّ المرأة هي نتيجة بَتْر فيزيائي للرّجل. فهي تُجسِّد قطعة اللَّحم التي أُخذت من آدم "إنَّها من الرّجل قد أُخذت" (تكوين 23.2) فالذَّكَر العبري يستملكها، وتعود له شرعيّاً" (siracide 36.24) فهُو يجب أنْ يشتريها من أبيها والتي لا تزال مُلكه. فلذلك؛ فهُو يدفع له مبلغاً من المال يُسمَّى المَهْرَ. وهذا التّدبير يظهر من بين تدابير أُخرى في فصل حول "المبالغ المسروقة أو الفاسدة" (خُرُوج 15 ـ 6.22) الذي يبحث ويُعالج فيه وضع الرّجل خصامياً الذي يُضاجع امرأة عذراء. إنَّ حالة العذراء التي فُضَّت بكارتها تظهر بعد قضيَّة المال أو القطعان الحيوانيَّة أو الأغراض الموضوعيَّة كأمانة عند رجل، فسرقت أو فسدت، هذا من جهة؛ ومن جهة أُخرى؛ فهي تُوضع في نَفْس سجلٍّ هذه المُمتلكات المادِّيَّة، وهذا له مغزى، فهي مثل البقرة أو الحمار، لكنْ؛ أقلّ تبعة بما أنَّها تأتي بعدهم في التّرتيب والإدراج، فالعذراء ـ هُنا ـ هي شيء مُمتلك ملكيَّة عائليَّة، وأفسدت، ويجب استرجاعها بتعويض مالي بقيمتها. وإذا كانت أحواله المادِّيَّة مُتيسِّرة وتسمح، فالرّجل يستطيع ـ طبعاً ـ أنْ يزيد من مُمتلكاته، ويحصل على عدَّة زوجات. . في عام 212 منعت رُوما تعدُّد الزّوجات لليهُود الذين حصلوا على الجنسيَّة (المُواطنيَّة الرُّومانيَّة). لكنَّ ذلك لم ينته نهائيّاً إلاَّ في القرن العاشر عند يهُود أوروبا، وذلك بفضل الحاخام جيرسهوم دي ماينس.

المرأة التي " تقبل أيَّ زوج " (siracide 36.21) يجب أنْ تخضع للرّجل، إلى هذا الزّوج قبل كُلِّ شيء، فالعذراء المُغتصبة هي مُجبرة أنْ تتزوَّج مُغتصبها! (الاشتراع 22.28.29) أمَّا "روث"؛ فهي تنام عند قَدَمَيْ "بوز" حتَّى تُبرهن له أنَّها تُريد أنْ تتزوَّجه. (روت 9.63). أبي جائيل ركعت عند قَدَمَيْ خَدَم دافيد (داود) الذين نقلوا طَلَبَ الزّواج إلى سيِّدهم. فتقول: " هذه هي خادمتك، وهي كالعبدة لتغسل أقدام خَدَم سيِّدي " (أسام

41.25). إنَّ الشّرع المُتعلِّق بالنُّذُور يُعبِّر - جيِّداً - عن تبعيَّة المرأة للرّجل، الذي هُو مسؤول - بشكل تامٍّ - عن نُذُوره وأمانيه. بينما المرأة يجب أنْ تُخضعها لأبيها إذا لم تكن مُتزوِّجة، ولزوجها إذا كانت مُتزوِّجة. رضا الرّجل الذي يمتلكها هُو - فقط - يُمكن أنْ يجعلها فعليَّة.

وقد روى "دانييل - روبس" أنَّ النّساء لا يأكلنَ مع الرّجال، لكنَّهنَّ يخدمنهم على المائدة وهُنَّ مُحجَّبات (اسام 21.1) وأنَّ النّوافذ المُطلَّة على الطّريق (مُشفَّرة) مُشبكة، حتَّى لا تُرى النّساء (قُضاة 28.5): (نشيد 2.9) وأنَّ الإسرائيلي لا يُكلِّم المرأة في الشّارع، خُصُوصاً إذا كانت زوجته. (yn 4.27).[1]

يُمكن للرّجل أنْ يُطلِّق زوجته، أو يرفضها، هذا طبيعي، أمَّا العكس؛ فلا يُمكن أنْ يحصل. وعمليَّة الطّلاق بسيطة جداً. يُشير سفْر تثنية الاشتراع فعليّاً: "عندما يتَّخذ رجل امرأة" ويتزوَّجها، ويُمكن أنْ يحصل ألاَّ تنال الاستحسان في عينَيْه؛ لأنَّه رأى فيها شيئاً مُزعجاً، يكتب لها كتاب طلاق، ويضعه في يدها، ويُرسلها إلى بيتها. (اشتراع 24.1) ومدرسة هيليل السّائدة تعتقد أنَّ وجبة طعام مَطْهُوَّة بشكل سيِّئ يُمكن أنْ تُشكِّل أمراً "مُزعجاً". أمَّا بالنّسبة للفرِّيسيِّيْن؛ فإنَّ الطّلاق يُمكن أنْ يحصل لأيِّ سبب كان (متَّى 9 - 3.19) ولأخذ العلم أنَّه اعتباراً من الوقت الذي تُطلَّق فيه المرأة، فهي مُحرَّمة على طبقة الكَهَنَة الوراثيَّة مثلاً (الأحبار 7.21).

وتنظر التّوراة في مُعاقبة المرأة الزّانية. ومن الطّبيعي أنَّها لو كانت مُتزوِّجة أو مخطوبة فقط، العقاب الوحيد لها هُو الموت (تثنية الاشتراع 22.22.24). وإذا اكتشف الرّجل أنَّ زوجته ليست عذراء ليلة الزّواج، ولم يُقدِّم حمواه دليلاً على عكس ذلك، فعلى العروس أنْ يرجمها الرّجال (الاشتراع 22.21).

وتبدو الإمكانيَّة الوحيدة لحُرِّيَّة المرأة هي في موت سيِّدها، إذْ إنَّ الزّوج في العبريَّة يُسمَّى "بعلاً" معناه السَّيِّد. لكنَّ "قانون ليفيرا levirat" (شريعة أخي الزّواج) يجعل هذه الإمكانيَّة مُستحيلة. فعند موت زوجها تجد المرأة نفسها مُجبرة على الزّواج من أخي زوجها، إنْ لم يكن لها ولد. فهي - ولا بحال من الأحوال - يُمكن أنْ تذهب إلى رجل آخر، إلاَّ إذا

---

(1) دانييل - روبس "الحياة اليوميَّة في فلسطين زمن يسُوع"، باريس، هاشيت 1961.

رفضها أخو المرحوم (تثنية الاشتراع 24.5). والدّافع الحقيقي لهذا الشّرع هُو ألاَّ تُبدد الثّروة العائليَّة التي هي جُزء منها.

إذاً؛ قضائيّاً؛ المرأة غير مُوجُودة كإنسان، عمليّاً؛ هي مُقتنى، والقانون العبراني يمنعها أنْ تكون قاضية yoma 436) وهُو منصب يُحتفظ به في المادَّة الجنائيَّة إلى "إسرائيليّيْن" يستطيعون أنْ يُزوِّجوا بناتهم إلى أعضاء الكَهَنُوت. (سنهدرين 2.4) يعني أنَّهم من سُلالة إسرائيليَّة صافية. وإذا عُدنا إلى نصِّ سفْر تثنية الاشتراع: " عندما يُكلَّف شاهد بالوُقُوف ضدَّ رجل ليتَّهمه في مثلب، يقف الرّجلان للشّهادة أمام يَهْوَه..." (اشتراع 19.15.17) فيُمنع الخَدَم الأجانب، والمقامرون، والمراهنون، والمرَّبُون. وغير الشُّرفاء حتَّى أنْ يكونوا شُهُوداً.

وبهذه النُّقطة بالذّات التّلمُود هُو قطعي تماماً، الشُّهُود لن يكونوا إلاَّ رجالاً: النّساء والقُصَّر ليسوا مقبولين للشّهادة (yoma 43b).

هذه الإجراءات التي كانت مُطبَّقة ـ بحزم ـ في زمن فلافيدس جُوزف تُشير ـ تماماً ـ إلى التّهميش الاجتماعي للمرأة والبُغْض الذي كان يُمارس حيالها. والاعتقاد أنَّ المرأة نجسة غير طاهرة يُوجِّه هذا الكُره المعلن. هذا النّجس هُو فيزيائي بيُولُوجي، بما أنَّه مُنذُ الولادة يُميِّز المرأة أكثر من الرّجل. فعندما تلد المرأة فإنَّها تُعتبر غير طاهرة خلال سبعة أيَّام إذا كان المولود ذكراً، وأُسبوعَيْن إذا كانت بنتاً (الأحبار 5 ـ 1.12). كما أنَّ فترة الحيض تجعل منها سبباً للنُّفُور يُخفي في طيَّاته الكُره: " عندما يحصل للمرأة سيلان، سيلان دم في جسدها تبقى سبعة أيَّام في نجسها. ومَنْ يلمسها يُصبح نجساً حتَّى المساء. وكُلُّ ما تنام عليه أثناء نجسها يُصبح غير طاهر، وكُلُّ ما تجلس عليه يُصبح غير طاهر، إلخ... (الأحبار 19.15).

ونجس المرأة هُو مُعدٍ مثل نجس الأجنبي. وكذلك؛ يجب الابتعاد عنها مثل الابتعاد عن الأجنبي: لكي لا ينظر أيُّ إنسان إلى الجمال، وفي وسط النّساء لا تجلس: إذْ إنَّه من الثّياب يخرج العثُّ، ومن المرأة خُبث المرأة. يُفضَّل خُبث الرّجل على طيبة المرأة: المرأة تُجلّل بالعار، وتجلب الخزي. (siracide 42.12- 14).

إذاً؛ لُمجرَّد اختلافها تجد المرأة نفسها على هامش مُجتمع يجعل من رفض النّجس سبباً لوُجُوده. سوف نرى - لاحقاً - عناصر أُخرى (غير نمطيَّة) في المُجتمع الإسرائيلي يُمارَس بحقِّها هذه الميكانيكيَّة الدُّونيَّة والتّهميش. إنَّهم العاجزُ والجُذامي والشَّاذُّ جنسيّاً.

العاجز، الجُذامي، الشَّاذُّ جنسيّاً:

يبدو أنَّ العاجز في المنظور العبراني لا يستجيب للفكْرة التي شكَّلوها عن الإنسان الطّاهر. وإنَّه ذُو مغزى كبير - مرَّة أُخرى - أنْ تميز الاختلاف الفيزيائي يُترجم - فوراً - في التّوراة بالشَّكِّ بالسّلامة النَّفْسيَّة للإنسان، وبعد ذلك يحصل تهميش اجتماعي. الدُّونيَّة النَّفْسيَّة والتّمييز يقع فريستهما مَنْ هُو مُصاب بعاهة، يستندان إلى تعاليم إلهيَّة: *يَهْوَه تكلَّم إلى مُوسى بهذه التّعابير: قُل لهارون بهذه التّعابير: الرّجل الذي من (ذُرِّيّتك - سُلالتك) وبأيِّ جيل كان، فإنَّ هُو كان مُصاباً بعاهة فيزيائيَّة، لن يقترب ليُقدِّم الغذاء لإلهه. لأنَّه لا يُمكن حتَّى لرجل ذي عاهة أنْ يقترب: الرّجل الأعمى، أو الأعرج، أو المُشوَّه، أو الدّميم، أو الرّجل الذي عنده كسر في ساقه أو ذراعه، أو أحدب أو هزيل، أو إذا كان عنده بُقعة في عينَيْه، أو الجرب، أو القوباء، أو عنده خصية مهروسة. ولا يُمكن لرجل من ذُرِّيَّة الكاهن هارون - ويكون عنده عاهة - أنْ يقترب ليُقدِّم الأضاحي بالنّار ليَهْوَه، إنْ هُو عنده عاهة. فهُو لا يقترب ليُقدِّم الغذاء لإلهه. غذاء إلهه، هي أشياء مُقدَّسة جدّاً وأشياء مُقدَّسة، يُمكن له أنْ يأكل منها، إنَّما قُرب السّتار لن يأتي أبداً وباتِّجاه الهيكل لن يقترب؛ لأنَّ عنده عاهة: إنَّه لن يُنجِّس قُدس أقداسي؛ لأنَّني يَهْوَه أنا الذي أُقدِّسها. هكذا كلَّم مُوسى هارون وأبناءه وكُلَّ أبناء إسرائيل (الأحبار 24.16.21).*

إذاً؛ العاجز - حتَّى لو كان من عائلة كَهَنُوتيَّة - فهُو لا يستطيع أنْ يصل ويدخل إلى الكَهَنُوتيَّة: عنده عاهة (انظر فلافيُوس جُوزف، كما أنَّه لا يستطيع - للأسباب نفسها - أنْ يلتحق بطائفة الآسيِّيْن، كما قُلنا سابقاً في المُقدِّمة (قواعد إضافيَّة مُلحقة 7.5.2) وقد أشار "فرانسيس شميت": "الأمراض، العاهات" المهن المُحتقرة أو الأوضاع الشّائنة يُمكن أنْ تُشكِّل دافعاً للإبعاد، إبعاد مُؤقَّت أو نهائي من مائدة الأطهار، كما أنَّهم كانوا مُعتبرين بأنَّهم يُشكِّلون عثرة للارتباط مع عائلة من درجة عُليا في منظور الطّهارة.[1]

---

(1) ف شميت، فكرة معبد أُورشليم في قمران، باريس - سوي - 1994.

ماذا يُمكن أنْ تعني عاهة فيزيائيَّة، أو عجز في هـذا النّـصّ؟ اختـلاف بالتّـأكيد، لكـنْ؛ يبدو أنَّها تعني نجساً أيضاً. فالعلاقة التي تربط الاختلاف بـالنّجس الدّنـس هـي فاضحـة جـداً هُنا. غير أنَّ التّوراة لا تقول - بشكل مشروح - لماذا وبمـاذا يستحقُّ العـاجز الإبعـاد العَلَنـي عـن الإله. لكنْ؛ واضح أنَّنا نُحزر - بدُون عناء - أنَّ العاهة الفيزيائيَّة هي العلامـة المرئيَّـة، العـرض لعاهة أعمق تُخفيها، وهي تُصيب النَّفْس، نَفْس العاجز ذاتها... وجب أنْ تكون النَّفْس على صُورة الجسـد، حتَّـى يكـون مُجـرَّد حُضُـور العـاجز المُشـوَّه ووُجُـوده سـبباً لتدنيـس الـهيكل وتحقيره. نستطيع أنْ نتخيَّل التّعاسة النَّفْسيَّة للّذي يتعـرَّض لنظـرة مُحيطـه المُرتابـة مـن جهـة، ومن جهة أُخرى؛ يجب عليه أنْ يتحمَّل في نَفْسه فكرة الخطيئة المُرتَكَبة، الخطيئة التـي يجـب دفع ثمنها، والعفن العميق الذي يجب التّكفير عنه: "كُلُّ البشر (الرّجال) أتوا مـن الأرض، ومن التّراب خُلق آدم. وقد ميَّزهم الرَّبُّ بعلمه الواسـع، ونـوَّع لـهم مسـاراتهم. فمنـهم مَـنْ بارك وعَظَّم، ومن بينهم مَنْ قدَّس وجعله قريبـاً منـه. آخـرون، لَعَنَـهم وأذلَّـهم وقَلَبـهم مـن مكانهم. فكما الصّلصال بيد الحوَّاض يفعل به ما يُريد، كذلك البشر بيد الذي صَنَعَـهم حتَّـى يُجازيهم بحسب حُكْمه (sir 32.10.13) فبذلك؛ العاهة هي ثمرة جزاء إلـهي عـادل. فاللـه أراد أنْ يُحقِّر، يلعن، يقلب الذي هُو قبل ولادته، فاسد.

بهذا العجز الفاسد، ألا نمتلك وسيلة رخيصة لإقامة قُدسيَّتنا الذّاتيَّة: فإذا كان هُـو ملعـون لأنَّه عاجز، فإذا أنا الذي بدُون عاهة. ألا أكون مُقدَّساً؟ في الواقـع؛ العـاجز مثـل المـرأة، أو ليس هُو ضحيَّة أيديُولُوجية كبش الفداء، و التي مضمونها رمي عاهات المجمُوعة علـى الذيـن يبدون مُختلفين؟ (إنَّ العبرانيِّين هُم الذين طبَّقوها يجب ألاَّ ننسى ذلك - الأحبار 16).

هُناك ضحيَّة أُخرى: الجُذامي:

اعتقد كريستيان دي كامبان أنَّه اكتشف العُنصُريَّة المُضـادَّة للجُذاميِّيـن فـي القـرن الرّابـع عشـر فـي أوروبـا، وذلـك مـع رفـض الخُبثاء المفـروض أنَّـهم حـاملو الجُذام[1]. فكَتَـبَ عـن موضوع هذا التّمييز العُنصُري "المُضادِّ للخُبثاء": تمييز بدُون غُمُوض ولا إبهام، بمـا أنَّـه يرتكـز - بجلاء ووُضُوح - على اعتبارات من نوع بيُولُوجي. إنَّهم الأطبَّـاء علـى سـبيل المُصادفـة هُـم

(1) دي لاكامبان، اختراع العُنصُريَّة - عُصُور قديمة وعُصُور وُسْطى - باريس فايار 1983. .

الذين وضعوا الأُسُس. الأوَّل من بينهم يُدعى "غي دي شولياك". إنَّه هُو الذي ميَّز - لأوَّل مرَّة عام 1383 - نوعَيْن من الجُذام: "المجذومون الحقيقيُّون" هُم الذين يمتلكون - بدُون أيٍّ لبس - كُلَّ علامات الجُذام، ويجب أنْ يُحجروا في مشافي الجُذام هذا من جهة، ومن جهة أُخرى؛ أنصاف الجُذاميِّين أو الجُذاميِّين المُزيَّفين الذين يمتلكون عدَّة علامات فيها لبس وقليلة المُشاركة. هؤلاء لا يُمكن أنْ يُحكم عليهم بالحجر، لكنْ؛ يجب أنْ يعيشوا على حدة، وألاَّ يختلطوا بباقي الشّعب.

هذه النّظريَّات تبنَّاها - بعد ذلك - أطبَّاء آخرون؛ مثل "لوران جوبير" وهُو شارح "شولياك"، ثُمَّ "أمبرواز باريه" وهُو مُتأثِّر "بجوبير". [1] وقبل "شولياك" بعدَّة قُرُون، وهُو قد قرأ العهد القديم. حتماً؛ طَلَبَ الأحبار التّمييز بين المجذوم الحقيقي والمجذوم المُزيَّف (الكاذب)، وهكذا يُعلِّم الكتاب: عندما يظهر على جلد رجل انتفاخ، "قوباء" بُقعة لَّماعة، علامات "جُرح الجُذام" وإذا كان هذا الرّجل أصلع، وتشكَّل على رأسه "جُرح أبيض مُحمر" عندها؛ يجب أنْ يمثُل هذا الرّجل أمام الكاهن. وبعد الفَحْص؛ إذا تعرَّف هذا الأخير - بشكل قطعي - على الجُذام، يخضع المريض لوضع الجُذامي: يُطرد خارج المُخيَّم. أمَّا إذا أظهر المَرَض أعراضاً أُخرى، وكان هُناك شكٌّ بالطّبيعة الحقيقيَّة لهذا المَرَض؛ عندها؛ يُحجر على المريض، حتَّى يتمّ التّأكُّد من تحديد ما إذا كان جُذاماً أم لا. (الأحبار، فصل 13).

إذاً؛ ليس الأطبَّاء، إنَّما الكَهَنَة هُم الذين وضعوا الأُسُس التي اعتبرها "دي لاكامبان" - خطأً - عُنصُريَّة. في هذا النّصِّ الإبعاد أو الحجر يدخلان في باب الإجراءات الوقائيَّة أكثر منهما استبعاد الآخر. التّعرُّف على أعراض هذا المَرَض وتحديد مُختلف مراحله، إبعاد المريض حتَّى لو كان هُناك شكٌّ يبدو أنّه فيه حُسْن تدبير أكثر منه رفض الاختلاف.

كم طبيب التزم بهذه المهمَّة، وليس من أمر طبيعي أكثر من ذلك؟

أمَّا إذا كان على العكس من ذلك؛ تسبَّب الجُذام بطرد يتجاوز الاهتمامات الوقائيَّة، وذلك بالاستناد - مثلاً - إلى نظريَّة أو مُعتقد يُفهم منه أنَّ الجُذام هُو عرض للخطيئة أو عاهة

---

(1) دي لاكمبان OP.AT.

يُجازي بها الله الإنسان، عندها؛ وبشكل لا يدعو للشَّكّ، فإنَّ هـذا التّقارب الذي يُقيمونه بين المظهر الفيزيائي للجُذامي وسلامته الرُّوحيَّة والأخلاقيَّة يُشير إلى مُقاربة "غَيْريَّة مَرَضيَّة" (فُوبيا)، أمَّا إذا كان الجُذام ذريعة لاعتبارات أخلاقيَّة ودينيَّة تخدم في التّميز والتّحقير الأخلاقي النَّفْسي، ومن جهة طهارة الفرد المُختلف بمَرَضه؛ عندها؛ لم يعد الأمر ـ بالتّأكيد ـ لا مسألة طبيَّة ولا مسألة صحيَّة.

في التّوراة تجد هذه المُقاربة الأيديُولُوجيَّة شرعيَّتها في فكرة إله قادر على كُلّ شيء، وكُلِّيُّ العلم لا يُعاقب أبداً بدُون عدل. فالمَرَض ـ بذلك ـ يُعاقب الخطايا الجماعيَّة أو الإفراديَّة (الاشتراع 28.15.61).

في هذا النّصّ يتعرض الجُذاميُّون ـ فعليَّاً ـ للتّحقير والخُضُوع فيزيائيَّاً ونَفْسيَّاً لوضع المطرود. فإذا كان الله لا يفعل شيئاً بدون سبب، فالجُذامي يُصبح ـ بسُرعة ـ مشبوهاً، كما أنَّ الجُذام في التّوراة هُو إشارة واضحة للَّعنة الإلهيَّة: "إذا لم تسمع صوت يَهْوَه. فإنَّ يَهْوَه سوف يُصيبك بقرحة مصر، وأورام، والجرب، والحماقات التي لن تستطيع الشّفاء منها" (اشتراع) فإنَّ جُرح مصر السّادس الذي عاقب عناد فرعون والبُثُور (أيْ الجُذام "القُرُوح المُتقيِّحة" (خُرُوج 10.9) مُشيرة ـ حسب الأحبار 20.13 ـ إلى هذا المَرَض) هي ـ ككُلّ شيء في هذا العالم ـ عمل إرادة ربَّانيَّة عادلة. ويُشير "دانييل روبس" أنَّ الجُذام كان نجاسة "لأنَّه يبدو أنَّه مَرَض ما ورائي (ميتافيزيقي) بقدر ما هُو فيزيائي، المظهر الفاضح لخطيئة الإنسان. ويُؤكِّد أنَّ تعبير "جُذام الخطيئة" الذي بقي مألوفاً للاهُوتيِّنا كان شائعاً من قَبْلُ.[1]

وفي هذا الموضوع تبدو ميريم شقيقة هارون ومُوسى قصَّة مُوحية ووواضحة بشكل كاف. أمَّا مُوسى ـ برغم زواجه من امرأة كُوشيَّة ـ؛ فقد احتفظ بحظوة الله. أمَّا هارون وميريم؛ فتشكّوا ـ بمرارة ـ ليَهْوَه الذي ثار على الفور ضدَّ المُشتكين: "اشتعل غضب يَهْوَه ضدَّهم، ورحل. انسحبت السّحابة من فوق الخيمة، وهذه ميريم أصبحت جُذاميَّة. بيضاء مثل الثّلج. التفت هارون نحو ميريم ورآها جُذاميَّة!" (12.9 nb ـ 10) لحُسْن الحظّ توسَّط مُوسى لصالح شقيقته: فهذه لن تُحجر إلا لسبعة أيَّام، ثُمَّ باستطاعتها أنْ تعود إلى المُخيَّم.

---

(1) دانييل روبس OP. CIT

لكنَّها ارتكبت خطيئة ، هي أنَّها تكلَّمت ضدَّ خادم يَهْوَه ، وهذه السّبعة أيَّام ستُصبح سبعة أيَّام من العار (nb 12.12) فالجُذام ـ إذاً ـ هُو مَرَض مُعيب يُترجم فعل خطيئة : "يَهْوَه ، لا تأخذني بغضبك ، ولا تُعاقبني بشدَّتك ، إذْ إنَّ سهامك قد تغلغلت فيَّ ، ويدك انقضَّت عليَّ . لم يعد بجسدي شيء سليم بسبب غضبك وسُخطك ، لم تعد عظامي سليمة بسبب خطيئتي . لأنَّ أخطائي اجتازت رأسي مثل حمل ثقيل جداً تثقل عليَّ . هذه الجُرُوح هي مُلوَّثة ومُقيِّحة بسبب جُنُوني . . . لأنَّ خطيئتي أُعلنها ، وأنا قلق من خطيئتي (مزامير po 38.2-19) .

إنَّ فكرة الجُذامي المُدان هذه ، والمخزي الخجل بجُرمه ، تقوى مع التّهديد الإلهي : "تذكَّرْ ما فعله يَهْوَه إلهك مع ميريم عندما كُنتم على الطّريق أثناء خُرُوجكم من مصر" (اشتراع 24.9) .

وبتعبير آخر ، إذا لم تتَّبع وصاياي ، ولم تحترم مُرسليَّ ، وإذا خالفتني أنا نفسي ، عندها ؛ بإمكاني أنْ أُرسل لك الجُذام مثل ميريم . ومُنذُ ذلك الحين أصبح الجُذامي فرداً مُريباً مشبوهاً ، كائناً لا أخلاقيّاً حتماً ، رذيلاً ، خاطئاً ، يجب طرده ، ليس ـ فقط ـ بسبب مَرَضه ، إنَّما ـ أيضاً ـ بسبب فساده ودَنَسه .

وبذلك ؛ أصبح (غويهازي) جُذامياً ؛ لأنَّه لصٌّ ؛ لأنَّه بالمكر سرق مالاً وثياباً لنُعمان ، آرامي مُصاب بالجُذام ، وشُفي على يد النّبي " ايليزي " . وقد قال هذا الأخير لغازي : " الآن ؛ وقد أمَّنتَ المال لنفسك ، سوف تستطيع أنْ تحصل على البساتين ، وأشجار الزّيتون ، والكُرُوم ، ماشية صغيرة وكبيرة ، خَدَم ، رجال ونساء . لكنَّ جُذام نُعمان سيرتبط بكَ وبذُرِّيَّتك إلى الأبد (2ro 5.26-27) ، أمَّا الملك أوزياس ؛ فهُو قد أصبح جُذامياً بعد أنَّ "خان يَهْوَه" لقد انتهك المهمَّات الكَهَنُوتيَّة عندما أحرق البُخُور على مذبح يَهْوَه ، وثار ضدَّ الكَهَنَة الذين لاموه ؛ لأنَّه : بينما كان ثائراً ضدَّ الكَهَنَة ظهر الجُذام على جبينه بحضُور الكَهَنَة في بيت يَهْوَه قُرب مذبح البُخُور (2 chr 26.19) . في هذا الإطار ؛ فإنَّ النَّبذ الذي يتعرَّض له الجُذامي يكون غَيْري مَرَضي بقدر ما تكون الاهتمامات المُتعلِّقة بالطّهارة الفَرْديَّة هي أقلَّ طبِّيَّة . فالمَرَض ـ بحَدِّ ذاته ـ ليس من اهتمامات الكاهن بقدر معناه الماورائي (الميتافيزيقي) .

كذلك الأمر حَدَث في الغرب المسيحي في القرن السّابع عشر، فلم تكن قضيَّة الجُذام هي التي أثيرت ضدَّ الخُبثاء.

وقد قدَّر "دي لاكامبان" الأمر كما يلي: إنَّ الحُجة التّمييزيَّة العُنصُريَّة هي - على الأرجح - ذات طبيعة دينيَّة. [1]

في الواقع؛ عرفوا في الخبيث سليل غازٍ (غوازي). وبما أنَّه ملعون يُصبح النَّبْذ شرعياً. إذْ إنَّ وراثيَّة الجُذام لا تدعو إلى الشّكِّ أبداً: أ لم يقل يَهْوَه: "جُذام نُعمان سوف يرتبط بكَ وبذُرِّيَّتك إلى الأبد"؟.

رغم كُلِّ ذلك؛ فإنَّ وضع الخبيث هُو أقلُّ أهمِّيَّة في هذا الغرب المسيحي؛ حيثُ يُمكنه حُضُور الواجبات الدِّينيَّة، وحتَّى الدُّخُول في الكَهَنُوت، منه في العالم العبراني. فهُنا في الواقع؛ الجُذامي هُو "نجس" (الأحبار 46.13)، فوضعه يُساوي وضع الأجنبي، لذلك؛ يجب أنْ يُطرد خارج المُخيَّم (الأحبار 46.13) حتَّى لا يُدنِّسه؛ لأنَّ الله ساكن فيه. (nb 5.2 - 3) أمَّا في الماضي؛ فالذي يعرف أنَّه جُذامي وجب عليه أنْ يُمزِّق ثيابه، ويترك شعره يتطاير، ويُغطِّي شاربَيْه (الأحبار 46 - 45.13) ومثل هذه الإشارات كانت ترمز إلى الحُزن، حُزن مُبرَّر بموته الرُّوحي. وإذا صدف وكان الجُذامي محظوظاً، وشُفي من المَرَض، فوجب طَقْس يُمارَس عليه للطّهارة، يرمز لعودته إلى الحياة (الأحبار 8 - 1 - 14) فالنّجاسة التي تعرفه وتُحدِّد شخصيَّته، والحُزن الواجب عليه تحمُّله، والتّطهير الطَّقْسي الذي يخضع له إذا شُفي، ذلك كُلُّه يُؤكِّد لنا أنَّها مُقاربة دينيَّة للجُذام. مُقاربة مُحطَّة للشّأن، نابذة، مبينة على رفض لاختلاف فيزيائي مُرتبط بالمَرَض، وليس بالأصل الإثني أو النّجس أو العاهة. نفهم - عندئذ بشكل أفضل - هذا المنطق الذي يُريد للجُذامي بصفته كائناً نجساً أنْ يُنبَذ من طبقة الكَهَنَة (الأحبار 22 . 4) تحت طائلة الموت، وجب عليه - عمليّاً - ألاَّ يقترب من الأشياء المُقدَّسة، ولا أنْ يأكل من الأشياء المُقدَّسة. ومع الجُذامي الذي يقترب من الأشياء المُقدَّسة، هُناك وجه آخر في المُجتمع العبراني يخضع لعُقُوبة الموت؛ إنَّه: الأُحادي الجنس، أمَّا اختلافه؛ فهُو ليس فيزيائيّاً مثل اختلاف الجُذامي، إنَّما هُو سُلُوكي.

---

(1) دي لاكمبان OP.CIT

يبدو أنَّ اللّوطي لا يستجيب للمعيار الطّبيعي المُحدَّد في النُّصُوص القديمة التّوراتيَّة. إلاَّ أنَّ بُغْض النّساء والاشمئزاز الذي تُوحي به بولادتها، ونُزُوفها، وعبادة إله واحد، ذُكُوري وغيور، ألا يُعبِّر ذلك كُلُّه عن لُوطيَّة مُسترة مُحدَّدة بصُعُوبة في ساحة الخيال الوهمي؟ وهذا نحيب داود بعد موت جُوناتان ألا يجعلنا نعتقد بذلك: "أنا مُتألِّم بسببك أنت، يا أخي جُوناتان. كان لك كثير من الجاذبيَّة والسِّحْر لي! "حُبُّك كان رائعاً أكثر من حُبِّ النّساء" (2 sam 2.26)؟! ونعرف - أيضاً - أنَّ الدّعارة الذُّكُوريَّة قد حقَّقت نجاحاً في فلسطين، وعلى الدّوام، بالرّغم من الشّريعة، وذلك في العُصُور كُلِّها عدا أزمنة القَمْع الدِّيني. عبيد المعبد من الجنسَيْن يُعاشرون أروقة المعبد نفسه؛ حيثُ تُوجد مساكنهم: "كان يُوجد حتَّى عاهرون مُقدَّسون في البلد" (1 ra 14.24). لقد هدَّم (يُوشاع) بُيُوت العاهرين المُقدَّسين الذين كانوا في بيت يَهْوَه" (2 ra 23.7). من جهة أُخرى؛ لماذا هذا العهد - بين الله والعبرانيِّين - لا يحصل إلا بالجنس؟ لماذا يجب أنْ يُنبَذ من الطّائفة كُلُّ مَنْ خصيه مبتورة أو قضيبه مقطوع؟ (سفْر تثنية الاشتراع 23.2) الختان، تعبير شهواني للتّعلُّق بيَهْوَه، لحُبِّ الله، ختان يُشير إلى أنَّ كُلَّ شيء يجري (بين الرّجال) ألا يُؤدِّي إلى إدخال عقيدة القضيب في الدّيانة العبرانيَّة؟.

في خلفيَّة هذا التّعلُّق "بالله الغيور" تظهر علاقة مفهومها الجنسي والعاشق واضح جداً. وقد قال يَهْوَه عن صهيون: "لن يقولوا لك أبداً: "مُهملة" وعن أرضك لن يقولوا أبداً "مهجورة"! إنَّما سوف يدعُونك "لذَّتي فيها" وأرضك "عروس" لأنَّ يَهْوَه سوف يضع لذَّته فيك، وتُصبح أرضك عروساً. سوف يتزوَّجك بانيك مثل رجل شابٌ يتزوَّج عذراء، ومثل عروس تُعطي الحُبُور لعريسها سوف تُعطين الحُبُور لله" (Is 62.4 – 5)، إذْ إنَّ في العهد القديم إسرائيل هي عروس يَهْوَه الزّوج (Is 54.5). في كتاب إرْمِيا يُقارن يَهْوَه الشّعبَ المُختارَ (شعب قلبه؟) بفتاة شابَّة (أر 32.2). لذلك؛ فإنَّ إسرائيل هي كالمرأة. ملك خاصٌّ ليَهْوَه يُمكن أنْ يُطلِّقها (Is 50). إنَّ وضع اللُّوطي يُصبح أكثر صُعُوبة بقدر ما يخدم - جُزئيّاً - في حماية جنسيَّة العبرانيِّين التي يقومون بها بشكل سيِّئ.

فاللُّوطي يخضع - فعلياً - لقمع النّظام الاجتماعي بقدر ما سُلُوكيَّته تتعارض مع الزّواج وأهدافه المرجُوَّة: التّجدُّد الدّيمغرافي لشعب إسرائيل (تكوين ps 6.22 tp 60.24.28.1

127.4) . وفي مُجتمع يُعتبَر فيه العُقم وكأنَّه كارثة (سفْر تكوين 1.30) وخزي وعار (تكوين 4.16) أو عقاب (es 47.9) (إرْمِيا 21.18) فإنَّ وضع اللُّوطي يبدو وكأنَّه تحدٍّ لا يلبث أنْ يجلب ردَّ الفعل (الأحبار)، يُعطي النّظام والعادة: " لن تُضاجع رجلاً مثلما تُضاجع امرأة: إنَّه رجس (الأحبار 22.18). ويرى سفْر تثنية الاشتراع في التّنكُّر: "لن تلبس امرأة لباس رجل، ولن يلبس رجل ثياب امرأة، لأنَّه إذا فعل أحدهم ذلك يكون سُوء ليَهْوَه إلهك" (اشتراع 5 . 22) فمَنْ يقول سُوء (رجس) يقول عقاب: الرّجل الذي يُضاجع ذَكَراً كما يُضاجع امرأة: هذا رجس ارتكبه الاثنان، سوف يعدمون دمهم عليهم (الأحبار 20 . 13).

هُناك مقطعان يُشيران إلى هذا التّطبيق لعُقُوبة الموت. في المقطع الأوَّل يتدخَّل الله شخصيّاً، وفي الثّاني رجال إسرائيل. العُقُوبة هي جماعيَّة؛ لأنَّ الجُرم كان جماعيّاً.

النّصُّ الأوَّل يخصُّ مدينة صودوم. وصل ملاكان إلى هذه المدينة، وأقاما عند لُوط ليُمضيا اللّيل: لم يكونا - بَعْدُ - قد خلدا إلى النّوم، حتَّى طوق رجال المدينة - رجال صودوم - المنزل من شبابهم حتَّى عجائزهم، الشّعب بأكمله بدُون أيِّ استثناء. فنادوا لُوطاً، وقالوا له: أين هُم الرّجال الذين دخلوا لعندك هذا المساء؟ اجعلهم يخرجون باتِّجاهنا، حتَّى نعرفهم (تكوين5.19) والتّعبير القائل: حتَّى "نعرفهم" هُو تلميح وتورية يُعبِّر عن العلاقات الجنسيَّة). ولحُسْن الحظِّ؛ فإنَّ سكَّان صودوم لن يستطيعوا الدُّخُول لعند لُوط؛ لأنَّ المدينة تُصبح - بعدها - خراباً.

ويأتي النّصُّ الثّاني في كتاب القُضاة. أمضى لاوي وزوجته ليلة عند عجُوز استقبلهم في غيبيا. وبينما هُما يتلذَّذان بقلبَيْهما، وإذْ برجال المدينة - تافهين حقيقيِّيْن - يصلون إلى المنزل، ويطرقون الباب بضربات مُكثَّفة، وقالوا لربِّ البيت العجُوز: " أخرج الرّجل من بيتك، حتَّى نعرفه " (قُضاة 22.19) ترجَّى العجُوز حتَّى لا تُرتكب هذه الحماقة، واقترح ابنته العذراء مُقابل ذلك. لا شيء يُجدي. وأخيراً؛ أمسك اللاَّوي بزوجته، وسلَّمها لرجال غيبيا الذين تسلّوا بها طوال اللّيل. وعند العودة في الصّباح سقطت المرأة في مدخل منزل الرّجل الذي كان سيِّدها عنده: وبقيت هكذا حتَّى صار نهار (قُضاة 19 . 26) وعندها - فقط - خرج سيِّدها، وقال لها: قفي، ولنذهب " وبما أنَّها كانت ميتة حملها على حماره. وفي

بيته ؛ قام بتصرُّفٍ يُذكِّر بالْمشاركة في الأضاحي ، فقطَّعها إلى اثنتَيْ عشرة قطعة ، وأرسل قطعة إلى كُلِّ قبيلة ، وليس قبل أنْ يُحدِّث مُرسليه عن مُغامرته . عندها اجتمعت طائفة إسرائيل وذبحت سُكَّان غيبيا الذُكُور (قُضاة فصل 19و20) ، وكما نرى في التّوراة فإنَّ كُلَّ أنواع القمع هي عادلة ، واللُّوطي ـ مثل الْمنحرفين الآخرين ـ يجب عليه أنْ يتدبَّر الأمر مع ضميره ، ومع قلَّة ذمَّة الجلاَّد الذي يتقلَّد مهمَّة الإنقاذ العالية . وبالإضافة إلى المرأة والعاجز والجُذامي واللُّوطي ؛ هُناك طبقة أُخرى تخضع للتّميز العُنصُري من قبَل الْمجتمع العبراني وديانته هي الرّقيق أو العبيد عندما لا يكون ابناً لإسرائيل . إذْ إنَّ ما يُسبِّب التّمييز العُنصُري هُو الأصل الإثني للعبد أكثر منه الوضع الاجتماعي .

العبد:

هُناك مقاطع عديدة في التّوراة تُظهر خُضُوع شُعُوب بأكملها بالقُوَّة لخدمة أبناء إسرائيل . وبذلك ؛ ترك الغابانيُّون أنفسهم يتحوَّلون إلى العبيد ، حتَّى لا يُبادوا : قال لهم الأُمراء : فليعيشوا ؛ لكنَّهم فليُصبحوا قطَّاعي أخشاب وغرَّافي مياه لكُلِّ الْمُتَّحد (الطّائفة) ، " وظلّوا قطَّاعي خشب وغرَّافي مياه إلى اليوم الذي نطق فيه الأُمراء بشأنّهم " (yoa 9.21) يشوع 9 . 21) ، (لكنَّ الرّقّ لا يُوفِّر الموت : فذُبح الغابانيُّون بدورهم (2 سام 21 . 1) ، أمَّا الْمؤابيُّون ؛ فقد خضعوا لقانون داود ، لقد هزمهم (داود) أيْ هزم الْمؤابيِّيْن ، وقاسهم بالحبل ، وجعلهم ينامون على الأرض ، لقد قاس حبلَيْن للموت وحبلاً كاملاً للحياة . وأصبح الْمؤابيُّون عبيداً لداود ، ودفعوا له الجزية " (2 سام 6.8) ، كذلك الآراميُّون خضعوا ـ بدورهم ـ للعُبُوديَّة (2 سام 8 . 6) ، والأمر ذاته حصل للأدوميِّيْن : " جعل داود لنفسه اسماً ، وعندما هزم ـ بدوره ـ الأدوميِّيْن في وادي الملح ، كان عددهم ثمانية عشر ألفاً . وضع ولاة في آدوم ـ في كُلِّ آدوم وضع ولاة ـ وأصبح كُلُّ الأدوميِّيْن عبيداً لداود (2 سام 8 . 13 . 14) . إنَّ تشريع العهد القديم يهتمُّ في شأنِّ العُبُوديَّة الفرديَّة التي يُمكن أنْ تُمارَس في إطار محدود على ـ ما يبدو ـ أكثر من اهتمامه بمال العبيد .

وهُنا يجب أنْ نُميِّز نموذجَيْن من العبيد : العبد العبراني الذي ليس عبداً تماماً ، والعبد الأجنبي . ولا يخصُّ الأمر أيَّ أجنبي كان ، إنَّه ـ غالباً ـ الـ "ger" الذي سبق وتكلَّمنا عنه .

إذا نحنُ نُعالج وضعه كعبد في هذا الفصل لأنَّه انجذب إلى داخل المُجتمع الإسرائيلي حتَّى هامشيّاً، وذلك على عكس الأجانب ذوات الأُصُول الأمونيَّة أو المُؤابيَّة مثلاً؛ فهُم منبوذون. (سفْر تثنية الاشتراع **23.4**).

الأُمُور بالنّسبة للعبد تسير مثل كُلِّ الأُمُور الأُخرى، فاختلاف المنشأ يُحدِّد اختلاف المُعاملة. إذْ إنَّ العبراني - حتَّى لو كان عبداً - فهُو كائن مُقدَّس ومنذور لخدمة الله، وذلك على عكس الأجنبي، الذي يُمكن له أنْ يكون في خدمة اليهُودي، وذلك في بعض الحالات، وعندما لا يكون نجساً كثيراً.

فالقدِّيس هُو - أيضاً - القريب الذي يُطبَّق عليه قانون الطّائفة الاجتماعي، وليس البعيد الذي يستحقُّ العقاب الإلهي، وبالتّالي؛ عقاب الشّرّ.

العمل في التّوراة هُو علامة سقُوط، عاقبة لخطأ مُرتَكَب، جزاء إلهي يُحكَم فيه على البشر بالخُرُوج من الجنَّة؛ ليأكل بعَرَق جبينه ببعض الشّوكات، وأشواك أُخرى التي قد تُعطيها له الأرض (تكوين **19.17.3**) فالعامل (الشّغّيل) في هذا النّصِّ هُو العبد، بما أنَّ العمل هُو الذي يُحدِّد وضعه، فهُو مُذنب يُكفِّر عن ذنب، ويُنفِّذ العقُوبة (العمل في اللاّتيني **Tsepalium** أداة تعذيب. وعمل المرأة بعد السُّقُوط هُو الولادة، أمَّا ألمها في العمل والرّبح القليل الذي يدره عليها؛ فيُمكن ألاَّ ينظر إليهما وكأنَّهما ظُلم إليها، ولكنْ؛ كإشارة لإرادة ربَّانيَّة عادلة.

وهُنا، يتسلَّح استغلال الرّقّ ببُعْد أخلاقي ديني، وذلك بإدخال عُنصُر ثالث بين المُستَغِلِّ والمُستَغَلِّ، يُبرِّأ الأوَّل ويُتَّهم الثّاني ويُرهقه: هُو الله. وقد قالها القدِّيس أوغوستان بوُضُوح: "إنَّها الخطيئة" التي تجعل الإنسان يُمسك الإنسان بالقُيُود وكُلَّ مصيره: وهذا لا يحدث إلاَّ بحُكْم الله الذي لا يُوجد فيه أيُّ ظُلم، والذي يعرف تقدير العقُوبات المُناسبة للنّواقص وعدم الاستحقاق[1]. وقد علَّم بُولُس: "أيُّها العبيد أطيعوا أسيادكم بحسب الجسد، مع الخوف والارتجاف، وفي بساطة قُلُوبكم كما للمسيح، لكنْ؛ ليس لأنَّهم يرونكم أو بهدف أنْ تُعجبوا البشر، إنَّما مثل عبيد المسيح الذين يفعلون إرادة الله من كُلِّ رُوحهم، مُستَعْبَدين

---

(1) م الانجيل - العبُوديَّة أو الرّقُّ - باريس بوف 1976.

برضاكم، كما لو كُنتم للرَّبِّ، وليس للبشر"... (eph 6.5)، (itim6.1): إلى كُلِّ الذين يرزحون تحت نير العُبُوديَّة، فليعتبروا أسيادهم جديرين بكُلِّ تشريف...).

هذا المنطق هُو صحيح لكُلِّ البشر، لكنْ؛ ليس للعبرانيِّين، وذلك حسب الأحبار: هؤلاء هُم خُدَّام يَهْوَه، فلا يُمكنهم أنْ يكونوا خَدَمَاً لأيِّ إنسان. وقبل أنْ يُصاغ هذا التّأكيد جهدت نُصُوص سفْر الخُرُوج إلى تلطيف عُبُوديَّة العبراني عندما تحصل.. وهكذا؛ فالعبراني لا يُمكن أنْ يظلّ خادماً أكثر من ستٍّ سنوات: "عندما تشتري عبداً عبرانيَّاً سوف يخدم ستَّ سنوات، وفي السّابعة يكون حُرَّاً، دُون أنْ يدفع شيئاً" (خُرُوج 21 ـ 2) وقد يحصل أنْ يكون لهذا العبد امرأة وأولاد. هُناك حالتان يُنظَر فيهما: العبد كان مُتزوِّجاً قبل عُبُوديَّته؛ عندها يذهب مع المرأة والأولاد، أمَّا إذا كان السَّيِّد هُو الذي أعطاه المرأة؛ عندها تبقى المرأة وذُرِّيَّتها عند السَّيِّد (خُرُوج 3.21 ـ 7). وفي هذه الحالة الثّانية إذا أراد العبد أنْ يبقى بالقُرب من زوجته وأولاده وسيِّده الذي "يُحبُّه": سوف يجعله سيِّده يقترب من الله، ويجعله يقترب من مصراع أو دعامة الباب، سوف يثقب له سيِّده أُذنه، وهُو سوف يخدمه إلى الأبد (خُرُوج 6.21).

وينظر سفْر الخُرُوج ـ أيضاً ـ في حال الابنة المُباعة كخادمة (من قبَل أبيها على الأرجح) (وهي في الحقيقة مُعدَّة لتصبح عشيقة سيِّدها) (خُرُوج 11 ـ 7.21). إنَّ التّشريع العادي لا ينطبق هُنا. فقد وُضع قانون آخر، قانون يُماثل أكثر بين المرأة والأجنبي. في الواقع؛ هُنا أمل التّحرُّر في نهاية السّنة السّادسة ليس له وُجُود. فبالنّسبة لهذه الفتاة تكون الفرصة الوحيدة للتّحرُّر هي أنْ ينفر منها سيِّدها الذي يستطيع أنْ "يُحرِّرها"، وهذا التّعبير في المُفردات التّوراتيَّة يعني "تسليم مُقابل فدية" وذلك حسب توراة "أوستي". ويجب ـ عندها ـ إيجاد آخذ، بما أنَّه مُتعارف عليه أنَّ السَّيِّد لن يستطيع بيعها إلى الأجانب؛ لأنَّه ـ بذلك ـ يُخالف القانون الذي يمنع الزّيجات المُختلطة (خُرُوج 8.21). يستطيع السَّيِّد ـ أيضاً ـ أنْ يهبها لابنه. حقُّ البنات ـ عندها ـ يجب أنْ يُطبَّق بشكل طبيعي. يستطيع أنْ يحتفظ بها، ويتَّخذ لنفسه عشيقة ثانية، لكنْ؛ يجب عليه ألاَّ يغبنها بشيء: "لن يُنقص شيئاً من طعامها، ولا من ملبسها، ولا من حُقُوقها الزّوجيَّة" (خُرُوج 10.21) فإذا خالف السَّيِّد أحد هذه الواجبات

الثّلاث، فباستطاعة خادمته أنْ تذهب دُون أنْ تدفع شيئاً، ولا أنْ تُعطي مالاً" (خُرُوج 11.21). في الأحبار يتلطّف وضع العبد الذّكَر العبراني لدرجة لا يبدو فيها عبداً: "إذا وقع أخوك بقُربك بضيق، وبيع لك، فأنت لن تُخضعه لعمل العبيد". فهُو يظلُّ عندك مثل عامل بالأُجرة، مثل ضيف" (الأحبار 39.25 ـ 40). فقد أُثيرت ـ في الأزمنة الأُولى ـ فكرة الرّابط السُّلالي وأُخوّة العبادة لتبرير هذا التّصرُّف الخاصّ: لا نُسيء مُعاملة أخينا. وفي زمن لاحق، أثار الكُتّابُ الأحبارُ التّفوُّقَ الوُجُوديّ (الأونطُولُوجيّ) للعبرانيِّين والدّورَ الخاصّ المُعَدّ لهم: الإسرائيلي ـ هُو هُنا ـ ليخدم الله، وليخدم غيرهم البشر: "لأنّهم خَدَمي، هُم الذين أخرجتهم من بلاد مصر، فيجب ألاّ يُباعوا مثلما يُباع العبد. فأنت لن تحكم عليهم بقسوة، لكنّك سوف تخاف ربّك" (الأحبار 25 ـ 42 ـ 43) "لأنّه مَنْ يكون من أبناء إسرائيل خَدَماً، إنّهم خَدَمي هُم الذين أخرجتهم من بلاد مصر" (الأحبار 55.25) ويرى سفْر الأحبار ـ أيضاً ـ أنّ أخاً في شدّة يُباع إلى مُواطن مُقيم، إلى مُضيف، أو إلى أحد من سُلالة عائلته يكون ذا مقدرة. ويُوجد ـ في جميع الأوقات ـ حقُّ التّحرُّر الذي يُمكن أنْ يقوم به الرّجل الذي بيع أو عائلته. لا أحد يُمكن أنْ يعترض، وبالانتظار "يكون عند الآخر وكأنّه عامل بالأُجرة السّنويّة. لا يأمرونه بقسوة تحت أنظارك" (الأحبار 53.25). هُناك أمر يتكرّر غالباً هُو ألاّ تأمر أخاك بقسوة، وحتّى ألاّ تقبل أنْ يُعامل من قبَل الآخر بشدّة، وتحت أنظارك".

إنّ واجب التّضامن الإثني هذا سوف يكون له نتائج تاريخيّة هامّة، بما أنّه مع الولادات هُو أحد الأسباب للتّزايد العددي للمُتّحدات اليهُوديّة في الشّتات، التي تضمّنت ـ فعليّاً ـ ألوف العبيد الإسرائيليِّين الذين يتمُّ استرجاعهم من قبَل مُواطنيهم بعد الحُرُوب اليهُوديّة.

ويتناول سفْر تثنية الاشتراع ـ من جديد ـ هذا التّشريع بتلطيفه أكثر، وخُصُوصاً بما يتعلّق بالنّساء: "إذا بيع لك أخوك العبراني، رجل كان أو امرأة، فهُو يخدمك ستّ سنوات، وفي السّنة السّابعة تُخرجه حُرّاً من عندك. وعندما تُرسله تُخرجه حُرّاً من عندك، فأنت سوف لن تُخرجه ويداه فارغتان، بل يجب عليك أنْ تُحمّله بالهبات من ماشيتك الصّغيرة، ومن بيدرك، ومن برميلك، حسبما يكون قد باركك الله. سوف تُعطيه... واجعل ألاّ يكون قاسياً في نظرك بأنْ تُخرجه حُرّاً من عندك: إذْ إنّه كونه خدمك ستّ سنوات، فهذا

يُساوي ضعف الأجر لعامل بالأُجرة. ويَهْوَه إلهك سوف يُباركك في كُلِّ ما تعمل (اشتراع 15.19). وهكذا يُقدِّم يَهْوَه شهادة رضى إلى الذي يُعامل أخاه بإنسانيَّة؛ أخاه، وليس الأجنبي. ففعليّاً؛ إنَّ وضع هذا الأخير هُو مُختلف تماماً. فهُو لا يُعتبَر كائناً حيّاً: إنَّه شيء، ملك، والقوانين الشّرعيَّة المُختصَّة به هي قوانين الملكيَّات المادِّيَّة: فهُو سوف يُشترى، يمتلك إلى الأبد ويُورث: الخادم والخادمة التي سوف تحصل عليها سوف يأتونك من الأُمم التي تُحيط بك. فمنها سوف تشتري الخدَّامين والخادمات.

يُمكنكم - أيضاً - أنْ تشتروا من بين أبناء الضُّيُوف الذين يُقيمون عندكم، ومن بين عائلاتهم الذين عندكم، ومن الذين يتوالدون في بلدكم فيُصبحون مُلككم. وسوف تتركونهم إرثاً لأبنائكم من بعدكم، حتَّى يتملَّكونهم مُلكاً خاصّاً، وتأخذوهم عبيداً للأبد. أمَّا بالنّسبة لِمَنْ هُم من إخوانكم، أبناء إسرائيل؛ لا أحد منكم يحكم على أخيه بشدَّة" (الأحبار25 - 44 - 46). بالنّسبة لهذا العبد الأجنبي، هُو الوحيد الذي يكون: " ملكيَّة خاصَّة "، فليس له تحرُّر بعد ستِّ سنوات، وليس من مَنْع للحُكْم عليه بشدَّة، ليس له هبات. وبذلك؛ وبحسب التّلمُود؛ إذا وجد عبد وَثَني شيئاً فهذا يعود لسيِّده. وعلى عكس ذلك؛ إذا كان العبد إسرائيليّاً؛ فهُو يحتفظ بالشّيء (بحث بابا ميتسيا 1.1 - 5) فشيء لا يُمكن له شرعيّاً أنْ يكون مالكاً لشيء آخر. العبد الوَثَني يحمل علامة سيِّده (gittin 86a). فإذا مات فلن تُقام له أيُّ مراسم جنائزيَّة، ولا أيُّ حُزن، ولا أيُّ تعاز: فُقدانه هُو مُماثل لفُقدان حمار أو بقرة (bera khoth 16b) لقد أُرسي الحَدُّ الذي يخصُّ العبد الأجنبي أخلاقيّاً وقضائيّاً، ونتج عنه مُعاملته الفيزيائيَّة. ويُعطي كتاب الأمثال النّهج واللَّهجة: " ليس بالكلمات نُصلح عبداً، حتَّى لو فهم فهُو لا يحسب حساباً (مثل 19.29) أو: " إذا دلَّلنا عبدنا مُنذُ الطُّفُولة سينتهي به الأمر إلى الثّورة. " (مثل 21.29). ويُعطي الكَهَنُوتي بعض التّحديدات: " للحمار العلف والعصا والأثقال، وللخادم الخُبز والتّأديب والعمل. اجعل خادمك يعمل، فسوف تحصل على الرّاحة، اترك له يدَيْن حُرَّتَيْن، سوف يبحث عن الحُرِّيَّة. النّير والسّير يلويان الرّقبة، وللخادم الفاسد التّعذيب والمُساءلة. أجبرْهُ على العمل، حتَّى لا يكون بطَّالاً؛ لأنَّ البطالة تُعلِّم كثيراً من الشُّرُور: اجعله يعمل بحسب ما يُلائمه، فإذا لم

يُطعْ فاثقلْ قَدَمَيْه بقيُود. لكنَّك لا تُفرِّط تجاه أحد، ولا تفعل شيئاً بدُون عدل (sir 33.25 - 30). ويُؤكِّد بن سيرا - لاحقاً - أنَّه يجب ألاَّ نخجل: من تحقيق الرِّبح في بيع للتُجَّار، ومن تربية الأطفال بشدَّة، اجعل جنوب الخادم السِّيِّئ تنزف (سير 5.42). وقد وعد النَّبي أَشَعْيَا: إليك يأتون مُنحنين، أبناء الذين يُثقلونك (أَشَعْيَا 14.60)، سوف يبنون أسواراً (أَشَعْيَا 10.60) وسوف يرعون قطعانهم، ويحرثون ويقطفون العنب، بينما يكون جنس (عِرْق) يَهْوَه المُبارك " مُهتماً بالعبادة (أَشَعْيَا 5.61) والصَّابئة من جهتهم، يقول أَشَعْيَا لإسرائيل: سوف يسيرون إليك، ويُصبحون مُلكك، ويُصبحون مُقيَّدين بالسَّلاسل، وسوف يسجدون ويترجَّون (أَشَعْيَا 17.14.55).

يتَّهم التَّلمُودُ العبدَ الأجنبيَّ بالثالب التي تُبرِّر مُعاملته الخاصَّة. بينما يُساوي الخادم العبراني في التَّوراة ضعفَ العامل الأجير (الاشتراع 15.18)، الخادم الأجنبي كسول: عشرة معايير للنَّوم نزلت في هذا العالم: أخذ الخَدَم تسعة منها، وواحدة بقيت لبقيَّة البشريَّة (كيدو شين 49 ب) وبالنَّتيجة: " لا يستحقُّ العبد غذاء معدته " (بابا كاما T97). وبالإضافة لذلك؛ فالعبد هُو غير مُخلص: لا يُوجد أيُّ إخلاص بين العبيد (بابا ميتسيا T 86)؛ فهُو لصٌّ عندما يكون رجلاً، وفاسق عندما يكون امرأة: الإكثار من الخادمات هُو الإكثار من الفُسق، والإكثار من الخَدَم هُو الإكثار من السَّرقات (PIRQUE AVOT II 7). عبيد مُثقلون بالقُيُود، تأديب، نير، سير، تعذيب، مُساءلة، قُيُود: هي المُفردات التَّوراتيَّة التي تُصبح حاسمة عندما يكون الأمر مُتعلِّقاً بعبدٍ أجنبي يُسمح السَّيطرة عليه ومُعاملته بشدَّة، وبذلك؛ قد تمَّ ترتيب وتصنيف البشريَّة بشكل أنَّ العبرانيِّيْن هُم خُدَّام ليَهْوَه و(الغُوييم الغُرباء) خُدَّام للعبرانيِّيْن. فكما يرفع الإسرائيلي عُيُونه نحو ربِّه، فالعبيد يرفعون عُيُونهم نحو يد سيِّدهم (أناشيد PA 123.1 - 2). ويُقال الإنسان هُو ذئب للإنسان، وهذا يكون صحيحاً بقدر ما يتطلَّبه النِّظام العالمي الذي يُريده الله. ففي داخل هذا المجتمع الإسرائيلي ذاته تحصل - إذاً - عملية تصنيف، تبدأ اعتباراً من مثال مرجعي يُشكِّله الكاهن. وهذا الكاهن هُو سليل ذُرِّيَّة إسرائيليَّة صافية، إنَّه ذَكَرٌ حُرٌّ بدُون عاهة وبصحَّة جيِّدة ومُتعدِّد الجنس (غير شاذٍّ)... لقد تفحَّصنا وضع بعض "المُنحرفين": المرأة، العاجز،

الجُذامي، والشّاذّ جنسياً، والعبد الأجنبي. ربَّما كان بإمكاننا أنْ نبحث حالات أُخرى تبدو أكثر صُعُوبة مثل حالة "مامزيريم"، وهذا ما يقوله كتاب الحكمة: " *إنَّ أولاد الزّنا لن يبلغوا سنَّ النُّضج، إنَّ ثمرة المُضاجعة غير الشّرعيَّة يجب أنْ تُباد. وإذا طالت أيَّامهم فإنَّهم يكونون لا شيء، وشيخوختهم بدُون مجد حتَّى النّهاية. وإذا ماتوا مُبكّراً، فليس لهم رجاء ولا تعزية يوم القرار. نعم؛ للجيل غير الحقّ، مُستقبل قاس* " (الحكمة 3.16.19 ترجمة شوراقي). وبقول "A غايغر GEIGER" أنَّ" بارون" يُميِّز التّعبير ما مزر ب مي - أم - زار - الذي يعني من " شعب أجنبي"[1]، أو أنَّ" R أبا هُو يشرح ما مزر بـ "موم زار" (عنده عاهة الأجانب)[2]. ويعتقد "بارون" أنَّ هذا التّعبير ينطبق - فعلياً - على ثمرات الزّيجات الخارجيَّة. ويُؤكِّد الحاخام "اكيبا" أنَّ الولد الذي يُخلق من أمٍّ يهُوديَّة وأب غريب وَضْعُهُ مُنحطٌّ يجب أنْ يُعامَل وكأنَّه مامزر.

ولم يُطبَّق التّعبير "مامزر" على ثمرات زيجات المحارم أو الزّنا إلاَّ في العصر التّلمُودي. وبانتظار الحقبة التي تهمُّنا؛ فإنَّ تسمية "مامزر" كانت تُشكِّل أخطر الشّتائم، وذلك بحسب " بارون". إنَّها تُعاقب بتسع وثلاثين ضربة سوط، وذلك أكثر من مُعاقبة الشِّرِّير أو العبد بغير حقٍّ.

والعبد مثل "المامزر" يعيش في حُدُود الـ "IN" والـ" OUT" أيْ الدّاخل والخارج. فكونه غير يهُودي؛ فهُو يتعرَّض للتّمييز العُنصُري. أمَّا إذا كان قد أُدخل في المُجتمع

---

(1) السّامريُّون، الآراميُّون، الفلسطينيُّون، الرّافديُّون... وكُلّ الشُّعُوب ذوات الأُصُول المُختلطة الذين وصلوا إلى فلسطين خلال نفي اليهُود إلى بابل. دانيل روبس (OP.AT) كتب بشأن هذه الفئة: كان يُوجد - أثناءها - فئة من العُمَّال كان يكرههم أحبار الشّريعة بالإجماع، وكانوا يُكنُّون لهم بُغْضاً فظيعاً. كانوا يُسمُّونهم " أم - ها - أريز". ففي جميع نُصُوص التّلمُود ينفجر غضب من جميع الحاخامات تجاه هؤلاء النّاس، مع أنَّ الحاخامات كانوا بعيدين عن العُنف والدّمويَّة. أمَّا الحاخام اللّطيف هيليل أكَّد: " ليس عندهم ضمير، وهم ليسوا إلا رجالاً. وتمنَّى الحاخام جُوناتان لأنْ يُفلع كُلُّ واحد منهم إلى شقَّين، هؤلاء البؤساء، نعم، إلى شقَّين؛ مثل سمكة!
يجب على اليهُودي ألاَّ يتزوج ابنة أم - ها - أريز. لماذا؟ لأنَّ كتاب سفر تثنية الاشتراع وفي الفصل 27 السّابع والعشرين يقول: ملعون الذي يُضاجع حيواناً! أمَّا الحاخام إليعازر؛ فقد علَّم: "مسموح سلخ أمها - أريز يوم السّبت!" وحتَّى في يوم عيد الغُفران. وبما أنَّ تلامذته كانوا مُندهشين، وأشاروا عليه أنَّه يُفضِّل قول "ذبح" فأجابهم: الذّبح للحيوان يتطلَّب بركة، أمَّا السّلخ؛ فلا يتطلَّب. نُكات - طبعاً - يجب تذوُّقها مع بعض حبَّات الملح، إنَّما هي تُظهر لنا، وتُترجم حالة ذهنيَّة غريبة.

(2) س. و. باروت OP.CIT.

الإسرائيلي؛ فهُو يتعرَّض لعمليَّة بطيئة للانصهار. فيجب - أوَّلاً - أنْ يُختن: "كُلُّ عبد تُحصِّل عليه بالمال سوف تختتنه" (خُرُوج 44.12). وعندها يستطيع أنْ يُعيِّد الفصح (خُرُوج 44 - 43.12).

يجب عليه أنْ يحفظ يوم السّبت: " اليوم السّابع هُو سبت ليَهْوَه إلهك. لن تقوم بأيٍّ عمل، لا أنت، ولا ابنك، ولا ابنتك، ولا خادمك، ولا خادمتك، ولا ماشيتك، ولا المُقيم داخل أبوابك" (خُرُوج 10.20)، وسوف يستفيد - أيضاً - من سبت الأرض (الأحبار 6.25). ويُعلِّم التّلمُود أنَّه إذا رفض العبد الختان لأكثر من اثنَيْ عشر شهراً يجب أنْ يُعاد للوَثَنيِّين (بابا موث b46)، وبذلك؛ يتأرجح العبد الأجنبي بين الطَّرْد والانصهار. لكنْ؛ من وُجهة نَظَر "الغَيْريَّة"؛ ألا يكون الانصهار مثل الطَّرْد يُلغي أو يُخرِّب الاختلاف، فإذا كان الطَّرْد يُلغي أو يُخرِّب الاختلاف فالانصهار ألا يُذيبه؟. إلاَّ إذا اعتبرنا أنَّ الاختلافات بين البشر هي قضيَّة طبيعة أكثر منها ثقافة، ألا يجب أنْ نفترض أنَّ التّمثُّل والاستيعاب الثّقافي هُو تعدٍّ على "الغَيْريَّة"؟ والمُلاحظ - اليوم - أنَّ هذه الفكرة قُبلت من قبَل عدد كبير من المُفكِّرين اليهُود.[1]

التّمثُّل - يقول اللاروس - هُو الخاصيَّة التي تمتلكها العُضويَّات الحيَّة لإعادة بناء موادها الخاصَّة، انطلاقاً من العناصر المأخوذة من الوسط، والمُمتصَّة بالهضم" بذلك؛ وبهذه العمليَّة المُطبَّقة على العبد الأجنبي فإنَّ ديانة وعادات والقواعد الثّقافيَّة لهذا العبد أُلغيت، وكأنَّها فَضَلات مُبتذلة. وهُنا يحصل انتهاك كبير لهُويَّته.

سوف نرى في الفصل الذي يلي أنَّه يُوجد في التّوراة ميل عالمي وتمثُّلي، لكنَّه هامشي في النُّصُوص التّوراتيَّة القديمة، ورافضة للفُرُوقات بشكل واضح جداً. ويأتي هذا الميل من الرّفض الرّاسخ والشّديد "للغَيْريَّة"؛ رَفْض تفحَّصناه حتَّى الآن من خلال الطَّرْد والإقصاء، وسوف نفحصه الآن من وُجهة نظر أُخرى.

(1) انظر مثلاً: ف. إلكنداراني و ي وينتروب التّلمُود والجُمهُوريَّة - باريس غراسيه 1991.

الفصل الثّالث:

نُور الأُمم

لقد اشتهرت أكبر الأسماء في كُتُب العهد القديم بالاستبعادات العنيفة. وإذا فكَّرنا بمُوسى الذي أمر بإبادة الذين تبتعد مُعتقداتهم عن النّموذج المفروض: ليضع كُلٌّ واحد حُسامه على وركه. اذهبوا وعودوا في المُخيَّم من باب إلى باب، واقتلوا أيّاً كان أخاه أو صديقه أو قريبه " (خُرُوج 27.32)، أو الذي يأمر بإبادة الديانيِّيْن. وفي هذا المشهد الأخير يغضب من العمل المُنفَّذ بشكل سيِّئ: لقد تركتم - إذاً - كُلَّ الإناث على قيْد الحياة... والآن اقتلوا كُلَّ طفل ذَكر، واقتلوا - أيضاً - كُلَّ امرأة ضاجعت رجلاً. أمّا كُلُّ الفتيات الشّابّات الصّغيرات اللّواتي لم يعرفن مُضاجعة (فراش) رجل؛ اتركوا لهنَّ الحياة من أجلكم (NB 31.14.18)، ولنُفكِّر بيشُوع الذي تبجّح بأنّه ألقى في اللّعنات كُلَّ مَنْ عنده نَفَس حياة في بلد كنعان. ولنُفكِّر ببنحاس حفيد هارون الذي - لأنَّه خوزق زوجاً مُختلطاً في خيمته - تلقّى من الله الكَهَنُوت الدّائم (NB 25.1 - 13).

ولنُفكِّر بإسدراس الذي طرد النّساء الأجنبيَّات وأطفالهنَّ. كُلُّ هذه الأسماء، وأسماء أُخرى - أيضاً - قد توافقوا - تماماً - مع " فُوبيا الآخر ". وهؤلاء الرّجال هُم قدّيسون ونماذج يُحتذى بها. لم تُحاسب أعمالهم، ولم يُشهَّر ببَرْبَرِيَّتهم وكان الجواب الوحيد في العهد القديم لما يخصُّ الآخر هُو النَّبْذ الذي يبدأ من التّهميش الاجتماعي إلى الإبادة.

غير أنَّنا نستطيع أنْ نُلاحظ - خلف الوُجُود الكُلّيّ للنَّبْذ الذي يظهر كواقع وحقيقة تاريخيَّة - جواباً آخر بشكل وُعُود يُرجئها الأنبياء والكَهَنَة إلى نهاية الأزمان. فالرَّدُّ التّاريخي على نَبْذ الآخر يُعطي - أحياناً - صدى هامشيّاً جداً لعالميَّة مُستوعبة وأُخروية (أيْ الآخرة) تتعلَّق بالبعث والحساب.

هل هذان الرّدّان مُختلفان؟ ألا ينفي الواحد الآخر؟ في الأحوال جميعها ـ هُنا ـ؛ لم يُقبل ـ أبداً ـ حقُّ الاعتقاد بإله مُختلف، والزّواج بشكل آخر، وحقُّ العيش بأسلُوب مُختلف، وحقُّ التّفكير بشكل مُختلف. . . .

فإنْ كان الرّدُّ هُو النّبْذ أو التّمثُّل والاستيعاب يحصل ـ دوماً ـ في النّهاية إزالة الآخر وحفظ الذّات نفسها.

سوف نخوض في هذا الفصل في العالميَّة كردٍّ على الآخر. سوف نبحث ـ أوَّلاً ـ في المشروع العالمي المسيحي، وهُو الأنقى كما يبدو لنا، وهُوقابل لأنْ يُفيدنا كمرجع، ثُمَّ المشروع العالمي اليهُودي الذي لا يخلو من غُمُوض ولَبْس كما سوف نرى.

المشروع المسيحي المُصهِر:

تستند عمليَّة النّبْذ في العهد القديم إلى فكرة أنَّ الاختلاف بحمل الدّنس. ومُنْذُئذ يُهمَّش ـ اجتماعيّاً ـ كُلُّ مَنْ أبدى اختلافاً مثل المرأة، أو يُنبذ خارج المُتَّحد مثل الجُذاميِّيْن والأجانب مع إيسدراس، أو يُبادوا مثلما حصل للشُّعُوب الكنعانيَّة.

هذا الدّنس المُرتبط بالاختلاف هُو ـ أحياناً ـ مُشارك في تكوينها وجوهرها: وهذا هُو حال الشُّعُوب الكنعانيَّة: لذلك؛ وجب تدمير الاختلاف لإزالة الدّنس. أمَّا بعض الشُّعُوب الأُخرى؛ فَدَنَسُهَا أقلُّ عُمقاً، ويُمكن له أنْ يخفَّ ويزول بعمليَّة بطيئة اسمها الاستيعاب أو الانصهار.

وهكذا يدخل (الأدوميُّون والمصريُّون) في جمعيَّة يَهْوَه في نهاية الجيل الثّالث؛ الأوّلون بسبب قرابتهم السُّلاليَّة مع العبرانيِّيْن، والمصريُّون لأنّهم استقبلوا عندهم الإسرائيليِّيْن (تثنية الاشتراع **8.23 ـ 9**).

أمَّا شُعُوب أُخرى؛ فإنَّ دنسهم مُتعذِّر حَلّهُ، يُفرَض النّبْذ الدّائم فقط، وليس مثل الهيويِّيْن واليبوسيِّيْن فيستوجب إبادتهم (الاشتراع **1.7 ـ 2**): فالأمونيِّيْن والمُؤابيِّيْن لن يدخلوا ـ أبداً ـ في هذه الطّائفة، حتَّى في الجيل العاشر (الاشتراع **4.23 ـ 9**).

تظهر ـ هُنا ـ فكرة أنَّ بعض الشُّعُوب القريبة من الإسرائيليِّيْن يكون اختلافها ودنسها خاصَّة غير أساسيَّة، مشكوك فيها ومُؤقَّتة، صَدَفَويَّة، قابلة لأنْ تزول مع الزّمن، هؤلاء البشر وهذه الشُّعُوب ـ الأدوميُّون والمصريُّون ـ يُمكن أنْ ينصهروا.

هُنا لا نجد ولا يُوجد حقيقة مشروع للصّهر أو الاستيعاب. يفتحـون كما يغلقـون جمعيَّة يَهْوَه، لا يبحثون عن المُهتدين ولا على تطبيعهم: يُعدِّون - فقط - مَنْ هُم بقُربهم إثنياً وتاريخياً؛ حيثُ هـؤلاء يستطيعون الانصهار والدُّخُول إلى هـذا المُتَّحـد؛ وحيـثُ البعيـدون لـن يكـون بإمكانهم - مُطلقاً - أنْ يشتركوا. يحصل هُنا عمليَّة فرز ذات طابع إثني تفتح لأقلِّيَّة باباً صغيراً.

أمَّا المسيحيَّة؛ فقد تبنَّت موقفاً ثورياً للغاية. نقترح دراسته قبـل أنْ نعـود إلى الجُزء الثّاني للمشروع اليهُودي الخاصِّ بالانصهار، كما يبدو في كتاب أشَعْيا.

لقد كَتَبَ "رينان" أن: "يسُوع قد أَسَّس الدّيانة الأزليَّة الأبديَّة للإنسانيَّة" سهلة البُلُوغ إلـى كُلِّ الأعراق وفوق كُلِّ الطّبقات المُغلقة.[(1)]

هُناك بعض النُّصُوص تُشير إلى أنَّ يسُوع قد حَدَّ أو اقتصر عمله - فقط - في إسـرائيل[(2)] إلاَّ أنَّ المسيح - في المقاطع التي يعتبرها النُّقَّاد أنَّها مُزوَّرة[(3)] - قـد وضـع أوَّل غرسـات لـهذه العالميَّة. ففي متَّى يقول لتلامذته: أُعطيت لي كُلُّ مقدرة في السّماء وعلـى الأرض. اذهبـوا وبشِّـروا "جميع الأُمـم"، واجعلـوا منـها تلامـذة، مُعمِّدينـهم باسـم الأب والابـن والـرُّوح القُـدس، وعلِّموهم أنْ يتَّبعوا كُلَّ ما علَّمتكم إيَّاه. (متَّى 28 - 18 - 20ش8). وفـي مكـان آخـر؛ يُعلـن لليهُود أنَّ الأُمم الأُخرى سوف تُلاقيه: "عندي خِراف أُخرى ليسوا من داخل هذا السُّور، هذه - أيضاً - يجب أنْ أقودها، وسـوف تسـمع صوتـي، وسـيكون قطيـع واحـد وراع واحـد (يُوحنَّـا 16.10). إن مجيء ابن الإنسان سوف يكون أكيداً واضحاً: سيكون فـي البـدء كآبـة كبـيرة، ثُمَّ" تظهر في السّماء علامـة ابـن الإنسـان وعندهـا كُـلّ أعـراق الأرض سـوف تضـرب علـى صدورها وسوف نشهد ابن الإنسان آتٍ على سحابات السّماء بقُـوَّة ومجـد عظيـم. وسـوف يُرسل ملائكته مع بُوق رنَّان، ليُجمع مُصطفوه من أربعة أركان الأفق ومن طـرف السّماوات إلى طرفها الآخر. (متَّى 31.30.24) وهُناك نُبُوءة مُماثلة في (مَرْقُس 27 - 24.13).

إنَّ الانضمام إلى الإيمان المسيحي والانصهار في جسـم المسـيح ليـس خيـاراً ولا حُرِّيَّـة، إنَّما ضرورة: (اذهبوا فـي العـالم كُلِّـه، وبشِّـروا بـالإنجيل لجميـع الخلـق، هكـذا قـال المسيح

(1) رينان، يهُوديَّة ومسيحيَّة نُصُوص مُقدَّمة من قِبَل غوليير، باريس كوبير نيك 1977.

(2) م. سيمُون آبونوا، اليهُوديَّة القديمة، باريس، بوف 1994.

(3) انظر م - سيمُون وآ بونوا، OP.CIT.

لتلامذته . الذي سوف يُؤمن ويُعمَّد سوف يُخلَّص ، أمَّا الذي يرفض الإيمان ؛ سوف يُدان (مَرْقُس 16 ـ 15.16) وفي إنجيل لُوقا (أُمثولة المنا) يجعل الملك يقول والذي ليس إلا هُو نفسه : " أمَّا أعدائي أولئك الذين لم يُريدوا أنْ أملك عليهم ؛ فاءتوا بهم إلى هُنا ، واذبحوهم قُدَّامي " (لُوقا 27.19) . الويل - إذاً - لمَنْ يرفض الانصهار ؛ لأنَّه كما قال يسُوع : تُعرَف الشّجرة من ثمارها ، ومن ثمارها يُعرَف الشّجر الصّالح ، و" كُلُّ شجرة لا تُعطي ثماراً جيِّدة نقطعها ، ونرميها في النّار (متَّى 19.7) . وأُمثولة الزّيوان تعود فتتناول هذه الفكرة : يُوجد في حقل القمح الذي بذره أحد الرّجال ، ويُوجد - أيضاً - الزّيوان - الذي نشره عدوُّه . عند الحصاد يجب التقاط الزّيوان وحَزْمه بحزم ، وحَرْقه ، ثُمَّ نقطف القمح ، ونحفظه في بيت المُؤن . وعندما سأله التّلامذة عن معنى هذه الأُمثولة جاوب يسُوع : الذي يزرع الحَبَّ الجيِّد هُو ابن الإنسان ، والحقل هُو العالم ، والزّرع الجيِّد هُو ابن الملكوت ، والزّيوان هُو بنو الشِّرِّير . والعدوُّ الذي زرعه هُو إبليس . والحصاد هُو انقضاء العالم ، والحصَّادون هُم الملائكة . فكما يُجمع الزّوان ويُحرق بالنّار ، هكذا يكون في انقضاء العالم : يُرسل ابنُ الإنسان ملائكتَه ، فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم ، ويطرحونهم في أتون النّار : هُناك يكون البُكاء وصرير الأسنان . حينئذ يُضيء الأبرار كالشّمس في ملكوت أبيهم . مَنْ له أُذنان فليسمع (متَّى 43 ـ 37.13) .

وفي مكان آخر يَعِدُ يسُوع بدمار المُدُن التي لا تستقبل الرُّسُل (متَّى 15 ـ 14.10) ويل للمُدُن التي لم تتبْ (متَّى 24.20.11) وجهنَّم لمُناقضيه (متَّى 33.23) ، ثُمَّ يُعبِّر عن شدَّته بصراحة في هذه العبرة : الذي ليس معي فهُو ضدِّي (متَّى 30.12) .

لقد تصوَّر المسيح - أوَّلاً - رسالة بين الأُمم ، غير أنَّ بُولُس هُو المُبادر الحقيقي والفعلي للعالميَّة المسيحيَّة . ويعتقد "جوزي إيزنبرغ " أنَّ "بُولُس" اتَّجه نحو الأُمم ؛ لأنَّ تبشيره لم يلقَ صدى لدى اليهُود ، ألا نستطيع قلب هذا المُعتقد ، ونقول إنَّ بُولُس لم يلقَ صدى عند اليهُود ؛ لأنَّ تبشيره اللاَّذع اتَّجه - أيضاً - نحو الأُمم (أعمال 46.13) ؟ .

وفي الواقع ؛ يبدو بُولُس مُنهجاً الرّفض المُوجُود في مُجمل جَدَليَّة الطّاهر وغير الطّاهر والمُقدَّس والدّنِس (وفي مقاطع يعتبرها النُّقَّاد - أحياناً - مُزوَّرة) وذلك ليصل إلى الآخرين .

وفي الإنجيل، إنجيل مار مَرْقُس مثلاً يُعلِّم المسيح أنَّه لا يُوجد شيء خارجي يدخل إلى الإنسان ويُمكن أنْ يُدنِّسه (مَرْقُس 15.7). وفي أعمال الرُّسُل يرفع الله المنعَ الغذائي مُعلناً طاهراً ما كان غير طاهر (أعمال 15.10)، وأُلغيت الفُرُوق بين البشر: وقد أعلن بُطرُس أنَّ الله برهن له " أنَّه يجب ألاَّ ندعو أيَّ إنسان دنس أو غير طاهر (لقد زال التّمييز بين الطّاهر وغير الطّاهر بين المُقدَّس والدّنس على المُستوى الغذائي والحيواني والإنساني. على هذه المُسلَّمة ارتكز التّبشير البُولُسي. بينما تفرض الشّريعة التّمييز بين الطّاهر والنّجس والمُقدَّس والدّنس (الأحبار 10.10)؛ فهي تقوم بعمليَّة تميز بين مُختلف أصناف الحيوانات وبين مُختلف الشُّعُوب (الأحبار 85.24.20)، وتفرض - أيضاً - تعليم هذا التّمييز (حَزْقِيَال 23.44).

ويُعلِّم بُولُس بعد المسيح: لا يُوجد تميز، لا يُوجد تميز بين يهُودي ويُوناني. كذلك علَّم المسيح أنَّ الإنسان يتدنَّس بقلبه الفاسد، وليس بشيء خارجي (مَرْقُس 23.18.7)، وأكَّد بُولُس أنَّ الطّهارة هي مسألة إيمان فقط. فالتّطوُّر هائل جداً وعظيم. في الماضي الإنسان أو الشّيء كان مُدنَّساً بالطّبيعة، طبيعة مُعدية مُلوَّثة: يُمكن للرّجس أنْ يأتي من الخارج بتماس الأجنبي أو بازدراد الأطعمة الرّجسة. أمَّا الآن؛ فالتّلوُّث والدّنس هُو مسألة قلب وليس طبقة: إنَّهم أصحاب الإيمان الذين هُم أبناء إبراهيم، ولا إثنيَّات ولا شُعُوب، لم يعد هُناك من تميز أبداً: لا يُوناني ولا يهُودي ولا مُختتن، ولا غير مُختتن، ولا بربري، ولا عبد، ولا إنسان حُرّ (كول 11.3) ولا رجل، ولا امرأة، فليست الولادة هي التي تُحدِّد طهارة الفرد، إنَّما إيمانه الشّخصي مهما كان انتماؤه. من جهة أُخرى؛ لم يعد الفرد يُبرَّر بأعماله؛ أيْ باتِّباعه للشّريعة، إنَّما بإيمانه. بالنّسبة لبُولُس لم يعد للشّريعة أيُّ قيمة بعد مجيء المسيح. هي - مُنذُ الآن - لعنة، إذا اعتبرها البعض طريق الخلاص، بينما هذا الخلاص لا يُمكن أنْ يتمَّ إلاَّ بالإيمان بالمسيح، كُلُّ شيء يأتي بالإيمان. فتأتي النّعمة الإلهيَّة بالإيمان، لتُلغي أيديُولُوجيَّة الطّهارة. فالطّهارة الطّقسيَّة تستند إلى تعليمات طقسيَّة تُمليها الوصايا. فالتّبرئة بالإيمان تُثبت الشّكل الدّاخلي الدِّيني الذي يُصبح أمراً إفراديَّاً، بعكس التّبرئة بالشّريعة التي تضع بطقسيَّتها أبعاداً اجتماعيَّة وجماعيَّة لشعب خاصٍّ. وتجدر الإشارة - أيضاً - إلى أنَّ بُولُس - بتأكيده على التّبرئة بالإيمان - جرَّد إسرائيل من سُلالتها واختيارها ومصيرها:

"إنْ كُنتم للمسيح فأنتم - إذاً - من ذُرِّيَّة إبراهيم وارثين بحسب الوعد". لأنَّ إبراهيم هُو أبونا جميعاً. هذا فظيع بالنّسبة لإسرائيلي يرى كُلَّ هذه الأفراد المُختلفة يُحرِّكها الإيمان، وأصبحوا مُعدِّين للاختلاط، حتَّى يُزيلوا فُرُوقاتهم: أنتم واحد بالمسيح يسُوع. أنتم لم تعودوا أجانب، ولا ناساً مُقيمين، إنَّما أنتم مُواطنون مُقدَّسون، أنتم من بيت الله، هكذا قال بُولُس لغير المُختتنين.

عندما مرَّت الرِّسالة العالميَّة عبر الفَرْد، كسرت الشّعب كوحدة رُوحيَّة في الأساس، كما كسر الإصلاح الكنيسة، ليُقيم علاقة مُباشرة بين الفَرْد والإله. فالإسرائيلي الذي كان يعتقد أنَّه مُختار بانتمائه وولادته أُعيد إلى نفس مُستوى العمونيِّيْن أو الكنعانيِّيْن الذين يحتقرهم ("ماذا إذاً؟) يقول بُولُس صارخاً: هل عندنا شيء مُتفوِّق أعلى؟ حتَّى إنَّنا أقلُّ مُستوى إذا كان هؤلاء يُؤمنون بالمسيح، هذه رسالة كانت غير مُحتملة!.

أعاد بُولُس بذلك تحديد فكرة الانتقاء، وذلك بتمييز فكرة الفَرْد بالنّسبة لفكرة الشّعب. بينما في العهد القديم غرض هذا الانتقاء هُو شعب إسرائيل المُعتبر وكأنَّه كُتلة واحدة؛ سليل إبراهيم، أمَّا اعتباراً من بُولُس - المُختار والمُنتقى من الله -؛ فهُو الذي يقبل المسيح عدا أيِّ أحد آخر. وفي رُؤيا يُوحنَّا: المُختارون من الله هُم **144000** في إسرائيل، وحشد كبير من جميع الأُمم، لا أحد يستطيع عدَّه ومن جميع القبائل وجميع الشُّعُوب والألسن (رُؤيا 7)، وبذلك؛ أدَّت العالميَّة البُولُسيَّة إلى إعادة النَّظَر الجَذْريَّة في القوميَّة اليهُوديَّة: الأولويَّة المُعطاة للإيمان الفردي عوضاً عن الطَّقْس الجماعي وإلغاء التّمييز والفَصْل والنَّبْذ أزال قوميَّة الانتقاء "وعَوْلَمَ الوعد"، وأعاد طَرْح فكرة القداسة (اليهُود واليُونان هُم جميعهم عُرضة للخطيئة) وفكرة رُوحانيَّة السُّلالة. أعاد بُولُس طَرْح قضيَّة المكانة الخاصَّة التي نسبتها إسرائيل لنفسها في قَلْب البشريَّة، وفي كُلِّ الأُمُور.

إنَّ رسوليَّته في الأُمم كانت بهذا القصد. إنَّما ذلك آلم وأزعج اليهُو- مسيحيِّيْن. لقد عارض المسيحيُّون من أصل يهُودي بُولُس بما يخصُّ المُمارسات الطَّقْسيَّة. وفي رسالته إلى غالات اتَّهم بُولُس اليهُومسيحيِّيْن باتِّباع الأعياد والسّبت والسّنوات السّبتيَّة، وكونهم تحت الشّريعة يُحاولون إيجاد التّبرئة في الشّريعة. فانتقد عملهم الذي كان يهدف إلى الفصل بين

مسيحيِّيْن من أصل يهُودي وأصل وَثَني. وفي حادثة أنطاكية قال بُولُس عن بُطرُس: في الواقع؛ كان قبل ذلك يأكل مع الأُمم: لكنْ؛ عندما أتوا، انسحب وبقي في الخفاء، خائفاً من المُختتنين. فتبعه بقيَّة اليهُود في خُبْثه... وفي الأعمال؛ تلقَّى اليهُود المُهتدون - بقلق واضطراب - فكرة أنَّ الأُمم - أيضاً - قد استقبلوا كلام الله.

عدا البعض منهم لم يكن اليهُومسيحيُّون يُبشِّرون بالكلام لأحد إلاَّ اليهُود فقط، وكانوا يقولون ويُعلِّمون: إنْ لم تكونوا مُختتنين - حسب عادة مُوسى - فلن يكون باستطاعتكم أنْ تُخلَّصوا (أعمال 15 . 1).

هذا الجَدَل حول الختان وفُرُوض الشّريعة الذي كان يضع بُولُس في تعارض مع اليهُومسيحيِّيْن أدَّى - في النّتيجة - إلى اتِّفاق أعرج في الفصل الخامس عشر من أعمال الرُّسُل: ليس هُناك من ختان، إنَّما هُناك احترام للقوانين التّالية: الامتناع عن دنس الأوثان وعن الزّنى والميتة والدّم. هذه المُعارضة تُلقي الضّوء الأوَّل المُهمَّ على العالميَّة اليهُوديَّة. تجدر الإشارة - أوَّلاً - إلى أنَّ هؤلاء اليهُو- مسيحيِّيْن ليسوا فرِّيسيِّيْن، وابتعدوا عن اليهُوديَّة الرّسميَّة التي هي حازمة أكثر في موضوع الشّرع. اليهُو- مسيحيُّون مثل "أسطفان" يُريدون رُوحانيَّة لليهُوديَّة، ويرفضون مُؤسَّسة المعبد. صحيح أنَّ المُعارضة تتمركز حول الختان والطُّقُوس، لكنَّ جدليَّتها تُخفي اختلافاً أكثر عُمقاً وأهمِّيَّة. ففي الواقع؛ اليهُو- مسيحيُّون يُناقضون المسيرة العالميَّة والفَرْديَّة لبُولُس. فبحفاظهم على التّبرئة بالشّريعة يُحافظون على نهج الطّاهر وغير الطّاهر، المُقدَّس والمُدنَّس. ويبقون في منطق المُنفصلين (البعض منهم يُسمّون النّاصرين وهي كلمة عبرانيَّة "نازار" تعني "المُنفصل"). وبتعظيم الختان يتَّبع هؤلاء المُسمّون "ختان" الشّريعة، لكنَّهم يُدخلون المُهتدين الجُدُد في شعب إسرائيل، فإسرائيل التّفوُّق الرُّوحي، والاختيار، والقداسة، ذلك كُلُّه ليس موضع نقاش. فبُولُس يعرف - تماماً - أنَّه - هُنا - في هذا المُجتمع المُحَوْجَب المُسلسل للبشريَّة تكمن المُشكلة، وهُو ما فتئ يُكرِّر - بدُون كلل ولا ملل - أنَّه: لم يعد هُناك يهُودي أو يُوناني، وأنَّ الجميع يُمكن أنْ يكونوا مُختارين، ويأكلون على المائدة نفسها، وأنَّه لا يُوجد تمييز. وفي الرّسالة إلى الإفسيسيِّيْن قالها بوُضُوح: لقد قرَّب المسيح المُختتن وغير المُختتن؛ حيثُ كانوا بعيدين قبل ذلك، وحطَّم الجدار الذي كان

يفصلهم عندما ألغى شريعة الوصايا والقرارات، فقتل بذلك الحقد وصالحهم. في الواقع؛ إنَّ اليهو-مسيحيِّين لا يُعيدون النَّظَر في موقع إسرائيل الخاصّ. فللوُصُول إلى الإله؛ يجب على الأجنبي ليس الاهتداء، بل التّطبيع والانصهار في الشّعب المُختار: هذا هُو معنى الختان والتّعاليم: إسرائيل - فقط -، وهي - فقط - تبقى شعب الكَهَنَة.

فالمسيرة المُصهرة لليهُو-مسيحيِّين تتعارض مع المسيرة الإفراديَّة لبُولُس. الأُولى تُقوِّي شعباً يُعاد تثبيت قداسته، والثّانية تُؤسِّس كنيسة عالميَّة، وتُذيب إسرائيل في البشريَّة، بالاعتراف لها بأولويَّتها وتفوُّقها الرُّوحي (لكنَّ بُولُس لا يتردَّد في مُلامسة التّنافر، ويكرِّر عدَّة مرات "لليهُود أوَّلاً، ثُمَّ لليُونانيِّين"، هل يُحاول تدبير شُكُوك اليهُو-مسيحيِّين، أو يجب أنْ نرى فيه بقيَّة شباب فرِّيسي؟

اليهُو-مسيحيُّون يُريدون التّوحيد في إسرائيل، بُولُس يُريده في جسد المسيح. فالمسيرة المُدمجة المُوحِّدة لليهُو-مسيحيِّين تبقى قوميَّة في أساسها: يُريدونكم أنْ تختتنوا، لتتباهوا بجسدكم، هكذا يصرخ بُولُس. هذا يُذكِّرنا بالرّسالة الاستعماريَّة لبعض رجال الكنيسة في عصرنا هذا؛ (فقد كَتَبَ شارل فُوكو" عام **1916**: ما أجملها من رسالة لإخوتنا الصّغار في فرنسا، أنْ يذهبوا ليستعمروا في الأراضي الأفريقيَّة للوطن الأمِّ، ليس من أجل الثّراء، إنَّما لكي يجعلوا فرنسا محبوبة، ويجعلوا النُّفُوس فرنسيَّة وتأمين الخلاص الأبدي لهم! فالوسيلة الوحيدة لهذه الشُّعُوب كي تصبح فرنسيَّة هي أنْ تُصبح مسيحيَّة[1]). فالمسيرة الإفراديَّة لبُولُس عندها الوسائل لتكون الوحيدة العالميَّة حقّاً، وذلك بتحرُّرها من العامل القومي.

لم تتأخَّر الكنيسة، حتَّى أصبحت كنيسة الأُمم. فإخفاق بُولُس بين اليهُود وعداء اليهُو-مسيحيِّين لرسالته يُشيران إلى أنَّ اليهُود يرفضون - كُلِّيّاً - رسالة يسُوع من جهة، ومن جهة أُخرى؛ ليسوا مُستعدِّين لقبُول عالميَّة لا تضع أُمَّتهم وشعبهم في الصَّفِّ الأوَّل.

هذه المسيحيَّة العالميَّة التي تصهر وتُذيب فُرُوق الأصل في جسد المسيح لم تُولَد بشكل فُجائي: لقد تشكَّلت في اليهُوديَّة، وتُمثِّل استطالة فيها. بالنّسبة للاَّهوتيِّين المسيحيِّين؛ تُمثِّل اليهُوديَّة والعهد القديم تهيئة للمسيحيَّة والعهد الجديد. لقد أكَّد يسُوع: ابحثوا في الكُتُب

---

(1) ر. بازان - شارل دي فوكو، باريس، بلون **1921**.

فهي تشهد لي (يُوحنَّا 85.9). لا تعتقدوا أنِّي جئتُ لأُلغي النّاموس أو الأنبياء، ما جئتُ لأُلغي، بل لأُتمِّم.

فإذا كانت اليهُوديَّة تُهيِّئ المسيحيَّة، وبالتّالي؛ تُهيِّئ عالميَّتها، لكنَّ الواقع أنَّ مسيرتهما مُتعاكسة تماماً. فالعهد القديم ينطلق من الجُمهُور؛ أيْ "البشريَّة المجهولة"، ويُنفِّذ ـ بالتّدريج مع دُخُول الآباء على مسرح الأحداث ـ عمليَّة انتقاء، حتَّى يخرج الجُمهُور من الواحد: "الشّعب المُختار"، أمَّا العهد الجديد؛ فهُو ينطلق من الواحد؛ أيْ المسيح، وبالتّدريج، ومع دُخُول الرُّسُل مسرح الأحداث يعتنق الجُمهُور: البشريَّة. بالنّسبة للمسيحيِّيْن؛ لا يُوجد انقطاع بين العهدَيْن، ويقول "باسكال" في كتابه: "أفكار" يسُوع المسيح، الذي ينظر إليه العهدان القديم وكأنَّه بانتظاره، والحديث وكأنَّه مثاله، والاثنان وكأنَّهما مركزهم. "يُقدِّم المسيح ـ هُنا ـ النّتيجة النّهائيَّة للاختيار الفوق طبيعي، بقيَّة إسرائيل ـ وفي الوقت نفسه ـ مع الوحدة الأُولى للتّجمُّع العالمي في "قطيع واحد" للعهد الجديد، وذلك بعد أنْ استثنى وأبعد الفرِّيسيِّيْن والصّدوقيِّيْن أبناء الأفاعي. ومن جهة أُخرى؛ تثبَّتت الاستمراريَّة بالرُّسُل الاثنَيْ عشر الذين يُمثِّلون أسباط إسرائيل الاثني عشر.

فالمسيح هُو ـ بالتّأكيد ـ أحد نقاط التّماس بين الدّيانتَيْن. وهُو كذلك ـ أيضاً ـ عندما يأخذ لحسابه النّظرة العالميَّة التي ظهرت سابقاً عند بعض الأنبياء. لكنَّ عالميَّتهم في العهد القديم هي لمصلحة الشّعب المُقدَّس، أمَّا الآن؛ فهي هدف الكنيسة: فيها يُوجد الله والكنيسة والأُممي، وهُناك الله والإسرائيليُّون والغُوييم. الفرق هامٌّ جداً، إذْ في حالة الوَثَني ـ الذي هُو أيضاً أجنبي ـ فهُو يصل إلى الله عبر شعب، عبر أُمَّة، عبر عرْق، وهذا ما يكون بالنّسبة له غير مُحتمل، أمَّا في الحال الآخر؛ فهُو يصل إلى الله عبر كنيسة مجمُوعة اختارهم الله؛ حيثُ لا يُوجد تمييز، وفيها له مكانة. العالميَّة "البُولُسيَّة" نسبة لبُولُس تزعم إتمام تاريخ إسرائيل الخاصِّ، بينما هي تتحرَّر من الانتماءات. فإسرائيل تعود إلى البشريَّة. فبانتصاره حطَّم بُولُس وَهْمَ العالميَّة اليهُوديَّة.

وظهرت العالميَّة اليهُوديَّة في مُواجهة بُولُس وكأنَّها أمل مجنون وكبرياء غير محدود لشعب يحلم، ويحلم أنْ يكون نُور الأُمم كما سوف نرى.

المشروع المُصهِر اليهُودي

الأُمميَّة أو العالميَّة اليهُوديَّة هي محدودة ومُسلسلة، وذلك على عكس العالميَّة البُولُسـيَّة. فهُناك أُمم يجب أنْ تُباد مثل الحثِّيِّيْن والأوريِّيْن والكنعانيِّيْن واليبوسـيِّيْن . . . وهُناك أُمم لن تستطيع - أبداً - أنْ تدخل في المُتَّحـد المُقـدَّس؛ مثل الأمونيِّيـن والمُؤابيِّيـن والسّامريِّيْن، وأُمم لا تستطيع الدُّخُول إلاّ في الجيل الثّالث؛ مثل الأدوميِّيْن والمصريِّيْن.

ومن جهة أُخرى؛ يُوجد في التّوراة مفهوم يجعل من الأُمم الأجنبيَّة المُتاخمة للعبرانيِّيْن أدوات بسيطة يستعملها يَهْوَه لتجربة إسرائيل، وهي ليست أراض للرّسالات.

في الواقع؛ إذا لم تُبدْ هذه الأُمم تماماً فذلك - فقط - لتجربة إيمان أبناء إسـرائيل: (وهـذا يفترض أنْ تحتفظ هذه الأُمم بمُعتقداتها): ليرى ما إذا احتفظوا أم لا بطُرُق يَهْوَه وهُم سائرون مثلما حفظهم آباؤهم" (قُضاة 22.2). ومن جهة أُخرى؛ فحص القُدرة القتاليَّة الإسـرائيليَّة: من أجل تعليم أجيال بني إسرائيل أُصُول الحرب، التـي كـانوا لـم يتعلَّموهـا قبـل، فـالأجنبي الذي يمرُّ عبر فَرْز إثني لن يكون مُعتبَراً إسرائيلياً بشكل كامل، فهُناك بعض الحاخامات - وهُم أقلِّيَّة - يعتقدون أنَّ الوَثَني الذي ينكبُّ على دراسة التّـوراة يسـتحقُّ الموت... لأنَّ هـذا الإرث هُو لنا، وليس لغيرنا (سنهدرين a 59)، وهُم لا يتوانون عن نشر تعليمات حازمـة بشـأنّهم. كما أنَّ المُهتدين هُم بالنّسبة لإسرائيل سيِّئُون؛ مثل الجُرح (يابامُوت ط 46). هُناك معارضون مُستاؤون يتّهمونـهم بـالتّمييز العُنصُري[1]. ولتبرير مواقفـهم يرجـع هـؤلاء الحاخامـات إلـى إيسدراس الذي نبذ كُلَّ الأجانب دُون أنْ يهتمَّ بمُعتقداتهم، أو إلـى مقـاطع أُخـرى مـن العـهد القديم، فيها يظهر المُهتدي الأجنبي - في يـوم - مُتَّـهماً. وفـي كتـاب الأحبـار: هُـو ابـن امـرأة إسرائيليَّة ورجل مصري من شتم "الاسم" ولعنـه (الأحبـار 11 - 10.24) وفـي كتـاب العـدد: إنَّهم الأجانب المُقيمون هُم الذين يتذمَّرون من يَهْوَه، ويجرُّون معـهم الإسـرائيليِّيْن: إنَّ لُمامة

---

(1) ي اويل وأوريو - التّسلل اليهُودي - قصَّة غلطة باريس، الآداب الجميلة 1992.

البشر المَوْجُودة في وسط إسرائيل انتابها الطَّمَع، وحتَّى أبناء إسرائيل أخذوا بالبُكاء (nb 11.4). تبدو في هذا النّصِّ الأقلِّيَّة الأجنبيَّة وكأنّها كبش فداء للمُجتمع الإسرائيلي ضحيَّة يُعلِّقون عليها شكَّهم الشّرعي.

يُترجَم هذا الشّكُّ على المُستوى الحُقُوقي. . . فالمُهتدي لن يستطيع أنْ يُقاضي إسرائيلي الأصل والمنبت، ولكنَّ العكس يصحُّ، الإسرائيلي يُمكنه أنْ يُقاضي. . . فالمُهتدي لا يحقُّ له إلاَّ أنْ يُقاضي مُهتدياً آخر، إلاَّ إذا كانت والدته إسرائيليَّة (ياموت 1020).

وعلى عكس الإسرائيلي؛ فإنَّ المُهتدي لن يستطيع الزّواج من الطّبقات السُّلاليَّة العُليا؛ أيْ طبقة الكَهَنَة أو اللاَّوِيِّيْن، فهي ممنوعة عليه، وفي الجمعيَّات موقع المُهتدي في الصَّفِّ السّابع قبل المعتوقين، لكنْ؛ خلف الأولاد غير الشّرعيِّيْن أو أولاد الزّنا والموهوبين، ما ينقص المُهتدين ـ في الواقع ـ هُو النَّسَب السُّلالي.

وفي رسالته إلى الفليبيان أظهر بُولُس أنَّ باستطاعته ـ هُو ـ أنْ يتباهى بنَسَبه أكثر من أيِّ شخص آخر: " مُختتن مُنذُ اليوم الثّامن ومن عرْق إسرائيلي وقبيلة بنيامين، عبراني ابن عبراني (فيل 5.3). هذه الثّقة في الجسد ليست إلا أقذار الشّوارع أمام الإيمان بالمسيح. (قال ذلك شارحاً) (11.7.3)، فإذا كان بُولُس يعترض على التّبرئة بالنَّسَب، فذلك لأنَّها مُثارة من قبَل اليهُو- مسيحيِّيْن، وهؤلاء أثاروها؛ لأنَّ النَّسَبَ في الوسط اليهُودي يُوحي بنُبل الشّخص، وسوف نرى ذلك في موضوع فلافيُوس جُوزف. وبما أنَّ المُهتدي ليس عنده النّسب العبراني، إذاً؛ ليس عنده قرابة الأسلاف الشّرعيَّة، ولا ارتقاؤها، فهُو أتى إلى الحياة للتّوِّ. فهُو مُصنَّف ـ طبقيّاً، وبشكل رُوتيني ـ في حقِّ التّصدُّر بين ابن الزّنا والمعتوق. فهُو أتى ـ فوراً ـ إلى الحياة، فينطرح ـ إذاً ـ موضوع القبل والقرابة الشّرعيَّة. هل يرث المُهتدي ابنه؟ نعم إذا وُلد هذا في حالة القداسة، لا إذا وُلد قبل الاهتداء؛ لأنَّه في هذه الحالة لم يعد هُناك رابط شرعي بينهما، وبالنّسبة لـ "ويل" و" اوريو"؛ إنَّ مسألة القرابة الشّرعيَّة والزّواج والتّصدُّر التي تطرح نفسها أمام المُهتدي تُظهر أنَّ هذا الأخير يخضع ـ مُنذُ الآن فصاعداً ـ إلى قانون مَدَني لمُواطنة جديدة. وبحسب هذَيْن الكاتبَيْن؛ فإنَّ مسيرة المُهتدي تُناسب وضع التّجنيس: أمَّا المعنى الحَرَكي لفعل: أنْ" تصنع المُهتدي " (غفر gwr)؛ لا تعني ـ فقط ـ هداية بالمعنى

الصّحيح للكلمة، بل ـ أيضاً ـ قبول أجنبي في شعب إسرائيلي، مع كُلِّ النّتائج النّاجمة عن هذا القبول: إنَّه تجنيس بالمعنى الحُقُوقي للكلمة". [1]

وهكذا؛ فإنَّ العالميَّة اليهُوديَّة هي الأكثر غُمُوضاً من غيرها. فعلى مُستوى الشُّعُوب هي محدودة، انتقائيَّة، وتسلسليَّة. وعلى مُستوى الأفراد ليس فيها مُساواة عقاريَّة، فيها تمييز عُنصُري، وتفرض مُواطنيَّة جديدة، واحترام حقٍّ عامٍّ جديد، وباختصار؛ تثبيت الواقع القومي العبراني.

هذه العالميَّة مبنيَّة على فكرة الشّعب الخاصّ الذي وعد بمصير خاصٍّ: يجب أنْ يُصبح إبراهيم أُمَّة كبيرة وقويَّة، وبه تتبارك كُلُّ شُعُوب الأرض (تكوين 18.18)، والشّعب الذي ندعوه باسم يَهْوَه يسمع الله مُؤكِّداً: أنتم الذين تُصبحون لي مملكة كَهَنَة وأُمَّة قدّيسة. سوف تُصبحون شعبي، وأنا إلهكم يَهْوَه، إلهك سوف يجعلك مُتفوِّقاً على جميع أُمم الأرض".

ظهرت العالميَّة اليهُوديَّة ـ بشكل حقيقي ـ مع النّبي أشَعْيَا. بشَّرت نُبُوءته بالملَكُوت العالمي "الخادم يَهْوَه" هُو وحده من إسرائيل الذي بقي طاهراً، وسوف يُحتَقَر، ويُذلُّ، ويُضطهد، لأنَّه تحمَّل وحمل كُلَّ المظالم وكُلَّ خطايا إسرائيل: مثل خروف يأخذونه إلى المسلخ، ومثل حَمَل أبكم أمام الذين يجزُّونه، فهُو لا يفتح فمه.

لقد أخذوه بالإكراه وبالحُكْم، ومَنْ فكَّر بمصيره؟ لقد نُبذ من أرض الأحياء، وضُرب بسبب إثم شعبي" (أشَعْيَا 53، 7 ـ 8).

يعتقد المسيحيُّون أنَّ هذا الخادم هُو المسيح، لكنَّ بعض مُفسِّري العهد القديم يعتبرون أنَّه الشّعب الإسرائيلي بأكمله. وكما يظهر من النّصِّ: "إسرائيل خادمي: سوف يُبشِّر بالحقِّ لجميع الأُمم" هذا هُو خادمي الذي أسنده اختياري، وله كُلُّ نعمي (أشَعْيَا 49). هذا التّفوُّق الذي تُصادق عليه كُلُّ كُتُب العهد القديم يُعطي الحُقُوق: قبل كُلِّ شيء حقُّ مُمارسة الحقِّ. حقٌّ مُعوَّض بواجب الذي نشر هذا الحقَّ الصّالح: فهُو لن يضعف، ولن ينحني، حتَّى يُقيم الحقَّ على الأرض، وتترجَّى الجُزُر شريعته لله الواحد، حقٌّ واحد. أ ليس هذا أُسلُوباً لرفض

---

(1) دي ابل وأوريو OP. CIT

الفُرُوقات بفرض هذا الحقِّ القومي على بقيَّة الأُمم؟. وإنَّ قبول هذا الحقِّ القومي والعالمي في آن واحد ألاَّ يفرض على الشُّعُوب الأجنبيَّة ترك معاييرهم القضائيَّة والتّاريخيَّة والثّقافيَّة والاجتماعيَّة أو الدِّينيَّة؟.

إنَّ عالميَّة النّبي أَشَعْيَا تفترض أنَّ خادم إسرائيل (3.49) سوف يكون "نُوراً" لباقي الأُمم: "أنا يَهْوَه، دعيتُكَ في الحقِّ، وأخذتكَ من يدكَ، وكوَّنتك، وهيَّأتك، لتكون عهد الشّعب ونُور الأُمم (أَشَعْيَا 6.42)، ويُؤكِّد الخادم أنَّ منه سوف تصدر الشّريعة، ويُصبح حقّه نُور الشُّعُوب، لكنْ؛ ليس قبل أنْ يدينهم (أَشَعْيَا 5.51).

يأتي النُّور من أُورشليم (1.60). ويُبشِّر "ميشي" أنَّه من صهيون تخرج الشّريعة. وكلمة يَهْوَه من أُورشليم. أُورشليم المُنيرة تُعبِّر عن عظمة يَهْوَه وسيطرة إسرائيل على الكُرة الأرضيَّة: "تسير الأُمم بنُورك، والملُوك بضياء فجرك، ارفع عينَيْك من حولك وانظر: كُلُّهم يجتمعون، ويأتون نحوك (أَشَعْيَا 4.3.60). ومن أطراف الأرض سوف يصرخون نحو إسرائيل: المجد للحقِّ (أَشَعْيَا 16.24). سوف تُصبح أُورشليم المركز الدِّيني للعالم (أَشَعْيَا /ميش 4)، سوف تفرض السّلام اليهُودي؛ لأنَّ السُّيُوف سوف تُصنع في مقاطع، والحراب سيِّئة الصّنع: سوف يُرفع سيف أُمَّة ضدَّ أُمَّة أُخرى، وسوف لن نتعلَّم الحرب أبداً (أَشَعْيَا 4.2)، سوف تُفتح أعين العميان، ويخرج الأسرى من السّجن، والذين يسكنون الظُّلمات سوف يخرجون من زنزاناتهم، ولن يكون في إسرائيل إلا العادلون، الذين لن يموتوا قبل مائة عام؛ لأنَّه سوف يكونون عرْقاً مُباركاً من يَهْوَه. وسوف تُصبح أُورشليم عرش يَهْوَه، سوف يجد الأجانب خُدَّام يَهْوَه خلاصهم (أَشَعْيَا 8 ـ 1.56)، من أجل كُلِّ ذلك؛ فإسرائيل ـ أكثر من أيِّ شعب آخر ـ هي مُخلِّص العالم، ولها قيمة في عُيُون يَهْوَه الذي هُو مُستعدٌّ للتّضحية بمصر وكوش وسبأ مكان إسرائيل: لأنَّ لك ثمن في نظري، ولك قيمة، وأنا أُحبُّك، فأنا أُعطي رجالاً مكانك، وشُعُوباً بدل حياتك (أَشَعْيَا 4 ـ 3.43).

تبدو العالمَيّة العبرانيَّة قاطعة: الأجنبي عنده اختيار بين اتِّباع نُور إسرائيل أو الزّوال. وفي ذلك لا تختلف عن العالميَّة المسيحيَّة، إنَّما المسيح بدل إسرائيل، ويُؤكِّد أَشَعْيَا: "إذا أرادوا أنْ يتعلّموا طُرُق شعبي (أيْ الشُّعُوب المجاورة) بشكل أنَّهم يحلفون باسمي وبحياة يَهْوَه كما

علّموا شعبي أنْ يحلف ببعل، سوف يُبنون وسط شعبي، لكنَّهم إذا لم يسمعوا سوف أقتلع هذه الأمَّة، وأجعلها تزول" (أشَعْيَا 17 ـ 16.12)، فالشُّعُوب التي وفدت أُورشليم أنكروا هُويَّتهم "فلن يتَّبعوا ـ أبداً ـ عناد قلبهم السَّيِّئ. تبنَّت ـ هُنا ـ إسرائيل رسالة مُنقذة وإنسانيَّة: اتَّجهوا نحوي، يقول يَهْوَه وسوف تُنقذون وكُلُّ أقاصي الأرض؛ لأنَّني أنا الله، ولا يُوجد إله غيري" (أشَعْيَا 22.45)، لا يُوجد اختيار آخر إذاً، والقصيدة الثَّانية للخادم تُبرِّر المصير الكوكبي لإسرائيل: "اسمعوني، وكونوا مُصغين: أيُّتها الشُّعُوب البعيدة، لقد ناداني يَهْوَه مُنذُ بطن أمِّي، مُنذُ أحشاء أُمِّي، لفظ اسمي، لقد جعل من فمي سيفاً مشحوذاً، وخبَّأني تحت ظلِّ يده. لقد صنع مني سهماً مسنوناً، وفي جُعبته خبَّأني، وقال لي: " إسرائيل أنت خادمي، وبكَ أتمجَّد "، إنَّه قليل أنْ تُصبح خادمي، لترفع أسباط يعقُوب، وتعبد ما لإسرائيل. فأنا أُعدك لتكون نُور الأُمم، حتَّى يصل سلامي إلى أطراف الأرض (أشَعْيَا 6 ـ 1 ـ 49)، يتوجَّه سلام يَهْوَه إلى الجميع. إلى ابن الأجنبي المُقيم في إسرائيل كما إلى المخصي الذي كان سابقاً مُستثنى من الكَهَنُوت (الأحبار 20.21)، وجماعة يَهْوَه. وهكذا يقول يَهْوَه: اتَّبعوا الحقَّ، ومارسوا العدل؛ لأنَّ سلامي اقترب مجيئه ونصري اقترب تحقيقه. طُوبى للفان الذي يفعل ذلك، وابن الإنسان الذي يتمسَّك بثبات، مُمارساً السّبت دُون أنْ يُدنِّسه، وحافظاً يده من كُلِّ عمل سُوء! وألا يقول ابن الأجنبي الذي انضمَّ ليَهْوَه: يَهْوَه سوف يطردني ـ بالتَّأكيد ـ من شعبه ". وألا يقول المخصي: ها أنا ذا شجرة يابسة. فقد قال يَهْوَه: إلى الخصيان الذين يتَّبعون السّبت... سوف أُعطي في بيتي وفي جدراني صرحاً واسماً... أمَّا بالنّسبة لأبناء الأجانب الذين انضمّوا ليَهْوَه ليخدموه ويُحبُّوا اسم يَهْوَه ويُصبحون خَدَمه، وكُلّ الذين يتَّبعون السّبت دُون أنْ يُدنِّسوه ويبقوا ثابتين في عهدي؛ سوف آخذهم إلى الجبل المُقدَّس، وأجعلهم يُسرُّون في بيت الصّلوات، بيتي، ومحارقهم وأضاحيهم سوف تُقبل على مذبحي. لأنَّ بيتي سوف يُسمَّى بيت الصّلاة لجميع الشُّعُوب. واهب الرّبّ يَهْوَه الذي يجمع كُلَّ المُبعدين عن إسرائيل: سوف أجمع ـ أيضاً ـ بجانبه بالإضافة للمُجتمعين سابقاً (أشَعْيَا 8 ـ 1 ـ 56)، غير أنَّ الجميع لن يُخلّصون. يتكلّم أَشَعْيَا عن النّاجين من الأُمم، ويُرسلهم إلى اللّعنات: " يعمُّ غضب يَهْوَه على كُلِّ الأُمم "... حتَّى لو أنَّ أشَعْيَا وعد بعض النّاجين من الأُمم أنَّ يُصبحوا كَهَنَة أو لاويِّين (21.66)، إنَّما سيكونون يداً عاملة غريبة مُستعبدة،

ستبني الأسوار، وترعى القطعان، وتحرث، وتقطف، بينما يكون العبرانيُّون كَهَنَة يَهْوَه مشغولين بأنبل مهمَّة كَهَنُوتيَّة دينيَّة (أشَعْيَا 6 ـ 5.61): (*) سوف تتغذُّون من ثروات الأمم، وسوف تزدهون بغناهم. في الواقع؛ لا يُخفي أشَعْيَا المصلحة التي يستفيد منها اليهُود في هذا النّصر. سوف يُصبح مُلُوك أجانب مُعيلين لإسرائيل وأميرات مُعيلات لها (أشَعْيَا 23.49)، فكُنُوز البحر وثروات الأُمم سوف تسيل نحو أُورشليم، قوافل سوف تحمل الذّهب والبُخُور والسّرو والدّردار والصّنوبر من لُبنان. لن تُغلق أبواب المدينة المُقدَّسة أبداً، حتَّى يجلبوا ليلاً ونهاراً ثروات الأُمم بقيادة ملكهم. لقد وعد بذلك أشَعْيَا للشّعب المُختار: سوف تمتصُّ حليب الأُمم وثدي المُلوك (أشَعْيَا 60 ـ 1 ـ 16)، لنبتهج، إذْ أنَّه سوف يذهب نحو أُورشليم كُلُّ غنى الأُمم مثل نهر وثروتهم مثل سيل (أشَعْيَا).

لا يُوجد في كتابات هذا النّبي ولا في مقطع منها ـ وهُو يُعتبر النّبي الأكثر عالميَّة في العهد القديم، كما أنَّه لا يُوجد ولا في أيِّ كتاب آخر ـ تأكيدٌ أنَّه لن يعود هُناك " لا يهُودي ولا يُوناني ولا سيتي. . . كما أنَّ فكرة انصهار شعب إسرائيل في كنيسة عالميَّة؛ حيثُ يعامل المُؤمنون على قَدَم المُساواة، وبحسب إيمانهم وليس انتمائهم، هي فكرة غائبة تماماً.

على العكس تماماً؛ تظهر ـ بوُضُوح ـ قوميَّة مَرَضيَّة تجعل من الانتقام سبباً لوُجُودها: *"الأُمَّة والملكة التي لن تخدمك سوف يموتون، والأُمم سوف تُباد" (أشَعْيَا 12.60). سوف يأتون نحوك مُنحنين، أبناء الذين أثقلوا عليك، ويسجدون عند قدمَيْك، وكُلّ الذين كانوا يكرهونك، وسوف يدعُونك: مدينة يَهْوَه، صهيون إسرائيل المُقدَّس. فأرباح مصر وكوش والصّابئة ورجال ذوو قامة طويلة يأتون إليك ويُصبحون ملكك. ويسيرون خلفك مُثقلين بالسّلاسل، وسوف يترجَّونك: لا يُوجد الله إلا عندك، ولا يُوجد غيره، لا يُوجد آلهة. صحيح أنَّك إله يختبئ، إله إسرائيل المُخلّص، سوف يستحون ويخجلون، كُلُّ الذين كانوا يثورون ضدَّك سوف يذهبون مُرتبكي، صُنَّاع الأوثان، سوف يُخلّصها يَهْوَه وإلى الأبد. سوف لن تخجلوا، ولن ترتبكوا إلى أبد الآبدين.*

(*) هذه هي القيَم الدِّينيَّة الصّفيقة التي تصنع الضّمير اليهُودي، فتدفعه للاستشراس والقمع والسّرقة واللُّصوصيَّة واستغلال الشُّعُوب ونهب ثرواتها والاستيلاء على أراضيها ومُنتجاتها. إنَّها ـ بالتّأكيد ـ ليست قيَماً نبويَّة، إنَّما حرَّفها جماعة من اليهُود الأشرار.

لا نستطيع إلاَّ أنْ نُقيم علاقة بين هذا التّفوّق الذي تُعلنه إسرائيل على جميع الأُمم وبين خيبتها في التّاريخ، وفشل تاريخها:

لقد استُعمِر اليهُود(*) على التّالي من قبَل: الأشوريِّيْن والبابليِّيْن والفُرْس واليُونان، ثُمَّ الرُّومان، وتبع ذلك أسرَيْن أو نفيَيْن في آشور وفي بابل. وسياسيّاً؛ لم تستمرّ المملكة المُوحَّدة إلاَّ بضع عشرات من السّنين مع شاؤول وداود وسُليمان. ويُمكننا تصوُّر مدى حقد شعب لا يمتلك الوسائل لتحقيق طُمُوحاته في السّيطرة! وهذا ما أراد إرْمِيَا التّعبير عنه: "لأنَّني أنا معك لأنقذك، فأنا سوف أفعل الإبادة بين جميع الأُمم؛ حيثُ شتَّتُكَ، أمَّا أنت؛ فلن أبيدك. فالعالميَّة في العهد القديم وعند أشَعْيَا تحديداً تُشبه ـ بشدَّة ـ عالميَّة اليهُو ـ مسيحيِّيْن الذين عارضهم بُولُس.

هذه العالميَّة تتطلَّب من الأُمم خُضُوعاً لشريعة اليهُود: يجب أنْ يعمَّ الحقُّ على الأرض (أشَعْيَا 42. 4)، وهذا هُو شرط السّلام: اتبعوا الحقَّ، ومارسوا العدالة؛ لأنَّ سلامي اقترب من الوُصُول. (أشَعْيَا).

الموضوع هُو ـ إذاً ـ التّبرئة بالأعمال، وليس موضوع إيمان: الموضوع هُو العمل والاتِّباع. وقد كَتَبَ "مندلسون": "بين جميع التّعليمات وجميع الوصايا في شريعة مُوسى ولا واحدة منها تتطلَّب الإيمان: آمِنْ، أو لا تُؤمنْ، كُلُّها تطلب النّظام أو الدّفاع(1). وينتبه "جيرالد هيرفه" أنَّه لا يُوجد في العبراني كلمة مُعادلة لكلمة إيمان(2). ويُؤكِّد "جيرسون فايلر": أنَّ مفهوم الإيمان ـ كما نفهمه بشكل عامٍّ ـ هُو غريب على نمط التّفكير اليهُودي. فالتّمييز بين مُؤمن وغير مُؤمن ـ والذي هُو الآن في قلب المُناقشات الحديثة حول حقيقة الأديان ـ لا يُمكن

(*) توضيح على الكلام المذكور:

عام 721 ق.م، احتلَّ تفلاصر الثّالث السّامرة، وقد قضى على الأسباط العشرة.

عام 701 ق.م، حاصر سنحاريب الآشوري أُورشليم.

عام 586 ق.م، نبوخذ نصَّر دمَّر أُورشليم والمعبد، وسبى اليهُود.

عام 539، الاحتلال الفارسي. وإعادة جُزء من اليهُود إلى أُورشليم لإقامة نظام جديد ونشر الزّرادشتيَّة، لكنَّ الكنعانيِّيْن لم يتقبَّلوا الدّيانة الجديدة، ولم يتقبَّلوا ـ كذلك ـ اللُّغة.

(1) م. مندلسون، أُورشليم 1783 (قدم من قبَل نيهير، الهُويَّة اليهُوديَّة، باريس سيفر 1989.

(2) ج. هيرف كذبة بُقراط الوزان، عصر الإنسان، 1984.

صياغته في اللُّغة العبريَّة[1]، ومن جهة أُخرى؛ ليس هُناك من مجال لإجراء عمليَّة دمج في كنيسة عالميَّة تجمع أجناساً مُختلفة. إنَّما يحصل الدّمج في شعب وجب أنْ تُعتبر عاصمته المركز الدِّيني للعالم (أشَعْيَا 2)، وبذلك هي الأُمم التي تأتي، والمُهتدون مُجتمعون قُرب أبناء إسرائيل، وتبني الشُّعُوب في وسط شعبه، كما يقول إرْمِيَا.

فالعالميَّة عند أشَعْيَا لا تُقرُّ بالفُرُوقات بين الشُّعُوب، كما أنَّها لا تردُّ اعتبار المُوابيِّين والعمونيِّين.

أمَّا اسرائيل؛ فتبقى في قمَّة الهَرَم، هَرَم الشُّعُوب، دورها الكَهَنُوتي محفوظ، وحتَّى لو أنَّ بعض الآيات تبدو مُوزَّعة هذا الدّور إلى بعض الأجانب، إنَّما هذا الدّور يبقى دوراً فعليَّاً (61.5 ـ 6)، ومن جهة أُخرى؛ يبقى أشَعْيَا مُخلصاً لعمليَّة الفصل بين الطَّاهر والنَّجس: أُورشليم مدينة مُقدَّسة! لأنَّه ـ مُنذُ الآن ـ لن يدخلك الذين لم يختتنوا ولا الدّنسون (أشَعْيَا 1.52)، فثبتت فكرة انتقاء إسرائيل وتحقيق الوعد المُعطى لإبراهيم وقداسة إسرائيل المُعلنة (و بذلك يعترفون له بالسُّلالة المُباركة ليَهْوَه.)

فالذُّرِّيَّة ليست مجهولة، وبذلك؛ فذُرِّيَّة اسرائيل هي التي سوف تنتصر.

وعمليَّاً؛ فإنَّ عالميَّة اليهُود ـ إنْ كانت عالميَّة اليهُو ـ مسيحيِّين أو عالميَّة أشَعْيَا ـ تفترض نفسها كإمبرياليَّة ثقافيَّة، غايتها تقوية اسرائيل (حُقُوقها) وإلهها وعاصمتها وأبطالها... واستبدال كُلِّ أنماط الحياة بنمط حياتها المُحاط بوصايا (هُناك 613 وصيَّة حسب التّلمُود تتسلَّل حتَّى في حميميَّة الفَرْد وحياته الخاصَّة)، كما أنَّ غايتها اجتثاث الفُرُوق والاختلافات وإنقاص قُدرة الآخر.

فلا يُوجد ـ هُنا ـ تعارض بين القوميَّة والعالميَّة: يُنقَذ العالم ويُخلَّص بتقوية الأُمَّة اليهُوديَّة، وتثبيتها على الكُرة الأرضيَّة. فبذلك؛ تكون الرّسالة العالميَّة مشروعاً قوميَّاً. كذلك الأمر؛ لم يعد هُناك تعارض بين عمليَّة الانتقاء والنَّبْذ وعمليَّة العالميَّة. ووجب ولزم على إسرائيل أنْ تُحافظ على الشّريعة بمنع وتحريم الاختلاط والتّأثيرات الخارجيَّة قبل أنْ

---

(1) ج وايلر، التّجربة التّيوقراطيَّة، باريس كالمان ـ ليفي 1991.

تفرض شريعتها هذه على الآخرين. وقبل أنْ تفرض نظام الطّاهر والنّجس وجب عليها أنْ تُمارسه. ويُؤكِّد "بارون": "إنَّ إيسدراس ونَحَمْيَا - وكانا قوميَّين مُتحمِّسَيْن - وضعا العامل القومي فوق كُلِّ العوامل، فأنقذا شعبهما. ومن هُنا؛ يُمكن التّأكيد أنَّهما عملا للبشريَّة بشكل عامٍّ.[1] لكنَّهما - بتطبيق نظام الطّاهر والنّجس وبنَبْذ الأجانب - انفصلت إسرائيل عن الأُمم، وبذلك منعت نفسها من نشره.

لذلك تبقى هذه العالميَّة خياليَّة ومظهراً زخرفيَّاً للقوميَّة اليهُوديَّة، كونها ليس لها أيُّ استقلاليَّة بالنّسبة للواقع القومي.

لقد ذكَّرنا - أعلاه - "شارل دي فوكود" *أنَّ الثاليَّة الاستعماريَّة الفرنسيَّة هي إحدى المفاهيم التي تقترب من العالميَّة اليهُوديَّة (بالشّكل فقط، بما أنَّ الاستعمار الفرنسي في قراره وعُمقه يفترض ويُسلِّم بالمساواة بين جميع البشر، وذلك بعكس العالميَّة اليهُوديَّة)* هُنا مثل هُناك، الموضوع هُو إدماج في شعب، جلب قوانين جديدة وعادات جديدة وديانة جديدة ومعايير تاريخيَّة جديدة ومعايير ثقافيَّة جديدة. هُنا مثل هُناك، نَعدُ المُندمجين ببعض المناصب (المُتحرِّكة) (لاوي هُنا ونائب هُناك)، وهُنا مثل هُناك، تدعم الأيديُولُوجيَّة القوميَّة الموهبة الكوكبيَّة (أيْ كوكب الأرض)، وهُنا مثل هُناك، نسير إلى الفشل....

بعد "أَشَعْيَا" "وفيلُون الإسكندري" نذكر - غالباً - "فلافيُوس جُوزف" لتوضيح الموهبة العالميَّة اليهُوديَّة. ومن سُرُور فلافيُوس جُوزف الإشارة إلى أنَّ بعض مظاهر الشّريعة اليهُوديَّة أصبحت مُتَّبعة من قبَل غير اليهُود بشكل مُتزايد. هل نفهم من سُرُوره هذا علامة واضحة لعالميَّة ينسبها له أو علامة الافتخار القومي؟ ربَّما الاثنان معاً مثل أَشَعْيَا، لكنْ؛ ما هي النّسبة لكُلِّ واحدة؟ هل فلافيُوس جُوزف يتأرجح بين النَّبْذ والدّمج، وهُما أُسلُوبان لرَفْض الآخر؟ أو أنَّه يقبل الاختلاف مهما كان دينياً أو ثقافياً أو في المواقف والتّصرُّفات؟ هذا ما سندرسه في هذا المُؤرِّخ اليهُودي من القرن الأوَّل، مُؤرِّخ حوله جدَل.

---

(1) سالو وبارون، تاريخ إسرائيل، جُزء أوَّل، باريس بوف 1957.

الفصل الرّابع:

فلافيُوس جُوزف أو مسألة الخيانة

تمُّوز عام 67، الوضع في " جُوتا باتا" ميؤوس منه. فلا يزال السُّكَّان يُقاومون قطعات فيسباسيان **vespasien**، لكنَّ هذا الأخير على الأراضي التي تُشرف على أسوار المدينة. والأنكى من ذلك؛ أنَّه كان هُناك فارّ من الجنديَّة أتى يحمل أخباراً لجنرال العدوِّ؛ مفادها أنَّ المُدافعين الذين بإمرة جُوزف بن ماتياس قد أُنهكوا، وعددهم قليل الآن، وأنَّ الحُرَّاس ينقصهم النّوم، فاستولى عليهم النُّعاس، فناموا في آخر ليلة عند الصُّبح. لكنَّ " فيسباسيان" لم يعر أهمِّيَّة لهذه التّصريحات الصّادرة عن خائن؛ لأنَّه يعرف "أمانة اليهُود وصدقهم فيما بينهم، وأنَّهم يكرهون العقُوبات". لقد تذكَّر أنَّه قبل مُدَّة قليلة كان هُناك سجين قد قاوم كُلَّ أنواع التّعذيب: قد أُخضع لعذاب النّار من قبَل العدوِّ الذي أراد أنْ يجعله يتكلَّم، لكنَّه لم ينبث (ببنت شفة) ولا بكلمة حول الوضع الدّاخلي للمدينة، ثُمَّ صُلب والابتسامة على شفتَيْه" (**gj111 . 321**).

وبما أنَّ المخاطر كانت قليلة؛ قرَّر "فيسباسيان" القيام بالعمليَّة. وحاصر الرُّومان سُور المدينة، "وتيتوس" على رأسهم، وفي السّاعة المُحدَّدة في 27 تمُّوز عام 67، ذبحوا الحُرَّاس، وانطلقوا إلى داخل المدينة قبل أنْ يعي المُدافعون عنها هذا الخطر. لم يُوفِّر الرُّومان أحداً عدا الأطفال والنّساء، أمَّا جُنُود "جُوزف بن ماتياس"؛ فحُوصروا، وضُيِّق عليهم الخناق، فانتحروا بأعداد كبيرة، لكنَّ الجنرال اليهُودي قائد منطقة " جُوتا باتا"، وهُو " جُوزف بن ماتياس" اختفى، ولم يجده أحد. بحث عنه الرُّومان بين الجُثث أوَّلاً: أليس بين هذه الصّحابة؟ يجب أنْ نجد الجنرال الذي كان جُنُوده عازمين بشدَّة؟ لكنْ؛ بينما كان الجُنُود يُذبحون هرب " جُوزف بن ماتياس ها ـ كُوهين" بمُساعدة إلهيَّة، واختبأ في مغارة خفيَّة

مفتوحة على مُنحدر لحوض عميق. ولسُوء الحظِّ؛ لم يكن الجنرال وحده في هذه المغارة، فكان يُوجد فيها أربعون من الأعيان والوُجهاء. وبقيت هذه المجمُوعة مدفونة ليومَيْن كاملين دُون أيِّ حركة. أمَّا في اليوم الثّالث وبعد حُصُول وشاية؛ اكتشف الرُّومان المخبأ، واكتشفوا وُجُود الجنرال فيه.

توقَّع جُوزف بن ماتياس الكارثة، لكنَّه لم يُصغ إلى الضّمانات التي أعطاه إيَّاها المبعوثون من قِبَل فيسباسيان. لكنَّ وُصُول المُحامي عن حُقُوق الشّعب واسمه "نيكاتور" - وهُو صديق حميم لجُوزف ومُنذُ زمن بعيد، وحُصُول إلهام نبوي مُناسب في أوانه (جُوزف على علم كامل بنبُوءات الكُتُب المُقدَّسة، إذْ إنَّه - هُو نفسه - كاهن ومن أُصُول كَهَنُوتيَّة) - أدّى ذلك - نهائيّاً - إلى إقناعه بإعلان الاستسلام. إلا أنَّ رفاق النّكبة لم يفهموا الأمر كما فهمه جُوزف. قاموا بعظات مُلتهبة، يُنادون فيها بالرُّجُوع إلى شريعة الأجداد، وإلى الحُرِّيَّة أو الشّجاعة، قد يظهر في خلفيَّتها غيظ تغذية القناعة بأنَّ جُوزف بن ماتياس قد يخرج منها بسلام، أمَّا هُمْ؛ فلا، فَهُمْ قد هربوا واختبؤوا، خوفهم من الرُّومان - بدُون شكٍّ - هُو الذي جعلهم يختارون الانتحار الذي سارع إليه غيرهم، ولم يُرجئوه. لكنَّ ابن ماتياس لا يُفكِّر بذلك، فحاول إقناعهم بالعُدُول عن ذلك، لكنَّ مُحاولته ذهبت سُدى، ولم يتوصَّل إلاَّ إلى سُخطهم وغيظهم، فانضمَّ - هُو - إلى الرّأي الإجماعي، واقترح عليهم الانتحار الجماعي بالقُرعة. إنَّ كيفيَّات التّنفيذ لهذا الانتحار يُمكن أنْ تُختصر بالمسألة الرّياضيَّة التّالية: في عام 67، بعد المسيح وخلال ثورة من ثورات اليهُود ضدَّ الرُّومان سُجن ثمانية وأربعون يهُوديّاً. وبما أنَّهم لا يُريدون أنْ يُصبحوا عبيداً قرَّروا أنْ يقفوا في دائرة، وأنْ يترقَّموا من 1 إلى 40. وكُلُّ واحد سابع يُقتل، حتَّى لا يبقى إلاَّ واحد، وهُو الأخير، يجب عليه أنْ ينتحر، وقف المُؤرِّخ اللاَّحق فلافيُوس جُوزف بشكل أنَّه بقي الأخير ... لكنَّه لم ينتحر. حدَّدوا الرَّقْم الذي اختاره فلافيُوس جُوزف[1]. الذي لا تقوله المسألة هُو أنَّ جُوزف أراد تجنُّب تدنيس يده بالقَتْل؛ أيْ قتل مُواطن تصرَّف بشكل أنَّه أنقذ - أيضاً - حياة الذي قبله. ومُنذُ ذلك الحين أصبحت شُهرة جُوزف بن ماتياس كبيرة، فصاروا يرونه في مُحيط فيسباسيان الذي وعده بالإمبراطُوريَّة، ومتيتوس تحت جُدران أُورشليم نفسها. الإنسان الذي سوف يُصبح

(1) مجمُوعة منوج طلب نهائي. د. قدمه م - هاداس - لوبل في فلافيُوس جُوزف يهُودي رُوما، باريس، فايار 1989.

فلافيُوس جُوزف كان ـ بالتّأكيد ـ خائناً. كان كذلك بالنّسبة لمُواطنيه، وسوف يبقى كذلك في الإدانة الحازمة لمُعاصرينا. وفي خلفيَّة خيانة فلافيُوس جُوزف ترتسم ـ مرَّة أُخرى ـ مسألة الآخر. هل نرى في جُوزف مثالاً لليهُودي الكاهن، الذي بالإضافة إلى التّخلّي عن شعبه انضمَّ إلى الأجنبي؟! وخيانة هذا المُفكّر ألا يُفترض فيها أنَّها إعادة نَظَر جَذْريَّة للنّهج الشّرعي في وَهْم الآخر، والذي درسناه أعلاه؟ سوف نرى المغزى في أنَّ الله هُو الذي سمح لجُوزف بالمُرُور إلى الآخرين، والله ـ أيضاً ـ هُو الذي جعل من فيسباسيان السيِّد المُطلق لليهُود، السيِّد الذي يُملي الظُّرُوف التّاريخيَّة الجديدة التي يجب التّكيُّف معها دُون تغيير الشّريعة.

هل جُوزف خائن؟! لا يُوجد شيء أكثر تأكيداً من ذلك. سوف نرى أنَّ جُوزف يتسجَّل قدر الإمكان داخل هذه الشّريعة المُوسويَّة التي لم يُعدْ النَّظَر فيها أبداً، لكنَّ استنارته التي يمتلكها غيره أيضاً من جهة "يابنة" أو جينة (yabna) جعلته يفهم أنْ لا شيء سوف يرجع مثل قبل، وأفهمته أنَّه حان الوقت لاختراع علاقات جديدة مع الآخرين، مُنذُ الآن فصاعداً، وإلى أمد طويل، كون الآخرين كُلّيّيْ الوُجُود.

سوف نبحث في النّصِّ التّاريخي المُسجَّل فيه جُوزف، وسوف نستجوب عمله: أليس المُؤرّخ هُو الضّحيَّة، ألاَّ تشهد ضدَّه؟ سوف نرى أنَّ ـ من وُجهة نظر جُوزف والشّريعة ـ آمر موقع جوتا باتا لم يكن خائناً.

اختيار جُوزف:

في عصر فلافيُوس جُوزف كان اليهُود الذين لم يُرحَّلوا أسرى عام 721ق.م من قبَل الآشوريّيْن يعيشون لعدَّة قُرُون تحت سيطرة الاستعمار الأجنبي، رغم البرهة القصيرة الحشمونيَّة (من 142إلى 63 ق م).

فمملكة يهُوذا ـ التي كانت في البدء مُنتدبة آشورياً ـ خضعت ـ بعد ذلك ـ لمصر، بعد معركة مجيدو عام 609 ق م؛ حيثُ مات خلالها الملك يُوشاع (yoshaa) الذي كان شهيراً بنضاله ضدَّ الوَثَنيَّة. وفي عام 605، هُزم الجيش المصري من قبَل البابليّيْن. وصار اليهُود ـ مُنذُ ذلك الحين ـ يدفعون الجزية لنبوخذ نصَّر.

وفي عام 601، ثارت يهُوذا ـ بتحريض من مصر ضدَّ بابل ـ فتدخَّل نبوخذ نصَّر مع قطعانه، وأسر الملك يواكين مع عديد من الوُجهاء والأعيان إلى بابل عام 597 ق م.

وفي عام 586 ق م[*] - وبعد أنْ حرَّك ملك يهُوذا "سيديسياس" ثورة جديدة - حُطِّمت أورشليم، وحُطِّم المعبد، ورُحِّلت الجماهير أسيرة إلى بابل. وبعد سقُوط بابل عام 539 ق م، انتقل اليهُود لتحت السّيطرة الفارسيَّة. أصدر "سيروس" مرسوماً اسمه مرسوم "إكتابان" (538) ق. م، سمح فيه للأسرى بالعودة إلى أُورشليم، لإعادة بناء المدينة ومعبدها. إنَّما لم يَعُدْ الجميع: تمركز الشّتات حول الكنيس، الذي أصبح - مُنذُ ذلك الحين - المكوِّن الأساسي للعالم اليهُودي. أُعيد بناء أُورشليم والمعبد، وافتُتح باحتفال فخم عام (515 ق. م). وبعد (الاستعمار) السّيطرة الفارسيَّة، أتت السّيطرة اليُونانيَّة. وفي عام 333 ق. م، اجتاز الإسكندر المقدوني الهيليبونت، وجعل من فلسطين مُقاطعة تابعة للإمبراطُوريَّة المقدونيَّة. فتقابلت حضارتان، وتغلغلتا في بعضهما، واصطدمتا. وعند موت الإسكندر انقسمت الإمبراطُوريَّة اليُونانيَّة - سياسيّاً - بين الجنرالات - لكنَّها بقيت مُوحَّدة على الصّعيد الثّقافي. فعادت فلسطين إلى "اللاَّجيدبيِّين"، فدفعت الجزية خلال قرن كامل، بينما تغلغلت الهيلينستيَّة فيها حتَّى الطّبقة الكَهَنُوتيَّة والأرستقراطيَّة. إنَّ التّشنُّج الانتمائي للتّماميِّين والمُعارضين بين أتباع البطالمة والسّلوقيِّين والنّزاعات الدِّينيَّة بشأن إدارة المعبد، كُلُّ ذلك أدَّى إلى وضع صراعي.

وفي عام 200 ق. م، قام الملك "السُّوري" "أنطيوخوس الثّالث" بمعركة هزم فيها البطالمة في معركة "بانيون"، واحتلَّ فلسطين. فمنحهم دُستُوراً ليبراليّاً يُصَرِّح فيه أنَّ بإمكان الشّعب أنْ يحكم نفسه حسب قانون أجداده. وفي عام 175 ق. م، شُغل الملك السّلوقي الجديد "أنطوخيوس الرّابع ابيفان" في الصّراع الذي قام بين التّقليديِّين والمُهيلنين. ويعتقد فيدال - ناكيه "أنَّ أصل ثورة "اليهُوديِّين" تكمن - أكثر ما يكون - في وُجُود يهُود مُتهلينين مسؤولين عن انشقاق المُجتمع اليهُودي أكثر من الإجراءات الافتراضيَّة التي اتَّخذها أنطوخيوس الرّابع مثل: (منع الختان والسّبت، وإقامة عبادة زيوس الأولمبي الرّسمي والإجباري): لكي يُصبح الصّراع بين التّوفيقيِّين اليُونان والمُتصلّبين اليهُوديِّين لا مفرَّ منه وجب أنْ تتهيَّأ الأرضيَّة لذلك، وهذه تهيَّأت باليهُود الهيلينيِّين المُهتمِّين بتحديث الدِّين.[1]

(*) عام 586 ق. م، تمَّ سقوط يهُوذا على يدَيْ نبوخذ نصَّر، الذي دمَّر الهيكل، وحطَّم أُورشليم، ورحَّل اليهُود أسرى إلى بابل.

(1) - فيدال ناكيه - استخدام الخيانة، مدخل إلى الحرب اليهُوديَّة، لفلافيوس جُوزف باريسمينوي 1977.

الذي أعطى إشارة الثّورة هُو كاهن من عائلة الحشمونيِّين اسمه "ماتاتياس"، ومع "الحاسيديم" (الأتقياء - مُحبِّي الله) قام هُو وأبناؤه من بعده بتطهير وختان وقتل وطرد، وأقاموا حرب عصابات دائمة. وفي كانون الأوَّل من عام 164 ق. م، استعاد "يهُوذا مكابي ابن ماتاتياس" المعبد. وتابع أخوته النّضال، حتَّى تمَّ استقلال فلسطين، وإقامة حكْم الأسرة المالكة الحشمونيَّة: "هيكران 134 - 104 ق. م، أريستوبول" (104 - 103) ألكسندر جانيه (103 - 76) وسالومه ألكسندر (76 - 67) ق. م، واريستوبول الثّاني (67 - 63)، مارس الحشمونيُّون سياسة الفتح مدعومة بسياسة تحالف رفيع المُستوى مع رُوما ومصر، وتهويد قسري في إدومه خاصَّة، وفي شمال الجليل أو شرق بُحيرة طبريَّا.

وفي عام 67 ق. م، وبعد تنافس على العرش بين اريستوبول وهيكران - وهُما اثنان حشمونيَّان - استُدعي بُومبي pompee كَحَكَم، فاختار هيكران. فاحتمى اريستوبول في أُورشليم التي احتلَّها بُومبي عام 63.

ومُنذُ عام 63، قبل المسيح حتَّى 67، بعد المسيح، أصبحت فلسطين مُقاطعة رُومانيَّة خاضعة لقُنصل سُوريَّا. وبعد الثّورة المُحرِّكة من "أنتيغون" ابن اريستوبول، انحصر دور هيكران - فقط - في الكَهَنُوت ككاهن كبير، بينما يقوى تأثير ونُفُوذ انتيبار ابن شخص إدومي مُهتدي، وهُو برتبة مُختار في قصر هيكران.

وبعد موت "انتيبار" استلم أحد أبنائه وهُو "هيرود"، وتلقَّى من "مارك أنتوني" و"أوكتاف" لقب "رئيس ربعي". وبعد فترة قصيرة بين 40 - 37 ق م؛ حيثُ حكم الملكيَّة اريستوبول ابن انتيغون وحليف البارتيِّين ضدَّ رُوما، أصبح هيورُود - بدوره - ملكاً لليهُود بفضل مارك أنتُوني وأوكتاف. دام حُكْمه حتَّى العام الرّابع بعد المسيح، وكان بنَّاءاً مُتميِّزاً وصديقاً لرُوما... التي لها عليه جمائل كثيرة، قُسِّمت المملكة - بعد موته - إلى ثلاث إمارات.
وُلِّي على اليهُوديَّة والٍ رُوماني وعاصمة جديدة أكثر ضماناً وهي: قيصريَّة، ومع أنَّ الرُّومان بذلوا جُهُوداً كبيرة لتجنُّب الاضطرابات، لم تنقص دوافع التّوتُّرات. قبل كُلِّ شيء الدّوافع الدِّينيَّة: التّماثيل الإمبراطُوريَّة والنُّسُور المنحوتة والعبادة الإمبراطُوريَّة كُلُّها صَدَمَتْ الحساسيَّة اليهُوديَّة. فصاروا يحلمون بمملكة مُستقلَّة. والدّوافع الثّقافيَّة أيضاً: الهيلينيستيَّة

المنقولة بواسطة رُوما أثارت تعصُّب المُتمسِّكين بالتّوراة، وقد ساهمت - أيضاً - بتعميق الخلاف الذي يفصل اليُونان واليهُود مُنذُ زمن بعيد، كما أنَّها هدمت المُجتمع اليهُودي. والدّوافع الاقتصاديَّة: الضّرائب الرُّومانيَّة الثّقيلة جداً، فالأفقر حالاً ليس لديهم شيء يفقدونه، فثاروا ضدَّ المُحتلِّ. أخيراً؛ الدّوافع السّياسيَّة: فعل الزّيلوتيِّيْن مثل قلَّة مهارة الوُلاة أدّوا إلى إثارة صراع مفتوح، رغم الحُكْم الذّاتي المَدَني والدِّيني والشّرعي الممنوح لهم تحت سُلطة السّنهدرين.

وفي عام 66، حصلت حوادث خطيرة بين اليُونان واليهُود في قيصريَّة. فصادر فلُورُوس الوالي الرُّوماني، 17 تالان من الذّهب من كنز المعبد، وأشعلها ثورة. واحتلَّ القَتَلَة المُستأجرون مسعدة. وفي أُورشليم منعوا الأضاحي المُقدَّمة من قبَل الأجانب والأضاحي المُقدَّمة على نيَّة رُوما: هذه بداية الحرب اليهُوديَّة الأُولى.

من الواضح أنَّ فلافيُوس جُوزف لم يُوافق على هذه الحرب. ففي عام 64، (لم يكن عُمره إلا 26 عاماً) كُلِّف جُوزف بالذّهاب إلى رُوما ليعمل على تحرير كَهَنَة كان الوالي "فيليكس" وهُو والي اليهُوديَّة (52 - 60) قد سجنهم ظُلماً، وأرسلهم إلى المدينة في الإمبراطُوريَّة، فقابل هُناك "أليتوروس" وهُو المُومئ والمُفضَّل عند "نيرون" ومن أصل يهُودي، فقدَّمه لبوبيه Popee التي - بفضلها - استطاع أنْ يقوم بمهمَّته بشكل جيِّد. إنَّ سيرته الذّاتيَّة لا تروي أيَّ شيء عن انطباعاته عن عاصمة الإمبراطُوريَّة.

لكنْ؛ باستطاعتنا أنْ نفترض أنَّ فلافيُوس جُوزف قد وعى واستدرك القُدرة الرُّومانيَّة العظيمة. فعاد إلى أُورشليم عندما اندلعت الانتفاضات الأُولى، وهُو - حقيقة - رجل قد وعى عدم تكافؤ القوى في الحاضر القائم، وبشجاعة تامَّة ومُجازفاً بحياته، إذْ إنَّه - في النّهاية - سوف يلتجئ إلى المعبد الذي فيه الثُّوَّار: جهدتُ لتهدئة مُثيري الشّغب، وحاولتُ أنْ أثنيهم عن رأيهم، بأنَّني وضعتُ لهم - نُصب أعينهم - مَنْ هُو الذي سيُهاجمونه: فهُم لم يكونوا بمُستوى الرُّومان، ليس - فقط - في التّجربة الحربيَّة، إنَّما - أيضاً - في الحظِّ. أردتُ ألاَّ يذهبوا ورُؤُوسهم مُطأطئة، وبشكل جُنُوني يُعرِّضون أوطانهم وعائلاتهم وأنفسهم لأشدِّ الأخطار. تلك كانت حُججي، وأصررتُ - بشدَّة - لأردعهم؛ لأنَّني كنتُ أتوقَّع أنَّ نتيجة الحرب سوف تكون كارثيَّة بالنّسبة لنا. لكنَّني لم أتمكَّن من إقناعهم: غلبني جُنُون هؤلاء الطّائشين!

وهُنا الأمر واضح، جُوزف لم ينفكّ عن تضامنه مع المُنتفضين، ولو أنَّه كان مُعجباً بالرُّومان وسُلطتهم بشكل خاصٍّ. وهُو لم يتردَّد ـ عبر الوُلاة ـ بأنْ يسخر من هذه السُّلطة (قد سجن فيليكس كَهَنَة لأسباب تافهة) وحتَّى إنَّه ينتقدها. (لقد أثار بيلاطس النّبطي اضطرابات، وتصرَّف فلوروس كما لو أنَّه قد دُفع له ليُضرم الحرب أكثر فأكثر).

فعند عودته من رُوما، فكَّ تضامنه عن الحركة الانتفاضيَّة؛ لأنَّ الحرب ضدَّ الرُّومان هي جنُون، ونتيجتها كارثيَّة، ولأنَّ الانتفاضة لم تكن ثمرة عمل محسوب بعناية من قبَل أشخاص متميِّزين، إنَّما فعل مُثيري شغب مُغفَّلين، يتصرَّفون برأس مُنحنٍ، وبطريقة جنُونيَّة. فلافيُوس جُوزف أعاد النَّظَر بجدوى الانتفاضة وأساليبها. فهُو يُحدِّد موقفه في مقاطع أُخرى. واستعان فلافيُوس جُوزف بخطاب" أغريبا" الذي تُلي في بداية الأحداث، ليُعيد إدخال وطَرْح آرائه الخاصَّة" ليس الجُزء الشّريف والصّادق من الشّعب هُو الذي يُريد الحرب، بل غير النَّاضجين والجشعون والضّالُّون". لقد أمَّن الرُّومان سيطرتهم على العالم بأكمله، " أنتم ـ فقط ـ ساخطون لكونكم عبيداً للّذين يخضع لهم العالم بأسره"، "إلى أيِّ جيش أنتم تستندون، وإلى أيِّ تسلُّح؟ (يسأل جُوزف ـ أغريبا) أين هُو أُسطولكم الذي به تستطيعون أنْ تمنعوا الرُّومان من البحر والإبحار؟".

أين هي الكنُوز التي سوف تُغذِّي حملاتكم؟ هل تعتقدون أنَّكم ذاهبون للحرب ضدَّ المصريِّيْن أو ضدَّ العرب؟ أ لا تفكرون ـ بجدِّيَّة ـ فيما هي عليه الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة؟ و أ لا تحسبون حساب ضعفكم؟ أ لم تُحطِّم قوانا حتَّى من قبَل الأُمم المُجاورة، بينما هُم بقيت قُوَّتهم مُنتصرة غير مهزومة في العالم أجمع؟ وإلى هذه الحُجج العقلانيَّة المنطقيَّة أضاف جُوزف/ أغريبا حُججاً دينيَّة، هي ـ كما سوف نرى ـ ليست من باب الخطابة البسيطة: "اعتبروا ـ أيضاً ـ كم سيكون من الصّعب عليكم مُمارسة شعائركم بإخلاص. . . فالقوانين التي من خلالها تتأمَّلون أنْ تحصلوا على مُساعدة الله، سوف تُجبرون على مُخالفتها، وسوف يترككم الله. . وإذا احترمتم ـ بشكل خاصٍّ ـ عادتكم ليوم السّبت ـ ورفضتم أنْ تقوموا بأيِّ عمل مهما كان في هذا اليوم، سوف تُؤخذ مدينتكم بسُهُولة. . . . إنَّ همَّكم هُو ألاَّ تُهملوا أيَّ عادة من عادات أجدادكم. كيف يُمكنكم أنْ تطلبوا مُساعدة الله للدّفاع عنكم أنتم الذين

سوف تُخالفون قواعد العبادة بكُلِّ حُرِّيَّة وهي الواجبة تجاهه؟ إلا إذا كان أحدكم يتصوَّر أنَّ الحرب سوف تحصل، وتكون حسب بعض الاتفاقيَّات (. . .) على العكس، سوف يُحوِّل الرُّومان مدينتكم المُقدَّسة إلى رماد، وسوف يُبيدون جنسكم. . . أشفقوا على أولادكم ونسائكم، على الأقلِّ؛ على الوطن الأمِّ، وهذا الحَرَم المُقدَّس، حافظوا على المعبد والهيكل وبيت القُربان. . . . أمَّا فيما يخصُّني؛ فإنَّني أُشهد ملائكة الله القدِّيسين ووطننا المُشترك أنَّني لم أُوفِّر أيَّ شيء يُمكن أنْ يُؤمِّن سلامتكم. ".

إنَّ قناعات جُوزف هي واضحة من غير لبس: إنَّه لا يُؤيِّد الحرب التي هي جُنُون على الصّعيد العسكري، وهي سوف تكون مُخالفة للشّريعة، وبذلك تُدنِّس المدينة المُقدَّسة والمعبد وبيت القُربان.

ومن جهة أُخرى؛ يبدو أنَّ جُوزف مُقتنع أنَّ الله ليس إلى جانب اليهُود: " لقد انتقلت الثّروة من كُلِّ الجهات إلى مُخيَّمهم (أيْ إلى الرُّومان)، وإنَّ الله الذي ينتقل من أُمَّة إلى أُخرى، واهباً الهيمنة لكُلِّ واحدة بدورها، هُو الآن في إيطاليا ". وفي سيرته الذّاتيَّة - كما رأينا - يُؤكِّد أنَّ الرُّومان - هُم - مُتفوِّقون على اليهُود، ليس - فقط - بالتّجربة الحربيَّة، إنَّما - أيضاً - بالحظِّ. (ذكَر - من جديد - حظَّ الرُّومان (gy 11 373). فالحظُّ في عالم لا تُوجد فيه الصُّدفة هُو - إذاً - نتيجة الاختيار الإلهي. إنَّ الله هُو الذي دبَّر تنظيم الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، إنَّ عهد الله هُو من جهة الرُّومان، لأنَّه - بدُون الله - كان مُستحيلاً تكوين مثل هذه الإمبراطُوريَّة". إنَّه - أيضاً - القَدَر (الذي أُخطر به اليهُود بعدَّة أساليب، بعدَّة أعاجيب وإنذارات إلهيَّة - الذي سبَّب الحرب ضدَّ الرُّومان. لكنْ؛ يجب ألاَّ نعتقد أنَّه لأنَّ الله موجُود الآن من جهة الرُّومان، جُوزف سوف يكون أيضاً، إنَّ رُوما هُنا ليست إلاَّ أداة بيد الأُلُوهيَّة لمُعاقبة الشّعب اليهُودي (إذا أردت أنْ تُعاقب هذه الأُمَّة اليهُوديَّة التي خلقتها، وأنْ تذهب الثّروة كُلّها إلى جانب الرُّومان... (GJ 111 354) وأنْ تُعيدها إلى طريق خلاصها، على كُلِّ حال؛ فإنَّ جُوزف لا يُناقض كتاب دانيال الذي يُبشِّر بممالك العالم الأربعة، يرمز إليها تمثال مُؤلَّف من عدَّة معادن. فهُو يُؤمن بانهيار الأخيرة الذي سوف يتبعه السّيادة الأبديَّة للشّعب المُختار في مَلَكُوت الله. فهُو لا يُعارض حتَّى أنْ يكون هذا المَلَكُوت الرّابع رُوما: لكنَّه

يُحدِّث ـ فقط ـ عن خرابها في مُستقبل بعيد؛ لأنَّ الحديد هُو أقسى من الذّهب والفضَّة والنُّحاس" وبديهي بالنّسبة لجُوزف؛ رُوما هي مرحلة ضروريَّة باتِّجاه المَلَكُوت (مَلَكُوت الله) هي اختبار يجب ـ على أساسه ـ على الشّعب اليهُودي أنْ يتخطَّاه، دُون أنْ يزول. إذْ إنَّ زوال شعبه فكرة لازمت جُوزف وأقلقته: "لكي تكونوا عبرة لباقي الشُّعُوب يُحوِّلونكم (الرُّومان) إلى رماد أنتم ومدينتكم المُقدَّسة، سوف يُبيدون جنسكم... سوف لن يكون هُناك مدينة لن تشبع من دم يهُودي (GJ 11 397 . 399).

إنَّ موقف جُوزف أثناء الحرب يبدو مُتطابقاً مع قناعاته. فهُو لم يغادر كما فعل البعض، كما أنَّه لم يتصرَّف مثل المُتحمِّسين الزّيلوت أو القَتَلَة الذين ينتقدهم بشدَّة. كان موقفه مُعتدلاً، لذلك كان من السّهل الشّكُّ به في الخيانة، كان حذراً ألاَّ يُلهب الموقف، انضمَّ ـ ظاهريّاً ـ للثُّوَّار، عُيِّن حاكماً للجليل، وعالج حساسيَّة الملك "أغريبا الثّاني"، حليف رُوما، بتسليمه الغنائم التي نُهبت من قصر هيرود الرّبعي (Aut 68)، وفي كمين نُصب لزوجة أحد ضُبَّاط الملك، سُرقت فيه، وجُردت من كُلِّ شيء، أعاد لها كُلَّ ثروة الضّابط « ويقول جُوزف: لأنَّه كان من جنسنا (Aue yy 71) »، اعترض جُوزف ـ أيضاً ـ على أخذ القمح الإمبراطُوري من قِبَل جان جيشالا(Aut 71)، وهُو ـ بدُون شكٍّ ـ يُجنِّب إعطاء ذريعة إضافيَّة لحاكم سُوريَّة ليتدخَّل في الجليل. وبذلك؛ يتجنَّب جُوزف ـ حتَّى النّهاية ـ المُواجهة مع الرُّومان. هل هذا نقص شجاعة؟ بالتّأكيد؛ لا، لأنَّه كان باستطاعته أنْ يهرب بسُهُولة لعند أغريبا II، الذي سوف يستقبله بالتّرحاب، ويُحسن ضيافته، لكنْ؛ بدلاً من ذلك، بقي في المناخ المُعادي حذراً جداً؛ حيثُ نجا بأعجوبة من عدَّة ثورات ومُؤامرات ومُحاولات اغتيال، حتَّى وقع في فخِّ" جُوتا باتا".

ماذا يُريد؟ هذا ما يقوله في سيرته الذّاتيَّة: كان همِّي الأوَّل هُو تأمين السّلام في الجليل (Aut78)، وقد تملَّكه اليأس في وقت من الأوقات، وكان مُستعداً لمُغادرة الجليل، والتّخلِّي عن المهمَّة التي ألقاها على عاتقه؛ إنْ لم يكن المهمَّة التي أُوكلت إليه: تجمُّع الجُمهُور، واتَّهم النّاسُ أُورشليم "أنَّها لم تدع بلدهم ينعم بالسّلام" (Aut 211)." وعندما سمع ما يقولون، ورأى كم كانت الجماهير مُرهقة (هكذا يكتب جُوزف) انهارت مُقاومتي، واستسلمتُ للرّحمة والشّفقة، بفكرة أنَّه من المُجدي بمكان التّعرُّض لنَفْس أخطار هذا الجُمهُور الكبير.

وافقتُ ـ في نهاية الأمر ـ على البقاء (Aut 212) : سوف يكون "جُوتا باتا " و" فيسباسيان " و" تيتيوس" ، سوف تكون أسوار أُورشليم مُحاصرة ، وخطابات جُوزف كي تستسلم المدينة . هل يجب أنْ نعتبر كُلَّ ذلك علامة خيانة أو حُبّاً وعشقاً لشعب مُختار ومدينة مُقدَّسة يُحاول جُوزف تجنيبها الدّمار وحفظ الشّعب والوطن والمعبد؟! كُلُّ ذلك ؛ مُعرِّضاً حياته للخطر وعائلته رهينة الثُّوَّار؟ (GJ V 362)؟ ليكسب ماذا؟ إلاَّ شتائم اليهُود (375) . لقد جازف جُوزف بحياته ليتجنَّب الصّراع ، وليبقى الجليل في حالة سلام ، قدر المُستطاع ، ثُمَّ لكي يتجنَّب دمار أُورشليم . كُلُّ ذلك لم يفعله لمصلحته الشّخصيَّة ، إنَّما لشعبه . فجُوزف لا يعتبر أنَّه خان ، حتَّى لو أنَّه في مُؤلَّفه في الدّفاع عن الدِّين يبيِّن أنَّه في هذه الحرب اليهُوديَّة تبنَّى موقفاً غامضاً ، قد يُتَّهم فيه بالخيانة بمُقاربة سريعة ومُنحازة .

فلافيُوس جُوزف مُؤرِّخ ضحيَّة (عمله) مُؤلَّفه !

إنَّ جُوزف هُو مُؤرِّخ يزعم أنَّه يروي ـ بالتّفصيل وبدقَّة ـ ليس ـ فقط ـ الأحداث التي كان شاهداً عليها ، إنَّما ـ أيضاً ـ تاريخ اليهُود مُنذُ إبراهيم . فهُو يُؤكِّد في مُقدِّمة " العُصُور القديمة " أنَّه عرض المُسلَّمات الدّقيقة للكتابات المُقدَّسة . (117) ("لقد وعدتُ أنْ أنقل ـ بصدق وإخلاص ـ كُلَّ ما هُو مكتوب في كُتُب العبرانيِّين المُقدَّسة (AJ IX11) . وهكذا في مُؤلَّفه حرب اليهُود قصد جُوزف أنْ يروي أُولى الحُرُوب اليهُوديَّة ضدَّ الرُّومان ، حرب كانت الأضخم ، ليس في عصرنا فقط ، بل ـ أيضاً ـ من التي وصلتنا في الكُتُب ، والتي هبَّت إمَّا بين المُدُن أو بين الأُمم (I.1) . هذا العمل هُو ضروري ، يُتابع جُوزف ، لأنَّه يُوجد نوعان من المُؤرِّخين لرواية وسَرْد هذا الصّراع :

ـ الذين لم يُشاركوا في الحرب : لقد جمَّعوا ما يُقال من مُتناقضات ، فصاغوها بالأساليب الإنشائيَّة السّفسطائيَّة ، بعدما جمعوا ما يُقال ويُحكى ، جمعوا عدداً صغيراً من الأحداث ، وزخرفوها باسم التّاريخ بصفاقة سكِّير " (CA 1 . 46) .

ـ والذين شاركوا في الحرب : " هؤلاء شوَّهوا الأحداث ، إمَّا مُمالقة للرُّومان ، أو كُرهاً باليهُود : كتاباتهم تنشر اللُّوم هُنا ، والمدائح هُناك ، لكنْ ؛ ولا في موضع نستطيع أنْ نجد البأس التّاريخي " (1 . 2) .

وفي سيرته الذّاتيّة يُوبّخ جُوزف كُلّ الذين يزعمون كتابة التّاريخ، لكنّه لا يهتمّ إلاّ قليلاً بالحقيقة، ولا يتوانى عن الكذب بُغْضاً أو تملُّقاً. ويُتابع جُوزف: ما يفعلونه يُشبه ما يفعله المُزوِّرون الذين يُفَبْركُون عُقُوداً كاذبة، مع الفارق الوحيد، أنّهم يسخرون من الحقيقة دُون أنْ يخشوا من نَفْس عُقُوباتهم (Aut 336 . 337).

ـ أمّا العُلماء اليُونانيُّون من جهتهم؛ فقد وصلت معهم الأُمُور إلى حَدّ جهل أحداث الحرب اليهُوديّة؛ لأنّهم (بحسب جُوزف) "عندما يتعلّق الأمر بكسب المال أو للدّفاع فإنّ فمهم ينفتح واسعاً بدُون جهد، ويتحرّك لسانهم: أمّا للتّاريخ؛ حيثُ يجب قول الحقّ وجمع الأحداث بالجُهُود الكبيرة؛ يبقى فمهم مكموماً، ويتركون للعُقُول المُنحطّة والمُستعلمة خطأ مهمّة رواية وتدوين الأحداث الكبيرة للقادة الكبار. فلتتشرف ـ إذاً ـ الحقيقة التّاريخيّة بنا، يستنتج جُوزف، بما أنّ اليُونان لا يُبالون. وفي مُؤلّفه "ضدّ أبيون" لا يتوانى جُوزف عن نقد هؤلاء العُلماء اليُونان الذين لا ينشرون إلاّ تخمينات وظُنُوناً حول الماضي، والتي تتناقض فيما بينها؛ وحيثُ أساليبهم لا تسمح بإظهار الحقيقة التّاريخيّة. (CA1 . 26).

أمّا جُوزف؛ فهُو مُختلف عن جميع هؤلاء المُؤرّخين: "فيكتب قائلاً: بما أنّني أنا قد حاربتُ ضدّ الرُّومان في أوّل الأمر، وأُجبرت ـ بعد ذلك ـ على مُتابعة العمليّات، قرّرتُ عرض بقيّة الأحداث. فَعَلَ ذلك حتّى لا تضيع الحقيقة، وحتّى يردّ على المُؤرّخين المُتزلّفين أو الكاذبين، الذين يتجرّؤون ويُعَنْوِنُون أعمالهم بكلمة "تاريخ"؛ فهُم لا يُعطون أيّ معلومة أكيدة. وليس هذا فقط، إنّما ـ أيضاً ـ من وُجهة نظري؛ إنّهم يضلُّون هدفهم تماماً". وفي مُؤلّفه العُصُور القديمة يُؤكّد "تثبيت الحقيقة على براهين صلبة": لا أُضيف شيئاً أبداً على الحقيقة. "رغبتي أنْ أجعل قصّتي أجمل، لا تجعلني ـ مُطلقاً ـ أضيف أشياء ليست إلاّ مُحتملة".

من هذه الأقوال يُمكننا استنتاج أُسلُوب عمل جُوزف، أو بالأحرى؛ الأُسلُوب الذي يزعمه في الهجائيّة السّياسيّة، ليس بدُون بلاغة وخطابة: عدم الاعتماد، والوُثُوق بما يُقال، وتجنُّب آثار الإنشاء، وجمع معلومات، واستعلام، وإعطاء معلومات أكيدة، قول الحقّ، باختصار؛ البرهنة عن "صلابة بأس تاريخيّة" إلى صفات المُؤرّخ هذه، بحسب جُوزف، إعلانات مبادئ سوف يُخالفها، يُمكن إضافة صفة أُخرى يزعم أنّه يمتلكها: الموضوعيّة، فهُو

يطعن في كُلّ تحيُّز لصالح مُواطنيه: هدفي ليس تجميل أفعال مُواطنيّ بتنافسهم مع الذين يمتدحون مآثر الرُّومان: "سوف أُخبر ما جرى في الفريقَيْن بدقَّة".

وفي "العُصُور القديمة" يُدافع عن نفسه؛ لأنَّ لديه غروراً، وتفاخراً بأُمَّته. ويُؤكِّد في الحرب، لكنَّ ذلك بسُرعة: أنَّه لم يترك نفسه عُرضة؛ ولا لأيِّ لوم، أو أيِّ اتِّهام من قِبَل الذين يعرفون الأحداث، أو شاركوا في الحرب... وهُو يعتذر - أحياناً - أنَّه أظهر في بعض الأحيان مشاعره وآلامه الشّخصيَّة من جراء كوارث وطنه، وأنَّه لم يستطع أنْ يُمسك نحيبه، ويطلب أنْ نحملها لحساب المُؤرِّخ، والأحداث لحساب التّاريخ.

إذاً؛ جُوزف يُخبر بأحداث حقيقيَّة، إذاً؛ وجب تصديقه. لكنَّ هذه الأحداث لا تُعلي من قيمته؛ لأنَّه اختبأ خلف جُنُوده الذين استشهدوا، وأصبح صديقاً للّذي دمَّر المعبد، ووقف بجانب الرُّومان تحت أسوار أُورشليم المُحاصرة، وتحمَّل شتائم اليهُود المُتصلِّبين العُصاة، وحضر انتصار "تيتوس"....

بالنّسبة للقارئ الحديث؛ قد يميل - طبيعيّاً - للتّفكير بأنَّه يُقلِّل من أهمِّيَّة خيانته، إنَّما جُوزف يُقدِّم نموذجاً مثاليّاً للمُتعاون[1] مع العدوّ، ومع أنَّه لا تنقصه الشّجاعة، وإذا استمرَّ مع الفريق الرُّوماني هذا، فلأنَّه يأمل بإنقاذ الفريق (إسرائيل): كان مُتأكِّداً بأنْ تيتوس كان يُريد أنْ يُحافظ على المعبد والشّعب، هل المعبد - بالنّسبة للكاهن جُوزف - يُساوي أقلَّ من شُهرته كخائن أو حياته؟! مثلاً: "أنا جاهز للموت، إذا كان موتي يُعيدكم إلى الطّريق الصّواب. جهد جُوزف - أيضاً - إلى تعظيم مُواطنيه، لدرجة تظهر خيانته - على هذا الأساس - من البُطُولة. هذه البُطُولة اليهُوديَّة لم يُعاد النّظر فيها إلاَّ نادراً من قِبَل المُعلِّقين: وحتَّى إذا أخبر عنها جُوزف يعني أنَّ الحَدَث لا يُمكن إنكاره.

---

(1) م. سيمُون وآبونوا: يُمكننا أنْ نتساءل - أيضاً - إذْ كان المثال الحديث لحركات المُقاومة الوطنيَّة ضدّ النّازيَّة لم تُساهم في ردّ اعتبار الزّيلوت. إنَّما مع حذر مُبرَّر لا بأس به تجاه جُوزف، بإرادة بعض المُؤلِّفين نُقاط مُقارنة وتوازيات على أساس خاطئ قد ساهمت في ردّ الاعتبار هذا، الذي هُو - غالباً - شُدِّد. هُناك بعض الحُظُوظ أنْ تكون الحقيقة في نصف الطّريق بين شهادة أتباع جُوزف ورُدُود الفعل تجاه هذه الفرقة التي لا تُؤيِّدها - تفاسير التّوراتيَّة الحديثة (سيمُون وآبونوا، اليهُوديَّة والمسيحيَّة القديمة، باريسبوف 1994)..

إنَّ ترجمة حياة فلافيُوس جُوزف التي قامت بها " ميري هاداس - لوبل " هـي مبنيَّـة جـداً من هذه النّاحية. ففي مُؤلَّف جُوزف يبدو أنَّها لا ترى في اليهُود إلاَّ الشّجاعة والخيـال، وفـي الرُّومان لا ترى إلاَّ القساوة.

تُعلمنا " هاداس - لوبل " عن أعمال بُطُوليَّة إفراديَّة؛ حيثُ يرى جُوزف أنَّ واجبـه نقلـها إلى الأجيال القادمة: وهكذا؛ ففي جُوتا باتـا تمكَّـن "إليعـازر" أنْ يُحطِّـم كبشـاً رُومانيّـاً بحجـر كبير، ونيتيراس وفيليب اخترقا - وحدهما - الفرقة العاشرة، كما أنَّه يُوجد كثـير مـن الأبطـال المجهُولين، وهارب واحد - فقط - من الجُنديَّة. وأثناء حصار أُورشـليم، سـجَّل جُـوزف كثـيراً من أعمـال بُطُوليَّـة بـين مُختلـف الزُّمر اليهُوديَّة المُتَّحـدة فـي نَفْس الاندفـاع، كمـا أنَّـه يذكـر المُحاربين بشكل خاصٍّ.

" ولوسيان بوزنانسكي " في مقطع حول "حُضُور القُوَّات" واجه بـين الجيـش الرُّومـاني، المُدَّرب تدريباً جيِّداً (وحيثُ تنظيمه وانتظامه قد اغتصب إعجاب اليُونـاني بوليـب فـي القـرن الثّاني) وبين المُحاربين اليهُود الذين هُم بدُون خبرة عسكريَّة مُباشـرة، ولـم يُمكنـهم المُواجهـة إلاَّ بشجاعتهم، التي يشهد[1] لهم بها أعداؤهم، ويكتب" فيـدال - ناكيـه" أنَّـه - فـي إسـرائيل - أصبح جُوزف المصدر الرّئيسي " لعلم الآثار والتّاريخ القومي "، لكنَّهم يرفضون ويطعنون فيه عندما يشـهد بالانشـقاقات التـي كـانت موجُـودة بـين اليـهُود: لقـد اجتمـع سُـكَّان أُورشـليم، ليُحاربوا من أجل قداسة مدينتهم ونمط حياتهم. ويكتب فيـدال - ناكيه أنَّ "جُـوزف يجـب أنْ يُصدَّق بدُون أيِّ تحفُّظ عندما يُؤكِّد مثلاً أنَّه كـان هُنـاك كاهنـان رميـا بنَفْسَـيْهما فـي النّـار التـي حرقت المعبد. كُلُّ شيء طاهر للأطهار.[2]

حسـب فيـدال ناكيـه؛ إنَّ هـذه القصَّـة القوميَّـة قـد تُعطـي دَفْعـاً لنُصُـوص جُـوزف[3] الحقيقي، إنَّه - في هذه الحرب - حفظ منها، ليس فقط الوطنيِّين الإسرائيليِّين أو مسعدة، إنَّمـا - أيضاً - الهُرُوب والفرار المُتعدِّد الذي حصل.

---

(1) بوزنانسكي، سقوط معبد أُورشليم، باريس كومبليكي 1991.

(2) ب آ فيدال - ناكيه OP.CIT.

(3) ب آ فيدال - ناكيه OP.CIT.

التّامَّة، الرّجال الذين يسيرون إلى المعركة والرّماح في أيديهم، يجعلون العدوَّ يهرب من أوَّل صدمة، لم يستطيعوا أنْ يُواجهوا النّواهي والقوانين التي تُنظِّم أسلُوب الحياة. نحنُ ـ على العكس ـ نخضع ـ بكُلِّ سُرُور ـ للقوانين التي تخصُّها، ونُبرهن ـ أيضاً ـ عن قيمتنا في المعارك (caii232 . 235). وباختصار؛ وبحسب جُوزف؛ الشّجاعة واليهُوديَّة لا يفترقان. فالشّجاعة تُرَدُّ إلى اليهُوديَّة، كما أنَّ اليهُوديَّة تبعث الشّجاعة. كما أنَّ الخائن في ذهن جُوزف لا يُمكن أنْ يكون يهُوديّاً، فهُو يهُودي كاذب، وعلى العكس؛ فإنَّ جُوزف يخترع ـ بطيبة خاطر ـ قيمة عسكريَّة للشّخصيَّات اليهُوديَّة الكبيرة الذين يمتلكونها مثل مُوسى مثلاً[1] (aj ii 241). هذا الدّفاع عن الشّجاعة اليهُوديَّة مُوجَّه ـ بشكل رئيسي ـ إلى القُرَّاء اليُونان ـ الرُّومان الذين يقرؤون جُوزف.

يجب ألاَّ ننسى أنَّ جُوزف استقرَّ في رُوما، وأنَّ أعماله صَدَرَتْ باللُّغة اليُونانيَّة، عدا مُؤلَّفه "الحرب" الذي صدر بالآراميَّة: ويُؤكِّد بارون[2] أنَّ جُوزف يكتب باليُوناني لليُونانيِّيْن. وفي مُؤلَّفه "ضدَّ أبيون" يقول: إليهم أوَّلاً أعطيتُ كُتُبي (فيسباسيان وتيتوس (titos)، ثُمَّ إلى كثير من الرُّومان الذين ساهموا في الحملة، كما أنَّني بعثتُهم لعدد كبير من (مُتعلِّمينا) في شعبنا، الذين تعلَّموا الأدب اليُوناني (ca 1 . 51). هذا العرض للشّجاعة اليهُوديَّة في كُتُب جُوزف، أليس فيه مُجازفة بإغضاب الرُّومان؟ يبدو أنَّه على العكس قد اتَّجه صحيحاً باتِّجاه مصالحهم: سلام الإمبراطُوريَّة وشُهرتهم. فهُو واعٍ لذلك تماماً.

وفي نهاية وصفه المَدْحي للجيش الرُّوماني الذي ينتصر بتنظيمه ونظامه على الشّجاعة اليهُوديَّة كَتَبَ يقول: لقد قدَّمتُ هذه التّفسيرات المُفصَّلة ليس ـ فقط ـ لأنَّ هدفي هُو تمجيد الرُّومان، بل ـ أيضاً ـ مُواساة الشُّعُوب التي أخضعوها، أنْ أجعل الذين تُسوِّل لهم أنفسهم بالثّورة، بأنْ يُفكِّروا قبل أنْ يقوموا بذلك (GJ111 . 108). وفي موضع آخر كَتَبَ بشأن "المُؤرّخين المزوِّرين والكاذبين": "يُريدون إثبات عَظَمَة الرُّومان، ويستمرُّون بالحَطِّ من شأن أعمال اليهُود والتّقليل من قيمتها: في هذه الحالة لا أرى كيف يُمكن أنْ يبدو عُظماء أناس ينتصرون على أقزام" (GJ 1 . 7 ـ 8)، وفي مُؤلَّف "حرب الغول" مثلاً لا يُخفي قيصر

---

(1) لهذا الموضوع انظر شُرُوح ي نُوديه في العُصُور القديمة لفلافيوس جُوزف، كُتُب 1 إلى 11، باريس سيرف 1992.

(2) س. بارون OP. CIT

في نفي هذه القصَّة، يجب الاعتراف أنَّ نصَّ جُوزف فيما يخصُّ «الحرب» في «العُصُور القديمة» يُرغم - بإناراته المُنتقاة - على مثل هذه القراءة، وأنَّه - أيْ جُوزف - جعل من مُواطنيه أبطالاً، ومدح شجاعتهم النَّادرة، ومَجَّدَ شعبه، كُلُّ ذلك على حساب مصالحه الخاصَّة.

هذا الميل لجعل مُواطنيه أبطالاً ولإيجاد طبائع خاصَّة فيهم نجدها في كُلِّ أعمال جُوزف. وهي مُناسبة لغايته الدّفاعيَّة[1] التي يراها عنده كُلُّ النّقاد والمُعلِّقين، فيتحدَّث "بارون" عن مُبالغة دفاعيَّة، وحسب "pelletier" "بيليتيه"؛ فإنَّ الـ"كونترابيون" "ضدَّ أبيون" أراد فيه دفاعاً عن اليهُوديَّة وعَرْضاً لتاريخ الجنس اليهُودي[2]. و"th رايناخ" يُؤكِّد أنَّ جُوزف لم يكن مُؤرِّخاً صادقاً ولا مُخلصاً، إنَّما مُدافعاً ماهراً ونذيراً ذكيّاً[3]. أمَّا بالنّسبة "لبوزنانسكي"؛ فإنَّ جُوزف هُو "مُدافع نشيط عن اليهُوديَّة"؛ حيثُ تشهد أعماله وإرادته في الدّفاع عن دوره الخاصِّ وعن مكانة اليهُود في التّاريخ"[4]. يجب إجراء علاقة بين الدّفاع عن اليهُوديَّة واستعراضات شجاعة اليهُودي التي تُصادفها في أعمال جُوزف. لأنَّه في ذهنيَّته هُناك رابط بين ديانة اليهُود وشجاعتهم، وهذا بدُون أدنى شكٍّ: "هل عرفنا في تاريخنا اثْنَين أو ثلاث حتَّى لا أقول عدداً كبير من الرّجال، قد خانوا القوانين أو خافوا الموت؟ وأنا لا أتحدَّث عن الموت السّهل الذي يحصل أثناء المعارك، إنَّما الموت الذي يُرافق تعذيب الجسد، الذي هُو أفظع أنواع الموت.

وحسب ظنِّي أنَّ هُناك بعضاً من مُنتصرينا يُسيئون مُعاملتنا، ليس كُرهاً بالنّاس، إنَّما ليتأمَّل المشهد المُدهش لرجال مُصيبتهم الوحيدة هُو إكراههم على ارتكاب عمل ما، أو فقط إجبارهم على قول كلام هُو مناف لمُعتقداتهم وقوانينهم. يجب ألاَّ نستغرب إذا واجهنا الموت من أجل قوانين، وبشجاعة تفوق شجاعة باقي الشُّعُوب قاطبة. في الواقع؛ قوانين عاداتنا - التي تبدو هي الأسهل - يحتملها - بصُعُوبة - غيرنا من الشُّعُوب، أردتُ أنْ أقول: العمل الشّخصي، الاعتدال في المأكل، الواجب بألاَّ نُهمل أو نترك للصُّدف أو للمزاج الخاصِّ، الأكل، والمشرب، والعلاقات الجنسيَّة، والمصروف. من جهة أُخرى؛ مُمارسة الرّاحة

---

(1) س. بارون، تاريخ إسرائيل، جُزء II باريس بوف 1957.

(2) أ. بولوتيه، مدخل إلى السّيرة الذّاتيَّة لفلافيوس جُوزَف، باريس، الآداب الجميلة 1993.

(3) ت - رايناخ، مدخل إلى ضدَّ أبيون لفلافيوس جُوزف، باريس الآداب الجميلة 1972.

(4) ل. بوزنانسكي OP.CIT.

صُعُوبات الفتح ، ولا شجاعة أعدائه ، وبذلك يُبرز جدارتـه : إذا انتصرنـا بدُون خطر ، نفوز بدُون مجد ، وعلى العكـس ؛ فعند جُوزف لا يُوجد عـار أنْ نُـهزَم بمثـل هـذا الجيش : لكي لا نظهر أقزاماً ، وجب أنْ يكون المُنتصر مارداً ، وقد ساعده الله .

هل جُوزف هُو ضحية تأليفه؟ في نظر المُعاصرين ؛ ادِّعاؤه بالأصالة تُعتـبَر وكأنَّـها بيـان أو خطابة بسيطة (وهذه هي بالذّات) فالقارئ الحديث المُعاصر عنده ميلٌ للاعتقـاد أنَّ جُـوزف يُقلِّل من أهميَّة الأحـداث التـي لا تُلائمـه ؛ مثـل " خيانتـه " مثلاً ، وأيضـاً شجاعة أو مُقاومـة مُواطنيه ، كاشف حقيقي يُظهر ويُبرز خداعـه ، فجُـوزف ـ إذاً ـ هُـو ـ بالتّـأكيد ـ أكثر خيانـة ممَّـا يُظهر نفسه فيه ، وهل مُواطنوه هُم ـ على الأقلِّ ـ شُجعان كما يقـول هُـو؟ مـن أيـن أتـت هـذه القناعة التي رأيناها أعلاه في أنَّ جُوزف كـان هُـو الخائن الأكبر في تلـك الحـرب اليهُـوديَّـة ، شخصيَّة فريدة وظالمة ؛ حيـث يُرَدُّ موقفه إلـى خيـار شـخصي بعكـس التّيَّـار ، أكثر منه إلـى الانشقاقات الحاصلـة داخـل المُجتمـع اليـهُودي . فـي الواقـع ؛ يُشبه جُـوزف كبـش الفـداء أو "ضحيَّـة الفـداء" ، المُجتمـع فيـه اضطـراب وفـتن : " الزّيلـوت والوطنيُّـون الإسـرائيليُّون الذيـن يدينونه بقساوة " والذي بتضحية ولعن الوحيد جُوزف ، وبشـكل جـهاري وتفـاخري يُريـد أنْ يُخفي تصدُّعه الخاصّ . إنَّ أُسطُورة الخائن الوحيد مثل أُسطُورة الإلـه الوحيـد : رسـالتها هـي تأسيس الشّعب الوحيد من جديد "شعب يقف مُوحَّداً بمُقاومته ضدَّ الأجنبي مـن أجـل قداسـة أُسلُوب حياته ومدنيَّته . لكنَّ هذا الإجماع في مُواجهة المُستعمر نعرف جيِّـداً أنَّـه لـم يتحقَّـق ، فإذا كان جُوزف خائناً فقد كان هُناك ـ إذاً ـ عديد من الخَوَنة غيره ، وهُم أقـلُّ شـأناً وقيمـة مـن بعض الخونة والخيانة بحسب جُوزف .

الواقع ، جُوزف هُو أبعـد أنْ يكـون حالـة مُتفـرِّدة ومعزولـة وسـط إجمـاع يـهُودي شـجاع واقف ضدَّ المُحتلِّ الرُّوماني . ولنتذكَّر أنَّه في أُورشليم كـان هُنـاك "حـزب السّـلام " وهُـو مُؤلَّـف ـ بشكل رئيسـي ـ مـن الفرِّيسـيِّين كَهَنَـة وأعيـان . فاسـتدعى هـذا الأخيـر ـ بشـكل سـريع ـ الوالـي "فلوروس " والملك"أغريبا" ، صديق الرُّومان حتَّى يسحقوا الثّورة بمُساعدة قطعاتهم العسكريَّة .

كان هُناك جُزء من الجماهير يدعمهم ، وهذا الجُزء جاهز لاستقبال "سيسـنيوس" حـاكم "سُوريّـا" "كفاعل خير" ، أمَّا الثُّوَّار ، فاستغلّوا الانتصارات ليجلبوا إلى طرفـهم مَـنْ بقـي مُؤيِّـداً

للرُّومان؛ بعضهم بالقُوَّة والآخرون بالإقناع (GIII 562). كثير من اليهُود غادروا المدينة مثل سفينة تغرق (556)، أمَّا الإجماع الظّاهري الذي نجم عن ذلك، ثمرة الغبطة والعُنف؛ فقد تدهور وزال من جرَّاء قساوة الحصار. فَهَدَرَ الثُّوَّار قسطاً كبيراً من قواهم في إعدام مُؤيِّدي الصُّلح، ورأى تيتوس عدَّة أُلُوف من الفارِّين، يفدون إليه، وهُم الذين - بعد ذلك - ترجّوا الثُّوَّار بأنْ يستقبلوا الرُّومان في كُلِّ المدينة (119)، أمَّا في الجليل؛ رأوا جُوزف يتوجَّه إلى جماهير مُناهضة لسياسة الحرب في أُورشليم (AUT 211) وجُنُود جُوزف المُتطوِّعين فبي هذه المنطقة هربوا في "جميع الاتِّجاهات . . . حتَّى قبل أنْ يروا العدوّ".

فلم يبقَ لجُوزف إلاَّ عدد ضئيل من الجُنُود ودَّوا الاستسلام بكُلِّ سُرُور لو استطاعوا أنْ يكسبوا ثقة العدوِّ الذي رأى نفسه مُحاصراً في جُوتا باتا؛ حيثُ دامت مُقاومته 47 يوماً، وكانت في عُيُون المُواطنين جيِّدة جداً ("مُشرِّفة حسب فيدال ناكيه[1] دفاع بُطُولي حسب (اللاروس الموسُوعي)، أصبحت مدينة سيفورس مدينة مُوالية للرُّومان بشكل عَلَنـي، وانضمَّت مُنذُ وُصُول فيسباسيان.

أمَّا المُدُن الأُخرى؛ فخضعت الواحدة تلو الأُخرى ما عدا جيسكالا وجبل بور وجمالا التي قاومت.

لم يكن لقادة الثّورة مواقف مثاليَّة على الدّوام: بعد الهزيمة ترجَّى جان جيشالا بأنْ يُبقوه على قَيْد الحياة. وسيمُون تأمَّل بعَفْو تيتوس، وحاول الفرار من مخبأ تحت الأرض، وأُمسك به بعدما استخدم تنكُّراً مُضحكاً، وذلك كي ينجو بنفسه، أمَّا القاتل المأجور جُوناتان؛ فهُو يتَّهم اليهُود الذين يُعيِّنهم له كاتولوس حاكم ليبيا. فصادفوا - إذاً - عدداً كبيراً من اليهُود الفارِّين أو المهزومين الذين لا يتردَّدُون بالتّرجِّي والتّوسُّل للمُنتصر عليهم (أ ليس هُو الخوف الذي كان في أساس قضيَّة مسعدة؟) وضعوا نُصب أعينهم ماذا يُمكن أنْ يفعل بهم الرُّومان لو انتصروا... فتصوَّر إليعازر الموت للجميع.

كان هُناك خائنٌ، دوره في اليهُوديَّة كان رئيسيّاً. خائنٌ يبدو أنَّه تبنَّى بعض وُجهات نظر ومواقف جُوزف؛ إنَّه: الحاخام "يُوحنان بن زاكاي" هُو الذي كان يُسمِّيه هيليل أبو

---

(1) ب فيجدال - ناكيه OP.CIT.

الحكمة (نيداريم 396). بالنّسبة "لبن زاكاي"؛ مثل جُوزف، وحسب مُعتقد ظلّ سائداً حتّى ظُهُور الصّهيونيَّة و(دولة إسرائيل)، إنَّه ليس هُناك من خيانة إلاَّ في ترك التّوراة، الخائن هُو الذي يبتعد عن الشّريعة. فمثل جُوزف ـ وللأسباب نفسها ـ يرفض الحاخام يُوحنان بن زاكاي الحرب: وبما أنَّه قد استشرف أنَّ اليهُود ـ بمُواجهة مع رُوما ـ سوف يُسحقون، نادى بالسّلام، وطالب به بشدَّة، إذْ إنَّ الحفاظ على اليهُوديَّة كان يهمُّه أكثر من الاستقلال القومي[1] (هذا حسب كتابة كُوهين). ومثل جُوزف بن زاكاي وغيره من القادة الفرِّيسيِّين انضموا بالرّغم عنهم للزّيلوت. وهُو ـ مثل جُوزف ـ يُكنُّ لهم كُرهاً خاصَّاً. ومثله يعتقد أنَّ أُورشليم قد دُمِّرت بإرادة الله، وبسبب كُفر سُكَّانها: لأنَّك لم تُريدي أنْ تخدعي الله في الحُبِّ، سوف تخدمين ـ إذاً ـ عدوَّكِ بالكُره: هكذا يقول بن زاكاي[2]. ومثل جُوزف؛ يُنادي بالاستسلام قبل فوات الأوان: يا أولادي، لماذا تتسارعون لتدمير مدينتكم؟ لماذا هذه الأفعال التي تُؤدِّي إلى تهديم المعبد؟ ماذا يطلب منكم الجنرال فيسباسيان؟ استسلاماً رمزيّاً، لا أكثر ولا أقلّ.

قوس وسهم[3] ـ لا شيء أكثر... ومثل جُوزف في جُوتا باتا استُدعي بن زاكاي ببعثة على أعلى مُستوى، فهرب من أُورشليم مُعرَّضاً للهلاك، فهُو مثله، منعوه من أنْ يخرج حيّاً، فاستخدم خدعة تعتمد على موته الشّخصي، فادَّعى ـ في البدء ـ أنَّه مريض، وجعل أصدقاءه يبثُّون خبر موته، ثُمَّ وضع نفسه في تابوت، حمله الحاخام إليعازر والحاخام يُوشاع إلى خارج أسوار المدينة ليُدفن. وقد نجا بأُعجوبة من ضربة الخنجر المُعدَّة دوماً للتّأكُّد من مصداقيَّة الموت، وذلك بفضل ابن شقيقه "أبَّا سيركا" وهُو قائد الزّيلوت وحارس مخرج المدينة: إذاً؛ فهُم يرتابون منه. ومثل جُوزف مَثَلَ أمام فيسباسيان، ومثله مدح الإمبراطُوريَّة (فيسباسيان أم تيتوس؟) (وعندما غادر ابن زاكاي أُورشليم كان فيسباسيان إمبراطُوراً في رُوما مُنذُ عام) وجَّه ابن زاكاي لفيسباسيان طلب التماس: أعطني يبنة وحُكماءها. وافق الإمبراطُور لهذا الطّلب، وبعدها وضع الفرِّيسيُّون وأسَّسوا بنى تحتيَّة دينيَّة وفكريَّة حفظت وقوَّت اليهُوديَّة بدراسة التّوراة وتكوين التّلمُود.

---

(1) آ كُوهين ـ التّلمُود ـ باريس ـ بايو 1986.

(2) س. و. بارون.

(3) فيليل ـ احتفال تالمُودي، باريس سوي 1991.

وتشكَّل سنهدرين، وعلى رأسه رئيس (النّاسي؛ أيْ الأمير) البطريرك الذي اعترف الرُّومان بسُلطته في القرن الثّاني. ولمّا حصل جُوزف على حُرِّيَّة أصدقائه وحُرِّيَّة استخدام الكُتُب الدِّينيَّة المُقدَّمة حصل ابن زاكاي على يبنة. وعلى غرار كتابات جُوزف التي أنقذت الدّيانة اليهُوديَّة، فالشّخصيَّتان تتراسلان وتُجيبان بعضهما، ولكنْ؛ ليس للنّهاية: المدح الذي تلقَّاه بن زاكاي كان بالإجماع حسب (فيزيل).[1]

أمَّا جُوزف؛ فيبقى المارق في هذه الحرب اليهُوديَّة. مع أنَّ الواحد مثل الآخر فرَّ، والواحد مثل الآخر تعاون مع العدوِّ. وعلى صعيد قيمتهما الشّخصيَّة. في النّهاية؛ الاثنان ليسا خائنَيْن: "لن أذهب أبداً إلى صفُوف العدوِّ لأخون" يقول جُوزف.

ولابن زاكاي مثل جُوزف الخيانة هي خيانة الله. وهُنا يتَّبع جُوزف وُجهات نظر اليهُوديَّة الحاخاميَّة التي لن تُدينه أبداً: النَّظَر لجهة الرُّومان هُو ليس إلاَّ خياراً سياسيّاً، إذاً؛ ثانويّاً. إنَّ تعريف الخيانة هذا يظهر - بوُضُوح - في أعمال جُوزف. فهُو لا يعترف بنفسه أنَّه خائن، فهُو لم يُنكر شيئاً: "هل بإمكاني ألاَّ أعيش أبداً مثل أسير حرب يُنكر جنسه، وينسى آباءه"، قال هذا تحت أسوار أُورشليم. وبالنّسبة لاحترام السّبت أثناء الحرب عند اجتياح أُورشليم كَتَبَ جُوزف: هُناك أشخاص يستحقُّون التّمجيد والمديح؛ لأنَّهم يهتمُّون بسلامتهم وسلامة وطنهم أقلَّ من اهتمامهم بإطاعة شرع الله والإيمان به. إذاً؛ مثل ابن زاكاي، يعتقد جُوزف أنَّ أُورشليم أقلُّ قيمة من الشّريعة، وإذا كان لابُدَّ من الاختيار هُناك سُمُوٌّ وثواب باختيار التّوراة، وذلك أفضل من استقلال قومي نظري اسمي، هذا الاختيار لا يتّبعه اتّهام بالخيانة. إنَّما خيانة الشّريعة والكُفْر هُما اللّذان يجرَّان احتلال المدينة المُقدَّسة والسّيطرة الأجنبيَّة: إنَّه جيل كافر، وليس الرُّومان هُم سبب الكارثة. الأخطاء - حتَّى الخفيَّة منها - هي التي سبَّبت غضب الله. إنَّها خطايانا وانتهاك القوانين التي أعطاها الله لأجدادنا هُو ما رمانا في هُوَّة الشّقاء.

من الذي استجرَّ الرُّومان ضدَّ أُمَّتنا؟ أليس كُفْر هؤلاء السُّكَّان؟ هكذا يسأل جُوزف. يعكس جُوزف - إذاً - غاية الصّراع. فليس هُو الذي خان؛ إنَّما الثُّوَّار وشعب أُورشليم.

---

(1) فيزيل.

بالنّسبة له ؛ يُفضِّل أنْ يموت مائة مرَّة على أنْ يخون وطنه . لكنَّ وطنه قد خان اللـه وقوانينـه ، ووطنه ليس له معنى إلاَّ بالشّريعة : " كُلُّ أفعالنا واهتماماتنـا وعطاءاتنـا ترتبـط بإيماننـا باللـه " . إذاً ؛ الابتعاد عن الكُفَّار ليس خيانة : فضلات زنا الطّبيعة ، عبيد ، لمامة المُتشرِّدين الذين يرمون الجنس العبري بالحطّة . فالكافر هُو خائن الله ، وبالتّالي ؛ خائن الشّريعة وإسرائيل ، بخيانتـه للخَوَنة يبقى جُوزف مُخلصاً للشّعب المُقدَّس وإلهه المُنتقم .

إنَّها أحد شُرُوط الخـلاص : يجب التّكفير عـن الخطايا ، والبقـاء مُخلصين للوصايـا ، ومُؤمنين أزليّاً ، وعدم خيانة القوانين ، كما أنَّـه يجب قبُول حُكْـم اللـه . وهكـذا ؛ فـإنَّ إرْمِيَا حضَّ الشّعب الكافر في أُورشليم على فتـح أبـواب المدينـة للبابليِّين : الصّراع ليـس مُمكنـاً ، وهذا الشّعب يتعرَّض للأسوأ إذا قاوم بدُون فائدة العقاب الإلهي . فإرْمِيَا هُو مثـال لجُـوزف . فـهُو يُشبِّه موقفـه أثنـاء هـذه الحـرب بموقـف النّبـي ، فـهُو لا يفـهـم الشّـتائم التـي يقذفـها المُحاضرون ، في الواقع ؛ لم يُعرف عن هذا النّبي عند اليهُود أنَّه : في عصره عرف إرْمِيَـا مثـل جُوزف على أنَّه انهزامي خطر خان خطَّ (إرْمِيَا 88 . 4) يُرمى في السّجن (إرْمِيَا 20 ـ 561) لماذا يُسجن جُوزف ؟ فإرْمِيَا قد حـرَّض الشّعب علـى الاستسـلام " الـذي يُسـلِّم نفسـه للكلدانيِّيـن يعيش " ؛ هكذا قال . كذلك إرْمِيَا فضَّـل الإيمـان والإخـلاص للقـانون الإلـهي عـن أُورشـليم كافرة . ومن جهة أُخرى ـ بالنّسبة لجُوزف ومُعاصريه ـ إرْمِيَا ليس خائناً ، إنَّما الخائن هُو الـذي يخون الشّريعة . في مُؤلَّفه "الحرب" القذر هُو الذي يرفض أنْ يموت من أجـل الشّـريعة . فكـرة الخيانة عند جُوزف لا تفترق عن الكُفْر ، وفـي مُؤلَّفـه "العُصُـور القديمـة" يتحـدَّث عـن اليـهُود الكاذبين الذين انتهكوا الشّريعة وشريعة آبائهم ، يهُود كُفَّار وخَوَنة لوطنهم . يهُود فارِّين ليس عندهم دين . وهُو يقصد يهُود الفترة المكابيَّة : خيانة الدّولة اليهُوديَّة ، والعكـس صحيـح ، بمـا أنَّ الاثنَيْـن يتجـدَّدان برفـض الأجنبي ، فجُـوزف مُتَّـهم بأنَّـه أراد خيانـة الدّولـة اليهُوديَّـة ، ومنطقيّاً ؛ فهُو مُتَّهم بخيانة قوانين الجُدُود .

لكنَّ جُوزف قد فصل الواقعَيْـن أو الحقيقتَيْـن مُنـذُ زمـن بعيـد ، فـهُو يعـرف ـ وقتـها ـ أنَّ الدّولة اليهُوديَّة هي وَهْم خطر ، والإنسان لا يُخزِّن وَهْماً . فكرَّس وقته مثل ابن زاكاي ومثـل إرْمِيَا للدّفاع عمَّا بقي ؛ وهُو الأهمُّ ؛ أيْ : الشّريعة .

كَتَبَ " يروشالمي " يقول إنَّه بعد خمسة عشرة قرناً من الانتظار أعلن يهُودي عن نفسه أنَّه مُؤرِّخ وهُو (جُوزف بن يشُوع هاكُوهين دافينيون) وكأنَّ جنس المُؤرِّخين كان قد نفد[1] فجأة، وقد أظهر " رانياخ " في مُقدِّمته " ضدَّ آبيون " أهميَّة هذا المُؤرِّخ اليهُودي: بالنّسبة لنا (أيْ الأوروبيِّين) إنَّ القيمة التّوثيقيَّة لأعماله - وخُصُوصاً "الحرب" والكُتُب السّبعة في " العُصُور القديمة " - لا مثيل لها، نظراً لخيبة (أوزوال) كُلِّ الأدب الهيلنيستي والرُّوماني. فبدُون جُوزف ما كُنَّا لنعرف أي شيء عن مصير الشّعب اليهُودي أثناء القرنين الأخيرين من حياته القوميَّة ولا أيَّ شيء عن الوسط التّاريخي الذي نشأت فيه المسيحيَّة[2]. حتَّى لو أنَّ جُوزف لم يُكتشف من قِبَل اليهُوديَّة إلاَّ في القرن التّاسع عشر، لكنَّ أهميَّته - بالنّسبة للذّاكرة اليهُوديَّة - هي أهميَّة رئيسيَّة. لا يُوجد إلاَّ أعمال قليلة حول التّاريخ اليهُودي أو اليهُوديَّة. وحتَّى الصّهيونيَّة، ولو جلدته فهي مدينة له بخُرافاتها وأساطيرها مثل مسعدة، ومن قادة الثّورة لم يبقَ شيء. فنرى أنَّ جُوزف - بعد "ابن زاكاي" - قد عمل أكثر للدّفاع عن اليهُوديَّة والشّعب اليهُودي من كثير من مُعاصريه. فهُو - وابن زاكاي - قد فهما مُعطيات التّاريخ الجديدة وحالة العالم الجديد على عكس قادة الثّورة المُنغلقين في تعصُّبهم وفي أُورشليم. فهُو قد استنتج ضرورة تجديد إسرائيل، ليس للخيانة، إنَّما لتأمين استمراريَّتها الفيزيائيَّة والنَّفْسيَّة. فهما أنَّه لن يكون هُناك - بعد اليوم حواجز فيزيائيَّة - تفصل اليهُودي عن غير اليهُودي، ولا حُدُود بعد الآن، وأنَّه يجب اختراع واستنباط أشكال جديدة لتأمين تلاحم الشّعب المُشتَّت من جهة، وتجنُّب الاختلاط من جهة أُخرى. فتكون عند الأوَّل: حزم التّلمُود والرّابط الكَنَسي، وعند الثّاني: المُطالبة " بالاندماج دُون الانصهار " الخُضُوع المُؤقَّت للآخر لا يفترض - حُكْماً - الخيانة: هذا ما كان لا يعرفه الزّيلوت، فزالوا من الوُجُود. وهذا ما علّمه إرْمِيَا وبعده ابن زاكاي وجُوزف.

(1) يروشالمي، زخور، تاريخ يهُودي وذاكرة يهُوديَّة، باريس، غاليمار - 1991.

(2) راياناخ.

الفصل الخامس:

فلافيُوس جُوزف وإسرائيل والآخرون
هل هُو موقف جديد؟

اندماج بدُون انصهار: صيغة حديثة تعود للوُجُود اليهُودي مُنذُ الثّورة الفرنسيَّة. لكنْ؛ كيف يُمكن أنْ نكون جُزءاً مُندمجاً مع شيء، وأنْ نبقى ـ في الوقت نفسه ـ خارجاً عن هذا الشّيء، وألاَّ ننتمي إليه بطريقة أو بأُخرى؟

يُوجد ـ هُنا ـ بالتّأكيد تناقض. الصّهيونيَّة ـ هُنا ـ هي نتاج هذا التّناقض وأحد حُلُوله في آن واحد، كما أنَّ اللاَّساميَّة هي أحد نتائجه. هذا التّناقض حلَّه الصّهاينة على طريقة الزّيلوت: الانغلاق في الدّولة ـ الأُمَّة. من هُنا إعجابهم المُعلن لهذه الفرقة؛ حيثُ شعائر مسعدة التي آثارُها القوميَّة المُتعلِّقة بجُوزف تجهد، لتجعل الباقي يتكلَّم[1] ومنها نتج الكُره الذي فيه مُغالطة تاريخيَّة لهذا المُؤرِّخ اليهُودي. فجُوزف يُحاول ـ على طريقته الخاصَّة ـ أنْ يحلَّ مسألة العلاقة مع الآخر. لكنَّ النّصَّ التّاريخيَّ مُختلف جداً عن الذي عرفه الصّهاينة: لقد فشل الحلُّ الزّيلوتي، ولم يعد خياراً عقلانيَّاً مُنذُ زمن طويل. المزيج ليس مسألة اختيار: إنَّه واقع ينبغي تقدير وُقُوعه به، دُون اللُّجوء إلى الوَهْم، وهي مُسلَّمة غير مردُودة للحياة اليهُوديَّة.

المسألة الحقيقيَّة التي تطرح نفسها لجُوزف كما للأحبار في يبنة هي: هل بإمكان اليهُود أنْ يختلطوا بالآخرين دُون أنْ تذوب هُويَّتهم وذُرِّيَّتهم؟ رأينا أنَّ النُّصُوص في العهد القديم والمكابيِّين والزّيلوت يُجاوبُون بالنّفي.

---

(1) سال شوفو، تستخدم الدُّول ـ غالباً ـ علم الآثار لمصلحتها. عدد ظهر في لُومُوند، السّبت 25 آذار 1995.

هذا الجواب لم يَعُدْ فعلياً في الوقت الحاضر: فرُوما أعادت تأكيد حُضُور سيادتها بقُوَّة، فصدُّها لم يَعُدْ مُمكناً. وقد فهم جُوزف - تماماً - المسألة المطروحة: كيف نختلط بالآخرين دُون أنْ نذوب؟ أنْ نختلط دُون أنْ نختفي... لكنْ؛ هُناك طريقتان للاختفاء: بالانصهار كما قلنا، وأيضاً بالإبادة. لقد وعى الصّهاينة - تماماً - هذا الخطر الثّاني. فبحسبهم؛ غير مُمكن أنْ يكون الإنسان يهُودياً عند الآخرين؛ أيْ الانتماء لشعب "مُغاير وغير قابل للانصهار"[1] دُون التّعرض لكُره الآخرين (هرتزل "فالخُصُوصيَّة اليهُوديَّة لا تستطيع ولا تريد وعليها ألاَّ تختفي "... فالأرض الموعودة هي البلد الذي فيه بإمكاننا السّماح لأنفسنا أنْ يكون أنفنا معقوفاً ولحيتنا سوداء وساقانا ملتويتَيْن دُون أنْ نكون - من أجل ذلك - مُحتقرين؛ وحيثُ يُمكن لنا أنْ نعيش أخيراً أحراراً وأنْ نموت بسلام على أرض تكون ملكنا "...)[2].

كان لجُوزف - أيضاً - هذا الهاجس، هاجس كُره الآخرين. لكنَّ الأرض الموعودة هي مُقاطعة رُومانيَّة، وليست هيكلاً معقولاً.

يجب - إذاً - ألاَّ نهرب من هذا الكُرهُ، فالأجنبي مُسيطر في كُلِّ مكان، إنَّما يجب مُحاصرته وتحييده. لذلك؛ فضح جُوزف مُناهضة اليهُوديَّة، وامتهن اليهُوديَّة.

وقد قالوا - غالباً - إنَّ جُوزف قد اخترع مبدأ الثّيُوقراطيَّة؛ وهي شكل خاصٌّ للحكُومة اليهُوديَّة، يُشرف عليها رجال الدِّين. لكنَّه ألَمْ يُرقِّي أيضاً فكرة "العلمانيَّة" كشكل حكُومة للمُشركين؟ هذه الحكُومة العلمانيَّة - حتَّى لو أنَّها ليست - تماماً - ضدَّ الدِّين في ذهن جُوزف - فهي تتصرَّف بمُعاملة كُلِّ الأديان على قَدَم المُساواة، واعتبار فكرة المُواطنيَّة مفصولة عن المراجع الدِّينيَّة لكُلٍّ منها: أيْ نوع من المُواطنة العلمانيَّة. وعندها يُصبح اليهُود مُواطنين مثل غيرهم. فلن تظهر - بعد الآن - خُصُوصيَّتهم في الحياة المَدَنيَّة، وتُصبح يهُوديَّتهم شأناً خاصّاً: بشرٌ في الخارج، ويهُودٌ في البيت، وذلك حسب صيغة الشّاعر الشّهير العبراني "يهُود ليب غوردون"[3] يقصد أمراً خاصّاً إذاً. أمَّا الأهمُّ بالنّسبة لجُوزف؛ أنَّه لا ينسى أنَّ حياة اليهُودي وسبب وُجُوده هي الشّريعة وخدمة الله. ولا ينسى - كذلك - أنَّه بين اليهُود والأغيار

---

(1) م. أبيتبول، الأرضان الموعودتان، يهُود فرنسا والصّهيونيَّة - باريس، أوربان 1969.

(2) هيرتزل، "الدّولة اليهُوديَّة"، باريس، هيرن 1969.

(3) آ بوايير، "أُصُول الصّهيونيَّة"، باريس، بوف 1988.

المُشركين هُناك مسافة لا يُمكن اجتيازها، وهي مسافة تاريخيَّة وإنسانيَّة ودينيَّة وحتَّى أنطُولُوجيَّة (علم الكائن)، فإذا اندمج اليهُودي كمُواطن في المُجتمع غير اليهُودي فهُو كيهُودي يستثني نفسه وينفصل، فليَسُوسَ الأغيار هذه المُواطنة، وليجعلوها مُحترمة، وليهتمّوا بحُكْم العالم، ويجعلوا هذا الانفصال مُمكناً. فبفضل ذلك يتفرَّغ اليهُود من الهُمُوم الزّمنيَّة، ويُصبحون وُزراء خاصِّين ليَهْوَه. الموضوع على العكس؛ يجب ألاَّ نُقلل المسافة أو نُنقصها، يجب أنْ نجعلها مُتماشية مع الجوار الفيزيائي، وبتعميقها ـ في الوقت نفسه ـ قدر الإمكان. ومن أجل ذلك؛ يجب أنْ نجعلها رُوحانيَّة. وفي الحركة نفسها، يطلب جُوزف من الأغيار المُشركين الحُرِّيَّة الدِّينيَّة والمُواطنيَّة العلمانيَّة، ومن اليهُود الإخلاص للقوانين المُوسويَّة بدُون أيِّ نقيصة. إنَّ المُواطنيَّة العلمانيَّة التي يطلبها من حُكُومة الأغيار سوف ينظر إليها جُوزف بنفسه وكأنَّها قمَّة الكُفْر وعدم الدِّين إذا فعلتها حُكُومة يهُوديَّة. ففي اختلاف المُعاملة هذا وعدم الحُكْم بالمثل هُو يُرسِّخ الأغيار الآخرين في العالم الزّمني، ويرفع اليهُود إلى العالم الرُّوحي: فهُو يحفر المسافة.

في هذا الفصل سوف نرى أنَّ جُوزف قد جعل من إسرائيل فكرة قريبة جداً من التي في التّوراة: إسرائيل هي شعب خاصٌّ، واليهُود هُم من سُلالة رائعة ذات نُفُوذ.

وسوف نرى ـ أيضاً ـ أنَّ نظرته للآخر هي ـ كذلك ـ سلبيَّة تماماً مثل التي رأيناها في نُصُوص العهد القديم.

غير أنَّ جُوزف يدمج في دراسته التّغيُّر التّاريخي الذي كان هُو شاهداً عليه، فإذا وجد عُيُوباً عديدة في غير اليهُود فهُو لا يبحث في رفضهم أو إبادتهم. على العكس من ذلك، فهُو يبحث عن تجنُّب وتحاشي حقدهم، ويبحث عن تعايش مُمكن غير صراعي.

إسرائيل شعبٌ خاصٌ

في مُؤلَّفه "العُصُور القديمة"، يُؤكِّد جُوزف أنَّه لكي يُضحِّي للمعبد يجب إطاعة القوانين" وعادات الجُدُود اليهُوديَّة. ويرى - في ذلك - نُوده "NODET" تحديداً واضحاً للانتماء لليهُوديَّة.[1]

الانتماء لليهُوديَّة "أنْ يكون يهُودياً" إذاً، لكنْ؛ هل يكفي فعلاً في فكر جُوزف اتِّباع القوانين والعادات حتَّى يكون الإنسان مُتيهُوداً فقط، أم يهُودياً بشكل كامل؟ وبتعبير آخر مَنْ هُو اليهُودي برأي جُوزف؟

ولنلاحظ أوَّلاً أنَّ كلمات قوانين وعادات هي تعابير قريبة جداً من بعضها في أعمال جُوزف (" فإذا أثاروا معرفتي للقوانين فهُم يُصَرِّحون نحنُ - أيضاً - لا نجهل عادات آبائنا)، (السِّيرة الذّاتيَّة 198): اتِّباع العادات هي مُمارسة القوانين التي تفرضها. إطاعة القوانين واتِّباع القوانين هي تنفيذ العادات، طريقة الحياة التي تعنيها.

مَنْ هُو اليهُودي حسب جُوزف؟: في مُؤلَّفه" العُصُور القديمة" يتحدَّث جُوزف عن اليُونان الذين كما يقول" يحترمون عاداتنا، ولا يجدون فيها شيئاً مُعيباً" هؤلاء اليُونانيُّون الذين يحترمون العادات، فإذاً؛ يحترمون القوانين المُؤسِّسة لها، لكنْ؛ يبقون - ظاهريَّاً - يُونانيِّين بالنِّسبة لجُوزف. فهُو لا يقول إنَّهم يهُود أو يهُود من أصل يُوناني أو يُوناني يهُودي. فهُم - دوماً - جُزء من الخارج "OUT". وبالمُقابل؛ اليهُود الذين يُخالفون القوانين لا يفقدون انتماءهم، وهُم يبقون - دوماً - جُزءاً لا يُجتزأ منَّا" : لقد غضب الله عندما رآنا نُخالف القوانين، حتَّى اليهُودي الكافر يبقى يهُودياً. اليُوناني - حتَّى لو كان تقياً يبقى يُونانيَّاً - : لقد حصل أنَّ كثيراً من اليُونان اعتنقوا قوانيننا" ويقول جُوزف: إنَّ زوجات اليُونانيِّين في دمشق كُلَّهنَّ - تقريباً - اهتدينَ إلى الدِّين اليهُودي، لكنَّه لا يصفهنَّ - أبداً - "باليهُوديَّات".

---

(1) نُوديه، نصٌ ترجمة: مُلاحظات عن عُصُور قديمة يهُوديَّة لفلافيوس جُوزف، باريس سيرف 1992.

وفي مُؤلَّفه "الحرب"، يتحدَّث جُوزف عن اليُونان الذين انجذبوا للاحتفالات الدِّينيَّة ليهُودأنطاكية، والذين أصبحوا - بشكل ما - جُزءاً من المُتَّحد اليهُودي، وبشكل ما أيضاً ليسوا منهم أبداً.

ظاهريّاً؛ لا يُمكن في ذهن جُوزف الانتماء إلى شعبَيْن مرَّة واحدة "لماذا تسمُّونهم يهُوداً إذا كان هؤلاء النّاس مصريِّيْن؟".

وبالمُقابل؛ يُمكننا أنْ نسأل جُوزف: لماذا تُسمِّي هؤلاء النّاس يُونانيِّيْن إذا كانوا يهُوداً؟ وتحديداً؛ لأنَّهم ليسوا يهُوداً: اتِّباع العادات، واحترام القوانين، والمُشاركة في الاحتفالات الدِّينيَّة تجعل من اليُوناني مُتيهُوداً أو عُنصراً مُختلطاً، لكنْ؛ ليس يهُوديّاً ولا بأيِّ حال من الأحوال؟

هل يجب الإعلان عن أنَّ الإنسان يهُوديٌّ حتَّى يُصبح يهُوديّاً؟

فبحسب جُوزف؛ السّامريُّون يدَّعون أنَّهم يهُود، لكنَّهم ليسوا يهُوداً، وفي مكان يروي العودة إلى أُورشليم بقيادة زُورُو بابل لأوَّل مجمُوعة يهُوديَّة كانت قد رُحِّلت إلى بابل. من بينهم ستُّمائة واثنان وخمسون شخصاً قالوا إنَّهم إسرائيليُّون، لكنْ؛ بما أنَّهم لم يستطيعوا إثبات ذلك فلم يُعترف بهم كيهُود. بالتّأكيد؛ جُوزف ينقل حَدَثاً قد روته التّوراة بالتّفصيل، لكنْ؛ كان باستطاعته أنْ يحذف هذا المقطع الصّغير كما يفعل - غالباً - بالمقاطع التي تُزعجه.

هل الختان ضروري؟ بالتّأكيد، يقول جُوزف: "لقد أُسِّس الختان حتَّى تُحفظ سُلالة إبراهيم من الاختلاط مع الآخرين". فالختان - إذاً - هُو عقبة إضافيَّة عوضاً عن أنْ يكون باباً للعُبُور، ويقول جُوزف: إنَّه لو تمَّ الختان بعد اليوم الثّامن (كما عند العرب والمُهتدين اليهُود) فالمُختتن لا يكون في العهد (وهذا ما يتناسب حسب نُوديه[1] مع (سفْر التّكوين 17. 14) أو سام LXX أسفار مُوسى الخمسة السّامريَّة، وحتَّى لو تمَّ الختان في اليوم الثّامن يبدو أنَّ ذلك لا يكفي ليجعل من الأجنبي يهُوديّاً أصليّاً. وبذلك؛ فالإدوميُّون المُهتدون في زمن المكابيِّيْن حوالي عام 128، اعتُبروا كيهُود، يقول جُوزف "مُعتبَرين"، يعني - مرَّة أُخرى - أنَّهم ليسوا يهُوداً حقيقيِّيْن؛ أيْ يُوجد تحفُّظ، مع أنَّهم اختتنوا، واعتنقوا الدّيانة والقوانين اليهُوديَّة.

ويبدو أنَّ جُوزف قد تبنَّى فكرة أنتيغون التي جعلت من هيرُود ذي الأُصُول الأدوميَّة "نصف يهُودي"، والده أنتيباتر هُو أدومي بالأصل، وأحد "الأوائل في أُمَّته من جهة جُدُوده"، مع أنَّه مُختتن في اليوم الثّامن ومُعتنق الدّيانة اليهُوديَّة وشريعة اليهُود، فأنتيباتر ليس من الجنس اليهُودي، ولا من الأُمَّة اليهُوديَّة.

الشّعب الإيدومي هُو شعب قريب (ذُو قُربى) للشّعب اليهُودي، إذاً؛ هُو شعب مُتميِّز. ويقول جُوزف ويُؤكِّد أنَّ هؤلاء الإيدوميِّيْن الأقرباء "عندهم ميل للقتل بشراسة ولاديَّة"، هذا الطّبع الوراثي يُعمِّق المسافة بين يهُود وإيدوميِّيْن الذين هُم "مُجرمون قذرون" أدخلوا - أثناء الحرب - كُره القوانين في كُلِّ مكان، وفي عقليَّة جُوزف حتَّى لو أنَّ الإيدوميِّيْن كانوا مُختتنين وضحّوا للمعبد فهُم ليسوا يهُوداً بشكل كامل.

هل لأنَّ الإيدوميِّيْن قد اهتدوا بالقُوَّة؟ هذا مُمكن. ففي سيرته الذّاتيَّة اعترض جُوزف - بشجاعة - على ختان إجباري قسري لاثنَيْن من الأجانب: "زعم اليهُود أنَّهم فرضوا عليهم الختان إذا أرادوا البقاء فيما بينهم، فلم أسمح بأنْ يُجبروا بالقُوَّة، وأصررتُ أنَّ كُلَّ إنسان يجب أنْ يُشرِّف الله حسب قناعته الشّخصيَّة، وليس بالإكراه.

هُناك - أيضاً - مَثَلٌ معروف للاهتداءات، ينظر جُوزف إليه بعين الرّضا والإعجاب: اهتداء هيلين وعزت ملك "أديابين"، بعد الختان فقط اعتبر جُوزف عزت كيهُودي حقيقي: مثل "يهُودي ملك"؛ لأنَّه أصبح ملك اليهُود. وفي مقاطع أُخرى يتحدَّث جُوزف عن أخوة من جنس أديابين: هل الموضوع هُو المُهتدون أو اليهُود الذين هُم كُثُر حتَّى الكردستان؟ ويبدو أنَّ هذه الحالة هي فريدة وعلى حدة، فما عدا ذلك لا يعتبر جُوزف يهُوداً حقيقيِّيْن أصليِّيْن كُلاً من: السّامريِّيْن، مع أنَّهم مُختتنين ويعترفون بالتّوراة، ولا الإدوميِّيْن ولا الإتوريِّيْن الذين اهتدوا عام 103، تهوَّدوا، واختتنوا، ويضحُّون للمعبد، ولا اليُونان المُتيهُودين، مع أنَّه يُؤكِّد في مُؤلَّفه "ضدَّ أبيون": ليس العرْق وحده الذي يُقرِّب البشر لصُنع "شعب"، لذلك وجب إثبات النَّسَب كما في زمن زُورُو بابل تحت طائلة الاعتبارات التّالية: "يُعتبر كأنَّه يهُودي" "يهُودي بطريقة ما"، "نصف يهُودي" "عُنصرُ مُختلط" "مُهتدٍ جديد" من طبقة سُلاليَّة مُنحطَّة كما أراد التّلمُود.

جُوزف يُثبت سُلالته : " عائلتي ليست بدُون امتياز ، فهي تنحدر من كَهَنَة . . . وليس ـ فقط ـ أنَّ العائلة مُتحدِّرة من كَهَنَة ، بل ـ أيضاً ـ الأُولى من الأربع وعشرين طبقة (الطّبقات السُّلاليَّة) ـ تميُّز ملحوظ ـ ، وعلاوة على ذلك ؛ الأنبل بين تلك العشائر ، وأنا من جهة والدتي من سُلالة الْمُلُوك ، لأنَّ ذُرِّيَّة "أسمونه" أجدادها كانوا لزمن طويل كبار الكَهَنَة ومُلُوك أُمَّتنا . . . هذا هُو نسب عائلتنا أسردها كما وجدتُها مُسجَّلة في السّجلاَّت العامَّة ، دُون أنْ أُعير اهتماماً للَّذين يُحاولون مُحاربتنا .

يقول جُوزف إنَّه يهُودي الأصل . وبالتّأكيد ؛ هُو من اليهُود الذين حقَّرهم بُولُس في رسالته إلى الفليبيان (وبُولُس هُو أكثر من أيِّ إنسان آخر بين إسرائيل يُمكن أنْ يقول إنَّه يُريد الختان مُنذُ اليوم الثّامن ، وهُو من جنس بني إسرائيل ، ومن عشيرة بنيامين ، عبري ابن عبري) كما أنَّه عند جُوزف فكرة العرْق والنَّسَب ؛ أيْ الهَوَس السُّلالي حسب قول NODET[1] هي دائماً حاضرة وكُلِّيَّة الحُضُور . فهُو ـ دوماً ـ يُحدِّد الصّفة السُّلاليَّة أو الطّبقة الاجتماعيَّة يفعلها لنفسه أوّلاً ، فهُو يبدأ بعَنْوَنة سيرته الذّاتيَّة بأسلافه الكَهَنَة والأسمونيِّيْن . ثُمَّ يفعل ذلك لشخصيَّاته في نُصُوصه عندما يصفهم بالْمُهمِّين . . . ويُلغي نَسَبَ الذي يظهر أقلَّ أهمِّيَّة . ويفعل ذلك خاصَّة لمجمُوع أُمَّته . . .[2]

فالجنس الإسرائيلي ، جنس العبرانيِّيْن ، الجنس اليهُودي ، وجنس اليهُود ، ينحدر من جنس إبراهيم .

نحنُ نعتبر إبراهيم هُو مُؤلِّف جنسنا ، وسارة أمَّ جنسنا ، ولحفظ هذا الجنس من الاختلاطات مع الآخرين أراد إبراهيم تطبيق الختان . فأبناء يعقُوب أجداد الأسباط الاثنَيْ عشر ، وهُم أُخوة بالدّم الواحد ، وهذا واقع ، نظراً لسحنتهم الْمُتشابهة ، وكما يدَّعيهم يشُوع : نحنُ جميعنا لسنا أقلَّ منكم من جنس "إبراهيم" ، إنَّها قُربى الدّم ، اعتبار الدّم هُو الذي يجمعنا حميمياً ، هكذا قال داود .

بالنّسبة لله ؛ هذا الجنس هُو الأثمن والأنبل من البشريَّة جمعاء... فجُوزف سوف يُبرهن عن عراقته العالميَّة . بالنّسبة لجُوزف ؛ الانتماء اليهُودي هُو الدّم اليهُودي ؛ لأنَّ اليهُود

---

(1) نُوديه .

(2) نُوديه .

هُم أُخوة جنس، مُرتبطون برباط الدّم، حتَّى مع أُخوة الجنس عبر الفرات؛ لأنَّ الجنس اليهُودي مُشتَّت بين كُلِّ أُمم الأرض المسكونة.

فالإنسان إمَّا هُو يهُودي أو غير يهُودي، السّامريُّون ليسوا يهُوداً، وعندما يُريدون أنْ يُبرهنوا أنَّهم يهُود يُحاولون إفهامنا أنَّهم من الدّم نفسه، وأنَّنا أحفاد يُوسُف من مناسيه، وأفراييم أولاده، وهذا خطأ فادح حسب جُوزف.

فنصُّ جُوزف يحوي مُتناقضة هامَّة جداً: فبحسب جُوزف؛ يختلق السّامريُّون لأنفسهم نَسَباً، ليصيروا يهُوداً أمام الإسكندر. مع أنَّه أمام الإسكندر أكَّدوا أنَّهم عبرانيُّون، وعندما سألهم إنْ كانوا يهُوداً أجابوا بغرابة وضدَّ مصالحهم: إنَّهم ليسوا كذلك.

فإمَّا جُوزف يُخطئ، أو أنَّ السّامريِّين ليسوا مُتماسكين في تقديمهم لموضوعهم. يُمكن لنا أنْ نفترض أنَّ في ذهن هؤلاء السّامريِّين يُوجد فرق بين أنْ يكون الإنسان يهُودياً أو أنْ يكون عبرانياً. وهذا ما أرادوا برهنته سُلالياً، ورفضهم القول إنَّهم يهُود هُو أنَّهم من الجنس نفسه، ومن النَّسَب العبراني لليهُود نفسه (وهذا ما تُحاول الدّراسات الحديثة إثباته)[1] حتَّى لو أنَّ دياناتهم تختلف (فيُمكن للإسكندر أنْ يمنحهم الحُقُوق نفسها). لكنَّ جُوزف يعتقد أنَّ السّامريِّين يُريدون إثبات يهُوديَّتهم. فهُو - هُنا - يُخطئ عندما ينسب للسّامريِّين آراءه الخاصَّة، ونصُّه يفقد تماسكه. هذا الخطأ يُبرهن أنَّ في ذهن جُوزف اليهُوديَّة هي أوَّلاً مسألة "دم" و"نَسَب"، على عكس السّامريِّين؛ هي بالنّسبة لهم مسألة دين. فهُو يُنكر عليهم أصلهم من دم اليهُود نفسه، حتَّى لا يقولوا إنَّهم يهُود. فهُو يُشيع ويبثُّ أُسطُورة أنَّهم من أُصُول أجنبيَّة. فالعلاقة (دم/ يهُوديَّة) هي علاقة طبيعيَّة في ذهنه ذي التّمركز الإثني، وهي أقلُّ عند السّامريِّين الذين يُريدون أنْ يكونوا عبرانيِّين، دُون أنْ يكونوا يهُوداً.

فتعبير يهُودي لجُوزف هُو تعبير قومي: ذلك مُنذُ زمن نَحَمْيا عندما بدؤوا بإطلاق كلمة يهُودي لأبناء أُمَّتنا الذين عادوا من بابل. هذا الانتماء القومي يُرَدُّ إلى انتماء عرْقي: الذي هُو إبراهيم أبُو هذه الأُمَّة. وهذا الانتماء يُرَدُّ - بدوره - إلى الله: فبالنّسب تمَّ العهد، إذاً؛ بالنّسبة لجُوزف أنْ تكون يهُودياً هُو أنْ تكون جُزءاً من العهد، انتماء ديني وعرْقي في آن واحد: "سعيد هُو الجيش المُؤلَّف كُلُّه من ذُرِّيَّة رجل واحد".

---

(1) انظر شميت، فكرة معبد أُورشليم في قمران، باريس سوي 1994.

هذا الجنس اليهُودي يظهر في أعمـال جُوزف موهوباً بصفـات وحيـدة تُذكِّرنـا بالعـهد القديم: إسرائيل شعب كبير لم يفعل إلاَّ أشياء تمتدح حقَّه، وأجداده المُؤسِّسون هُم كأبطـال، شخصيَّات مليئـة فضـائل أخلاقيَّة. مثـل حُـبِّ العـدل، وإيمـان إبراهيـم وإسـحق ويعقُـوب، وعفاف يُوسُف، وذكاء وجمال مُوسى، وحكمة وذكـاء سُليمان (لـم يكـن أحـد يُماثلـه فـي قديم الزّمان)، وفضيلة ماتاتياس، كذلك الشّجاعة التي تفوق كُـلَّ بـاقي الشُّعُوب، فاليـهُود عندهم صلابة النَّفْس تجاه اختبار العصيان والمجاعة والحرب والاضطرابات الكبيـرة، شـجاعة لن يُحطِّمها لا بُؤس إلهي ولا إنساني، هذا حسب هيرُود ذاته.

ومن صفاته الحسنة إيمانه. فهذه ليس لها مثيل، وتُترجم بالتّهافت على الموت من أجـل الشّرائع التي يُخلص لها اليهُود "كُلُّ أعمالنا واهتماماتنا وعظاتنا ترتبط بإيماننا باللـه، الفضيلـة ـ أيضاً ـ تجد عند اليـهُود أرقـى تعبير لـها: ولا أيُّ أُمَّـة تُعـادلكم بحُبِّكـم للفضيلـة" هكـذا أكَّـد النّبي بلعام.

إنَّ قـدم الجنـس اليـهُودي يُثبـت نُبلـه (رايناخ)، وفـي أفكـار القُدمـاء قـدم ونُبـل؛ هُمـا مُترادفان لمعنى واحد.[1]

ويقول جُوزف: إنَّ حوليَّات العبرانيِّين هي الأقدم من غيرها. كما أنَّ اليهُود قد علَّمـوا الشُّعُوب: "لقد علَّمنا الشُّعُوب الأُخرى كثيراً من الأفكار الجميلة. فقد علَّم إبراهيم المصريِّين في علـم الحسـاب، ونقـل لـهم قوانـين علـم الفَلَـك، فقبـل وُصُـول إبراهيـم إلـى مصر كـان المصريُّون يجهلون هذه العُلُوم التي انتقلت بـهذه الطّريقـة مـن الكلدانيِّيـن إلـى مصـر، لتنتقـل منها إلى اليُونان: لا يُوجد مدينة يُونانيَّة ولا شعب بربري واحد إلاَّ وانتشرت عنده عادتنـا في استراحته الأُسبوعيَّة والصّيام وإشعال المصابيح وكثير من قوانيننا المُتعلِّقة بالتّغذية اتُّبعت.

فالشّعب اليـهُودي عنـده مـيزات لا يُمكننـا إلاَّ أنْ نُعدِّدهـا باختصـار: الألفـة، الكـرم، النّشاط في العمـل، الثّبات فـي التّعذيب. فضيلـة ونشـاط فـي المهمَّـة. ثبـات لا يـهتزُّ، عـزم لا يلين، لطافة وإنسانيَّة، مقدرة على خلق الشّرائع. لذلك يرى جُوزف عنـد اليـهُود عـادات وأُسلُوب حياة تختلف عن باقي الشُّعُوب.

---

(1) ت. رايناخ، مدخل إلى ضد أبيون لفلافيوس جُوزف باريس، الآداب الجميلة 1972.

ولكي يجعل نظريَّته ـ في أنَّ الشّعب اليـهُودي شـعب مُتميِّز ـ مقبولـة ومُستسـاغة يلجأ جُوزف إلى الحذف والإغفال. وبذلك يُلغي ويحذف أكاذيب يعقُوب ليسـرق البركـة الأبويَّـة من عيسُو، ويحذف زنا رُوبن، ويحذف قتل مُوسى للمصري. ويحذف ـ بشكل تـامٍّ ـ حلقة العجل الذّهبي، كذلك قصَّـة الحيَّـة. وحـذف ـ أيضـاً ـ تذمُّرات الشّـعب فـي طـابيرا، كذلـك الجُذاميَّة ميريام. وحذف قصَّة يهُوذا وتامـار. ويُحـوِّر ويُبـدِّل فـي قصَّـة غيبيـا، أو بالتّضحيـة بإسحق (فهُو لم يَعُدْ الطّفل الذي يُريد إبراهيم التّضحية به، إنَّمـا هُـو بـالغٌ، عُمـره 25 سـنة، ومُتطوِّع فوق ذلك. وزعم أنَّ اليهُود قد أقاموا حملة مع الإسكندر، وهُو شيء يُسمَّى أُكذوبة واضحة حسب (رايناخ). (1)

إنَّ هدف هذه الحُذُوفات والتّزييفات والتّشويهات هي ـ طبعاً ـ لتغطية شُذُوذات الشّـعب المُختار من وَثَنيَّة بشكل خـاصٍّ، وأيضـاً مـن نقـص فـي الحسِّ الأخلاقـي، وعـدم وُجُـود أيِّ إحساس بالإنسانيَّة عندهم، ووُجُود الزّنا والشُّذُوذ الجنسي... هذه العيوب ـ تحديداً ـ هي التي يلوم بها جُوزف الشُّعُوب الأُخرى.

إنسانيَّة مُختلفة:

كُلُّ الجنس البشري يبدو واحـداً ومُتمـاثلاً، إعـلان مبـدأ يبـدو مـن المُناسـب وضعـه فـي نُصُوص "ضدَّ أبيون" (في مُرافعة تجـري فـي محكمـة "الآخريـن" للدّفـاع عـن اليهُوديَّـة المُتَّهمـة ـ بشكل خاصٍّ ـ بكُره الآخر.)..

هذه الإنسانيَّة الواحدة والمُتماثلة هي مُؤلَّفة من شُعُوب مُختلفـة: ففـي "العُصُـور القديمـة "جُـوزف" يجهد ليُظهر نوعيَّـة اختـلاف سُلالاتهم. فـهُو يُعـدِّد الأُمـم المُؤسَّسـة مـن أبنـاء يافث: يُونان، غولين سبت، أيبريِّن، والأُمم المُؤسَّسة مـن أبنـاء حـام: أثيوبيِّـن، مصريِّـن، كنعـانيِّن... ثُـمَّ المُؤسَّسـة مـن أبنـاء سـام: فُرْس، آشـوريِّن، كلـدان، عـبرانيِّن... إنسـانيَّة واحدة... مُمكـن عنـد نُوح الجدّ المُشترك، لكنَّـها بعيـدة عـن أنْ تكـون مُتماثلـة، وقـد سـمع إبراهيم من يَهْوَه أنَّ ذُرِّيَّته سيكون لـها جـيران فاسـدون (aji 185) مَـنْ هُـم هـؤلاء الجـيران؟ المصريُّون، ربَّما يبدو الأمـر هكـذا. ومـهما كـان؛ فـإنَّ الإنسـانيَّة قـد انشـقَّت إلـى الفضيلـة،

---

(1) ت رايناخ.

والإيمان لليهُود، والفســاد لبـاقي الشُّعُوب والسُّلالات المُختلفـة، كُلُّ ذلـك يخلـق مسـافة، مسافة يجب ألاَّ تُردَم: إنَّه كافر، وهذا "رجس"، ألاَّ يكـون الإنسـان مُتضامناً مـع أُخوتـه فـي الجنس"، وهذا معناه خيبـات قاسـية أنْ تُمـارس تجربـة مكـر الأجـانب، هكـذا جعـل جُـوزف سيتوبو ليتاي يتكلَّم وهُو قد اختار حزب اليُونانيِّين gj ii 472، لكنَّه ينتحر أخيراً بعـد أنْ قتـل كُلَّ أعضاء عائلته. استنتج جُوزف: هكذا مات هذا الشّـابُّ، الـذي قُوَّتـه الفيزيائيَّـة وصلابـة رُوحه يستحقَّان التّعاضد، لكنَّ المحن كانت نتيجة طبيعيَّة لإخلاصـه للأجنبي (gj ii 476). إذاً؛ تضامن مع شعبه وعدم إخلاصه للأجانب؛ لأنَّ هؤلاء هُم فاسدون وماكرون.

إلاَّ أنَّه يُوجد مقطع في مُؤلَّف "حرب" لا يفتأ فيه جُـوزف بالثّنـاء علـى بعـض الشُّعُوب الأجنبيَّة. الموضوع هُو الخطاب الشّهير للملك أغريبا (انظر فصل IV الرّابع) والذي يبدو لنا أنَّـه يعكس آراء جُوزف. فـي هـذا الخطـاب الغوليُّون هُـم "أغنيـاء" و"شُـجعان" الجرمـان "أقويـاء" ورُوحهم تكره "الموت". اليُونانيُّون أذكياء، ويغلب عليهم النُّبل. الإيبـيريُّون عنيـدون (389 ـ GJ II 364) المغزى من الخطاب هُو غاية ظرفيَّة مُعدَّة لثني اليهُود عن الدُّخُول في الحرب ضدَّ الرُّومان: هل أنتم أكثر غنى من الغوليِّين أو أقـوى مـن الجرمـان وأذكـى مـن اليُونـانيِّين وأكثر عدداً من كُلِّ شُعُوب العالم؟ أيُّ دافع ثقة يجعلكم تنتفضون ضـدَّ الرُّومـان؟ (GJ II 364)، وهُناك ـ أيضـاً ـ تقييمـات أُخرى أملتـها الظُّرُوف أكثر منها القناعـات العميقـة: وهـي تتعلَّـق بالرُّومـان، مـع أنَّ النُّصُوص تُظهرهم علـى أنَّـهم قُسـاة (مذابـح ـ GJ II 414 ـ مثلاً إعـدام المساجين ـ 38. GJ VII 37 ـ مثلاً تعذيب مُتنوِّع. . GJ VII 418)، لكنَّـهم يمتلكـون صفـاتٌ تُميِّزهم من الشُّعُوب الأُخرى جميعها؛ إنَّهم مُتبصِّرون، حريصون، مُنظَّمون(GJ III 70). هُم يحترمون القوانين اليهُوديَّة: "نعم، كيف يُمكننا أنْ نُمسك دُمُوعنا عندما نرى أنَّ الرُّومان لم يجتازوا ـ قَطُّ ـ الحُدُود المفروضـة علـى غـير اليـهُود، ولـم يُخـالفوا عاداتنـا الدِّينيَّـة؟! فـهُم يكتفون بالنَّظَر من بعيد، مع رعشة رُعب مُقدَّس إلى الجُدران التي تُحيط بـهيكلنا" (GJ 182 IV). فهُم لا يحترمون القوانين فقط، لكنْ؛ بالإضافة لذلـك فـهُم يُحبُّونـها (GJ V 406). كما أنَّهم كانوا ميَّالين إلى الاعتدال مع اليهُود. برهن الرُّومان ـ إذاً ـ عن سُمُوِّ النَّفْس (CA 73 II)، وعن حلم ودماثة (GJ V 372). كُلُّ هذه التّقييمات واضـح أنَّها مُهُورة بكمِّيَّـة خُبـث كبيرة، ويُمكننـا أنْ نفـترض أنَّـها قيلـت لتُلـزم الرُّومـان علـى البقـاء مُخلصـين لـهذا التّصرُّف المُعتدل والمُؤاتي لليهُود، أكثر منها لإرضاء تيتوس.

في الواقع؛ عندما لا يتطلَّب الأمر إرضاء أو استقالة أو إقناعاً، عندها يرصد جُوزف ـ على الأكثر ـ العُيُوب عند الأجانب أكثر من المِيْزات.

وهكذا يتكلَّم عن " الأعراب (GJ V551) إنَّهم من "سُلالة الإسماعيليِّيْن " وأعطى نسبهم في أنَّهم برابرة، وخُبثهم معروف، يُبدون في المعركة خوفاً رهيباً وعُنفاً (382 ـ 381 .GJ1). وفي أحد خُطبه التي يُحبُّها، جعل جُوزف هيرُود يتكلَّم عن الأعراب ويقول: إنَّ الأعراب هُم أكثر البشر مكراً وكُفْراً (أشدُّ كُفْراً ونفاقاً)، وبرهنوا عن بُخْل وحسد ونُكران الجميل (جُحُود)، وأنَّهم غير مُخلصين لأصدقائهم، وهُم عنيفون، وهذا الشّعب أرعن، ولا يجد الشّرف إلاَّ فيما هُو مُفيد له، ويعتقد أنَّ الشّتائم والأذى يجب أنْ تبقى بدُون عقاب عندما تكون مُفيدة لفاعلها، وأنَّه يلجأ للخداع والخيانة. باختصار؛ لا يُوجد ـ هُنا ـ تقدير لهذه الأُمَّة الكافرة والماكرة والتي نقضت العهُود التي لا تُنقَض، والتي هربت على الدّوام... والتي لم تُبرهن عن شجاعة وجُرأة إلاَّ في قَتل السُّفراء (AJ XV 8)، كذلك الأمر بالنّسبة للمصريِّيْن، تقدير قليل. هُم غير ميَّالين لبذل مجهُود، فهُم ضُعفاء (لُطفاء)، وبشكل عامٍّ؛ هُم عبيد للملذَّات، ولحُبِّ الرّبح بشكل خاصٍّ. وهُم ينفرون من العبرانيِّيْن حَسَداً من غناهم (AJ II 201)، عند الجنس المصري أيضاً عادات سيِّئة (CAII70)، ويعتقد جُوزف ـ بشكل خاصٍّ ـ بشغف المصريِّيْن "بالنّساء" (AJ I 162)، وبكبريائهم (AJ III86)، (وهكذا؛ فإنَّ هاجر " المصريَّة الأصل " تجرَّأت وتكبَّرت؛ لأنَّها كانت تنتظر ولداً من إبراهيم (188 ـ AJ 187 I)، عند المصريِّيْن ـ أيضاً ـ ذهن مُتمرِّد (CA II69). فهُم يأخذون أشدَّ الحيوانات شراسة لتُهاجم الإنسان من أجل آلهة (CA II 139)، وفي ضدَّ أبيون، لم يستطع جُوزف إخفاء بُغْضه، ويتَّهم ـ بشكل خاصٍّ ـ " المصري أبيون " بأنَّه أنكر وطنه الحقيقي وجنسه، عندما زعم أنَّه إسكندري، واعترف بذلك " بخزي جنسه " (29 ـ CA II 28)، وبمنطق جيِّد؛ يرفض جُوزف أنْ ينسب للعبرانيِّيْن أيَّ نسب مصري، لا يأخذ جنسنا أصله من المصريِّيْن، إنَّما أتى جُدُودنا من الخارج، واستولوا على مصر، ثُمَّ... غادروها... لكنَّنا لم نمتزج بالمصريِّيْن العُجَّز (العاجزين) (CA J 252)، على العكس؛ فهُو يتَّهم المصريِّيْن أنَّهم ينسبون لأنفسهم الأصل اليهُودي... ليجدوا فيه مجدهم: للمصريِّيْن تجاهنا شُعُور واحد من هذَيْن الشُّعُورَيْن: إمَّا أنَّهم يتصوَّرون أنَّ لهم معنا قرابة ما حتَّى يأخذوا منها المجد، أو يجرُّوننا إليهم حتَّى

نُشاركهم بسُمعتهم السيِّئة . (CAII 31) أمَّا مع اليُونان ؛ فجُوزف هُو أقـلُّ شـدَّة . فـهُو يُؤكِّد أنَّهم " بعيدون جداً بالأمكنة والعـادات ، لذلـك لا يُمكـن أنْ يكـون بيننـا وبينـهم أيُّ بُغْـض أو غيرة " (CAII 123) ، إلا أنَّه رغم ما يصف به اليُونان من ذكاء ونُبل (CF AUPRA) ، فكُلُّ شيء عندهم هُو حديث العهد ، وتاريخـه البارحـة ، أو أوَّل أمـس : تأسيس المُدُن ، ، اختـراع الفُنُون ، تنظيـم القوانـين . . (CA 1 . 7) . فـي الواقـع ؛ الشّـعب اليُونـاني هُـو " مُسـتعبد لآراء قديمة " لا يُحرِّكهم إلاَّ المال ، وأقلُّ شيء يُخمد همَمَهُم عند ضرورة البحث التّاريخي الـذي لا يُعيرونه اهتماماً (GJ I 16) .

على أيِّ حال ؛ إنَّ الكُتَّاب الذين لا يذكرون اليـهُود ، إنَّمـا يكـون ذلـك بدافـع الغـيرة أو لأسباب مُعيبة أُخرى " (CAI 213) . الجنس اليُونـاني (CAI 63) ليس مُستعداً أنْ يتـألَّم مـن أجل قوانينه ، ولا من أجل حوليَّاته أو كتاباته كما تألَّم اليهُود ، "ولا أيُّ واحد مُستعدٌّ لمُواجهـة أقلّ ضرر ما " (CAI43 . 44) . لذلـك ـ وبـدُون شـكٍّ ـ أُعجـب اليُونـان القُدمـاء بكُـلِّ اليـهُود الذين صادفوهم ، ولم يكونوا من اليُونان العاديِّيْن ، إنَّمـا مـن المعروفـين بحكمتـهم وإثارتـهم إعجـاب النّـاس " (CAI 175) ، ينتقـد كذلـك جُـوزف اليُونـان ، ELEENS ويتبـان THEK AINS ، الذين يُمارسون حُرِّيَّة العلاقات الجنسيَّة المُضادَّة للطّبيعة ؛ أيْ بـين الذُّكُـور بـدُون أيِّ كابح ، وينغمسـون فـي الملـذَّات غير الطّبيعيَّة ومُضـادَّة "للطّبيعـة " ، ويضعـون العلاقـات مـع الذُّكُور تحت رعاية الآلهة ، وبحسـب المبدأ نفسـه ؛ الزّيجات بـين الأخـوة والأخـوات (275 ـ CA I 274) ، ومن بين اليُونانيِّيْن يجب أنْ يكون اللاسيديمونيِّيْن مكانـة خاصَّـة . ويشكل فيه غرابة يزعم جُوزف أنَّ اللاسيدْيمونيِّين واليهُود لهم الأُصُول نفسـها . فـهُو يُـورد نـصَّ رسـالة مُزعَمة كَتَبَها ملك لاسيديمونيا إلى المُضحِّي الكبير :

" أرياس لاسيديمونيا إلى أونياس ؛ سلام :

لقد رأينا في عدَّة مصادر أنَّ اليهُود واللاسيديمونيِّيْن هُم من أصل واحد ، كونهم كُلُّـهم من سُلالة إبراهيم . فبما أنَّنا ـ إذاً ـ أُخوة ، لذلك وجـب أنْ تكـون مصالحنـا واحـدة ، فإنَّـه مـن الصّواب أنْ تُعلمونا ـ بحُرِّيَّة تامَّة ـ ماذا ترغبون منا ؟ وأنْ نفعل الأمـر ذاتـه تجاهكم . . . (11.5 ajx) . وفـي (9 . ajx111) يتحـدَّث جُـوزف عـن " قرابـة الـدّم " ، ويُـورد جـواب جوناتـاس المُضحِّي الكبير والمُوجَّه إلى شعب لاسيديمونيا إخوتنا ، وهُو جواب يُؤكِّد هذه القرابة .

يبدو أنَّ هذه القرابة وجَّهت اعتبارات جُوزف بالاتِّجاه المُؤاتي لمصلحتهم. وهكذا؛ فإنَّ اللاسيديمونيِّيْن هُم "برأي الجميع" أكثر اليُونان تُقى (CA II 129).

في الواقع؛ عندما لا يتطلَّب الأمر إرضاء أو استقالة أو إقناعاً، عندها يرصد جُوزف ـ على الأكثر ـ العيُوب عند الأجانب أكثر من الميِّزات.

كذلك الأمر بالنّسبة للمصريِّيْن، تقدير قليل. هُم غير ميَّالين لبذل مجهُود، فهُم ضُعفاء (لُطفاء)؟ وبشكل عامٍّ؛ عبيد للملذَّات وحُبٍّ الرّبح بشكل خاصٍّ. وهُم ينفرون من العبرانيِّيْن حَسَداً من غناهم (AJ II201)، وهُم الأكثر احتراماً في اليُونان (CA II 259)، إلاَّ أنَّهم أقلُّ جدارة بالتّقدير من اليهُود (CA II 226)، فهُم غير ثابتين في الظّهر (CA11 . 227)، والصّلابة المزعومة للاسيديمونيِّيْن هي أسهل من إطاعة القوانين (11228 CA). فهُم يعيشون في البطالة (CA 11 229 ـ 230) وليسوا الأفضل في الحرب (231 ـ 230 CA 11)، وهُم غير اجتماعيِّيْن (CA 11 . 260)، عندهم دُستُور غير اجتماعي، ويكرهون الزّواج (CA 11 . 273).

يبدو أنَّ القرابة أعطت اللاسيديمونيِّيْن مكانة خاصَّة بين اليُونانيِّيْن. لكنَّ جُوزف حريص أنْ يُشير إلى المسافة التي لا تزال تفصلهم عن اليهُود.

فهُو يدعو إلى "مُقارنة" (CA11 . 226) لن تكون لصالحهم بدُون شكٍّ. كذلك بالنّسبة للإدوميِّيْن وقرابتهم (فهُم أبناء إسحق من عيسُو (AJ X 11 . 11) التي تجعلهم بعد اهتدائهم مُعتبَرين كيهُود: حتَّى قرابة اللاسيديمونيِّيْن تجعلهم وكأنَّهم أُخوة.

لكنَّ هؤلاء يبقون إدوميِّيْن، والآخرون يبقون يُونان: القرابة بعيدة، والإدوميُّون مثل اللاسيديمونيِّيْن ليسوا يهُوداً بمعنى أصليِّيْن. فهُو عندما يُشير ويُؤكِّد على "القساوة الولاديَّة" لبعضهم (GJ IV.310) قساوة وراثيَّة تعود إلى عيسُو الصيَّاد، أو نمط حياة الآخرين يُثبت جُوزف الهُوَّة التي لا يُمكن اجتيازها، والتي تُبعدهم عن اليهُوديَّة.

وعلى مدى كُلِّ كتاباته؛ أعطى جُوزف رأيه حول عدَّة شعُوب: الأماليسيِّيْن هُم شعب شرس مُحبٌّ للحرب (AJ 111 . 40) وغير إنساني (V AJ 1 . 8)، الأموريُّون مُتهوِّرون في سلُوكهم وجُبناء في المعركة (AJ IV.5)، السّامريُّون يُبغضون ويغارون من اليهُود (X 1 . 4

AJ)، هُم ليسوا من جنس اليهُود نفسه (AJ X11 . 7)، إنَّهم من طبيعة الحرمان، وينقصهم العقل السّليم تماماً (GJ V 11 . 77).

أمَّا السّينيُّون؛ فهُم من جهتهم يتلذَّذُون في قَتْل البشر، وهُم ليسوا أفضل من الحيوانات (CA 11 . 29). الفينيقيُّون اتَّجهوا للتّجارة من حُبِّهم للرّبح (CA1 . 16). البارتيُّون هُم برابرة، عندهم مكر فطري (GJ1 . 255)، وهُم جشعون (GJI274) ويحنثون باليمين (J260)، وفي حربهم لمصلحة أنتيغون كانت بسبب النّساء اللّواتي وعدوهم بهنَّ (273 . 1 GJ)، أمَّا السُّوريُّون؛ فقد ظهروا مثل الكواسر وقُساة (GJ V13 . 4)، أمَّا الهنود؛ فهُم جيِّدون، مهنتهم الحكمة (GJ VII 351 . 352)، لكنَّهم يستجوبون بنوع من الاحتقار، والإيعازر القاتل (الذي يبحث هُو - أيضاً - عن إقناع): ألا نخجل من أنفسنا أنْ يكون عندنا رُوح أدنى من رُوح الهُنُود؟ GJ VII 357)، أمَّا جُوزف بأحكامه التّصنيفيَّة والتّراتبيَّة؛ هل هُو في موقع أفضل مُميَّز حتَّى ينتقد المُؤرِّخين اليُونانيِّين الذين كما يقول: حتَّى يظهروا أنَّهم يعلمون أكثر من غيرهم حول بعض الشُّعُوب المجهولة، تجرَّؤوا، ووصفوا هذه الشُّعُوب، ونسبوا إليها عادات لا تتناسب لا مع الأحداث، ولا مع الأقاويل (CA J 67 - 68).

يُقدِّم جُوزف(*) - بتحيُّز كثير - إنسانيَّة مُصنَّفة يقع فيها الشّعب اليهُودي في القمَّة! وخلفه الرُّومان، ويضع في أسفل السُّلَّم المصريِّيْن. إنَّما يُوجد في ذهنه مَنْ هُم أحطُّ أيضاً؛ وهُم الكنعانيُّون؛ حيثُ ينظر جُوزف إلى إبادتهم دُون أنْ يخجل ويحمرَّ، ولا يسعى في كتاباته لا للتّخفيف منها، ولا لحذفها.

فكلمة "إبادة" هي كلمة "مفتاح" في مُفردات جُوزف وفي مُؤلَّفاته التي تتوسَّع في المذابح.

إبادة المديانيِّيْن: سار مُوسى بجيش لإبادتهم كاملاً " قتل العبرانيُّون عدداً كبيراً منهم، حتَّى لم يكن بإمكانهم تعداد الموتى، تبع ذلك نهب البلد. ولإطاعة وصايا مُوسى: قتل كُلَّ الرّجال وكُلَّ النّساء، وأبقى - فقط - على البنات؛ حيثُ أسروا 32 ألفاً.(**)

(*) المُؤرِّخ جُوزف هُو يهُودي المنشأ والعقيدة، فقد بني ضميره وعقيدته على إبادة الشُّعُوب ونهب أراضيها وثرواتها. فهُو ليس مُؤرِّخاً، إنَّه كُوهين توراتي مُتحيِّز.

(**) النبيُّ يُوصي بقتل كُلّ الرّجال وكُلّ النّساء!. هذا هُو التّزوير بعينه.

وعلى ذكر عبادة الكنعانيِّيْن: كان مُوسى قد أصبح عجُوزاً، فجمع شعبه، وأعطاه توصيَّاته الخيِّرة: بالنّسبة للكنعانيِّيْن؛ أَمَرَ: افهموا أنَّه من الأهمِّيَّة الكُبرى أنْ تقتلوهم كُلَّهم، دُون أنْ تُوفِّروا أحداً؛ لأنَّه ـ بالاتِّصال معهم ـ قد تُنجرون للوَثَنيَّة، وتُهملون شرائع آبائكم. آمركم باستعمال الحديد والنّار لتهديم كُلِّ المعابد وكُلِّ الهياكل وكُلِّ الأخشاب المُعدَّة لآلهتهم الكاذبة، حتَّى لا يبقى منها أثر. لم يذكر جُوزف الاستيلاء على أريحا؛ حيثُ أجرى العبرانيُّون مذبحة فظيعة، لم يُوفِّروا فيها لا النّساء ولا الأطفال. فخلال خمس سنوات دامت فيها الحرب لم يبقَ من الكنعانيِّيْن إلاَّ عددٌ ضئيل انسحب إلى أماكن منيعة.

بعد الكنعانيِّيْن أتى دور الأماليسيِّيْن، فأمر صُمُوئيل: آمركم أنْ تُعلنوا عليهم الحرب، وأنْ تُبيدوهم بشكل كامل، بعد أنْ تهزموهم، لا تعفوا لا عن مُسنٍّ، ولا عن جنس، ولا تُوفِّروا حتَّى الحيوان، ولا تحتفظوا بأيِّ شيء من الغنائم. قدِّموه كُلَّه كمحرقة " هُولوكوست "، وأزيلوا اسم الأماليسيِّيْن من على وجه الأرض كما أمر به مُوسى، حتَّى لا يبقى منهم أثر. . وقد تبع شاؤول الأمر: " فهُو لم يَعْفُ لا عن النّساء، ولا عن الأطفال، ولا يعتقد نفسه أنَّه غير إنساني ومُتوحِّش؛ لأنَّه عدا عن أنَّهم أعداؤه، فهُو يُطيع الله، وهُو لن يكون ـ بدُون جريمة ـ بسبب عدم إطاعته، وهكذا بالنّسبة لجُوزف؛ الأمر ليس فيه عدم إنسانيَّة ولا توحُّش أنْ تُقتل النّساء والأطفال، وإباحة الإبادة على العكس(*) إنَّها " جريمة " ألاَّ يفعلوا ذلك عندما يطلب الله ذلك! فالرّحمة ليس مسموحاً بها من قِبَل الله (الذي لا يُريد حتَّى أنْ يزحم الأطفال لكُرهه بالأماليسيِّيْن). وخطيئة أنْ نُهمل وصيَّته في الإبادة عندما نرحمهم ونُوفِّرهم، مثلما أنقذ شاؤول " أغاغ " لسُوء الحظِّ.

فالحسُّ الأخلاقي عند جُوزف هُو حسٌّ مُشوَّه تماماً بواسطة إله كُلِّيِّ الوُجُود والفعل، والذي يأخذ على عاتقه الجرائم الأكثر بشاعة وظُلماً، ويُريح الضّمائر.

(*) توضيح وتفتير مزاعمهم بالتّحريض الوارد في توراتهم بصُورة كلام إلهي هُو تحريض مُزوَّر قامت به جماعة مُتعطِّشة للدّماء والإبادة، وهي ذات بناء نَفْسي مُشوَّه ومُهتزٍّ، لا ترى في الإنسان المُختلف إلاَّ فريسة، ولم تعرف في تاريخها التّمييز بين زمن الحرب وزمن السّلم، فعندها تحفُّز مُستمرٌّ لأذيَّة الآخر، وتعيش بحالة حرب دائمة، تبني ـ بحسبها ـ مُجمل نظرتها للكون والعالم.

لقد وصف الإثنيُّون جيِّداً هذه العمليَّات الثّقافيَّة والإيديُولُوجيَّة القادرة أنْ تضع خارج التيَّار (تُعطِّل) الآليَّات الطّبيعيَّة الغريزيَّة الرّادعة للعُدوانيَّة الإنسانيَّة.

في جُوزف ـ كما في مُوسى وصُمُوئيل أو شاؤول ـ عندنا مثال لمثل هذه العمليَّة الإيديُولُوجيَّة الفاعلة.

إنَّ إبادة الشُّعُوب الكنعانيَّة التي أدرجناها في الجُزء الأوَّل من هذا الكتاب كان لها ـ حتَّى الآن ـ طابعاً أُسطُوريّاً يبدو هول الإبادة قد انحصر في ماضٍ تامٍّ.

أمَّا عمل جُوزف؛ فيُظهر ـ على العكس ـ أنَّ منطق أُسطُورة الإبادة استطاعت أنْ تجتاز القُرُون، لتصنع ذهن الإنسان، وتجعله يقبل اللاَّمقبول. إذاً؛ أُسطُورة الإبادة هي غير زمنيَّة. مرجعيَّتها الدِّينيَّة تسمح بتلك اللاَّزمنيَّة.

هذا ما لم يُمكن غُفرانه: للّذين أُبيدوا يبقى هذا التّمييز العُنصُري اللاَّهوتي أسوأ من كُلِّ تمييز غيره. فالطّبع المُنظَّم للإبادة ومثاليَّته كوصيَّة ونهي إلهي نُفِّذ ـ بشكل جيِّد ـ طبع حضارة جعلت من الرّفض والنّبذ والتّشنُّج الانتمائي سبباً لوُجُودها.

إنَّ هذه الأُسطُورة التي تبني ذهن اليهُودي المفروض أنَّه مُثقَّف مثل جُوزف، والتي تُبقي على استمراريَّة الإبادة الشّرعيَّة بقُوَّتها المعياريَّة ووزنها الثّقافي. الإبادة الصّالحة تُساعدنا على فَهْم كيف أنَّه ـ باسم السُّمُوِّ ـ يستطيع رجل ذكي وسليم العقل مثل جُوزف أنْ يتخلَّى عن حسِّه الأخلاقي، ويقبل ما لا يُقبل، وحتَّى أنْ يجعل منه سيِّد عمله وموضوعه الرّئيسي.

بعدم القبُول بمُقاومة الله يُبرهن لنا جُوزف أنَّ اليهُوديَّة تُنظِّم إحدى أُولى الأنظمة الكلانيَّة (TOTALITAIRE) القادرة على تحييد الضّمائر والوُصُول إلى القتل الجماعي المُوافَق عليه.

في هذا المجال يتصرَّف جُوزف مثل جلاَّد نازٍ قاسي القلب، أين تكمن الجريمة؟ في الرّفض في تنفيذ الأمر!.

يُظهر جُوزف ـ هُنا ـ مُستوى ضمير مُساوٍ لحارس مُخيَّم: قَتْلُ شخص مُنحطٍّ هُو أقلُّ خُطُورة من أنْ نعصي أمراً. الأوَّل مثل الثّاني يقبل نفس المُخطَّط: عرْق مُختار ومُتفوِّق يجب

أنْ يُتمِّم رسالته التي سوف تُؤدِّي بـه للسّيطرة على العـالم، ومـن أجـل ذلـك ـ ويـأمر عـالٍ ـ يجب أنْ يزيل البشريَّة المُنحطَّة الفاسدة والمُفسدَة. هذا المُخطَّط المُنشأ فـي العـهد القديـم وجـد تطبيقات عديدة في تاريخ البشريَّة.

إلى زمن المسيح الذي عدَّل الرّسالة، كان يجب على اليهُودي أنْ يعتبر أنَّ هُناك شُعُوباً يجب إبادتها، وأنَّ مبدأ القَتْل الجماعي ليس مرفوضاً في حَدِّ ذاته، وأنَّه يُوجد ـ هُناك ـ إبادات جماعيَّة صالحة وعادلة: إله التّوراة لا يُخطئ أبداً!!

مقبولُ مثل هذا المنطق كما يفعل جُوزف معناه المُجازفة بأنَّ هُناك آلهـة أُخـرى معصومـة عـن الخطأ يُمكنـها أنْ تُدعـى: حضـارة ـ علـم ـ تـاريخ ـ حُقُـوق إنسـان، عـرْق... يرمـون ـ بدورهم ـ اللَّعنة على شُعُوب أُخرى. فعندما يُقبل مبدأ الإبادة العادلة لمرَّة يُمكـن لـه أنْ يجـد أوساطاً عديدة لتطبيقه. وبضبط الأذهان يُستخرج من التّوراة، وينتشـر فـي العـالم العـادي، فقبل إبادة أيِّ شعب يكفـي كَنْعَنَتُـهُ؛ أيْ إلباسـه زيّـاً غريبـاً، كمـا فعلـوا بالكنعـانيِّيْن، بمعـايير تضعه في النّقيض المُقابل للشّعب المُتفوِّق الذي يُمثِّل الله؛ أيْ أنَّه المُختار.

وهكـذا "الـهندي الجيِّـد هُـو الـهندي الميِّـت"؛ هكـذا قـالوا كمـا برهنـت عـن ذلـك "اليزمارينسراس"، الهندي يُباد؛ لأنَّ وحشيَّته الفاسدة تتناقض مع حضارة الأُمَّة المُختـارة أُمَّـة البانية "أُورشليم الجديدة" الواقعة على أرض موعودة تجري فيها أنَّهار الحليـب والعسـل، فـي غرب ايلدورادو المُطهَّر بعد فتح دموي.(1)

فجُوزف ـ ومن بعده التّاريخ ـ يُظهران أنَّ الرّسالة فـي العـهد القديـم لا يُمكـن أنْ تكـون وتُؤخذ بلا معنى، فهي تُدخـل فكـرة الإبـادة الجماعيَّـة الشّرعيَّة، وتوقـف تسـاؤل الضّمير، وتجعل التّاريخ يُسيء التّعبير بكُلِّ ما فيه من قذارة ودناءة، وهكـذا، وبكُـلِّ بسـاطة، وبشـكل طبيعي جداً.

يُورد جُوزف مقتل أغاغ من قِبَل صمُوئيل بسطر واحد: "بعد أنْ تكلَّم بهذا الشّكل إلـى أغاغ، فقتله؛ (أيْ صمُوئيل)، والتفت إلى رامات"، وجُـوزف يُفضِّـل أنْ يُشـدِّد علـى ظَـرْف شاؤول الذي أغضب الله.

---

(1) مارينسـتراس، الأساطير المُؤسِّسة للأُمَّة الأمريكيَّة، باريس ـ طبعة كومبيكس 1992.

يُوجد في السّيرة الذّاتيَّة مقطع يُظهر التّقابُل بين الأُسطُورة التي تُخرج الإبادة الشّرعيَّة، وبين التّاريخ في فصل مُعَنْون عَرَضيّاً " تخريب قصر هيرُود الرّبعي " هُناك حادثتان غير مُتساويتَيْ الأهمِّيَّة قد أوردهما جُوزف حاكم الجليل: حرق القصر هذا، وقتل يُونان طبريَّة من قبَل اليهُود. وهذا ما كان من ردَّة جُوزف: " لَمّا سمعتُ هذه الأخبار انزعجتُ تماماً، نزلتُ إلى طبريَّا، وفعلتُ ما بوسعي لأسترجع من اللُّصوص كُلَّ ما يُمكن إنقاذه من الأثاث الملكي: الشّمعدانات، الكورنتيّات، طاولات القصر، وحمل هائل من سبائك الفضَّة. وقرَّرتُ أنْ أحفظ للملك كُلَّ شيء استرجعتُه، فاستدعيتُ الأعيان العشرة للمجلس وكابيلا ابن انتيلوس، سلَّمتُهُم الأشياء كأمانة، مع تعهُّدهم ألاَّ يُسلِّموهم لأحد غيري. ومن الواضح جداً أنَّ جُوزف يُعير اهتماماً وأهمِّيَّة أكبر لأثاث الملك من مذبحة اليُونان التي لا يعود يذكرها إلاَّ لدحض المبدأ. وهُو يعرف أنْ يُطيل عندما ينزعج من شيء: فهُو يرفض مبدأ الختان القسري، أو قتل مُواطن يمنعه القانون - هُنا - من ذبح اليهُود **BOGIOM** ينسى حالما يذكر. في فكر جُوزف؛ قَتْلُ الآخر يُمتهن فوراً؟ هل تكلَّم اللهُ ضدَّ اليُونان؟ فلو تكلَّم الله لسمعه جُوزف؛ لأنَّه هُو مرصادٌ لكلام الله: " هُو مُرسَل من الله "، غير أنَّ الله لا يأمره بقتل البعيد جداً. فهُو سوف يُعلن نبأ لفيسباسيان، نبأً مُتعلِّقاً باليهُود، والذي سوف يُبدِّل حياتهم: هُو أنت، فيسباسيان الذي يُصبح قيصراً، أنت سوف تُصبح إمبراطُوراً، أنت وابنك الماثل هُنا! أنت السَّيِّد المُطلق، ليس - فقط - لشخصي أنا قيصر، إنَّما للأرض والبحر وكُلِّ الجنس البشري.

فالبُعَّاد المكروهون سوف يُصبحون أسياد اليهُود لمُعاقبة أخطائهم: هذا هُو النّبأ الضّال لمُرسل الإله! فَسُلَّم الأولويّات الإنسانيَّة يبدو أنَّه انعكس، لكنَّ هذا الرّسول الإلهي لا يتنبَّأ فحسب، إنَّما يُعيِّن لليهُود دربهم، درباً وجب مُنذُ ذلك الوقت شقُّه، لكنْ؛ ليس على هامش الآخرين، إنَّما من خلالهم.

جُوزف والآخرون رغم ذلك!

قال " راينانخ ": إن جُوزف لم يكن مُفكِّراً كبيراً [1]. فهُو - بدُون شكٍّ - لا يُقدِّم لنا أُسلُوباً شاملاً ومُتماسكاً.

---

(1) ت. راينانخ

أفكاره تتناقض غالباً، ومن الصّعب أنْ نحصل على شميلة لفكر هجائي بشكل أساسي، والذي يتطوَّر حسب الظُّرُوف. غير أنَّه رغم مُواربته فإنَّ فكره يبحث - بوُضُوح - لتحديد العلاقات بين اليهُود والبُعَّاد عنهم. هذا التّحديد ينقصه التّماسك، ففي رأينا أنَّ جُوزف هُو مُجدِّد يقترح أشكالاً جديدة، لكنَّه - أيضاً - تقليدي لا يرفض القديم، وهكذا؛ يبدو جُوزف وكأنَّه يُريد أنْ يقول: الأجانب يجب أنْ يُحبُّونا. . . لكنْ؛ نحنُ لا نحبُّ مُعاشرة الأجانب. الآخرون يجب أنْ يقبلوا ديانتنا... لكنْ؛ شرعي ألاَّ نقبل أديان الآخرين، نحنُ عند الآخرين مُواطنون بشكل كامل، لكنَّنا - نحنُ فقط - نُواطن إخواننا الوحيدين في الجنس المُشتَّتين. . . . يجعل جُوزف من نفسه ناقلاً "وَهْمَ فُوبيا الآخر" الأكثر تقليديَّاً: "نحنُ لا نستطيع التّجارة ولا مُعاشرة الأجانب التي تنتج عنها. فهُو يمتدح أفلاطون الذي يتَّبع مثال مُشرِّعنا (مُوسى). . . بالإجراءات التي اتَّخذها ليمنع الأجانب من الاختلاط - كيفيَّاً - بالأُمَّة، وحتَّى يُحافظ على نقاء الدّولة المُؤلَّفة من مُواطنين مُخلصين للشّرائع. كما أنَّ جُوزف يُؤيِّد "ماتياس" هذا الفاضل، هذه الشّخصيَّة الكبيرة التي طهَّرت الدّولة اليهُوديَّة: بما أنَّه طرد الأجانب، فحكم برضا مُواطنيه، وبدُون أدنى شكٍّ؛ فهُو يُؤيِّد هؤلاء اليهُود الذين يُفضِّلون إعطاء رهائن ودفع جزية "لأنطونيوخوس سوتر" عن أنْ يكون عندهم فصيلة أجنبيَّة. في الواقع؛ كانوا لا يُريدون - أبداً - الاختلاط بالأُمم الأجنبيَّة وسط الاحتفالات المُطهِّرة للسُّكَّان. وقد يحدث - أيضاً - أنْ يعيش يهُود بين أجانب، فيجد جُوزف أنَّه طبيعي أنْ يكونوا مُنعزلين مُنفصلين؛ لأنَّه - بدُون شكٍّ - الإنسان يُحبُّ مثيله (الشّبيه يُحبُّ الشّبيه). فيهُود الإسكندريَّة الذين نُسب إليهم حارة بأكملها خاصَّة بهم، حتَّى يتمكَّنوا - كما يقول جُوزف - من المُحافظة على عاداتهم بشدَّة أكثر، وذلك بالتّقليل من اختلاطهم بالأجنبي. وقد رأى تيتوس أنَّ الحياة وسط العادات الأجنبيَّة تكون مُزعجة، فأرسلهم راضين إلى كوفنا. فبالنّسبة لجُوزف؛ أحد أقسى العُقُوبات وأكثرها ظُلماً هُو أنْ تتحوَّل إلى عُبُوديَّة الأجانب الذين يختلف أُسلُوب حياتهم عن أُسلُوبنا تمام الاختلاف.

يبقى جُوزف يهُوديَّاً تقليديَّاً مُعادياً للاختلاط، ومُعادياً - أيضاً - بنفس المقدار للحُرِّيَّة الدِّينيَّة: بعقاب عادل وأبيد الملك أومري وكُلُّ جنسه بسبب كُفْرهم.

فجُوزف ينتقد الحُرِّيَّة الدِّينيَّة عند اليُونانيِّين ، وبشكل خاصٍّ؛ السّماح للشُّعراء بتقديم الآلهة التي يُريدونها ، وإلى الخُطباء حقٌّ ذكر أحد الآلهة الأجانب إذا كان مُفيداً - عند اليُونانيِّين - يُتابع جُوزف - شاخت بعض الآلهة ، وآخرون أُدخلوا مُجدَّداً يسجد لهم . فالنّاس يحتفظون بمُعتقدهم بالله بشكل أزلي ، والعبادة التي يُقدِّمونها له . إذاً ؛ إنَّه من الخطأ الفادح إعطاء الحُرِّيَّة الدِّينيَّة مصدر ابتذال الآلهة اليُونانيَّة .

لذلك ؛ وعلى عكس ما يزعم أبولونيوس مولون لا يُوجد جريمة في بُغْض البشر والتّعصُّب الدِّيني من أجل حفظ الدّولة في طهارتها ، والمُؤلَّفة من مُواطنين مُخلصين مُؤمنين بالشّرائع " : فليمتنع اليهُود عن استقبال الأشخاص الذين خضعوا - سابقاً - لمُعتقدات دينيَّة أُخرى ، والذين ليس لديهم مُجتمع ، والذين يُفضِّلون نمطاً آخر للحياة ، إلاَّ أنَّـهم يستطيعون استقبال الذين يُريدون مُشاركتهم عاداتهم ، وذلك بكُلِّ سُرُور .

إلى هذا الحَدِّ يُمكن لنا أنْ نعتقد أنَّ التّعصُّب الدِّيني الذي يجده جُوزف شرعيّاً في بلد يهُودي ، لهُو كذلك أيضاً في بلد الكُفَّار ، فإذا كُنَّا لا نستطيع أنْ نبقى يُونانيِّين في إسرائيل فلن نستطيع أنْ نبقى يهُوداً بين اليُونانيِّين ، ويُمكن أنْ نعتقد أنَّ كُره البشر هُو مُبرَّر عندما يأتي من اليهُود ، وسيكون مُبرَّراً عندما يأتي من غير اليهُود : فإذا كان بإمكان اليهُود أنْ ينبذوا الذين لا يعيشون مثلهم ؛ أيْ حسب أوامر الشّريعة ، فيجب على جُوزف أنْ يقبل - أيضاً - أنْ يُنبذ اليهُود بدورهم إذا هُم لم يرسموا وينقلوا أُسلُوب حياتهم من أُسلُوب حياة الذين يعيشون في وسطهم . سوف نرى أنَّ الأمر لم يكن هكذا . في هذه النُّقطة جُوزف يُناقض نفسه تناقضات واضحة ، رُبَّما لأنَّ أفكار جُوزف التي أوردناها سُجِّلت في السّجال النّظري (لمُؤلَّفه ضدَّ أبيون والدّفاع عن اليهُوديَّة الباغضة للبشر) ؛ حيثُ - أيضاً - ترتبط أزمنة تاريخيَّة سابقة لخراب المعبد والدّولة اليهُوديَّة . فهي تُمثِّل قناعات عميقة عند جُوزف . لكنَّ هذه القناعات لم تعد مقبولة بعد عام 70 . ونكتشف - أيضاً - في نُصُوصه أنَّه يُعظِّم التّسامح الدِّيني لمصلحة اليهُود فقط ولمُواطنة لا ترتبط بالدِّين . وقد فهم جُوزف أنَّ بين كُره الأجانب المُرتبط باختلاف نمط المعيشة وكُره قتل البشر لا يُوجد إلاَّ خُطوة واحدة يُمكن لغير اليهُود أنْ يجتازوها بدورهم .

كُره الآخرين يبدو أنَّه هاجس لجُوزف، فهي تُؤرِّقه بقدر ما يكـون التّصـرُّف فيـه " فُوبيـا الآخر"، ويكون - أحياناً - قاتلاً عنـد اليـهُود، وحتَّـى مُبيـداً، وذلـك خـلال مسـار تاريخـهم، فتدلّه على آليَّة ونتائج هذا الكُره - الذي يُؤيِّده - كما رأينا - عندما يكون مُوجَّهاً إلى الآخر. إنَّه رفض أُسلُوب حياة الآخر ديانته، وأخيراً؛ دمه. هل كان الأمـر غير ذلـك بالنّسبة للشُّعُوب الكنعانيَّة؟ كما أنَّ جُوزف يقلق شرعيّاً: " أستحلف اليُونانيِّيْن والبربر ألاَّ يكرهوننا لأنَّنا نعيـش بشكل مُختلف عنهم، وإذا صدَّقنا جُـوزف فـإنَّ جميـع الأُمـم تكـره اليـهُود، ومُمكـن لنـا أنْ نستغرب من البُغْض الذي ما فتىء البشر يُكنُّونه لنا. . . " إنَّ الأُمم الأجنبيَّة تُكـنُّ لأُمَّتنـا بُغْضـاً بدُون سبب".

من بين هذه الأُمم نذكـر الأُمـم المُجـاورة، السّـامريِّيْن السُّـوريِّيْن الذيـن عندهـم تجاهنـا بُغْض فطري، المصريِّيْن، اليُونانيِّيْن، وحتَّى الرُّومان أنفسهم (لا يُظهر الرُّومان أيَّ شـفقة مـن جرَّاء كُرههم للأُمَّة اليهُوديَّة. . . يكرهون اليهُود في إنطاكية، في الإسكندريَّة، في قيصريَّة، في سيتوبوبوليس، أو في دمشق.

لماذا هذا البُغْض تجاه اليهُود؟ يبدو أنَّ جُوزف يعرف الجواب أوَّلاً: " الآخرون يُحاربوننا بدُون سبب". " لأنَّ عادات وأساليب حياة اليهُود مُختلفة - كُلِّيّاً - عن باقي الشُّعُوب، لذلك؛ يُريدون إبادة الأُمَّة اليهُوديَّة، ويُحاول جُوزف تجنُّب هذا البُغْض: " بما أنَّني أعـرف أنَّه يجب عليَّ أنْ أروي كُلَّ هذه البراهين عن [عطف الأباطرة الرُّومان تجاه اليهُود] لكي أُثبت لهم أنَّـه ليس - الآن - قد سمحت لنا السُّلطات العُليا بمُمارسـة عـادات آبائنـا وخدمـة اللـه كمـا يـأمر بـه ديننا. وهذا ما لا يُمكنني تكراره كثيراً، حتَّى أجعل الأُمم الأجنبيَّة تفقـد البُغْـض الـذي تُكنُّـه لنا بدُون مُبرِّر".

يُحاول جُوزف - إذاً - تجنُّب هذا البُغْض عندما يلجـأ إلـى السُّـلطة، فـهُو يُـهنِّئ الأبـاطرة الرُّومان على ما هُو ينهى عن فعله في " ضدَّ أبيون": " إعطاء الحُرِّيَّة الدِّينيَّـة. وهُنـا ننتقـل مـن النّظريَّة إلى التّطبيق. فلاحظ جُوزف أنَّه لو أتى التّسامح الدِّيني من اليهُود فإنَّ هذا خطر على اليهُوديَّة. فالتّسامح الآتي من الكُفَّار هُو حظٌّ ميؤوس منـه. فـهُو - مُنـذُ ذلـك الوقـت - سـوف يستخدم إمكانيَّات هذا التّسامح.

" الشّيء الوحيد الذي نطلبه هُو ألاَّ ننزعج في مُمارسة ديانتنا" ، هكـذا قـال يـهُود أيونيـا بحسب جُوزف . وجُوزف المُتواضـع يعرف ـ أيضـاً ـ كيـف يكـون خبيثـاً : " شـرائعنا يُمكـن أنْ تكون مُفيدة ، فتُجبرهم بأنْ يكون لهم عطف تجاهنا ، بما أنَّها مُطابقة للعدل تماماً ، وأنَّنا نُطبِّقها ـ بحذافيرها ـ دُون أيِّ مُخالفة .

ولكي لا ينزعج اليهُود أثناء مُمارسة ديانتهم يُحـرِّك جُـوزف الامتيـازات الممنوحـة لـهم من قبَل الأباطرة . فيعـود إلـى يُوليُوس قيصـر الـذي تـرك للـيهُود كُـلَّ الحُرِّيَّة للعيـش حسـب شرائعهم ، وأعطاهم امتيازات منها (لقـب وال رُومـاني ، والحبْر العظيـم الممنـوح لـهيكران ، الإعفاءات من الضّرائب ، تقويـة أُورشـليم ، منـع إقامـة فصـائل بـين الـيهُـود . ويعـود ـ أيضـاً ـ لكلود الذي جـدَّد الامتيـازات لـيهُود الإسـكندريَّة ولكُـلِّ يـهُود الإمبراطُوريَّـة : المُلُـوك أغريبـا وهيرُود هُم أصدقاؤنا الخاصُّون جداً على قول الإمـبراطُور : لقـد ترجّونـي أنْ نسـمح للـيهُود المُنتشرين في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة أنْ يعيشوا حسب شرائعهم كمـا سـمحنا للّذيـن يعيشـون في الإسكندريَّة ، لقد منحناهم هذا الحقَّ بطيبة خاطر . . . وبذلك ؛ لا نُريـد ـ حتَّـى فـي المُدُن اليُونانيَّة ـ أنْ يمنعوهم من التّمتُّع بذلك . . . لكنَّ إرادتنا هي أنْ يتمتَّعوا في المُستقبل ، على كُلِّ امتـداد الإمبراطُوريَّـة ، لنُجبرهم ـ بـهذا البُرهـان عـن طيبتنـا ـ بـألاَّ يحتقـروا ديانـة الشُّـعُوب الأُخرى ، بل ليكتفوا بالعيش ـ بحُرِّيَّة ـ في ديانتهم .

وبعد ذلك أكَّد كلود في رسالة مُوجَّهة إلى شعب أُورشليم : " أعتقد أنَّه عدل أنْ يعيـش كُلٌّ في ديانة بلده" .

ولا يُفوِّت جُوزف فُرصة لمدح نُبل الأباطرة (هـل هُـو إطراء ليحثَّـهم علـى البقـاء علـى مواقفـهم؟) مثـل لطافـة الحُكْـم وكـبر النَّفْـس والتّـهاود الرُّومــاني ، فـهُم الذيـن لا يُجـبرون عناصرهم على مُخالفة قوانينهم الوراثيَّـة . ويُعلمنـا أنَّ القيصـر قـد وقـف إلـى جـانب الـيهُود الذين أتوا يشتكون من " الباريانيِّين " الذيـن منعوهـم مـن أنْ " يعيشـوا حسـب شـرائعهم ، وأنْ يقوموا بالأضاحي" . ويتحدَّث ـ مُطوَّلاً وبإسهاب ـ عن عظة مَدَحَ فيـها تيتـوس طيبـة الرُّومـان الذين يحترمون شرائع اليهُود . ويخبر ـ مُطوَّلاً ـ عن مدائح اليهُود أيونيا التّملقيَّة : " هل هُنـاك ألطف من هذا السّلام الذي ننعم به في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة في هذه الحُرِّيَّة بـالعيش حسـب

قوانين بلدنا؟ هل هُناك مدينة أو شعب لا يعتبر أنَّه في سعادة عظيمة بالعيش تحت حُكْم مثل حُكْم هذه الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة القويَّة، ويحرم نفسه منها إلاَّ إذا فقد إحساسه؟

"هي شواهد عن العطف الذي كان يُكنُّه الأباطرة الرُّومان لليهُود".

أمَّا جُوزف؛ فهُو يعرف كيف يكون مُطالباً، فهُو يطلب ـ بالإضافة إلى هذه الحُرِّيَّة الدِّينيَّة التي لا يمنحها هُو في بلد يهُودي ـ "حقَّ المُواطنة العلمانيَّة"، وهُو أمر غير وارد في المنطق اليهُودي الذي يربط ـ بشكل غير قابل للردِّ ـ المُواطنة والنَّسَبَ والدِّين.

بالنِّسبة لجُوزف؛ يبدو عنده منطقَيْن مُختلفَيْن: منطق للكُفَّار الذين يجب أنْ يسمحوا بديانة الآخرين، ويجعلوا منهم ـ أيضاً ـ مُواطنين كاملين، ومنطق آخر لليهُود الذين لا يستطيعون لا أنْ يسمحوا بديانات أُخرى، ولا بإعطاء المُواطنة لغير اليهُود، بما أنَّ هذه المُواطنة تفترض اهتداءً مُسبقاً.

أراد جُوزف في بلاد الكُفَّار الفصلَ بين المُواطنة والدِّين، "يُمكن أنْ نكون مُواطنين في مدينة ما، دُون أنْ نعبد آلهة البلد".

فمثلاً؛ في "أبيون"؛ حيثُ يعارض أنْ يكون اليهُود مُواطنين في الإسكندريَّة وهُم لا يُكفِّرون الآلهة المصريَّة، فيُجيب جُوزف أنَّ اليهُود في الإسكندريَّة ـ على عكس المصريِّيْن ـ قد حصلوا من أسياد الزّمان على حقِّ المُواطنة وامتيازات أُخرى، وحصل الشّيء نفسه ليهُود إنطاكية؛ حيثُ حصلوا على حقِّ المَدَنيَّة مُساواة مع اليُونان. والذين في الإسكندريَّة قد حصلوا من خُلفاء الإسكندر على حقِّ تسميتهم "مقدونيِّيْن"، (جُوزف لا يُسمِّي يهُودي مقدوني، فهُو يذكر ذلك في أبيون الذي يتَّهم يهُود الإسكندريَّة أنَّهم قد أتوا من سُوريًا: عند المقدونيِّيْن حصل اليهُود على نفس الاعتبار لأنفسهم، وحتَّى يومنا هذا تحمل عشيرتهم اسم "مقدونيِّيْن"، لكنَّ يهُود الإسكندريَّة لهم الحقُّ بأنْ يُسمَّوا إسكندرانيِّيْن. والنّاس من جنسنا الذين يسكنون إنطاكية يُسمّون أنطاكيِّيْن، لقد أعطاهم سلوقس ـ مُؤسِّس المدينة ـ حقَّ المُواطنة.

إنَّ الامتيازات المُعطاة لليهُود مُمكن أنْ تُسبِّب توتُّرات مع الكُفَّار، وهي امتيازات مُعطاة إمَّا من الإمبراطُور أو من الله...

هذه الامتيازات هي زمنيَّة، لكنْ؛ أنْ تُسبِّب مشاكل لليهُود، هذا مُحتمل. فاليُونانيُّون في إيونا لم يفهَمُوا لماذا يرفض اليهُود أنْ يظهروا في أيَّام الأعياد أمام القُضاة، أو أنْ يذهبوا إلى الحرب، أو أنْ يُساهموا في النّفقات العامَّة. بالنّسبة لهؤلاء اليُونانيِّين؛ اليهُود هُم "أجانب"، وليسوا مُواطنين، ومن هُنا تحدث الاضطهادات والتّذمُّرات. لكنَّ هذه الامتيازات هي - أيضاً - رُوحيَّة، ولم يهبها لهم بعض الأباطرة، إنَّما الله، الذي هُو نفسه يهُودي.

كيف نجعل الآخرين يقبلون الدّور النّوعي والاختيار الإسرائيلي؟ كيف نأخذ حقَّ المَدَنيَّة بمُساواة مع اليُونانيِّين إذا كان عندنا الغطرسة لنُؤكِّد فيها التّفوُّق الرُّوحي الذي جعل من إسرائيل نُور الأُمم؟ لقد رأى جُوزف هذا التّناقض جيِّداً: لقد اتَّخذ موقفاً، وهُو حجب المكانة الخاصَّة لإسرائيل في إرادة الله وعطفه.

ويُلاحظ نُوديه أنَّ جُوزف يجهد ليُبرز الطّابع الإلهي والضّروري والعقلاني للشّريعة المُوسويَّة في مضمون التّفوُّق الرُّوماني، وهُو يُخفي لذلك - إلى أقصى حَدٍّ - مفاهيم العهد والوعد والاختيار، وبشكل عامٍّ؛ التّاريخ الخاصّ للخلاص.[1]

في الواقع؛ جُوزف في AJ 1 . 23 يقول (" مُشرِّعنا... وقد أظهر أنَّ الله يمتلك الفضيلة، قدَّر أنَّ الإنسان يجب عليه أنْ يُجاهد حتَّى يُشارك بها "...) وهُو يتجنَّب القول إنَّ القوانين هي نوعيَّة لشعب؛ مثل فيلُون وحسب نُوديه[2]. وفي AJ 1 . 154 حذف جُوزف الوعد في (سفْر التّكوين 12 . 13) (سوف أجعلك أُمَّة كبيرة، سوف أُباركك وأجعل اسمك كبيراً، سوف تُصبح بركة. سوف أُبارك مَنْ يُباركك، والذي يُؤذيك سوف ألعنه. بك سوف تُبارك كُلُّ أُمم الأرض). وفي AJI183 هُو يحذف الإمكانيَّة المذكورة في سفْر التّكوين 15 . 2 - 4 إمكانيَّة مُستبعدة من الله هُو أنَّ أيَّ واحد لا يكون من سُلالة إبراهيم يُمكنه أنْ يرث. وفي AJI 272 يحذف جُوزف البُعْد القومي لبركة إسحق المُوجُودة في سفْر التّكوين (27 . 26 - 29): (ولتخدمك شعُوب، ولتنحني أمامك قبائل، ملعونٌ يكون مَنْ يلعنك، ومُباركٌ مَنْ

---

(1) نُوديه.

(2) نُوديه. لقد أكَّد فيلُون ما لم يُؤكِّده جُوزف أبداً أنَّ الشّعب اليهُودي بالنّسبة للأرض المسكونة كُلّها هُو بمثابة الكاهن للمدينة ([illegible]) في تبشير يهُودي؟ قصَّة غلطة - باريس، آداب جميلة 1992.

يُباركك . .) وفي 283 ـ 180 AJI يحذف جُوزف جُزءاً من الوعد في سفْر التّكوين 28 . 13 ـ 15(بكَ تتبارك كُلُّ عائلات الأرض، بكَ وبذُرِّيَّتك. وها أنذا الله، إنَّني معك. سوف أحفظك في كُلِّ مكان تذهب إليه، وأُعيدك إلى هذه الأرض. . .) وفي 94 . 111 AJ حذف جُوزف الشّرائع وذبيحة العهد (خُرُوج 21 ـ 24) التي تُقيم علاقة خاصَّة بين يَهْوَه والشّعب المُختار (إذا سمعتَ حقّاً صوتي، وإذا فعلتَ كُلَّ ما أقوله لكَ، سوف أكون عدوَّ أعدائك ومُنافس مُنافسيك (تكوين 23 . 22) . هكذا يُحاول جُوزف أنْ يُقدِّم لغير اليهُود ديناً يهُودياً مُجرَّداً من خصائصه القوميَّة والإقصائيَّة وأبعادها القُصوى والتي هي غير مقبولة . ويُحاول أنْ يُسفِّه من ديانته بعَقْلَنَة بعض مظاهرها، وهكذا في AJ XV.B أصبح الآسنيُّون مُنصهرين مع الفيثاغورثيِّيْن، وفي AUT 12 أبدى الفرِّيسيُّون تشابُهاً مع الرّواقيِّيْن كما يُسمِّيهم اليُونانيُّون، وفي AJI 19 يُشَرْعِنُ مُوسى بعد أنْ تأمَّل "طبيعة الله". وفي AJ II 94 يُقدِّم جُوزف يُوسُف بن يعقُوب وكأنَّه فيلسوف هيلنيستي عالَمي أو حكيم زينوني رواقي، وقد كَتَبَ نُوديه NODET ذلك. وفي AJ 111.25 يُعَقْلِنُ جُوزف أُعجوبة طُيُور السّماني في سفْر الخُرُوج 16 . 13 (وهي نوع من طُيُور تعيش بكثرة في الخليج الفارسي). وفي EX 11.31 يُعَقْلِنُ أُعجوبة المَنِّ في سفْر الخُرُوج 16 . 16 (واليوم أيضاً كُلُّ هذه المنطقة لا تزال مُغطّاة بالنّدى مثل زمان). وفي AJ 111.84، "سوف يأتي الله ليُملي قواعد الحياة السّعيدة والنّظام السّياسي الجيِّد". وفي AJ 111.180 يُؤكِّد جُوزف أنَّ خيمة الوعد تُعيد إنتاج العالم بإخلاص (تفسير للتّوراة مع مُتهلين ـ حسب تعليق نُوديه NODET[1]. وفي GJ IV 484 هُدمت صودوم "بالصّاعقة"، ولتجنُّب البُغْض الذي يُكنُّه الآخرون لليهُود ولتبرير المُساواة في حقِّ المَدَنيَّة، يبدو أنَّ جُوزف جاهز لإخفاء وسَتْر الخُصُوصيَّات اليهُوديَّة الصّادمة جداً لليُونانيِّيْن، لكنْ؛ دُون التّنكُّر لها على أيِّ حال. وقد قام جُوزف بمجهُود حاسم جداً إنْ لم يكن الأكثر حسماً: إيقاف العمل لعدد من القوانين الرُّومانيَّة[2]. فحذف ـ بشكل نهائي ـ

---

(1) نُوديه.

(2) ويل وأوريو. إنَّ الكلمات التي أشرنا إليها تُوفِّر إحدى المفاتيح لفهم العداء الرُّوماني التّقليدي تجاه اليهُوديَّة: اليهُود والمُتيهُودون اضطرُّوا إلى "احتقار القوانين الرُّومانيَّة" وآلهتها، إذا أضفنا ذلك مع تاسبت وبلين، لكي لا يعبدوا إلاَّ إلههم الواحد، ولكي لا يُطيعوا إلاَّ القانون الذي يُمليه هُو (قانون المُنهزمين) حسب "سينيك".

ويل وأوريو تبشير يهُودي ـ قصَّة غلطة، باريس، الآداب الجميلة 1992 . .

يعيش في بلد يخضع لقوانين مُختلفة عن التي عند شعبه يجب عليه احترامها. وجب - أيضاً - تكييف ومُطابقة الشّرع اليهُودي مع قانون الدّولة إذا كان ذلك مُمكناً، دُون انتهاك أيٍّ مبدأ أساسي من مبادئ التّوراة. وهذه القاعدة مُعبَّر عنها - بوُضُوح - في النّصِّ التّالي: "أنصحكَ أنْ تُطيع أوامر الملك، وذلك بسبب القَسَم المُؤدّى للـه" الواحد المُقدَّس (ليتبارك اسمه! قال لإسرائيل: "أستحلفكَ، إذْ فرضت عليك الدّولة أوامر، لا تَثُرْ ضدَّها، ولا بشكل من الأشكال، إنَّما أطع أوامر الملك. إلاَّ إذا حصل قرار، وأُلغيتُ التّوراة وتعاليمها، عندها؛ لا تُطعْ. . ."[1]

هذا المنطق التّلمُودي هُو منطق جُوزف. هي مُسجَّلة في عمليَّة إنقاذ قومي أعطى ثماره، يفترض اندماجاً دُون انصهار، ومُواطنة لا تُلغي اليهُوديَّة.

يتبنَّى جُوزف وُجهة النَّظَر السُّلاليَّة للعهد القديم. أنْ يكون يهُودياً هي - في البدء - عمليَّة نَسَب، جنس، شعب، أُمَّة: أُمَّة يُمكنها أنْ تنفتح لإنسان مثل عزت يُوافق على التّجنيس المُنصهر وإلغاء تامٍّ لشخصيَّته الأُخرى.

إنَّما جُوزف يعرف جيِّداً المسألة المطروحة في طبع اليهُوديَّة ذات النّزعة العرْقيَّة وفُوبيا الآخر. فهُو يُخفي الطّابع القومي بإخفائه مبادئ العهد والاختيار والتّميز، إلى الطّبيعة الانتقائيَّة لهذا العهد مع الله، كذلك الأقطاب الصّراعيَّة لهذا التّميُّز.

من جهة أُخرى؛ بتأييده للإبادة الجماعيَّة وشرعيَّتها بأوامر إلهيَّة وتصنيف الشُّعُوب على درجات، يُبرهن لنا جُوزف أنَّه لا يُنكر أيَّ شيء من مثاليَّات العهد القديم، ويُبرهن لنا - أيضاً - أنَّ فُوبيا الآخر - المُرتبطة بالعهد القديم بأبعاد أخلاقيَّة - قادرة - عبر القُرُون - أنْ تُحيِّد الضّمائر، وتجعلها غير حسَّاسة لكُلِّ إضرار مُوجَّه للاختلاف.

جُوزف لا يُعيد النَّظَر في المسافة التي تفصل يهُوداً عن غير يهُود، يبدو أنَّه يُفكِّر أنَّ هذه المسافة لا يُمكن أنْ تُصبح مادِّيَّة مع الزّمن. فيجب أنْ نُعطيها معنى بشكل آخر: بإطاعة الوصايا والإخلاص للشّرائع المسموحة من قبَل غير اليهُود في إطار مُواطنة دينيَّة. هذا المفهُوم هُو حديث، فيه قليل من التّقدير لقيَم غير اليهُودي، واهتمام قليل في خُلُود هُويَّته:

---

(1) آ. كُوهين، التّلمُود، بالريسترة - بايو 1986.

الفُصُول 21 إلى 23 من سفْر الخُرُوج التي تُعالج تلك القوانين: قوانين مُتعلِّقة بـالرِّقّ، القتـل، حقّ اللُّجوء، الضّربات والجُرُوح، الأضرار المُسبِّبة للحيوانـات الأهليَّـة، السّرقة، التّخريب المُفتَعَل، الحرائق، المُستودعات المسروقة أو المُخرَّبة. حذف كذلك ما يتعلَّق بـالعُقُود، والـذي اقترح أنَّه سيطرحها في فُصُول لاحقة لم تُكتب أبداً.

وجعل قوانين أُخرى فُرُوضاً أخلاقيَّة بحتة، وإذا عدنـا إلـى نُوديـه، فجُـوزف هُـو علـى خلاف مع التّوراة والتُّراث الحاخامي الذي يقول بتأدية الدُّيون عند السّنة السّبتيَّة: فـهُو قـارب بينها وبين السّنة اليوبيليَّة التي لم تَعُدْ سائدة. وهُو يتجنَّب ذكر القوانين في حالة المُخالفـة عـدا (المُخالفات الجنسيَّة)، فهُو - بذلـك - يُحـوِّل الإكـراه القضـائي المُرتبـط بسُـلطة قضائيَّـة مـا إلـى فَرْضٍ أخلاقي دُون مُعاقبة خارجيَّة.

واستنتج "نُوديـه" NODET أنَّ جُـوزف يـودُّ ألاَّ يتداخـل أو يتعـارض مـع التّشـريع الرُّوماني بما يخصُّ القوانين الشّخصيَّة والمحاكم. فهُو يعتقـد أنَّ الشّـريعة غيـر مُرتبطـة بـالوقت الحاضر، هي موضوع دراسة صرفة فقط[1]. غير أنَّه هل باسـتطاعتنا أنْ نتسـاءل إذا أصبحـت الشّريعة "ضرورة أخلاقيَّة صرفة" دُون قانون خارجي، لاعتقاده أنَّها غيـر حاليَّـة وتكـون دُون نتائج ولا طابع قسري؟ بالتّأكيد لا، كُلُّ يهُوديَّة - حتَّى اليوم - برهنت على العكس من ذلك.

في رأينا؛ إنَّ جُوزف يُفكِّـر عكـس الشّـرائع اليهُوديَّة كَنَوَاحٍ أخلاقيَّـة يُمكـن أنْ تكـون قَسْـريَّة مثـل القوانـين المُطبَّقـة فـي المحـاكم، فـهُو واثـق مـن إيمـان اليـهُود الـذي لا مثيـل لـه أو بإخلاصهم للشّرائع.

أليست المُواطنيَّة تُساوي هذا الثّمن؟ وإذا وجب على اليهُود واستطاعوا ألاَّ يكـون لـهم نَفْس آليَّـة اليُونـان، هـل بإمكانـهم - كمُواطنـين - عـدم الانحنـاء أمـام نَفْس القوانـين ونَفْـس المحاكم؟ لقد أعطى جُوزف الجواب (الإفتاء) بإلغائه كُلَّ قانون خارجي.

هذا الإفتاء (الجواب) قد أُعطي - أيضاً - من حُكمـاء يبنـة مثـل كُوهـين: المبدأ الأساسـي لسُلُوك اليهُودي تجاه الدّولة هُو منقوش في هذه العبـارة: "قـانون البلـد هُـو القـانون" يـهُودي

---

(1) نُوديه.

لحفظ هويَّة اليهُود، لـن يسمح جُوزف في إسرائيل بمثل هذه المُواطنة (فهُو يرفض المُواطنيَّة الإسرائيليَّة للسّامريِّين) وهذا يُؤسِّس موقفاً جديداً لليهُود أمام الآخرين، موقفاً يُمليه نصٌّ تاريخي جديد.

هذا المفهوم يُظهر تعلُّق جُوزف بالشّريعة التي يجب أنْ تُنظِّم حياة الطّائفة، لأنَّ الطّائفة بالنّسبة لليهُود المحرومين من وطن، أصبحت البنية الاجتماعيَّة الأساسيَّة والتي يجب الحفاظ عليها مهما كَلَّف الثّمن، ويجب الإخلاص لها. هذه الطّائفة المُلقَّنة الشّرائع الدِّينيَّة والأسرار الإلهيَّة هي طائفة محميَّة من الفاسد، هي - أيضاً - طائفة "دم" شعب بانتظار أرضه وإعادة بناء معبده. . فهي في - الوقت نفسه - طائفة رُوحيَّة وطائفة دنيويَّة. والطّائفة اليهُوديَّة قد يكون عندها ميل للانطواء على ذاتها، وترك كُلّ ما هُو خارجي عنها وغريب، مدينة الكافر مثلاً. وفي يبنة قنَّن الحُكماء - بعناية - أُسلُوب الأضاحي للمعبد الذي لم يَعُدْ موجُوداً، وتركوا للدّولة الكافرة كُلَّ الإمكانيَّة لفرض قانون.

هذه إحدى مزايا فلافيُوس جُوزف، إنَّه دافع - أحياناً - من خلال تثبيته لحقٍّ المَدَنيَّة عن مُشاركة يهُوديَّة في الحياة العامَّة، وأخيراً فكرة الانفتاح.

لكنَّ هذا الانفتاح يبقى غير كامل: إنَّ طائفة المُختارين هي كتيمة بشكلٍ كافٍ لحفظ داخليَّتها، وجُوزف لا يُمانع - كما سوف نرى - الحواجز المُتعدِّدة التي تحفظ وحدتها.

الفصل السادس:

فلافيوس جوزف والقانون

يُلاحظ (nodet)[1] نُوديه أنَّ جُوزف يُورد القوانين اليهُوديَّة في نصيّن مُختلفيْن: نصٌّ غير مُرتبط بوُجُود دولة يهُوديَّة مُستقلَّة أو تابعة (صحراء سيناء): عندها يحذف جُوزف كثيراً من القوانين، أو يُوردها بطريقة غير كاملة ومُحرَّفة. فالنّصُّ المُرتبط بوُجُود دولة "ودُستُور سياسي" لا يتوانى جُوزف عن إيراد القوانين المَدَنيَّة والجزائيَّة، إنَّما عندما كَتَبَ جُوزف لم يكن هُناك دولة يهُوديَّة. ويُمكننا أنْ نفترض - مع نُوديه - أنَّ القوانين السّارية في إطار دُستُور سياسي ذاتي مُستقلٍّ أصبحت - الآن - "غير زمنيَّة" بالنّسبة لجُوزف.

يجب أنْ نُميِّز بين القوانين المَدَنيَّة والجزائيَّة التي لا يفصل فيها جُوزف في كُتُبه والقوانين الدِّينيَّة التي يُذكِّر - دوماً - بصلاحيَّتها.

وهكذا؛ فالتّشريع المُتعلِّق بالسّرقة، الشّهادة، القتل، الدِّين، اللَّكمات والجُرُوح، الشّرطة... لم تَعُدْ تُذكر - أبداً - إلاَّ في فصلَيْن.

بينما التّشريع الدِّيني المُتعلِّق بالنّواحي الجنسيَّة، والزّواج، وقوانين الطّهارة، يظهر على مدى كُلِّ عمله. يجب - إذاً - التّنويه إلى فَرَضيَّة "نُوديه"، وتنظر إلى الإهمال النّسبي للقوانين المَدَنيَّة والجزائيَّة عنده كأنَّها تنازل للآخر، تنازل يتوقَّف؛ حيثُ تبدأ القوانين الدِّينيَّة، يُمكننا أنْ نُحلِّل الاستراتيجيَّة المُدمجة لجُوزف من وُجهة نَظَر المبدأ الذي ذكرناه أعلاه: مبدأ "دين المَلَكُوت هُو الدِّين" بالعبريَّة، يعني قانون المملكة هُو القانون، وحسب هذا المبدأ؛ فإنَّ قوانين الدّولة غير اليهُوديَّة المُتعلِّقة بالمسائل الماليَّة، النّظام العقاري، وقضايا الضّرائب، والعملة والملكيَّة، والنّظام العامّ، يجب أنْ يُعترف فيها كقوانين سارية، كذلك قانون المملكة هُو

---

(1) نُوديه. نصّ ترجمة ومُلاحظات للعُصُور القديمة اليهُوديَّة لفلافيوس جُوزف، باريس سيرف 1992.

القانون؛ حيثُ تبدأ الحلقة: لم يَعُدْ يُطبَّق عندما يتناقض مع التّوراة. وكقاعدة عامَّة؛ لا يدخل في العالم الخاصّ، ويجب ألاَّ يحكم العلاقات بين اليهُود. ويُفضّل الموت على احترام قانون الكُفَّار إذا أمرهم بالوَثَنِيَّة، أو بالقتل، أو بانتهاك الممنوعات الجنسيَّة.

هذا المبدأ الأساسي أُعلن - بوُضُوح - في القرن الثّاني والثّالث من قِبَل "مار صَمُوئيل" رئيس أكاديميَّة "نهارديا (في بابل)، وهُو أحد حُكماء التّلمُود والأهمّ في عصره. وهُو يستند على التّمييز بين قانون مَدَني وجزائي (دين)، وقانون ديني (هورع): إذا كان الأمر مُتعلّقاً بغرامات أو ضرائب فأنتَ نبوخذ نصَّر نت ملكنا، أمَّا إذا كان الأمر مُتعلّقاً بإجبارنا على الوَثَنِيَّة؛ فنبوخذ نصَّر يُساوي كلباً.[1]

وإذا أردنا ألاَّ نُحلّل جُوزف مع خيانته المزعومة يجب أنْ نقبل أنَّ مبدأ (دين المَلكُوت هُو الدِّين) أو (قانون المملكة هُو القانون) الذي كان له أهمِّيَّة في الحياة اليهُوديَّة في القُرُون الوُسْطى هُو حاضر وموُجُود في مُؤلَّفاته. فالتّمييز بين قوانين يهُوديَّة يُلغيها جُوزف، أو يجعلها لا زمنيَّة؛ أيْ يُوقف بها العمل والقوانين التي يُؤكّد جُوزف - مراراً وعلى طُول مُؤلَّفاته - أنَّه قد أخذ بحسابه هذا المبدأ، ويُدافع جُوزف عن حقّ اليهُود بتكريم أُلُوهيّتهم الخاصَّة في إطار المُواطنة، وحقّ اليهُود باتّباع شرائعهم الدِّينيَّة الخاصَّة، وهُم في - الوقت نفسه - مُحتفظون باحترامهم لمُؤسَّسات الإمبراطُوريَّة وسُلطتها وقوانينها. اليهُود لا يُثيرون عصياناً، ويُشرّفون ويحترمون القُوَّة الرُّومانيَّة والشّعب الرُّوماني والأباطرة (دُون الانتقاص؛ لا من الدِّين، ولا من الشّريعة) وهُم يقومون بالأضاحي لهم باستمرار:

قانون الإمبراطُوريَّة هُو القانون!

لكنَّ اليهُود يفعلون أكثر من تشريف وتكريم القُدرة الرُّومانيَّة: هُم يُضحُّون - أيضاً - لأباطرتها. ويُذكّر بذلك جُوزف ويُسجّله في "دينا دي - ملكوتا - دينا"، وفي منطقه في الدّمج.

وقد أوصى إرْمِيَا بأنْ يُصلُّوا للبلد الذي يُقيمون فيه: "اعملوا لازدهار البلد الذي ترحلون إليه، وصلُّوا ليَهْوَه من أجله، لأنَّ ازدهاركم ورفاهيَّتكم تتعلَّق بازدهاره ورفاهيَّته.

---

(1) أورادم س تواتي الأنبياء تلمُوديُّون فلاسفة، بارس سيرف 1990.

(إرْمِيَا 29 . 7) ويقول الحاخام حاتينا الذي عاش في فترة خراب المعبد: "صَلُّوا من أجل سلام الإمبراطُوريَّة لأنَّه بدُون الخـوف الـذي يُوحيه قد تـأكل البشر بعضـها أحيـاء" (بيركيه آفـوت 2III). والواضح أنَّ الصّلاة فيها مصلحة، وليست بـهذه العفَّة، ولا تفـترض حُبَّ الأرض الأجنبيَّة... لـم تَعْنِ ـ أبداً ـ التّبعيَّة والإخـلاص "لوطـن": "كـان هدفها ـ دوماً ـ عـدم وُجُـود اضطرابات تُؤذي المُتَّحدات اليهُوديَّة"[1]. وهذا كان ـ أيضاً ـ هـدف جُـوزف عندما يذكـر فـي "أبيون" أنَّ اليهُود ليسوا وراء الانتفاضات والعُنف.

التّضحية لقيصر مثل الصّلاة؛ هي مظهر تفاخري لمنطق الدّمج: لقَطْع العلاقة مع رُوما يكفي لليهُود أنْ يُوقفوا الأضاحي على شرف الأباطرة. فالتّضحية لمملكة الكُفَّار مُرتبطة بمبدأ "قانون المملكة هُو القانون"، وتظهر أصلها المُغرض: مُقابل التّشريفات المُقدَّمة من قِبَل اليـهُود للرُّومان يُظهر هؤلاء بُرهاناً في كبر النَّفْس و"التّسامح"، وإنْ كان جُوزف من مُؤيِّدي التّسوية على صعيد القانون المَدَني والجزائي فـهُو صلـب وصـارم علـى صعيـد القـانون الدِّينـي. فبمـا يخصُّ الصُّور؛ فهُو يُؤكِّد على تطبيق الوصيَّة حَرْفيّاً: "لن تصنع تمثالاً، ولا أيَّ شـكل للَّـذي في السّماء الأعلى، أو على الأرض، أو في المياه، أو تحت الأرض".

لقد رفض مُشرِّعنا هذه المُمارَسة:

ويُصـرُّ جُـوزف[2] علـى الوصيَّـة السّادسـة "إيَّـاك والقتـل" ممنـوع حمـل السّـلاح ضـدَّ المُواطنين، وإنَّها جريمة مُحاربة المُواطنين. وجريمة تكون في قتل مُواطـن. وهُـو يقـول إنَّـه لـم يُدنِّس يده في قتل مُواطن. وأثبت ذلك في جُوتا باتا؛ حيـثُ عفـا عـن الـذي كـان يرغـب أنْ يخنقه، وفي طبريَّا؛ حيثُ رفض أنْ يُعدم المُحرِّض المُشاغب كليتوس. وبدا جُوزف مُحترمـاً جدّاً للسّبت، فأثناء ثورة طبريَّا اعتبر أنَّ اللُّجوء إلى الأسلحة في نهاية الأُسبوع أمـر مُسـتحيل رغم خُطُورة الموقف.

أمَّا عن القوانين الغذائيَّة؛ فجُوزف لا يفصل أبداً. ففي "العُصُور القديمة" يقترح الانتبـاه لذلك فيما بعد. إلاَّ أنَّه يُشير إلى بعض اللُّحوم الممنوعة وبعضها غير ممنوعة.

---

(1) تواتي OP.CIT.

(2) ب بريجينت، الصُّورة في اليهُوديَّة، جنيف لابوروفيدس 1991.

وإنَّ أكل الدّم ممنوع، كذلك لحم الحيوان الميِّت، دهن الماعز والخروف والبقر، وفي مكان آخر؛ يُورد مَنْعَ أكل العصب الوركي، هذا المَنْعُ مُرتبطٌ بجُرح يعقُوب بعد صراعه مع الملاك.

في "ضدَّ أبيون" يُهنِّئ جُوزف نفسه أنَّ مُوسى لم يترك حتَّى التّفصيل الدّقيق لمُبادرة ومزاج الخاضعين للقانون. ويقول جُوزف: حتَّى الأطعمة التي يجب الامتناع عنها أو يُمكننا أكلها والأشخاص الذين يُمكن قبُولهم لمُشاركة حياتنا، وتطبيق العمل والرّاحة، لقد حدَّد ونظَّم كُلَّ ذلك لهم وبشريعة.

يُوجد هُنا حُدُود واضحة؛ حيثُ تمارس التّوراة سُلطتها (قوانين غذائيَّة، زواج ـ سبت)؛ وحيثُ هُنا لا تعود قوانين البلد سارية المفعول: هذا المجال الخاصُّ للحياة اليوميَّة ومُمارسة التّقاليد. الحياة اليوميَّة هي هُنا عكس المُواطنة، إنَّها مكان اليهُوديَّة.

في هذا الفصل سوف نسعى ما في جهدنا للتّوغُّل داخل هذه الحياة اليوميَّة اليهُوديَّة والشّرائع التي تُنظِّمها. لكنَّنا سوف لا نشطح خارج المسألة التي تهمُّنا وهي "مفهوم الآخر" سوف نبحث ـ على التّتالي ـ بالنّواهي الجنسيَّة وقوانين الزّواج وقوانين الطّهارة.

الممنوعات الجنسيَّة:

يُؤكِّد نُوديه[1] NODET أنَّ جُوزف يتجنَّب الإشارة إلى العُقُوبات في مُخالفات الشّريعة إلاَّ في المُخالفات الجنسيَّة. هذا ـ بدُون شكٍّ ـ التّقزُّز الذي تُسبِّبه مثل هذه التّصرُّفات المُنافية للطّبيعة في نَفْس جُوزف.

ويبدو هُو نفسه ذا طبيعة عفيفة نسبيّاً: " في الثّلاثين من عُمري تقريباً، عُمْرٌ من الصّعب الهُرُوب من افتراء الشّهوة: لقد احترمتُ فيه شرف كُلِّ النّساء.

وهُو طُهَّري مُتزمِّت يُصنِّف قايين وكأنَّه شخص فاسد، مُعلِّم في المُمارسات الفاسدة التي تُحرِّض على الشّهوة كُلَّ الذين يُقابلهم وينغمسون في الملذَّات الجسديَّة. فهُو يتحدَّث عن ديانة اليُونان التي هي من الابتذال بمكان... فهي تنسب للآلهة غراميَّات وعلاقات دُون كوابح تقريباً، وذلك للآلهة من الجنسَيْن، وينتقد هذه الآلهة التي تُحضر الزّنا من السّماء

---

(1) نُوديه OP.CIT

بكُلِّ صفاقة، حتَّى إنَّ بعضها يعترف أنَّه يحسد الزّوج المُتَّحد، وفي مُؤلَّفه "العُصُور القديمة" يمتدح - مُطوَّلاً - عفَّة جُوزف الذي يُقاوم توسُّلات امرأة بوتي فار. فهُو يحذف من المقطع عُهر ساراي الفعلي بإبرام، والزّنا الذي ينتج عنه. يعتبر جُوزف أنَّ العُهر يُفسد، وأنَّ المناطق المُعيبة (العورة) يجب أنْ تُغطَّى وتُخفى، هُناك جُندي كان من الوقاحة أنَّه أظهر عارياً لكُلِّ النّاس ما تمنع العفَّة من إظهاره، وما حُسْن الأخلاق يُجبر على إخفائه، وهذا ما يُؤلِّف في الرّأي الإجماعي اليهُودي "كفر غريب" لذلك؛ لا يُسمح دُخُول المعبد إلاَّ للأشخاص العفيفين، وليس للفاسقين. لكي يكون الإنسان طاهراً يجب الامتناع عن العلاقات الجنسيَّة كما أمر مُوسى هذا، العفَّة تبقى نسبيَّة. فبالنّسبة لليهُوديَّة الزّواج فَرْضٌ ديني، والأولاد واجب يرتكز عليه مُستقبل المُتَّحد (الإجهاض أو قتل البزرة الحيَّة ممنوع حسب جُوزف؛ لأنَّه يعتبر قتل طفل بأنَّك تُلغي نَفْساً وتُنقص الجنس. فالاعتبار المُفيد يغلب الاعتبار الأخلاقي الذي لا يُلغي فكرة التّدنُّس). فحتَّى بعد العلاقات الجنسيَّة الشّرعيَّة للزّوج والزّوجة تأمر الشّريعة بالاغتسال. فهي تفترض أنَّ النَّفْس تتلوَّث بهذه العمليَّة بالدَّنس، كونها انتقلت إلى مكان آخر...

فإذا كانت العلاقة الجنسيَّة الشّرعيَّة تُدنِّس، فإنَّ العلاقة غير الشّرعيَّة هي زنا يستحقُّ الموت.

لقد بغَّض مُوسى العلاقة الجنسيَّة مع زوجة الأب، والعمَّة، والأُخت، والكنَّة، واعتبرها عملاً إجرامياً وضدَّ الطّبيعة. ويصف جُوزف ارتكاب المحارم بالعادة الإجراميَّة، ويُحاول أنْ يُخفي بعض المشاهد التّوراتيَّة التي تُظهر وُجُود هذه المُمارسات عند العبرانيّين: فهُو يحذف زنا رُوبن (في سفْر التّكوين 35. 22): "بينما كانت إسرائيل في ذلك البلد ذهب رُوبن ليُضاجع بيلها خليلة أبيه، وعلمت إسرائيل بذلك". المشهد هامٌّ، الآن بسبب ذلك الزّنا المُحرَّم، فَقَدَ رُوبن حقَّه في البكوريَّة (تكوين 49 - 3 - 4).

لكنَّ جُوزف أكثر ما يُؤاخذ عليه هُو التّصرُّف المُخنَّث. فبالنّسبة له الموت في ثياب امرأة هُو موت مُعيب فيه خزي: وقد أورد عن شخص اسمه "أمونيوس": لبس لباس امرأة حتَّى يهرب، فقُتل وهُو بهذه الحالة، ومات موتاً مُعيباً.

العقُوبة هي الموت إذا أحد تجرأ واتَّخذ له ذَكَراً، أو إذا كان ذلك الذَّكَر يتحمَّل مثل هذا العمل الشّائن. يمنع مُوسى - أيضاً - مُمارسة ملذَّات غير شرعيَّة: مثلاً الاقتراب من امرأة مُدنَّسة بحيضها، علاقات جنسيَّة مع الحيوانات، النُّزُوع إلى اللّواط بسبب الجمال الذُّكُوري. ويحكم بالموت على أيٍّ إنسان يُخالف هذه القواعد.

حُكْم بالإعدام بسبب جريمة اللّواط لا يُزعج جُوزف. وفي كتاباته؛ يُعطيك انطباعاً أنَّه مُقتنع أنَّ أخلاقيَّات سُكَّان صودوم تُبرِّر - تماماً - إبادة هذه المدينة. وكان الصّودوميُّون مُتكبِّرين تجاه البشر، وكُفَّاراً تجاه الألُوهة. من جهة أُخرى؛ كانوا يكرهون الأجانب، ويبتعدون عن العلاقات الطّبيعيَّة فيما بينهم. لذلك؛ غضب الله من هذا السُّلُوك، وقرَّر مُعاقبتهم لوقاحتهم، وذلك بتدمير مدينتهم، وإضعاف المنطقة. وعندما وصلت الملائكة إلى المدينة، تآمر الصّودوميُّون أنْ يفعلوا عُنفاً وسُوءاً وإهانة لشبيبتهم، فطلب لُوط بأنْ يحترموا ضُيُوفه وقال لهم: إذا لم يستطيعوا أنْ يتمالكوا أنفسهم، فسوف يُسلِّمهم بناته عوضاً عن الضُّيُوف. فاستاء الله من قساوتهم، وقرَّر التّدمير الكامل للصّودوميِّين. فأباد الجنس الصّودومي الذي - بخطاياه - أثار ضدَّه الغضب.

رغم ذلك كُلِّه؛ فإنَّ اللّواط عندما يحصل عند اليهُود يُشكِّل مسألة بالنّسبة لجُوزف. ويعتمد دفاعه على أنَّ اليهُود عندهم شرائع جيِّدة صالحة، لذلك لا يسمحون لأنفسهم بمثل هذا الأمر، وهذه الشّرائع يحفظها اليهُود، ويحترمونها.

على عكس اليُونان الذين عندهم شرائع سيِّئة تسمح بأخلاق سيِّئة، ولو أنَّهم لا يتَّبعون الشّرائع كالسّابق: هذه المُمارسات التي كانوا سابقاً يعتبرونها مُشرِّفة ومُفيدة، فإنَّهم لم يتركوها تماماً، إنَّما لم يعودوا يستسيغونها، أو يقبلونها، ويرفضون الشّرائع المُتعلِّقة بهذه العلاقات التي كانت في السّابق قويَّة عند اليُونان، حتَّى إنَّهم كانوا يضعون العلاقات الذُّكُوريَّة تحت رعاية الآلهة، وعلى نفس المبدأ الزّواج بين الأُخوة والأخوات، هكذا كان التّصوُّر المُبرِّر للملذَّات غير الطّبيعيَّة والمُضادَّة للطّبيعة، والتي كانوا ينغمسون فيها. فإذا كان الشُّذُوذ الجنسي مُمارَساً في بلاد اليُونان، فهُو - في منطق جُوزف - مُستحيل في بلاد اليهُود: الشّريعة تمنعه، واليهُود يحترمون الشّريعة.

وقد عاب جُوزف تصرُّف "كاليكولا": لم يستحِ من نفسه أنَّه لبس لبس امرأة في احتفالاته التي أقامها، وصفَّف شعره، وتزيَّن بكُلِّ أنواع الزّينة التي تجعله يظهر كامرأة.

هذا النّقد الذي يضعه جُوزف كامتداد لدراسته التّوراتيَّة يُظهر نوعاً من الاحتقار للمرأة، وربَّما رفض بمزج كُلِّ ما ميزه الله. فبتصرُّفه، أعاد كاليكولا طرح مسألة تمايز الجنسَيْن، وذلك بطريقة ما. فهُو يخلطها، وبذلك يُلغي النّظام والتّسلسل والدّرجات التي أرادها الله. هذا المزج لا يقبله جُوزف إلاَّ في عمليَّة المنجب، وهذا ـ أيضاً ـ يعتبره دنساً، دنساً ليس كامناً في العمل بذاته، إنَّما في مُرُور المني من الرّجل (إذْ إنَّ المني تحوي الرُّوح) إلى جسد المرأة: في هذا المزج اعتبرت الشّريعة أنَّ الرُّوح تتلوَّث وتتدنَّس بهذا الانتقال من مكان لآخر.

ويُعارض جُوزف الملذَّات والتّرف والمُتَع. فيتَّهمها بتمييع الفرُوقات، وتجعل الرّجال مُخنَّثين: توقَّف الإسرائيليُّون عن المُحاربة، ولم يعودوا يُفكِّرون إلا بالاستمتاع بالسّلام وبالسُّرُور، بكثير من الخيرات يرون أنفسهم قد أُنعموا بها. وَفْرَتُهُم وغناهم رماهم في الرّفاهيَّة والشّهوات الحسيَّة: فلم يعودوا يهتمُّون باتِّباع النّظام القديم. لقد جعلتهم الملذَّات مُخنَّثين لدرجة أصبح العمل عندهم شيئاً غير مُحتمل "هُناك هؤلاء أطفال اليهُود قد أنشأهم نبوخذ نصَّر يرفضون "اللُّحوم الشّهيَّة من مائدة الملك (هل هي الموانع الغذائيَّة؟) ويتغذَّون وهذا لمصلحتهم) بالخُضار والتّمر: ويقول جُوزف: أصبحت أجسادهم أكثر قابليَّة للعمل، وأذهانهم أكثر قُدرة على النّظام؛ لأنَّهم لم يُميِّعوا بالملذَّات التي تجعل الرّجال مُخنَّثين. فحقَّقوا تطوُّراً كبيراً في عُلُوم المصريِّيْن والكلدانيِّيْن، وخُصُوصاً دانيال الذي اجتهد في تفسير الأحلام.

يرفض جُوزف التّنكُّر بشدَّة، ويلتقي ـ هُنا ـ مع كلام مُوسى: خذوا حذركم من كُلِّ الأُمُور في الحرب، بأنَّه ولا امرأة تلبس لباس رجل، ولا رجل يلبس لباس امرأة. كما أنَّ جُوزف يرفض الإخصاء والذين يُخصون أنفسهم بإرادتهم. فهُو يجعل مُوسى يتكلَّم: يجب أنْ نهرب ونتقزَّز من الذين خصوا أنفسهم بإرادتهم، وفقدوا ـ بذلك ـ الوسيلة المُعطاة لهم من الله للمُساهمة في إكثار البشر، فهُم أخذوا على عاتقهم إنقاص عدد البشر، فهُم ـ بهذه الطّريقة ـ قَتَلَةُ الأطفال الذين كان من المُمكن أنْ يكونوا آباءهم، فهُم لم يقترفوا هذا الفعل

بدُون أنْ يُدنِّسوا طهارة نُفُوسهم. إذْ إنَّهم لو لم يكونوا مُخنَّثين لم يكونوا ليضعوا أجسادهم في حالة لم تعد تسمح باعتبارهم إلاَّ نساء.

لذلك؛ يجب رفض كُلّ ما هُو ضدَّ الطّبيعة؛ لأنّه وحشي قبيح، فيجب ألاَّ يُحرم لا إنسان، ولا أيُّ حيوان من علامة جنسه".

عظة بنّاءة تأمر بالهُرُوب، بالتّقزُّز، بالنّبْذ والرّفض لكُلّ ما هُو ضدَّ الطّبيعة، أيْ نظام الأشياء الذي يُريده الله.

الاختلاف، الآخرون يُدمجون بالمسخ القبيح: المسخ يُذكِّرنا هُنا ما قاله "رينيه جيرار"[1]: فهُو غير مُتميِّز، مُضاعف امرأة ورجل معاً، والذي يجب أنْ يُمارَس عليه العُنف الإجماعي. المسخ موقعه فوق الاختلافات الطّبيعيَّة والثّقافيَّة التي أقامها الله. ففي ذلك يُناقض ذكاءه المُنظَّم، ويجب التّخلُّص منه. إلاَّ أنَّه إذا صدَّقنا جُوزف فإنَّ النّبْذ المفروض من مُوسى لم يُطبَّق على الدّوام. هيرُود مثلاً لم يحترم هذه الوصيَّة. فبحسب جُوزف؛ هيرُود هُو شخصيَّة غير إنسانيَّة، (هُو مُزدوج إنسان وحيوان؟ الذي يحصل على مثل هذه الصّفة والتّسمية أليس كبش فداء؟) يبني معابد وثَنيَّة. فهُو كان عنده ثلاث خصيان، وكان يُحبُّهم بشدَّة؛ لأنَّهم كانوا جميلين جداً. الأوَّل كان نديمه وساقي الخمر، والثّاني كان مُدير النّزل، والثّالث أوَّل حاجب وصيف عنده.

في مُؤلَّفه "الحرب" إنَّ هيرود هُو حالة خاصَّة مع خصيانه، وإنَّ ابنه ألكسندر قد أغواهم، بإعطائهم مبلغاً كبيراً من المال، وجعل منهم مُقرَّبيه.

وقد أورد جُوزف - أيضاً - عن المخصي "باغواس كاروس" الذي كان يُحبُّه هيرُود بسبب جماله الفائق. يُوجد هُنا علاقات غامضة وفيها لبس، علاقة ضدَّ الشّريعة يتجاهلها جُوزف ولا يفضحها بوُضُوح، هل يُحاول أنْ يُخفِّف من تصرُّف قد يُسيء، ويُشكِّك بأخلاقيَّات اليهُود عمُوماً؟

فجُوزف لا يتساهل - بشكل عامٍّ - مع المبادئ: الشّريعة لا تعترف إلاَّ على علاقة واحدة هي العلاقة الطّبيعيَّة مع المرأة فقط عندما يكون هدفها الإنجاب. من جهة أُخرى؛ يذكر أنَّ

---

(1) ر. جيرار العنف والمقدَّس باريس غراسيه 1972.

وللأسف الشّديد؛ فإنَّ هُنـاك حـوادث وأمثـالاً يعرفـها جُـوزف تُثبت العكس. فمتـى جُوزف - وهُو منساق بكُرهه للزّيلوت - يُعرِّفنا على تصرُّفاتـهم: فـهُم لُصُوص، مـع أنَّـهم يهُود. وهذا ما يقوله عن الزّيلوت الجليليِّين: رغبتهم بالنّهب كانت رغبه بدُون حُدُود، ولـم يتوقَّفوا عن التّنقيب في البُيُوت الثّريَّة. كانت تسليتهم ذبح الرِّجال واغتصاب النّسـاء: كـانوا يلتـهمون غنائمـهم مرويَّـة بـالدّم. وكـانوا يلبسـون لبـاس النّسـوة، ويُـهندمون شُـعُورهم، ويتعطَّرون، ويُكحِّلون عيُونهم، ليزيدوا من جهلهم. لكنَّهم لم يكونوا سعيدين بتقليـد زينـة النّساء، فكانوا يتصوَّرون علاقات ضدَّ الطّبيعة، وذلك من شـدَّة صفاقتـهم، وهـُم يتمرَّغـون في المدينة كما في ماخور، ويُدنِّسون البلد كُلَّه بأعمالهم الدّنسة. وهُم بمظهر امـرأة كـان لـهم ذراع مُجـرم، منـهم يتقدَّمـون بخُطـى مُتراخيـة بطيئـة، ثُـمَّ يتحوَّلـون - فجـأة - إلـى مُحـاربين يُصوِّبـون حُسـامهم مـن تحـت المعطـف ذي القمـاش النّـاعم وذي اللّـون اللّمَّـاع، ويشـكُّون ويخترقون كُلَّ مَنْ يُصادفونه.

يُحاول جُوزف - أحياناً - أنْ يُخفي لواط اليهُود عندما لا يكون مُتَّجهاً نحو التّملُّق والتّحالف.

فإذا كان "جُوناتان" يُحبُّ" داود" بشدَّة، كان ذلك بسبب فضيلتـه، كـان حُـزن وأسـى داود عند موت جُوناتان سببه فُقدان صديق، ويقول جُوزف: إنَّ داود قد ألَّـف شـواهد للقبـر وأشعاراً لمدح شاؤول وجُوناتان، لكنَّه يتحفَّظ ويُحذِّر من سرد غناء القوس؛ حيـثُ نعلـم أنَّ شاؤول وجُوناتان كانا مُحبَّين وساحرَيْن؛ وحيثُ يقول داود لجُوناتـان: "أنـا مُتـألِّم بسـببك، يا أخي جُوناتان، كنتَ لي ساحراً مُغرِيَاً. حُبُّكَ كان لي رائعاً أكثر من حُبِّ النّساء.

بينما يظهر النّصُّ التّوراتـي نصَّاً فيـه لبس وغُمُـوض: "رُوح جُوناتـان ارتبطـت بـرُوح داود، وجُوناتان كان يُحبُّه مثل نفسه، لقد أبرم جُوناتان عهداً مع داود؛ لأنَّه كـان يُحبُّـه مثـل نفسه، خلع جُوناتان معطفه الذي كان يرتديه وأعطاه لداود هُو وثيابه وحتَّى حُسـامه وقوسـه ونطاقه. ومن جديد، أقسم جُوناتان لداود بسبب حُبِّه له؛ لأنَّه كان يُحبُّه مثلما يُحبُّ نفسـه. فَنَصُّ جُوزف لا يسمح لك - أبداً - أنْ تُفكِّر أنَّه كان هُناك أكثر من صداقة طبيعيَّة. يُوجد - هُنا - تخفيف مقصود لموقف النّصِّ التّوراتي، هُناك تزوير آخر، وله معنى أكبر: هُو مشـهد غيبيا. هذه الحلقة التّوراتيَّة الواردة في كتاب القُضاة، والتي تكلَّمنـا عنها فـي الجُـزء الأوَّل، لا تَـدَعُ

مجالاً للشّكّ حول شُذُوذ سكَّان غيبيا، إنَّهم فعلاً لا شيء، والذين يزعمون أنَّ لهم علاقات جنسيَّة مع اللاَّوي في طريق سَفَر، وقد نزل هُو وزوجته عند رجل عجُوز، فقالوا للعجُوز: أخرج الرّجل الذي دخل إلى بيتك، حتَّى نتعرف عليه، قرَّر العجُوز ألاَّ يرتكب هذا العار، واقترح ابنته بدلاً: "استعملوها، وافعلوا بها ما شئتم، لكنْ؛ تجاه هذا الرّجل لن ترتكبوا ما هُو مُعيب. أمَّا نصُّ كتاب القُضاة؛ فهُو واضح، فيُصبح عند جُوزف: في مُؤلَّفه "العُصُور القديمة": بعض الشُّبَّان من المدينة رأوه عندما دخل المكان (اللاَّوي وزوجته) فأُعجبوا بجمال هذه المرأة، وعندما رأوه قد انسحب إلى منزل هذا العجُوز الذي لم يكن لديه القُوَّة للدّفاع، ذهبوا، وقرعوا على الباب، وطلبوا منه أنْ يُسلِّمها لهم... لكنَّ هذا الرّجل الصّالح المُحبَّ أراد أنْ يحمي ضُيُوفه من هذا الخطب الفظيع، فقدَّم ابنته بدلاً من أنْ يخرق حقَّ الضّيافة. لكنْ؛ لا شيء أمكن من ثنيهم عن عزمهم، فهُم يُريدون تلك المرأة، فاختطفوها، واحتفظوا بها كُلَّ اللّيل، وبعد أنْ فرغوا من اندفاعهم الأرعن أرجعوها عند الفجر. وهكذا يُحوِّل جُوزف هذه الحلقة بشكل كامل. فرجال غيبيا ليسوا لواطيِّين. فهُم لا يُريدون أنْ يُقيموا علاقات مع اللاَّوي مُخالفة للطّبيعة، وعكس النّصِّ التّوراتي، إنَّما مع زوجته، من جهة أُخرى؛ هُم ليسوا رجال المدينة التّافهين، إنَّما هُم ـ فقط ـ بعض الشُّبَّان. والتّزوير الثّالث هُو أنَّ الشُّبَّان لم يختطفوا المرأة، إنَّما اللاَّوي هُو الذي سلَّمهم إيَّاها: الرّجل أخذ عشيقته، وأخرجها إليهم. عرفوها وتسلّوا معها كُلَّ اللّيل حتَّى الصُّبح.

مرَّة أُخرى؛ تزوير مُناسب لإرادة جُوزف الدّفاعيَّة: يجب ألاَّ ننسى أنَّه يكتب لليُونانيِّين، لكنَّه يُثبت حُكْمه الشّخصي على اللّواط: إنَّه تصرُّف مُلام يُبرِّر الحُكْم بالموت... إنَّما يجب ـ في بعض الأحيان ـ إخفاؤه، حتَّى لا يتناقض الأمر مع نظريَّة الشّعب اليهُودي الفاضل، على كُلِّ حال؛ جُوزف لا يُنكر أيَّاً من النّواهي الجنسيَّة في التّوراة؛ حُبّ الحيوانات، المحارم، التّنكُّر والتّخنُّث، اللّواط، الزّنا، وسوف نرى ذلك في إطار القوانين المُتعلِّقة بالزّواج.

قوانين الزّواج:

في مُؤلَّفه "العُصُور القديمة" يروي جُوزف زيارة جيترو ـ ريويل لصهره مُوسى: أتى جيترو ريويل فرحاً لاستقبال مُوسى وسيبورا وأولادهما. أمَّا النّصُّ التّوراتي المعنيُّ بهذا

الموضوع؛ فهُو مُختلف تماماً: " جيترو ـ حمو مُوسى، قد أخذ سيبورا زوجة مُوسى بعد طردها هي وولديها. إذاً؛ فإنَّ جترو ـ حمو مُوسى ـ أتى مع ولدَيْ مُوسى وزوجته ليجدوه في الصّحراء؛ حيثُ كان يُخيِّم في جبل الله، سفْر الخُرُوج (18. 2 ـ 5). ويُورد نُوديه nodet بحسب "شاليت" أنَّ تشويه جُوزف للنّصِّ له دافع هُو ضرورة إظهار الحياة العائليَّة السّليمة التي لا تُعاب للمُؤسِّس مُوسى[1] وذلك للقارئ الرُّوماني.

لا نعرف ـ تماماً ـ لماذا طرد مُوسى زوجتَهُ وأولادَها، في الأحوال جميعها؛ يُمكننا أنْ نفترض أنَّ زواج مُوسى قد تدهور في وقت من الأوقات. لكنْ؛ بالنّسبة لجُوزف؛ فهُو يُؤكِّد أنَّ وُجهة نظر مُوسى في الزّواج يجب أنْ يكون لها مفهوم صحيح، هذا المفهوم هُو عُربون السّعادة، لذلك وضع مُوسى موانع جنسيَّة. لكنَّ هذه الموانع لا تظهر في النّصِّ التّوراتي المُناسب. أمَّا تفسير الموانع؛ فيقع في الوصيَّة الإلهيَّة وحدها: " سوف تتبعون وصاياي وتُنفِّذونها"، وهذا يكفي في إطار العهد القديم. ورُضُوخاً عند ذلك؛ عَقْلَنَ جُوزف الشّريعة الإلهيَّة، لكنَّه يُعبِّر ـ بكُلِّ تأكيد ـ عن وُجهة نظر مقبولة في زمنه، وهي قناعاته الشّخصيَّة، لو أنَّ قاعدة الزّواج السّعيد هذه طُبقت على مُوسى نفسه وجب افتراض أنَّ مُوسى كان تعيساً في زواجه، لأنَّه لم يكن عنده نظرة صحيحة، أو على الأقلِّ؛ مُمارسة صحيحة. هذه فرضيَّة غير مقبولة بكُلِّ تأكيد. هل يستبعد جُوزف ـ مُسبقاً ـ مثل هذا الاستنتاج، مُؤلِّفاً لمُوسى حياة عائليَّة لا عيب فيها وبدُون قصَّة عنها؟

لكنْ؛ ما هي النّظرة السّليمة للزّواج؟ هذه النّظرة في عمل جُوزف لا تنفصل عن الفرز والاستثناء. فهي تضع الموانع، موانع الزّنا والمحارم بالتّأكيد، وأيضاً؛ موانع مُرتبطة بالانتماء الإثني والدِّيني والاجتماعي. فالرّجال في سنِّ الزّواج يتزوَّجون بناتاً ظُرُوفهنَّ حُرَّة، وأهلهن أُناسٌ ذو مُستوى عالٍ. . . هُناك بعض الغراميَّات لرجال أحرار مع نساء جاريات، يجب ألاَّ يتزوَّجوهنَّ أبداً، هكذا يُعلِّم مُوسى.

ويبدو أنَّ جُوزف ذاته قد طبَّق هذه الوصيَّة، وكان فيها سعادته: " لقد تزوَّجتُ امرأة تقطن كريت، لكنْ؛ من أصل يهُودي، كان أهلها أفضل طبقة النُّبلاء ومن أعيان البلد.

---

(1) نُوديه OP.CIT.

صفاتها جعلت منها امرأة مُتفوِّقة كثيراً عن غيرها، كما برهنت عن ذلك بقيَّة حياتها. أنجبت لي طفلَيْن: البكر "جوست"، والثّاني "سيمُونيد" المُسمَّى "أغريبا".

إلى الموانع المُتعلِّقة بالوضع الاجتماعي، تُضاف الموانع المُتعلِّقة بالجنس والدِّين. لأنَّ الزّواج الذي يبتعد أكثر من غيره عن المفهُوم الصّحيح الذي يتكلَّم عنه جُوزف هُو الزّواج المُختلط. في الواقع؛ نعلم من "تاريخ العُصُور القديمة" أنَّه لا شيء ضدَّ الشّرائع اليهُوديَّة إلاَّ الزّواج من امرأة أجنبيَّة.

وحدَّد جُوزف أنَّ إسحق لم يكن ليُوافق على زواج عيسُو الخارجي: "لم يكن يروق له أنْ ترتبط عائلته بسُكَّان البلد". وفي الحقيقة؛ "إسحق ومُحيطه لم يكونوا مُؤيِّدين للكنعانيِّيْن". أمَّا يعقُوب؛ فهُو كان يُحبِّذ تزويج ابنته لرجل من غير جنس، وذلك ضدَّ الشّرع. أمَّا مُوسى؛ فقد رفض - وهُو طفل - حليب النّساء اللَّواتي ليس بينه وبينهن قربى، ولم يقبل إلاَّ ثدي امرأة من جنسه.

ومُوسى نفسه - مع ذلك - تزوج من امرأة أثيوبيَّة وامرأة مديانيَّة (هل هذا يُفسِّر تعاسته في الزّواج؟) وهُو يُعلِّم حسب جُوزف: يجب ألاَّ نتزوَّج أبداً حيوانات من أجناس مُختلفة، خشية أنْ يعتاد الرّجال بهذا المثل على خليط مُريع. لأنَّ مثل هذا الأمر يمرُّ بسُهُولة، ويظهر في البدء أنَّ مفعوله ضعيف، لكنَّه يُسبِّب - في النّتيجة - آثاراً خطيرة. من أجل ذلك يجب أنْ تُتَّخذ الحيطة القُصوى؛ لأنَّ التّقليد يُمكن أنْ يُفسد الأخلاق الحميدة: لذلك؛ فإنَّ الشّرائع تُنظِّم حتَّى التّفاصيل الصّغيرة، حتَّى يبقى كُلٌّ واحد في واجبه.

وللتّوضيح؛ ليس مُوسى الذي يتكلَّم هُنا، إنَّما جُوزف. فبالنّسبة له؛ الزّواج المُختلط هُو اختلاط مُريع" والزّواج الدّاخلي هُو واجب، كما أنَّه يُؤيِّد - بشكل واضح - إبادة المُذنبين بنَفْس ذنب زامبري: الزّواج المُختلط مع المديانيِّيْن. ويعتبر العبرانيِّيْن الذين يتزوَّجون من مديانيَّات بأنَّهم تُعساء، انجرفوا بعواطفهم الرّعناء. ويقول إنَّ كُلَّ الجيش قد أُصيب بالسُّمِّ المُنتشر من هؤلاء الشُّبَّان، حتَّى الشّعب والأعيان يفسدون. ويُذكِّرنا بالعبراني والمديانيَّة اللّذَيْن خوزقهم بنحاس على فراشهم (شخصيَّة ذات صفات عظيمة... مُتمتِّعة بالشّجاعة والحماس) المديانيَّة كوسبي والعبراني زامبري، وقد تجرأ زامبري من التّصريح علَنَاً" لا أخاف

أبداً من الإعلان أمام هذا الجمع، أنّني تزوّجت امرأة أجنبيّة"، وقد برّر جُوزف هذه الجريمة المزدوجة إنذاراً لمذبحة راح ضحيّتها أربعة عشر ألف ضحيّة: هذا الشّركان يُمكن أنْ يُؤدّي إلى نتائج أخطر بدُون موت زامبري.

فجُوزف الذي يُؤيِّد هذا القتل كما يُؤيِّد إبادة المديانيِّين الذي تبعه، يُؤيِّد - أيضاً - الفرز ذا الطّابع الإثني الذي قرّره "إيسدراس". لأنَّ هذا الرّجل القدّيس علم أنَّ هُناك مُضحِّين، ولاويِّين قد تزوَّجوا نساءً أجنبيَّات، وذلك باحتقارهم لشرائع آبائهم، فدنَّسوا طهارة النّظام الكَهَنُوتي. إنّها خطيئة، جريمة تستحقُّ الموت: وقد عالج إيسدراس هذا الخطأ المُرتكب بهذه الزّيجات النّجسة، وألغى هذه العادة السّيّئة حتّى لا يقعوا فيها ثانية. الخليط الدّنس هُو سبب كُلِّ الشُّرُور. ولا يتوانى جُوزف عن التّذكير بسُليمان الذي سقط في الكُفْر.

وعاد إلى تأسيس معبد جبل غاريزيم. وبدأ الاختلاط بالأجنبيَّات في بداية نُشُوء هذا المعبد المُنافس لمعبد أُورشليم. هُنا يُضحِّي السّامريُّون الذين نزلوا من فارس وميديا. وهاكم كيف ينقل جُوزف تأسيسه: غير أنَّ وُجهاء أُورشليم لم يتحمَّلوا فكرة أنَّ "مناسي" شقيق "جادوس" ومُضحِّي كبير قد اتَّخذ لنفسه امرأة أجنبيَّة؛ لأنَّ ذلك معناه انتهاك الشّرائع المُتعلِّقة بالزّواج، وإقامة خليط دنس مع الأُمم الوثَنيَّة: وهذا كان سبب أسْرهم، وسبب كثير من الآلام التي تعرَّضوا لها. انسحب "مناسي" عند حماه "سانابايت" هُو سامري وحاكم السّامرة لداريوس، والذي اشترط على مناسي - لكي يحتفظ بابنته - أنْ يبني معبداً على جبل غاريزيم.

وبذلك استقرَّ في السّامرة مثله مثل كثير من المُضحِّين من اليهُود الذين التزموا في زواج مُماثل، فانسحبوا معه. ومُنذُ ذلك الحين أصبح الزّواج المُختلط مسؤولاً عن انشقاق خطير بين اليهُود، انشقاق تجلّى بتأسيس معبد مُنفصل مُنشقٍّ. الزّواج المُختلط الدّنس يجلب الانهيار. وازدهار "أزنيوس" "وأنيليوس" وهُما شقيقان مُقيمان في بابل. بدأ بالتّراجع عندما تزوَّج أنيليوس امرأة أجنبيَّة ضدَّ رأي الكثيرين، إنَّ لا شيء كان أكثر تضاداً لشرائعهم من الزّواج من امرأة أجنبيَّة ومُخلصة لمُمارسة الأضاحي والخُرافات الدّنسة لبلدها.

فأنيليوس لم يسمع النّصيحة العاقلة، فتبع ذلك قَتْل وحُرُوب ومذابح وموت الشّقيقَيْن.

ففي " مفهُومه السّليم " للزّواج يُطـوِّر جُوزف ـ بشكل واسـع ـ وُجهـة النَّظر التي فيـها "فُوبيا الآخر" ، والتي صادفناها في التّوراة . فمُطابقةً للشّريعة ، اليهُودي يجب أنْ يتزوَّج امرأة من شعبه . فهذه المرأة لن تجرَّه إلى الوَثَنيَّة ، لكنْ ؛ هل يكـون هـذا الـزّواج سـعيداً؟ هـذا ليس أكيداً ؛ لأنَّ المرأة في مُؤلَّفات جُوزف يبدو أنَّها تمتلك عدداً لا بأس به من العُيُوب أو النّواقـص التي تُبرِّر طلاقها ، أو حتَّى قَتْلَها .

فيتكلَّم جُوزف عن الكبرياء التي في طبيعة النّساء وعن ضعفهنَّ (الملكة ألكسندرا مثـلاً لم يكن عندها أيُّ شيء من ضعف بنات جنسها . ولا من خفتهنَّ ، ولا من مُجُونهنَّ) ، *وكـان الأسينُّيون يقولون ولا واحدة منهنَّ يُمكن أنْ تُخلص لرجل واحد من مكرهـنَّ ، ومـن جُرأتـهنَّ ووقاحتهنَّ. امرأة بوتيفار عندها كَيْدٌ ومقدرة على الانتقام ماهرة ، وأُنثويَّة ، . ويتحدَّثـون عـن إيزابيل: لم يكن هُناك امرأة بجُرأتها ولا بوقاحتها. النّسـاء يتلـذَّذنَ بـالكلام، ويبـدو أنَّـهنَّ يمتلكنَ قلباً أقلَّ من الرّجال. وهكذا ؛ فـإنَّ كـاليكولا اندهـش عندمـا وجـد عنـد " هيروديـاد" " قلباً كبيراً في امرأة " ، وهُنَّ يُعطينَ نصائح سيِّئة (وهكذا ـ أيضاً ـ فإنَّ آدم قد عُوقـب؛ لأنَّـه استسلم لنصيحة امرأة ، وليس لأنَّه أكل التُّفَّاحـة . إلـى جـانب كُـلِّ ذلـك؛ نجـد فـي مُؤلَّفـات جُوزف أحكاماً ليست لصالح النّساء: " ميريام زوجـة هـيرُود هـي عفيفـة وشُـجاعة ، لكنَّـها "فخورة جدّاً وذات طبيعة خشنة " . أمَّا " دروزيل" و" بيرينيس " " وكاريام" وهُـنَّ شـقيقات أغريبا ؛ لسنَ فضيلات ، ويتركنَ أزواجهنَّ. ألكسندرا تقيَّة ، لكنَّ نفسها بسيطة.*

هذا الفهُوم "العادي للمرأة " يشرح موقعـها القضائـي ـ الاجتمـاعي. ويُؤكِّـد جُـوزف: تقول الشّريعة: المرأة هي أدنى من الرّجل في كُلِّ الأمُور. ويجب عليها أنْ تُطيع لا لتَذلَّ ، بل لتُقاد وتُوجَّه ، لأنَّ الله أعطى القدرة للرّجل.

في الواقع ؛ المرأة تقع في نُفُوذ زوجها . هي ملك له : في الوصيَّة العاشـرة (لا تشـتهِ منـزل قريبكَ ، لا تشتهِ امرأة قريبكَ ، ولا خادمه ، ولا خادمته ، ولا بقرته ، ولا حماره) (سفْر الخُرُوج 20 . 14) ولُخِّص ذلك من قبَل جُوزف : الجُملـة العاشـرة تُعلِّمنـا أنْ لا نشـتهي مُقتنـى غيرنـا ، فهذا فساد مُضاعف ، من جهـة ؛ يُخفي موقـع المرأة عندمـا لا يُسـمِّيها ، ومـن جهـة أُخـرى ؛ يتجنَّب الشّكل المُحذِّر للوصايا ، والذي يحمي ـ فقط ـ ملكيَّة القريب ؛ أيْ الإسرائيلي .

أمَّا عند جُوزف؛ فيبدو أنَّ المرأة لها نَفْس رصيد التّقييم الذي للخادم (النّساء نفسها والخَدَم يقولونها لك...) فهي مثله لا تستطيع أنْ تشهد. فهذا الوضع الموُجُود في التّوراة قد صيغ في التّلمُود (يوما. 436)، وأُعلن عنه، وفُسِّر بطريقة غريبة في "العُصُور القديمة"، فجُوزف يجعل مُوسى يتكلَّم: *" لن تُقبل النّساء في الشّهادة أبداً؛ بسبب خفَّتهنَّ وخفَّة جنسهنَّ؛ ولأنَّهنَّ يتكلَّمن بجُرأة كبيرة "*.

فهُنا ليست الوصيَّة الإلهيَّة التي تُبرِّر المُعاملة هذه المُنتهكة للحقُوق، والتي فيها تمييز عُنصُري، إنَّما طبيعة النّساء بذاتها الهامشيَّة القضائيَّة - الاجتماعيَّة تتناسب مع الهامشيَّة الدِّينيَّة. وهكذا يصف جُوزف المعبد الذي عُزلت فيه النّساء بعناية في مجال مُحدَّد: مكان مُخصَّص لعبادة النّساء، قد أُحيط بجدار، وله باب ثان كبير للضّرورة... لأنَّ النّساء لم يكن لهنَّ الحقُّ بالدُّخُول من البوَّابات الأُخرى، وحتَّى لم يكن لهنَّ الحقُّ باجتياز جدارهنَّ الفاصل ومن نَفْس بوَّابتهنَّ.

على أيِّ حال؛ فإنَّ هذا المكان كان مُعداً لعبادة نساء البلد ونساء أجنبيَّات من جنس يهُودي.

فوق كُلِّ هذا؛ يُضاف منطق كامل من الدّنس يُحدِّد موانع: الهيكل كان ممنوعاً على النّساء أثناء حيضهنَّ، وحتَّى خارج أوقات الحيض لم يكن مسموحاً لهنَّ اجتياز الحُدُود التي أشرنا إليها سابقاً. وقد ذكَّر - بذلك - جُوزف في "ضدَّ أبيون": (من البوَّابة الخارجيَّة الجميع كان له الحقُّ أنْ يدخل، حتَّى الأجانب، عدا النّساء أثناء فترة عدم الطّهارة الشَّهْريَّة يُمنع عليهنَّ المُرُور. ذلك أنَّ الحيض يُعتبَر نجساً!! كذلك الولادة؛ لأنَّها مُرتبطة بالدّورة البيُولُوجيَّة للمرأة: *عندما تلد النّساء، وتنتهي من الولادة، كان مُوسى يمنعهنَّ من الدُّخُول إلى المعبد، أو أنْ يلمسنَ الأضاحي، وذلك لمُدَّة أربعين يوماً إذا كان المولود ذكَراً، وثمانين يوماً إذا كانت المولودة أنثى "*.

هذا المفهُوم السّلبي للمرأة والأُنوثة يُبرِّر عدداً من قوانين الزّواج: إذا تزوَّجت عذراء كاذبة، فهي تتعرَّض للرَّجْم إذا كانت من جنس عاميٍّ، وتتعرَّض للحَرْق وهي حيَّة إذا كانت من جنس المُضحِّين، " الذي يغتصب امرأة يُجبر على تزوُّجها أو دفع خمسين "شغل" لأبي

الفتاة إذا رفض هذا الأخير تزويجها له. المرأة التي تُهجَر لا تستطيع أنْ تتزوَّج. إحدى هذه القوانين تنصُّ على تطليق الرّجل لزوجته. العكس ليس مُمكناً، ولو أنَّ بعض نساء الطّبقات العُليا في المُجتمع لم يحرمنَ أنفسهنَّ من هَجْر أزواجهنَّ، وهذا ما قزَّز نَفْس جُوزف. . .

وتحدَّث جُوزف عن سالوما التي أرسلت ورقة الطّلاق، وذلك ضدَّ عرف شرائعنا التي لا تُعطي هذه الصّلاحيَّة إلاَّ للرّجال، ولا تسمح للنّساء المُطلّقات حتَّى بالزّواج بدُون مُوافقتهم. ويقول عن "هيروديا" زوجة "هيرُود الرّبعي" "إنَّها لم تخجل أبداً بأنَّها قذفت بقدَمَيْها الاحترام الواجب لشرائعنا عندما تركت زوجها".

هذا الحقُّ - إذاً - هُو منوط بالرّجال فقط: الذي يرغب - لسبب ما - أنْ ينفصل عن زوجته كما يحدث غالباً، يجب أنْ يَعِدَها - كتابيّاً - أنَّه لن يطلبها أبداً بعد الآن، حتَّى يُصبح لها الحُرِّيَّة التّامَّة، ويُمكن لها بعد ذلك أنْ تتزوَّج من جديد، ولن يُسمح بالطّلاق إلاَّ بهذا الشّرط. هكذا أعلن مُوسى.

على كُلِّ حال؛ فإنَّ جُوزف لم يحرم نفسه من هذا الحقِّ: "في هذا الوقت، كنتُ غير مسرُور من سُلُوك زوجتي، فطلَّقتُها. لقد أنجبت لي ثلاث أولاد، اثنان ماتا، وبقي واحد فقط، أسميتُه باسم هيكران، وهُو على قَيْد الحياة.

لم يكن جُوزف هُو الوحيد الذي استغلَّ هذا الأمر، واستفاد منه: *الأسينيُّون يضعون نساءهم ثلاث سنين قَيْد التّجربة، ولا يُبقون عليهنَّ إلاَّ إذا أنجبنَ.*

هيرُود طلَّق المرأة التي تزوَّجها، اسمها دوريس، وُلدت في أُورشليم. وطلَّق - أيضاً - ابنة الُضحَّي الكبير. أمَّا فيروراس شقيق هيرود؛ فقد طرد امرأته، ثُمَّ أعادها.

جُوزف يُؤكِّد وُجُود تعدُّد النّساء عند اليهُود، مع أنَّه يعتقد أنَّ حُبَّ أنطوان لكليوباترة هُو السّبب في عُبُوديَّة مُتدهورة. كان هُناك عادة قديمة من الجُدُود تسمح لليهُود بتعدُّد الزّوجات، والملك هيرود مارس هذا التّعدُّد بكُلِّ سُرُور، وكان يتحدَّث عن "سماح شرائعنا لنا بأنْ نحظى بعدَّة نساء" مع أنَّه في "العُصُور القديمة" يمنع مُوسى الملك من تعدُّد الزّوجات: "ألاَّ يكون عنده عدَّة نساء" كان لهيرُود تسع نسوة؛ منهنَّ واحدة سامريَّة، وهذا لم يصدم جُوزف أو يُسيء له. ومن الصّحيح أنَّ النّصَّ التّوراتي يقول "ألاَّ يكون عنده عدَّة

نسوة "، يُمكننا أنْ نفترض أنَّه ـ بالنّسبة لجُوزف ـ فالمسألة نسبيَّة: الملك هيرُود كان عنده تسع نسوة، على عكس الملك سُليمان الذي تزوَّج سبعمائة امرأة، وكان له ثلاثمائة عشيقة. (" غرامه لهنَّ جعله عبداً لهنَّ").

وإذا كان الرّجل باستطاعته أنْ يكون له عدَّة نساء، فالمرأة لا يُمكن أنْ يكون لها إلاَّ زوج واحد، وغير مسموح لها أنْ تنظر إلى رجل غيره. يُقمع الزّنا بشدَّة، ويُؤيِّد جُوزف ذلك بحزم. فهُو يعتبره من الرّجس. فهُو يصف الطُّقُوس التي يجب على النّساء المشكوك فيهنَّ بخيانة أزواجهنَّ، ويُذكِّر أنَّ الزّنا عاقبته الموت.

هذا الشّرع يُطبَّق ـ أيضاً ـ على الرّجال: " يجب على الزّوج ألاَّ يتَّحد مع زوجته: مُحاولة إفساد وإغواء امرأة غيره هُو خطيئة، إذا ارتكبها يُعاقَب بالموت بدُون عُذر، كذلك إنْ اغتصب فتاة شابَّة مخطوبة لغيره أو أغوى امرأة مُتزوِّجة.

الهدف من هذا التّدبير هُو حماية الرّجل الذي خطب المرأة أو الزّوج المخدوع أكثر منه حماية للمُساواة بين الجنسَيْن. فإذا كان إغواء امرأة الغير هُو خطيئة، فإغواء امرأة ليست لأحد أرملة مثلاً ليس خطيئة، ولا يُمكن ـ قانونياً ـ أنْ يُمنع كما يفهَمُه جُوزف.

ويُشير رايناخ: " ولا في أيِّ موقع يُمنع الزّوج من الاتِّحاد مع غير زوجته"(1) الزّنا في التّوراة لا يُعيّن إلا مُعاشرة امرأة أو ابنة الآخر. مرَّة أُخرى يُحاول جُوزف أنْ يستر الموقف الحقيقي للتّوراة، ولو على حساب عدم التّماسك، فهُناك خطيئة زنا وحُكْم بالموت، فالتّوراة ـ مثل نصِّ جُوزف ـ تُظهر ذلك، لكنْ؛ فقط عندما يتضرَّر الرّجل.

أمَّا مصلحة المرأة نفسها؛ فلا يُحسَب لها حساب: ماذا يهمُّ إنْ خانوها، المُهمُّ في الموضوع ألاَّ يتضرَّر رجل آخر. وفي أفضل الأحوال يُطالبون بقُدسيَّة الزّواج الشّرعي: إذا أحدهم أفسد فتاة مخطوبة لغيره وهي وافقت على ذلك، يُعاقَب الاثنان بالموت؛ لأنَّهما مُذنبان. الرّجل لأنَّه أقنع الفتاة لتُفضِّل لذَّة شائنة على الشّرف في زواج شرعي، وهي لأنَّها تركت نفسها تنجرُّ وراء الرّغبة في الرّبح أو وراء لذَّة مُعيبة. هل يتوجَّه جُوزف إلى اليُونانيِّيْن ويقترح عليهم ـ بركاكة ـ مُساواة الجنسَيْن أمام الشّرعيَّة؟ هل يجد نفسه في وضع خطأ في كُلِّ هذه التّدابير التي فيها تمييز عُنصُري؟.

---

(1) ت رايناخ مدخل ومُلاحظات لكونترابيون لفلافيوس جُوزف، باريس الآداب الجميلة.

وهُناك فرض آخر يبدو أنَّه يُزعج جُوزف: قانون ليفيرا، زواج زوجة الأخ الذي هُو موُجُود دوماً في زمنه، كما يشهد بذلك (إنجيل متَّى 22 . 23 ـ 28) وفي الكتاب الرّابع من «العُصُور القديمة» يُشير إليه، ولا يعود ثانية بعد ذلك: إذا مات رجل بدُون خلفة أولاد، أخوه يتزوَّج أرملته. وإذا كان عنده ولد فيُعطيه اسم الميِّت، ويعتبره وريثه؛ لأنَّ ذلك في مصلحة الجُمهُوريَّة أنْ تُحفظ الثّروة بهذه الطّريقة داخل العائلات... ومرَّة أُخرى؛ يبتعد جُوزف عن النّصِّ التّوراتي الذي يتحدَّث عن موت الرّجل دُون أنْ يكون له ابن. فعندما يقول جُوزف أولاد فهُو يُخفِّف من الاختلاف الهامِّ بين ابن وابنة في التّشريع العبراني. في الكتاب الثّاني من «العُصُور القديمة» يحذف ـ بصراحة ـ مقطعاً من التّوراة فيه مشهد مشهور لحالة اللّيفيرا، لكنَّ أحداثها أخذت اتِّجاهاً مأسوياً وسيِّئاً: الموضوع هُو مشهد أو قصَّة غير حسنة ليهُوذا أو تامار (سفْر التّكوين 38): تزوَّجت تامار من عير بن يهُوذا. فتُوفِّي عير، فوجب على أخيه أُونَان أنْ يقوم بواجبه كسلف، هكذا أَمَرَ يَهْوَه! أمَّا أُونَان هذا؛ عمل ما بوسعه ليتجنَّب هذا الأمر، وتُوفِّي بدوره، فيجب على تامار أنْ تنتظر شيلا، الابن الثّالث ليهُوذا حتَّى يُصبح ناضجاً ويتزوَّجها. لكنَّ شيلا كبر، ولم يتزوج تامار، خشي أنْ يموت مثل أخوَيْه، أمَّا هذه المرأة بعد أنْ تزيَّنت؛ مارست الزّنا مع حماها الذي نكرها بعد أنْ حَمَلَت منه، ويهُوذا لَمَّا عَلمَ بعُهر كنَّته أمر بحَرقْها، لكنَّ تامار برهنت أنَّها ضاجعته هُو، وليس غيره. فعاد يهُوذا عن قراره: إنَّها أحقُّ منِّي؛ لأنَّني لم أُعطها إلى شيلا ابني. أمَّا جُوزف؛ فيعرض حالة أُخرى لليفيرا مُخالفة للمعايير السّائدة: أرشيلاوس لم يخش ـ أبداً ـ أنْ ينتهك قوانيننا عندما تزوَّج غلافيرا . . . أرملة ألكسندر شقيقه، والتي لها منه أولاد. فقد رأت غلافيرا في منامها ألكسندر زوجها الأوَّل الذي قال لها: لقد برهنت تماماً أنَّنا مُحقُّون عندما لا نثق بالنّساء، إمَّا أنَّك أُعطيت لي عذراء، وكان لي منك أولاد، رغبتك أنْ تتزوَّجي زواجاً ثانياً جعلك تنسين الحُبَّ الذي يجب عليك أنْ تحفظيه لي دُون مسس، ولم تكتفي بهذه الإساءة إليَّ، لم تخجلي بأنْ تتَّخذي زوجاً ثالثاً، وأنْ تدخلي ـ بكُلِّ صفاقة ـ في عائلتي بزواجك من أرشيلاوس، أخي. لكنَّ عاطفتي ستكون أثبت من عاطفتك، فأنا لن أنساك كما نسيتني، وعندما تنسحبين إليَّ كشيء أملكه، سوف أُحرِّركِ من العار (الفضيحة) الذي تعيشين فيه.

ماتت غلافيرا بعد خمسة أيَّام. فنحن نعلم من جُوزف أنَّ غلافيرا أرملة ألكسندر هي "شيء" يملكه الزّوج الميِّت إذا كان لديها "أولاد"، أمَّا إذا لم يكن لديها أولاد؛ فهي ملك عائلة زوجها، وفي حالة الزّواج المُجدَّد يبدو أنَّه غير مُمكن تحت طائلة انتهاك حُرمة، وفي الحالة الثّانية يُصبح إجباريّاً تحت طائلة البغي.

ويبدو - تماماً وواضحاً - أنَّ المرأة هي ضحيَّة القوانين الزّوجيَّة اليهُوديَّة. ووضعها لا يبدو بأفضل حال في أعمال جُوزف؛ حيثُ عداؤه للمرأة يشهد به كما في التّوراة.

وسوف نبحث الآن من خلال دراستنا لقوانين الطّهارة أصنافاً بشريَّة أُخرى تخضع لمجمُوعة قوانين فيها - أيضاً - تمييز عُنصُري.

قوانين الطّهارة:

تظهر فكرة الدّنس في أعمال جُوزف بانتظام. الدّنس - الذي يتعاكس ويتضادُّ مع الطّهارة - يعود عند جُوزف إلى خليط أو إلى احتكاك بين موضوعَيْن مُنفصلَيْن طبيعيّاً، أو إلى الانتقال من اختلاف إلى آخر، حتَّى الانتقال إلى وضع ليس فيه تمييزه. ولقد رأينا - سابقاً - خلال العلاقات الجنسيَّة - أنَّ الرُّوح تلتقط دنساً عندما تمرُّ من مكان إلى آخر.

المزيج أو الخلط يُقرِّب ما هُو مفصول طبيعيّاً في نظام العالم الذي قرَّره الله. فهُو - إذاً - مُرادف لفوضى وتدنيس(فهُو يحطُّ، ويُحقِّر، ويُدنِّس نظام الأشياء الجيِّد الذي أقامه الله، لذلك يُسبِّب الشُّرُور والآلام)، وأيضاً الكُفْر؛ لأنَّه تعارض مع إرادة الله.

وبإمكاننا - بذلك - أنْ نُقدِّم عرضاً للأشياء التي تُدنِّس في أعمال جُوزف، اعتباراً من فكرة الخليط هذه، وفكرة الاحتكاك والفوضى.

من بين هذه الاحتكاكات التي تُسبِّب الدّنس والتي يتطلَّب - بعدها - عمليَّة تطهير، نجد الاحتكاك بالأجنبي. وهكذا؛ فإنَّ الأسينيِّين الذين يلمسون أجنبيَّاً يُصبحون مُلوَّثين، فيغتسلون.

الزّيجات من الأجانب هي خلائط مُدنِّسة، فيُرفض زيتهم، ويُطردون من أُورشليم أثناء العيد العظيم؛ لأنَّهم ليسوا أطهاراً.

هُناك ـ أيضاً ـ الاحتكاك بين الحيٍّ والميِّت: يبقى الإنسان سبعة أيَّام غير طاهر، عندما يُقارب القُبُور، أو ميِّت، فلا يستطيع الكاهن الكبير أنْ يقترب من جُثَّة: طهَّر يعقُوب قطعانه بعد مذبحة الزّيشميِّيْن.

الجُذامي ـ الذي هُو كالميِّت ـ هُو بحالة دَنَس مُستمرٌّ.

الموت يُدنِّس: يُدنِّس يدَيْه، مُدنَّس من هذا القتل: يودُّ تجنُّب تدنيس يده من قتل مُواطن: قتل في المعبد جعله يفقد الطّهارة التي تجعله مُحترماً)، كذلك الدّم الذي عندما يسيل يرمز إلى مُرُور الحيٍّ إلى الموت، فبذلك يُدنِّس. تدنَّس بدم الكبش. لقد ضحَّى أنطيوخوس إبيقان بخنازير صغار على المذبح، فدنَّس المعبد بدمهم. لماذا نتدنَّس بدمنا؟.

ذلك الاحتكاك بين المُقدَّس والدُّنيوي يُؤدِّي إلى التّدنُّس: لقد رأينا ـ سابقاً ـ أنَّ المعبد كان مُقسَّماً إلى خانات، بشكل يحفظ تجنُّب مثل هذا الاحتكاك.

لكنْ؛ يحصل ـ أحياناً ـ أُمُور: أثاث المعبد قد تدنَّس كثيراً من السُّوريِّيْن، لذلك صنعنا غيره. وقد تلوَّث المعبد من الفُرْس، وانتُهكت قداسته من قبَل بُومبي **POMPEE**.

ويتَّهم جُوزف "جان" بنهب المعبد، بأنَّه دنَّس الحَرَم؛ ولأنَّه لم يحفظه من الأقذار: وأنَّه لم يُحافظ على طهارة المدينة، أمَّا الآسينيُّون من جهتهم وبعد أنْ اجتمعوا في مركز؛ حيثُ لا أحد يستطيع الدُّخُول، ولا أيُّ شخص أجنبي عن المذاهب؛ فدخلوا إلى قاعة الطّعام طاهرين من كُلٍّ دنس.

وقد رأينا ـ سابقاً ـ أنَّ التّماس الجنسي ـ بشكل عامٍّ، وخُصُوصاً العلاقة الجنسيَّة الممنوعة ـ هي التي تُدنِّس. وذلك على عكس الاختلاطات الأُخرى التي تمنع التّماس والاحتكاك بين عناصر مُتباعدة جداً؛ مثلاً بين يهُودي وغير يهُودي، وبين مُقدَّس ودُنيوي، وبين حياة وموت.

الممنوع الجنسي يتجنَّب ـ غالباً ـ المزج الذي هُو قريب جداً (ولكنْ؛ ليس دائماً، وهذا حال علاقة مع الحيوان). لكنْ؛ سواء كان المزيج الممنوع يتضمَّن عناصر قريبة جداً أو بعيدة جداً فإنَّه ـ في كُلٍّ مرَّة ـ يُوجَد في خلفيَّة الأمر، والنّهي ما يُميِّز اللاّتمييزيَّة (أيْ إلغاء الاختلاف)، التي هي المسألة المطروحة دوماً، وهكذا خلف الزّنا الذي "يُدنِّس الفراش"

ترتسم ملامح لاتمييزيَّة (إلغاء الاختلاف) بين الشّريك الشّرعي والشّريك غير الشّرعي وخلف الشُّذُوذ الجنسي والتّنكُّر بلباس الجنس الآخر (الزّيلوت دنَّسوا المدينة كُلَّها بأعمالهم القذرة) ترتسم إلغاء الاختلاف اللاَّتمييزيَّة بين الجنسَيْن.

وخلف حُبٍّ الحيوان تظهر لاتمييزيَّة بين الإنسان وغير الإنسان. وخلف المحارم، والذي عهرهم الفظيع يُدنِّس العائلة تظهر لاتمييزيَّة بين القريب جداً والبعيد.

وفي هذا النّظام المُجتمعي التي تطلب فيه الشّريعة التّمييز بين المُقدَّس والدُّنيوي، بين الطّاهر وغير الطَّاهر، وحتَّى تعليم هذا التّمييز وتدريسه، ففوضى وانتهاك الشّريعة يُمكن أنْ يُدمج إلى خليط لاتمييزي؛ أيْ يُلغي الاختلاف، يُدنِّس(لا صرخة ولا فوضى تُدنِّس مسكنهم). فمن السّرقة التي يُفترض أنَّها تُلغي الفرق في نظام الملكيَّة: " لقد نصحتهم ألاَّ يُهاجموا أحداً، وعوضاً عن أنْ يُدنِّسوا أيديهم بالنَّهْب والسَّلْب، أنْ يُخيِّموا في السّهل، مُكتفين بزاد الطّريق.

فالخيانة هي لاتمييزيَّة في نظام الانتماء: سيمُون ابن شاؤول تحزَّب إلى صفٍّ السّيتوبوليتان ضدَّ أخوته في الجنس، فقرَّر الانتحار "فليكن هذا فداء عن رجسي". . . من المزيج الثّقافي، اللاَّتمييزيَّة؛ أيْ إلغاء الاختلاف في الهُويَّة التي يعتبرها جُوزف كأنَّها تلوُّث: " لقد أُعدم "السّيتاناشارسيس" من قبَل مُواطنيه؛ لأنَّه بدا لهم عند عودته وكأنَّه تلوَّث بالعادات اليُونانيَّة " الدَّنَس يُناسبه التّطهير. يُوشع يُطهِّر دولته بطرْد الوَثَنيَّة وقَتْل كَهَنَة الأوثان الذين لم يكونوا - أبداً - من ذُرِّيَّة هاروت، وبحَرْق عظام الأنبياء الكَذَبَة، أمَّا يهُوذا مكابه؛ فَطَرَدَ الأجانب، وقَتَلَ اليهُود الكاذبين، وطهَّر المُقاطعة من القذارات التي ارتُكبت فيها.

بعد مراسم الجنازة يجب تطهير البيت من الميِّت، وتطهير سُكَّان البيت.

والموضوع - أيضاً - أنَّه يجب أنْ نفصل: نفصل الله عن الأوثان، ونفصل الأنبياء الحقيقيِّيْن عن الكَذَبَة، نفصل اليهُود عن الأجانب، واليهُود الحقيقيِّيْن من اليهُود الكَذَبَة، نفصل الحيَّ عن الميِّت. . . ويُشير جُوزف إلى أنَّ التّطهير يُمكن أنْ يتمَّ بالدّم، أو بالنّار، أو الماء، أو بعطر يُعطى تركيبه، أو باستعمال مزيج من العطر والدّم. أو بالزّمن بكُلٍّ بساطة:

الذين عندهم إفرازات مَنَويَّة. . . النّساء اللّواتي في الحيض. . . الذين اهتمّوا بالميِّت. . . أراد مُوسى أنْ ندعهم معزولين سبعة أيَّام، يُعتبرون بعدها أنَّهم طُهِّروا، ويُسمح لهم ـ بعد ذلك ـ في العودة إلى المُجتمع. . . ويُشير جُوزف إلى بعض حالات التّطهير المفروضة: تطهيرات للأضاحي مفروضة في الشّرع بعد الدّفن، وبعد الولادة، وبعد العلاقات الجنسيَّة، وفي كثير من الحالات الأُخرى.

يجب ـ إذاً ـ التّطهُّر فور حُصُول احتكاك بين ما هُو ـ طبيعيّاً ـ مفصول: الحياة والموت، داخل ـ رحمي وخارج ـ رحمي ـ الرّجل والمرأة، الدّم والجلد. والأفضل من ذلك نعرفه هُو ألاَّ يحصل الاحتكاك.

وهكذا؛ فالحواجز هي التي تحفظ للمعبد طهارته: كُلُّ الذين شاهدوا بناء معبدنا يعرفون ماذا كان ويعلمون الحواجز المنيعة التي تحمي طهارته".

وهكذا؛ فإنَّ العُلُوَّ حاجز دفاعي يُعطي للهواء طهارته الضّروريَّة لحفظ الأغذية في مسعدة: نستطيع ـ دُون أنْ نُخطئ ـ الافتراض أنَّ هذا الحفظ كان بسبب الهواء الذي بفعل العُلُوِّ هُو نقي من كُلِّ اختلاط أرضي ومُتوحِّل.

وهكذا؛ فهي حواجز الشّريعة هي التي تحفظ للشّعب اليهُودي طهارته: بينما اليُونان والمقدونيُّون يختلطون، فإنَّ جنسنا ـ على العكس ـ قد بقي صافياً" حسب قول جُوزف، فكُلَّما كان الانفصال عن الأرضي المُوحل كبيراً وهاماً ظلَّ اليهُودي طاهراً من كُلِّ دَنَس.

فإذا عُدنا إلى المعبد نجد درجات الطّهارة قد تجسَّدت في المسافة بأروقة مُتمركزة. فهي محروسة في الرّواق الخارجي، الجميع يُمكنه الدُّخُول، حتَّى الأجانب، لكنْ؛ ليس النّساء اللّواتي في حيضهنَّ. في الرّواق الثّاني؛ تدخل منه النّساء الطّاهرات من كُلِّ دَنَس، ، وفي الثّالث؛ اليهُود الذُّكُور دُون وصمة ومُطهَّرون. وفي الرّابع؛ الكَهَنَة. وأخيراً؛ في قُدس الأقداس لا يدخل إلاَّ رُؤساء الكَهَنَة. هذا الفصل الأساسي هُو شرط وحال المُقدَّس. ويقول جُوزف: لقد فصل مُوسى قبيلة ليفي عن الشّعب، ليجعل منها قبيلة مُقدَّسة، لقد طهَّرها بماء الينابيع التي لا تجفُّ. . . وعلى العكس؛ فإنَّ الخليط ـ يصفه جُوزف ـ وكأنَّه كارثة رهيبة: جُثث الأجانب مُختلطة مع جُثث اليهُود، والعوامُّ مع جُثث الكَهَنَة، وكانت كُلُّها معجونة

بصفيحة واحدة، ودم هؤلاء الأموات من كُلِّ الانتماءات اتَّحدوا في بركة داخل الباحات المُقدَّسة، آه؛ يا لأتعس المُدُن! أيُّ مثيل لألمك هذا بسبب الرُّومان الذين دخلوا ليُطهِّروك من نجاساتك بالنّار؟

المعبد طاهر؛ لأنَّه مُحَوْجَبٌ، مُقسَّم، ويُميِّز، ويفصل بين المُقدَّس الأعظمي في قلبه، مُتناقصاً خُرُوجاً باتِّجاه المُحيط، والدَّنس منبوذ إلى الخارج، خارج "المكان المُقدَّس" خلف الحاجز الحجري الذي يجب ألاَّ يجتازه الأجانب.

وعلى العكس من ذلك؛ فإنَّ القذر والدّنس هُما علامة الذي ليس مفصولاً، والذي هُو بحالة تماسٍّ؛ مثل المَرَض بخُرُوجه ونُزُوفه وتشوُّهاته يسمح بخليط، واحتكاك قذر بين الذي في الجسد؛ حيثُ تكمن الرُّوح وبين الذي خارج الجسد. (أنتُم لستُم أسياد الدّم؛ لأنَّه فيه تكمن الرُّوح. فتماس بين الدّم والجسد (أو القُبح): "والأسينيُّون من واجبهم أنْ يكون جلدهم ناشفاً"، والمريض يُقيم تماساً بين الحياة والموت، السّليم وغير السّليم الفاسد، العاجز والعاهة هُو مزيج من إنساني وغير إنساني، من إنسان وحيوان؛ مثل الشّاذّ جنسيّاً، أوالمُتنكِّر، هُما خليط من إنسان وامرأة.

الجسد هُو انعكاس الرُّوح، والعكس صحيح: عندما تبقى الرُّوح في الطّهارة.. تعود فتنزل وتسكن أجساداً بلا دَنَس" يقول جُوزف إنَّ "طُول القامة" وجمال" أريستوبول" أظهرا عَظَمَة جنسه. وعلى العكس من ذلك؛ فإنَّ الجسد المُشوَّه بالألم المُتآكل والمُتقيِّح للمريض هُو دلالة دناءته (الدّناءة هي ذاتها الدَّنس: "فيروراس" مُدنَّس بالدّناءات).

الكفر هُو سبب المَرَض: أراد الله لهيرُود أنْ يتألَّم تكفيراً عن كُفْره، سوف يزداد مَرَضه على الدّوام... كان ذلك عقاباً واضحاً من الله، ليُقاصصه على وحشيَّته وكُفْره، وفي حقيقة الأمر؛ كان مَرَض هيرود يُظهر علامات "خليط" قرحات، قولنج، وديدان تخرج من جسده الفاسد، نَفَسه الكريه... فيُعطي جُوزف أمثلة عن الأمراض التي يُسبِّبها الله كعقاب: "مرض كاتولوس الذي كان يرى أشباحاً، ويُفرغ أمعاءه المُتآكلة بالتّقرُّحات". مرض "ألسيم" الذي مات في آلام مُستمرَّة وغير مُحتملة.

كان هُناك طاعون في زمن هيرُود، إنَّه انتقام من الله على الجريمة التي ارتُكبت بالإدانة الظّالمة لمريم؛ لأنْ يَهْوَه (على قول جُوزف) من عاداته أنْ يُعاقب بالجُوع والطّاعون. ويُشير

جُوزف - أيضاً - إلى الجُذام، لكـنْ؛ حتَّى لا يبتعث أُسطُورة الإسرائيليِّين الجُذاميِّين حذف جُذام ميريم في الكتاب الثّالث من العُصُور القديمة.

قد أشار جُوزف إلى أنَّ مُوسى قد طَرَدَ من البلدة كُلَّ الذين أُصيبوا بالجُذام. وكَتَبَ أنَّ أُورشليم كانت ممنوعة على المُصابين بالتّعقيبة والجُذام. وأكَّد أنَّ السّامريِّيْن كانوا يفعلون الشّيء نفسه: كانت عادة عن السّامريِّيْن أنَّ الجُذاميِّيْن لا يمكثون في المُدُن، ولا يُخفي جُوزف أنَّ الجُذامي منبوذ "لقد طَرَدَ مُوسى - نهائيّاً - الجُذاميِّيْن عن البلدة: فهُم يعيشون وحيدين، وهُم كالأموات. هذا؛ وإذا شُفي الجُذامي بعد أنْ تضرَّع إلى الله، واستعاد صحَّة جلده، فهُو يُقدِّم أضاحي كثيرة كعمل برٍّ.

ولا يُخفي - أبداً - أنَّ الجُذامي يخضع لقَمْع تمييزي لا تفرضه عليه باقي الشُّعُوب، فهُو يظهر أنَّه لا يتمتَّع - بحسب الشّريعة - بأيِّ اعتبار، بل على العكس من ذلك، فهُو محروم، وجُوزف مسرُور بذلك.

وفي تهافته على أبعاد الأُسطُورة عن أصل الجُذاميِّيْن الإسرائيليِّيْن كَتَبَ بعد أنْ أبدى نَبْذَ مُوسى للجُذاميِّيْن: " لذلك يبدون مُضحكين الذين يزعمون أنَّ مُوسى نفسه هرب من مصر، لأنَّه كان مُصاباً بالجُذام، وأنَّه ساق معه المُصابين المنفيِّين إلى كنعان. لو كان الأمر صحيحاً لما وضع مُوسى مثل تلك الشّرائع التي كانت لتُحقِّره هُو نفسه. وحتَّى لكان اعترض عليها لو أنَّ غيره أراد إدخالها.

على أيِّ حال؛ فإنَّ شُعُوباً عديدة كانت تسمح للجُذاميِّيْن أنْ يبقوا في وسطها، وكانوا يتمتَّعون باعتبار جيِّد، وكانوا بعيدين عن تحمُّل الشّتائم والعار والنّفي، على العكس من ذلك، كانوا يُكلَّفون بقيادة البعثات العظيمة ذات المهمَّات العامَّة والمُشرِّفة، وحتَّى أنَّهم كان مسموح لهم أنْ يدخلوا الأماكن المُقدَّسة والمعابد. لا شيء كان يمنع مُوسى لو أنَّه كان مُصاباً هُو والشّعب المُرافق بمَرَض جلدي من هذا النّوع أنْ يشترع للجُذاميِّيْن قوانين لمصلحتهم، وألاَّ يُشرِّع ضدَّهم أيَّ إجراء تمييزي. لكنْ؛ من الواضح أنَّ الذين يتكلَّمون هكذا عنَّا يُحاولون تحقيرنا بفعل الغيرة، وأنَّه من الصّفاء أنْ يُشرِّع مُوسى لهذه الأمراض وفي وسط المُواطنين السّليمين، واضعاً أمام عينَيْه شرف الله. ولكُلٍّ أنْ يُشكِّل رأيه كما يشاء، وعلى هواه.

فالشّتيمة، العار، النّفي، إجراءات تمييزيّة يخضع لها الجُذاميُّون في سبيل شرف الله، ولكي لا يُصيبوا طهارة الإسرائيليِّيْن.

مرَّة أُخرى؛ تُوقف التّبريرات الدِّينيَّة ضمير جُوزف عن العمل. إنَّه يرى جيِّداً اضطهاد الجُذاميِّيْن، لكنَّه يقبله، ويتبجَّح به.

فالشّرع في "فُوبيا الآخر" انتزع منه وجرَّده من كُلِّ حسٍّ أخلاقي، وعَدَّلَ، وحَيَّدَ إمكانيَّته في المُحاكمة.

فجُوزف ليس يهُوديّاً أكثر قساوة من غيره من اليهُود: فهُو مُرتهَن ومسلوب برسالة تُكَنْعِنُ (من كنعان) الجُذامي، وتجعل منه كائناً نجساً. إذاً؛ فهُو للإبادة حتماً، بقُوَّة القانون....

فيُوجد هُنا علاقة (ضيِّقة)حميمة بين النَّبْذ والطّهارة. فيكتب جُوزف: يمنع مُوسى على الجُذاميِّيْن أنْ يسكنوا في مدينة، أو أنْ يبقوا في قرية. كذلك الذي لَمَسَهم، أو عاش معهم تحت سقف واحد، فهُو نجس برأيه.

وحتَّى لو أنَّ المريض شُفي، وعادت له صحَّته، فيفرض عليه ـ إجباريّاً ـ تطهيرات وغسل الدّنس، وذلك بالاستحمام في مياه نبع، وأنْ يحلق شعره كاملاً، كما يأمره بإجراء أضاحي عديدة مُتنوِّعة قبل أنْ يدخل إلى المدينة المُقدَّسة.

بينما لو كان هُو ضحيَّة هذه المُصيبة وهذه الآفة لاستخدم عنايات حكيمة وإنسانيَّة تجاه المُصابين بالكارثة نفسها....!!

هل يُعقل أنْ يكون قد شرَّع بدُون حُسْن توجُّه، أو أنْ يكون أشخاص مُجتمعون بعد حُصُول مثل هذه الآفة، وأنْ يقبلوا قوانين وُضعت ضدَّهم، ولعارهم، وعيبهم، وعلى حسابهم؟ (جُوزف) أمَّا الدّنَس المُفترض للّذي يُبدي اختلافاً يُشَرْعِنُ قوانين تمييزيَّة يعتبرها جُوزف في مكانها.

وطبيعي جداً ـ في ذهنه ـ أنْ تكون هذه القوانين قد وُضعت ضدَّ الجُذاميِّين، ولعارهم، وأنَّهم لن يحصلوا لا على عنايات حكيمة ولا إنسانيَّة. مرض الجُذامي يُخرجه "out" خارج الشّعب الطّاهر السّليم والمُتفوِّق. فالتّميز الذي سوف يخضع له ـ مُنذُ الآن ـ هُو تميز عُنصُري

أكيد: يُصبح الجُذامي أجنبياً؛ فهُو مطرود من البلدة. ومثل كُلِّ اليهُود - مسلوبين بأيديُولُوجيا العهد القديم - يقبل جُوزف هذا العَزْلَ، ويُبرِّره بإيديُولُوجية الطّهارة التي تُخفي - بشكل سيِّئ - طبعه العُنصُري. وهُنا - أيضاً - تنقلب "فُوبيا الآخر" (أو الغَيْرِيَّة المَرَضيَّة) ضدَّ الدّاخل، لتقمع الذين يُظهرون اختلافاً. إنَّ قوانين الطّهارة لها انعكاسات اجتماعيَّة هامَّة جداً. يتكلَّم جُوزف عن سبع درجات من الطّهارة تقسم مساحة المعبد "بيير سافينيل"[1] الذي يرجع إلى "تيودور رايناخ" يُعدِّدهم حسب الميشنا: المدينة، باحة الرِّجال، باحة الكَهَنَة، قُدس الأقداس. فمن الجُذامي الذي لا يستطيع أنْ يدخل المدينة المُقدَّسة، وإلى رُؤساء الكَهَنَة الذين يدخلون قُدس الأقداس، تنتظم مراتب اجتماعيَّة كاملة مبنيَّة على طهارة الجسد، وبالتّالي؛ على طهارة الرُّوح.

وهكذا؛ فالكَهَنَة هُم بلا عيب. ، أطهار بكُلِّ المقاييس. فتُعتبَر جريمة، تدنيس طهارة النّظام الكَهَنُوتي بالخليط مثلاً. لذلك؛ لا يستطيع الكاهن أنْ يتزوَّج لا عاهرة، ولا خادمة، ولا امرأة طلَّقها زوجها، ولا أسيرة حرب.

ولا يقبلون - أيضاً - اللَّواتي كُنَّ سجينات، إذْ بدعوى أنَّهن كان لهنَّ علاقات مع أجانب: لقد اتَّخذ اليهُود إجراءات مُحكمة حتَّى تبقى ذُرِّيَّة الكَهَنَة طاهرة من الخليط، وبدُون دَنَس. والذي يُشارك بالكَهَانَة يجب عليه - إنْ كان يُريد أنْ يتزوَّج - أنْ يتزوَّج امرأة من نَفْس الأُمَّة، دُون اعتبارات الثّروة ولا الميزات الأُخرى، وأنْ يُجري تحقيقاً عن أُسرتها، واستخراج شجرة العائلة من الأرشيف، وأنْ يُقدِّم شُهُوداً عديدين. . . . الرِّجال الذين من ذُرِّيَّة الكَهَنُوت يُرسلون إلى أُورشليم لَقَبَ المرأة مع لائحة بأسماء الآباء والأجداد وأسماء الشُّهُود. يجب على الكاهن أنْ يكون خالياً من أيِّ عيب في جسده.

ويُؤكِّد جُوزف أنَّ الآلهة (وليس الله؟)" يغضبون ضدَّ الكُفْر، وليس ضدَّ عاهات الجسد، لكنْ؛ أليست العاهة بذاتها عقاب إلهي؟ ألا تُردُّ إلى دنس أصلي وإلى عدم طهارة؟.

وجُوزف - الذي بالنّسبة له اليهُود ليسوا لا مصريِّين جُذاميِّين ولا مصريِّين ذوي عاهات - يُؤكِّد أنَّ مُوسى شَرْعَنَ ضدَّ الجُذاميِّين وضدَّ كُلِّ الذين في جسدهم تشوُّه أو بَتْر، ولو حتَّى

---

(1) ب. سافينيل، ترجمة وتعليق على حرب اليهُود لفلافيوس جُوزف، باريس، مينوي 1977.

طفيف: ليس من حقِّهم أنْ يُصبحوا كَهَنَة. وهكذا؛ أُبعد هيكران من التّضحية الكبيرة بعد أنْ قطعوا له أُذنَيْه. فمُقابل تميُّز ونُبل الكاهن يظهر الوضع المُعاكس والمُتعارض والذي هُو في السُّلَّم الاجتماعي يُشَكِّل الانحطاط، وهُو العبد الخادم. هذا التّرتيب الاجتماعي له علاقة بطهارة الأفراد. وجُوزف يُورد قصَّة اليُوناني الذي حُبس في المعبد؛ حيثُ دُهن بالدّسم من قبَل الخدم بُغية تضحيته بعد ذلك، فجُوزف يُنكر هذه الأُسطُورة... خَدَمٌ يدخلون في مكان لا يدخله أنبل اليهُود إذا لم يكونوا كَهَنَة... فالطّهارة والنُّبل هُما صفتان مُتلازمتان؛ كلاهما موُجُودتان في أقصى وذروة حالتها عند الكاهن وأقلّ عند الخادم، لذلك؛ يخضع هذا الأخير للنَّبْذ الرُّوحي والاجتماعي.

ومن وُجهة النَّظَر هذه ألا يجب أنْ نُفسِّر إرادة جُوزف أنْ يجعل من بيلها وزيلبا تابعتَيْن، وليستا خادمتَيْن أو أَمَتَيْن، وقد أنجب منها يعقُوب أربعة أطفال؟!.

هذه الطّهارة وهذا النُّبل الذي يتجسَّد في الكَهَانَة هي أُمُور وراثيَّة. وقد أكَّد جُوزف ذلك: أنا تلقَّيتُ الكَهَانَة مُنذُ ولادتي؛ النُّبل والفضيلة ينتقلان من الأهل إلى الأولاد: الأولاد الذين يلدون من أهل أفاضل يكون عندهم طبيعة نبيلة وأكثر ميلاً للفضيلة، وبالتّالي؛ الفساد هُو ـ أيضاً ـ وراثي.

هذا النُّبل الوراثي لجنس الكَهَنَة يُعطي حُقُوقاً للكاهن، وهي الأمر: إذا عصاه أحد يُعاقَب ككافر تجاه الله نفسه، وحقٌّ إدارة الدّولة: ويكتب جُوزف بلَوعة ومرارة أنَّ الرُّومان نقلوا المُلك إلى رجال لم يكونوا من عائلات مرموقة، إذْ كان ـ من قَبْلُ ـ محصوراً في ذُرِّيَّة الكَهَنَة، حقٌّ عدم العمل للأوّيِّيْن، فهُم مُقدَّسون معفيُّون من أيِّ تكليف أو عبء.

إذا كان الكاهن نبيلاً وطاهراً في كُلِّ المقاييس يقود ويحكم العبد النّجس، فهذا (العبد) يجب عليه أنْ يُطيع ويخضع لظُرُوفه سلبيّاً في عالم دنس: فالرّجل عندما يُستَعْبَد ويُحاول الهُرُوب يكون عبداً عاصياً، وليس مُحبّاً الحُرِّيَّة: على قول أغريبا.

ويقول جُوزف إنَّه حقٌّ أنْ يُعاقَب العبيد الهاربون حتَّى لو هربوا من عند سيِّد سيِّئ. ويقول جُوزف إنَّ العبيد لا يُمكنهم الشّهادة: لا يُقبل العبيد في الشّهادة؛ لأنَّ انحطاط وضعهم يطرق القلب، وقد يحملهم الخوف والفائدة إلى الشّهادة ضدَّ الحقيقة. كذلك لا يُمكنهم الزّواج إلاَّ من طبقتهم.

ويُجري جُوزف مُقاربة كلاسيكيَّة جداً عن العُبُوديَّة، مُقاربة ليست مُضادَّة لمُقاربة التّوراة. يبدو أنَّه يجد الأمر طبيعيّاً أنْ ينحني العبيد أمام أسيادهم، وألاَّ يكونوا جاحدين، ولا زاهين تجاههم. وهُم لا يشهدون. وجُوزف ينتقد كاليكولا الذي لم يخجل لأنَّه سمح للعبيد باتِّهام أسيادهم (POLLUX وهكذا؛ فإنَّ بُولُوكس وقد تجرأً وشهد ضدَّ سيِّده) ولسُلُوكه الفظيع لأنَّه كانت نتيجته أنْ رفع العبيد فوق أسيادهم، وحسب جُوزف؛ مَنْ بكى موت الإمبراطُور، فقط؛ هُم الجُنُود (لأنَّهم استغلّوا من قَمْع هذا الإمبراطُور) النّساء والشّباب (بسبب المسرحيَّات والملاهي والبحبوحة التي كان كاليكولا مُسرفاً فيها) والعبيد (بسبب الحُرِّيَّة التي أعطاهم إيَّاها، ليس - فقط - باحتقار أسيادهم، إنَّما - أيضاً - باتِّهامهم ضلالاً دُون أنْ يخشوا العقاب.

نساء وشبَّان وعبيد: ثلاث طبقات طهارتهم قليلة ومنقوصة[1] أربع إذا أضفنا الجُنُود الذين يُشاركون في الطّغي ويتدنَّسون بإراقتهم دماء مُواطنيهم. هل يُذكِّرنا دَنَس الإمبراطُور الطّاغية بدَنَس الطّبقات الأقلّ طهارة؟.

فجُوزف - الذي كان في الفصل السّابق حَدَاثيّاً - يرد - هُنا - جُوزف المُلتزم والتّقليدي. فهُو لا يُهمل أيّاً من المبادئ الكبيرة التي يجب أنْ تحكم الحياة الدّاخليَّة للمُتَّحد. فهُو صلب فيما يتعلَّق بالموانع الجنسيَّة وقوانين الزّواج وقوانين الطّهارة، حتَّى لو أصبح قانون المملكة هُو القانون (أيْ مملكة الكُفَّار)، فإنَّ احترام اليهُود للقواعد الدّاخليَّة تسمح لهم بالاحتفاظ بهُويَّتهم. ويجعل جُوزف من نفسه النّاطق بلسان الخُصُوصيَّة اليهُوديَّة، وهذا كان هدف "ضدَّ أبيون"؛ حيثُ يُدافع عن العُصُور القديمة للشّعب اليهُودي، إذاً؛ عن نُبله، وكذلك عن القوانين الدِّينيَّة والعادات وميزة الشّعب المُختار. فإنَّ جُوزف لا يكتفي بالرّدِّ على مُهاجمات اللاَّساميَّة؛ إنَّما - أيضاً - يعرف كيف ينتقل إلى المُهاجمة، ليفضح ويُسفِّه - مثلاً - ابتذال بعض المُعتقدات الدِّينيَّة.

(1) بالنّسبة للشّباب انظر GJ 4. 150: عند الأسينيِّين إذا لمس عجُوز شاباً، فيأخذ حمَّامه، ويغتسل، وكأنَّه تلوَّث

فجُوزف يعرف كيف يُجازف في المادَّة الدِّينيَّة، خُصُوصاً. أمَّا فيما يخصُّ الباقي؛ فهُو ليس على تعارض مع مُعاصريه غير اليهُود.

كما أنَّ نقده للشُّذُوذ الجنسي (اللّواط)[1] لا يصدم قُرَّاءه اليُونان ـ الرُّومان الذين هُم ـ بدورهم أيضاً ـ يدينون ذلك بشدَّة.

على أيِّ حال؛ فقد سُنَّ قانون عام 226 ق. م، واسمه ليكس سكانتينيا **Lex scantinia** يحكم بالنَّفي بعيداً عن رُوما وغرامات ثقيلة لأيِّ إنسان يثبت أنَّه مُتورِّط في علاقات شاذَّة وخُصُوصاً مع طفل، وفي اليُونان، حتَّى استطاعوا أنْ يتساءلوا حول مكانة الشَّاذِّ الحقيقيَّة.

كذلك وضع المرأة التَّابع يُمكن أنْ يُناسب بعض قُرَّاء جُوزف الرُّومان الذين اصطدموا بدور النِّساء المُتصاعد مُنذُ نهاية الجُمهُوريَّة. في المقطوعات السَّاخرة لجوفينال تُظهر أنَّ هذا التَّحرُّر لم يكن طبيعيّاً عاديّاً.

ويعرف جُوزف كيف يكون مُتكتِّماً وأقلَّ مهذاراً وإكثاراً حول العادات اليهُوديَّة التي يُمكن أنْ تصدم قارئه، فهُو يتحدَّث قليلاً عن تعدُّد الزَّوجات، أو عن الليفيرا (زواج السِّلْف)، حتَّى لو أنَّه لم يُنكرهما أبداً.

وبالمُقابل؛ يبقى ثابتاً حول الموانع الزَّواجيَّة، ويعلن ـ بوُضُوح ـ أنَّه ضدَّ الزَّواج المُختلط. ويُظهر كُلَّ قساوة قوانين الطَّهارة، فنحن ـ هُنا ـ في مجال القوانين الدِّينيَّة التي يُمليها الله، ولا يُوجد ـ هُنا ـ مجال للمُخالفة أو التَّخفيف. هذه هي القوانين العبرانيَّة التي تُؤدِّي إلى فَصْل اليهُود عن الأُمم الكُفَّار، وإلى حَوْجَبَة داخليَّة للمُجتمع اليهُودي نفسه ـ هي قوانين كارهة الأجانب التي يعترض عليها الكُتَّاب الكُفَّار كما رأينا في المُقدِّمة، وليس وضع المرأة أو مُعاملة اللّواطي، كذلك قوانين النَّبذ والاستثناء التي يُحاول جُوزف ـ بمنطق ـ أنْ يُسفِّهها في « ضدَّ أبيون ».

---

(1) م سارتر. اللّواطيَّة في اليُونان القديم، عدد ظهر في التَّاريخ رقم 76 آذار 1985.

الخاتمة

هذه الجولة الصّغيرة في فُوبيا الآخر" وقد انتهت، يبدو أنَّها تظهر - بوُضُوح - في أهمّ النُّصُوص اليهُوديَّة، حتَّى الأناجيل: نُصُوص العهد القديم، ما بين العهُود، العهد الجديد.

ونكتشفها - أيضاً - في التّلمُود؛ وحيثُ بدأ العمل بالميشنا بعد خراب المعبد.

وتُعبِّر عن نفسها - أيضاً - بأوجه مُتعدِّدة في مُؤلَّفات جُوزف. وتظهر - أخيراً - في أعمال الكُتَّاب الوَثَنيِّين الذين كانوا يستنكرون بعض مظاهرها.

وبدُون أدنى شكٍّ؛ هُناك مسألة الآخر التي تطرح نفسها في العالم اليهُودي، وإنَّ هذه المسألة هي ذات صبغة دينيَّة، هذا أمر أكيد، ولا يُعارَض: لأنَّه - هُو - يَهْوَه الذي يأمر ويفرض قوانين فُوبيا الآخر (الغَيْريَّة المَرَضيَّة)، فهُو الذي يأمر بالنّفي والإبادات. هذا التّبرير الدِّيني للتّمييز العُنصُري لا يُبرِّئ - أبداً - الذين يُطبِّقونه، أو الذين يضعونه في أولويَّات هذا البُعْد الدِّيني، حتَّى يُقبل بشكل أفضل في يومنا هذا.

أنْ تكون المسألة مُرتبطة بمُعضلة المُقدَّس والدُّنيوي هذا - أيضاً - أمر واضح، فبعد أُضحية العهد أصبح الشّعب اليهُودي أُمَّة مُقدَّسة؛ وخاصَّة (سفْر تثنية الاشتراع 6. 7) فهُو ينتقل من المجال الدُّنيوي إلى المجال القُدسي، طبقاً لعمليَّة وصفها هُوبير ومُوسى: (في كُلِّ تضحية كُلُّ شيء يمرُّ من المجال العامِّ إلى المجال الدِّيني، وهُومُقدَّس مُكرَّس)[1]. ومُنذُ ذلك الحين؛ فإنَّ الاحتكاك الدُّنيوي ممنوع تحت طائلة التّدنُّس، فيجب عليه أنْ ينفصل عن القذر، وألاَّ يتغذَّى إلاَّ بالأشياء الطّاهرة، وألاَّ يسكن إلاَّ الأرض المُقدَّسة.

المُقدَّس لا يُنظر إليه وكأنَّه مجال خاصٌّ خارج عن المجمُوعة، فهُو ليس مفصولاً كما يعتقد جيراد الذي يضع - بالتّوازي - المُقدَّس مع العُنف المُتبادل[2]. على العكس؛ هُنا شعب

---

(1) هـ - هُوبير ومُوسى، تجربة حول طبيعة ووظيفة الأُضحية في م. مُوسى، أعمال، جُزء8، باريس مينوي 1968.

(2) جيراد، العُنف والمُقدَّس، باريس، غراسيه 1972.

كاهن الذي يُسمَّى ـ مُنذُئذ ـ باسم يَهْوَه ، قد وُلد من جديد ، وذلك في سلسلة عمليَّات دمويَّة مقرونة ـ غالباً ـ بتغييرات في الاسم ، إلى تراكم إضافي للمُقدَّس (مُوسى : إنَّ تغيير الاسم ـ غالباً ـ يقترن بعمليَّة إعادة خَلْق الفَرْد) .[1]

لقد سبق وبحثنا عمليَّة التّقديس في الفصل الأوَّل عبر معركة يعقُوب / إسرائيل ، وعبر ختان أبرام/ أبراهام ، وعبر عهد شعب إسرائيل الذي سمَّوه باسم يَهْوَه ، وعبر تطهير كنعان/ الأرض المُقدَّسة ، إنَّ أُضحية العهد لا تُخرج المُقدَّس خارج الشّعب ، إنَّما تُكثِّفه وتُركِّزه داخل الشّعب . لذلك ؛ أصبح بإمكان يَهْوَه الذي هُو ذروة القداسة أنْ يسكن ـ مُنذُ الآن فصاعداً ـ وسط الإسرائيليِّين دُون أنْ يتدنَّس . لذلك ـ أيضاً ـ يُستبعد البعيد جداً والدُّنيوي جداً ، أو حتَّى يُباد .

وإذا تحقَّقنا من طُقُوس دُخُول الشّعب اليهُودي إلى مجال المُقدَّس (ختان ، " تهيئة لنُور الله " (خُرُوج 19 ـ 10 ـ 25) أُضحية العهد . .) فإنَّنا لا نُميِّز مَنْ يُسمح له أنْ يستأنف علاقته مع الدُّنيوي ، وذلك طبقاً لتصوُّر mauss[2] الذي وُصف فيه خُرُوج الأُضحية . فمُنذُئذ التّماس مع الدُّنيوي لم يَعُدْ مُمكناً : وقداسة الشّعب المُختار ثبتت ، وباتت محتومة ، نهائيَّة لا رُجُوع فيها ، وانفصالها عن الآخر ، الدُّنيوي ، المُدنَّس أصبح غير مردود . إذاً ؛ لم يكن جيرار على خطأ عندما قارب بين المُقدَّس والعُنف : " التّوراة هي نصُّ اضطهاد " ولم يُفضح أبداً بهذا الأمر الذي باسم المُقدَّس يُعطيك ويُقدِّم لك شرعيَّة الفصل والإبادة للقذر جداً والآخر جداً . ويبدو أنَّ الكنعاني هُو كبش الفداء لم يُبرَّأ أبداً ، فهُو يُمثِّل ـ دوماً ـ الآخر الذي يُوضع له مبدأ الإبادة الفيزيائيَّة .

وفي تصوُّر maus للأُضحية والتي يصفها أنَّها بشكل أساسي موضوع أفراد مثل المُضحِّي ، الكاهن ، مُقدِّم الذّبائح ، والضّحيَّة الوسيطة ، والأُلُوهة . غير أنَّه في نصِّ التّوراتي يشمل التّصوُّر الإنسانيَّة جمعاء ، مُقسَّمة ـ بحسب جنسها ـ بين كَهَنَة مُقدِّمي الذّبيحة وبين مُضحِّين وبين ضحايا ، وليس أفراداً أو مجمُوعة ضيِّقة . وهكذا ؛ فإنَّ الدّور الدِّيني للكاهن

---

(1) هـ ـ هُوبير ومُوسى OP.CIT .

(2) هـ ـ هُوبير ومُوسى OP.CIT .

مُقدِّم الذّبيحة هُو محصور في شعب كاهن هُو الشّعب اليـهُودي، أمَّا الـدّور المُضحّي؛ فـهُو "للنّاجين من الأُمـم" الإنسانيَّة المجهولـة الحياديَّة التـي يتكلَّـم عنـها نـهير[1]: ودور الضّحيَّــة الوسيطة (للهُولُوكُوست) للمحرقة هُو للشُّعُوب (الجُهنَّميَّة الخبيثة): وهكـذا ضُحّـي بسبعة شُعُوب الشّيطانيَّة على شرف يَهْوَه لتطهير وتقدِّيس أرض كنعان.

يصف مُوسى maus أيضـاً طُقُـوس دُخُـول المُضحِّي فـي مجـال الأضـاحي، ويجب أنْ يتطهَّر، يُمكننا أنْ نُقارن هذه الطُّقُوس في الدُّخُول إلى مُمارسة قانون السّبت دُون أنْ يُدنَّس، والذي يجـب أنْ يتَّبعه أبنـاء الأجـانب حتَّى تُقبـل أضاحيـهم بفضـل شفاعة وتوسُّط "شـعبه الخاصِّ"، هُنا ـ أيضاً ـ يبدو أنَّ التّصوُّر المرسوم يقع ليس على مُستوى المُمارسة الدِّينيَّة الفرديَّة المحدودة في زمن دُخُول الفرد في مجال الأضاحي، إنَّما على مُستوى شُـعُوب وتغيير عميـق ودائم لطُرُق حياتهم.

ففُوبيا الآخر هُنا أو (الغَيْريَّة المَرَضيَّة) هي عمليَّة دينيَّـة أساسيَّة، مُرتبطـة بتقديـم الطّاهر والنّجس، الدّنيوي والمُقدَّس؛ حيثُ جدليَّتها تلعب مع الشُّعُوب والبشـريَّة جمعـاء بكاملـها. أمَّا في العالم اليُوناني؛ فعلى العكس من ذلك، يُردُّ إلى الرّابـط النّظامي للبشـر فيمـا بينـهم، إلى اجتماعيَّة لا تخرج عن إطار المَدَنيَّة[2]. المُتديِّن اليُوناني يُردُّ إلى تأسيس المَدَنيَّـة[3] بمُؤسَّسـة الأُضحية، فهُو يختلف ـ ظاهريّاً ـ عـن المُتديِّـن اليـهُودي الـذي تُـردُّ مُؤسَّسته الأُضحويَّـة إلـى الإنسانيَّة المفروزة والمُرتَّبة في مراتب، إذاً؛ شكلٌ مُعلنٌ من كُره الأجانب والتّميز العُنصُري.

لقد أشرنا أنَّ الكُتَّاب القُدامى قد سبروا جيِّداً هذا الكُـره للأجـانب، ونوَّهـوا عنه بمـرارة. هُنا سُؤال يطرح نفسه وهُو ماذا عن تفرُّد هذه الفُوبيا ـ الآخر باليهُود؟. هل هي فريدة من نوعـها في العـالم القديـم؟ أم أنَّنـا نُصـادف تصرُّفـات مُماثلـة فـي مكـان آخـر؟ سـوف نُلخِّص ـ بداية ـ الجواب في نُقطة أُولى، وفي الثّانية؛ سوف نضع النّقاط على نوعيَّة الفُوبيا اليهُوديَّة التي تجنَّدت في شريعة أزليَّة. وفي الثّالثة؛ سوف نردُّ بعض الحوادث التّاريخيَّة لهذه الفُوبيا الآخريَّة).

---

(1) آ ـ نيهير ـ الهُويَّة اليهُوديَّة، باريس سيفير 1989.

(2) م ديتّين وج ب فرنان، مطبخ الضّحيَّة الذّبيحة في بلاد اليُونان، باريس غاليماد 1979.

(3) انظر أيضاً ج. ل دوران، ضحيَّة ومحراث في اليُونان القديم، باريس (الاكتشاف) 1986 لاديكوفيرت.

فُوبيا الآخر - أو الغَيْرِيَّة المَرَضيَّة

هل هي موقف خاصٌ ونوعيٌ باليهُود؟

في الغناء رقم 6 VI من الأُوديسة يقول نوسيكا لأوليس الأجنبي الغريب: ... بما أنَّك ها هُنا في مدينتنا وأرضنا، لا تخشى أنْ ينقصك لا ثياب ولا شيء يجب أنْ يُعطوه في مثل هذه المُقابلة للمُتوسِّل (الفقير) أو المسكين. سأكون دليلك إلى البُرج، وأقول لك اسم شعبنا. . . "

السّينويس يُؤكِّد لأُوليس الذي هُو من أرض أُخرى ومن شعب آخر ومدينة أُخرى: المُضيف والمُتوسِّل أليسا أُخوة لما يحفظ في القلب بعض الحكمة؟ غناء VII. هل هُناك من وُجهة نَظَر الغَيْرِيَّة أو الآخر تباعد بين العالم اليهُودي والعالم اليُوناني؟.

من المُناسب من جهة التّنويه لهذه الكلمات اليُونانيَّة لمصلحة الأجنبي، ومن المُناسب - أيضاً - تقريبها من بعض إجراءات الشّرعيَّة اليهُوديَّة التي بحثنا فيها في الفصل الأوَّل تدابير تحمي الأجنبي، وتأمر بمحبَّته إذا كان لا ينتمي لبعض الشُّعُوب ويُوافق في التّخلِّي عن هُويَّته (الدِّينيَّة خاصَّة) ويقبل وضعاً تمييزيّاً. من الهامِّ؛ الإشارة - أيضاً - أنَّه مهما كان الوضع الممنوح للأجنبي في العالم اليهُودي وفي العُصُور الذي كان فيها مسموحاً، يأخذه القانون في حسابه، وهذا لا نجده في كُلِّ مكان، ويُشَكِّل تطوُّراً في معنى قبُوله. ففي رُوما لم يتعرَّف القانون القديم إلاَّ على أب العائلة الذي يتمتَّع بسُلطة كاملة على عبيده وأولاده وزوجته. أمَّا موقف اليُونان من الآخر؛ ففيه التباس أكثر ممَّا ظهر لنا في البدء مع الأُوديسة. يُظهر [ف. هارتوغ][1] مثلاً: أنَّ هيرُودُوت يُفكِّر في الآخر بشكل انفصالي بين "هُم" ونحنُ"، بين السّيت (قوم) مثلاً واليُونان، موضوع المرجعيَّة. ولطرح اختلاف، بنى هيرُودُوت مُخطَّطاً عكسيّاً يُترجم الغَيْرِيَّة في ضدِّ - الذّات: السّيت هُو عكس اليُوناني. بالإضافة لذلك؛ يبدو

---

(1) ف هاركُوغ، مرأة هيرُودُوت، باريس غاليمار 1980.

هيرُودُوت أنَّه غير قادر على التّفكير في الآخر بتنوّعه. فهُو يعمل على استثناء الثُّلث: وهكذا يبدو الأمر في حالة السّيت والأمازون. فالغَيْريَّة "السّيتيَّة" تُضبط وتُفهم بالنّسبة لليُونانيِّين. الذين يتدخَّلون كموضوع مرجع، لكنْ؛ بمُجرَّد دُخُول الأمازون يتغيَّر الحُكْم شيئاً فشيئاً، ويتحوَّل "السّيت" إلى شبه - يُونانيِّين. يحدث كُلُّ شيء إذاً كما لو أنَّ النّصَّ غير قادر على التّفكير بالغَيْريَّة، وفي الدّرجة الثّانية، الأمازون بالنّسبة للآخر "السّيتي"، هُو نفسه قد أخذ بالنّسبة للعالم اليُوناني، ولجعل هذه الغَيْريَّة الأُخرى مفهومة للمُتلقِّي، لم يكن بوسع هيرُودُوت أنْ يفعل شيئاً آخر إلاَّ وضع بنية مُزدوجة: هُنَّ / هُم/ نحنُ/ أيْ السّيتيِّين، شبه نحنُ، ويُؤكِّد هارتُوغ أنَّ نصَّ هيرُودُوت له وظيفة وآليَّة إثنيَّة - مركزيَّة، حتَّى لو أنَّه ليس هيلينياً - مركزياً "نحنُ ليس مُستقبل هُم"، هكذا يقول.

ويُلاحظ "فيدال - ناكيه"[1] من جهته أنَّ التّراجيديا اليُونانيَّة تلعب في التّضادِّ بين اليُونانيِّين والبرابرة، وبين المُواطن وغير المُواطن، بين إثنيِّين وأجانب، وحتَّى عبر "مجمُوعة من النُّظُم يتلاعب فيها الشّاعر على مزاجه" وفي تضادِّ الأجناس، الطّبقات، العُمر، الأحرار والعبيد، أو بشكل أرقى "قيَم القرابة بالنّسبة لقيَم المُواطنة" "ك ل مُوسيه mosse"[2] يُبرهن أنَّ المرأة مُستبعدة من الجمعيَّات والمحاكم ومُعظم التّظاهرات المَدنيَّة عدا بعض الاحتفالات الدِّينيَّة: المرأة اليُونانيَّة هي قاصر أزليٌّ، هكذا كَتَبَ مُوسيه. وجب أنْ يكون - دوماً - عليها وصي، أبوها أوَّلاً، ثُمَّ زوجها، وإذا مات هذا قبلها، فابنها، أو في غياب الابن أقرب قريب لها من عائلتها. وفي رُوما وضع تبعيَّة المرأة كما كان القانون يسمح هُو أنَّ الزّوج باستطاعته أنْ يُمارس سُلطة كاملة على زوجته، سُلطة حياة أو موت.

فعند اليُونانيِّين أيضاً؛ تشغل الغَيْريَّة وُجُوهاً عديدة، ويبدو أنَّها تُضبط بشكل أقلّ حياديَّة أو إيجابيَّة ممَّا ظهرت عليه في البدء: يقول هُودُوت[3]: بالنّسبة لليُونانيِّين؛ الرّذيلة هي الآخرون. ففُوبيا الآخر اليهُوديَّة يُمكن أنْ تُحلَّل وكأنَّها ظاهرة تافهة في نُصُوص العُصُور

---

(1) ب فيدال ناكيه، مُلاحظة حول مكان ووضع الأجانب في التّراجيديا اليُونانيَّة، في ودُّ الأجنبي في العالم اليُوناني، فُصُول حول المُؤتمر الثّاني عن الأجنبي، نانسي 19 - 21 - أيلول 1991، جُزء II نانسي 1992 P.U.N.

(2) مُوسيه، المرأة في اليُونان القديم، باريس، البان ميشيل 1983.

(3) ر. هُودُوت. الرّذيلة هي والآخرون في الأجنبي في العالم اليُوناني OP.CIT.

القديمة. وفي مُقابل الاختلاف؛ نُلاحظ تشابُهاً في التّصرُّفات من الجانب الآخر للثّقافات والانتماءات، وذلك في مدى واسع جداً.

لكنْ؛ يبدو أنَّ هذا التّشابُه لا يبقى مُستقراً مع الزّمن. ما يصحُّ في عصر من العُصُور لا يصحُّ في غيره: فمُقارنة صالحة في زمن هيرُودُوت ليست بالضّرورة صالحة في زمن جُوزف. من جهة أُخرى؛ يبدو أنَّه من الأسهل تعريف موضع الفُوبيا الغَيْريَّة اليهُوديَّة التي هي أوضح من الفُوبيا الغَيْريَّة اليُونانيَّة - الرُّومانيَّة التي لا تظهر - غالباً - إلاَّ في الدّرجة الثّانية.

وهكذا؛ فإنَّ فُوبيا الآخر اليهُوديَّة تقع أكثر في مُستوى القول والتّعبير، وتطفو على سطح النّصِّ: وتأخذ شكل وصيَّة لفرض) مُحدَّد، في زمن أوَّل على الأقلِّ: *" لن تختلطوا أبداً " (مع الأُمم الوَثَنيَّة...) سوف تُبيدون الكنعانيِّيْن.... سوف تنبذون (الجُذامي والعاجز...). سوف تسُودُون (قوَّامون) على (النّساء والعبيد). فالفُوبيا اليهُوديَّة ليست بحاجة لفكِّ طلاسمها، حتَّى تُفعَّل.*

فتصرُّف إيسدراس تجاه الأجانب مثلاً هُو تصرُّف كُره بشكل واضح، لا يُوجد حاجة هُنا لتفسير أو تأويل من الدّرجة الثّانية.

الدّوافع الدِّينيَّة لهذا التّصرُّف (إيسدراس يُنفِّذ أمراً إلهيّاً) تذكر أنَّ القانون الدِّيني هُو نفسه الذي (يُشَرْعِنُ) كُره الأجنبي.

عند اليُونان مثلاً يبدو كُره الأجنبي أقلَّ وُضُوحاً. ولتقييمه يلجأ "هارتُوغ" إلى عمليَّة فكِّ رُمُوز علميَّة لنصِّ هيرُودُوت، فهُو لا يبحث عمَّا يقوله اليُوناني بقدر ما يبحث عن الأُسلُوب المُجرَّد المعنوي الذي يُقدِّمه للغَيْريَّة. " فهارتُوغ " **hartog** لا يضع بحثه في مُستوى المُعبَّر عنه بقدر ما يضعه في مُستوى النّمط المخفي: التّقدُّم إلى أبعد ما يُمكن في عقل أوَّل مُنتقى مُقدِّماً كُلَّ الفُرص للنّصِّ - مأخوذ في مُستوياته العديدة ومُختلفة أسطره اللّحنيَّة (النّغميَّة) وتصدُّعاته، وأيضاً تكراراته وإعاداته ومُعضلاته التي لا تلقى حُلُولاً، ومثل التّعبير عن واحدة أو عدَّة استراتيجيَّات روائيَّة.

من جهة " فيدال ـ ناكيه" ؛ يتحدَّث عن نُظم وتنسيقات تُعبِّر عن موقف الشّاعر المأساوي في مُواجهة الأجنبي ، فيكون موقفه هـو ـ أيضاً ـ في هـامش الوُضُـوح والبيِّنة لإعلان فُوبيا الآخر الفظَّة .

إنَّ التّعبير الخاصَّ لفُوبيا الآخر اليُونانيَّة ، وطابعها الغـامض ، المُضطـرب ، المُشـوَّش ، وأحياناً ؛ في هامش الواضح يدعو إلى تحليل أكثر تجريداً وأكثر عُمقاً وأكـثر تحليلاً نفسيّاً " وقد لا يُحقِّق ـ دوماً ـ تأييد القارئ . فـ E ليفي لا يتّبع هارتُوغ ، خُصُوصاً عندما يُصرُّ هارتُوغ على التّضادِّ بين الـ "هُم" و "نحنُ" أو على مفهوم إقصاء ليفي : إنَّ الإشـارة إلى " الإقصـاء " لا تتضمَّن ـ إجباريّاً ـ حُكْماً تقييميّاً مُعلناً الدُّونيَّـة" . بالنّسبة لليفـي LEVY[1] . إذا كـان مُخبرو هيرُودُوت برابرة ، فإنَّ مسألته لا يُمكن أنْ تكون إلاَّ يُونانيَّة : فبالنّسبة لهيرُودُوت وجُمهُوره يبـدو الأمر لـه معنى إذا كان مُتعلِّقاً بالعادات اليُونانيَّة ؛ أيْ ذو طابع أو غريب ، وفيها الإقصاءات مذكورة .

لكنْ ؛ يجـب ألاَّ نتطرَّف بأهمِّيَّـة (الهيلينيَّة المُتمركـزة) التـي هـي حتميَّـة . لأنَّ الكـاتب يُحاول التّهرُّب من وُجهة النَّظر هذه التي هي يُونانيَّة بحتة ، ويُحاول التّمركـز ـ بشكل أو بـآخر ـ في الخارج ، وهذا ما يسمح له النَّظر إلى اليُونان بعين النّاقد .

وفـي المُقارنـات العديـدة بـين البـرابرة المُختلفـين وبـين اليُونـانيِّيْن ، فـهؤلاء يُذكـرون فـي الصّيغة الثّالثة ؛ وليس بالمُتكلِّم الأوَّل : هيرُودُوت يستخدم أُسلُوب تصرُّف اليُونانيِّيْن ، وليس أُسلُوبنا ، فيستعمل ـ نادراً ـ "نحنُ" عندما يتكلَّم عن اليُونانيِّيْن .

وتجدر الإشارة ـ أيضاً ـ إلى الطّابع المستور للفُوبيا اليُونانيَّة التي تدع المجال لمُقاربـات تُعيـد طرحها . وهكذا يكتـب "بُورجـوا " A.BOURGEOIS[2] بشـأنَّ اليُونـان القديـم وموقفـه من الزُّنُوجيَّة : إذا لم يكن اليُونانيُّون هُم أوَّل مَنْ اهتمَّ بإفريقيا ، فيجب أنْ تعترف أنَّهم كـانوا بـين الأوائل ، لكنْ ؛ على كُلِّ حال ؛ بمُثابرة أكثر وحماس أكثر من الآخرين . فهُم لم ينحدُّوا ، أو يكتفـوا بمُقاربـة حـذرة وبعيـدة وسـطحيَّة لـلأرض الأفريقيَّـة ، لكـنَّ رحَّالتـهم ومُؤرِّخيـهم وجَغرافيِّهم قد بحثوا ـ دوماً ـ للدُّخُول باحتكاك مع النّاس ، لمعرفتهم والارتباط بهم . وإنْ لم

(1) ي ليفي "هيرُودُوت في لوباباروس في الأجنبي في العالم اليُوناني OP.CIT .

(2) ا بُورجوا اليُونان القديم أمام الزُّنُوج ، باريس ، وُجُود أفريقي 1971 .

يستطع عُلماؤهم مثل "ايراتوستين"، و" بتوليمي " أنْ يجمعوا معلومات دقيقة وواسعة، فكان ذلك لنقص الوسائل الماديَّة.

إنَّما كُلُّ الشّعب الهيليني قد عرف الزُّنُوج وقدرهم، والزُّنُوج ـ بالمُقابل ـ عرفوا اليُونان، وكانوا فيها مُرحَّباً بهم. عدا اللُّعبة المُلازمة لكُلِّ جَدَل، طبعاً، وإذا كانت مسألة فُوبيا الآخر عند هيرُودُوت أو عند اليُونانيِّيْن ـ بشكل عامٍّ ـ تسمح بحُلُول مُتناقضة، ذلك أنَّه لا يُوجد نظام فُوبيا الآخر مُتماسك عند اليُونانيِّيْن. يُمكننا أنْ نستخرج مواقف، وتصرُّفات، أو نظريَّات، أو تصريحات، فيها فُوبيا الآخر من بعض الكُتَّاب، أو بعض الأعمال المسرحيَّة، أو من بعض المُدُن، لكنَّه من الصّعب جداً تسجيلهم داخل منظومة أو مُدوَّنة أيديُولُوجيَّة مُتماسكة وواضحة مُقدَّسة، ويقبلها كُلُّ اليُونانيِّيْن على مدى كُلِّ تاريخهم. مُدوَّنة تكون شبيهة بالشّريعة اليهُوديَّة؛ أيْ تُشرِّع وتدفع وتجعل الأمر إجباريّاً تحت طائلة العُقُوبة بما يخصُّ التّصرُّف الفُوبي والفصل، يُمكننا ـ طبعاً ـ تقديم أشعار هيزيُود: وهي تسجن المرأة ـ بوُضُوح ـ في نظام أسطُوري، لكنَّ هل لهذه القصائد على اليُونانيِّيْن قُوَّة ومفعول الشّريعة؟! أليست أعمال رجل، وليس إله؟ هل تمنع وتُعيق هذه القصائد تطوُّر وضع المرأة؟!. فصُعُوبة إيجاد نظام (كاره فُوبيا الآخر عند اليُونانيِّيْن، ويكون في ـ الوقت نفسه ـ واضحاً ومعيارياً بشدَّة للجميع، وفي كُلِّ الأمكنة والأزمنة تترك كُلَّ الخيار لمُعارضة وُجُود فُوبيا حقيقيَّة عندهم اعتباراً من أمثلة جدِّيَّة. وبدون شكٍّ؛ فإنَّ هذه الأمثلة لا يُمكنها ـ بدورها ـ أنْ تردَّ النّظام اليُوناني إلى مُحبٍّ الآخر بشكل واضح. لكنَّ غياب مثل تلك الإيديُولُوجيَّة في محبَّة الآخر لا تجعلنا نُفكِّر أنَّ اليُونانيِّيْن كانوا كارهين الآخر من حيثُ المبدأ كما فعل اليهُود.

ومهما كان من أمر؛ فإنَّه حتَّى لو أنَّه عند اليُونانيِّيْن أو الرُّومان لا يُوجد نظام فُوبيا الآخر بشكل واضح وبنيوي مثلما هي الشّريعة اليهُوديَّة، وحتَّى لو وجدنا عندهم أمثلة عن عطف ورعاية تجاه الغَيْر (مثل التّوراة على أيِّ حال، لكنْ؛ أقلّ عدداً، وأكثر خجلاً، وأحياناً؛ يُدلُّ عليها بالإصبع)، وحتَّى لو أنَّ التّمييز العُنصُري هُنا لا يأخذ ـ أبداً ـ أبعاداً ظاهرة حقيقيَّة في المُجتمع، فإنَّنا لا نستطيع الاستنتاج بشكل فعلي أنَّ فُوبيا الآخر لا تُوجد في

العالم اليُوناني - الرُّوماني. وهذا يعني أنَّنا نُقلِّل من أهميَّة قصائد هيزيُود التي تجعل من المرأة شرّاً آتياً من زيُوس، ومن قانون بيريكليس الذي يمنع الأطفال المُتحدِّرين من أزواج مُختلطة، الحُصُول على المُواطنيَّة، ومن تصريحات "أريستُوت" (أرسطو) التي تجعل من العبد أداة يُقارنها بالحيوان، والقانون الرُّوماني القديم... غير أنَّ وراء الأعداد الكبيرة من التّصرُّفات التي نلتقطها هُنا وهُناك يظهر أنَّ فُوبيا الآخر في العالم اليُوناني - الرُّوماني تستند أكثر على الظُّرُوف والمُصادفة والآراء والتّاريخ وعلى عوامل قابلة للتّطوُّر، بعكس فُوبيا الآخر اليهُوديَّة، التي من جهتها هي نتاج الشّريعة الإلهيَّة التي لا تُمَسُّ ولا تُغيَّر.

فُوبيا الآخر مُستندة إلى " شريعة أزليَّة ":

الفرق الأساسي بين فُوبيا الآخر اليهُوديَّة وفُوبيا الآخر التي تظهر في كُلِّ مكان آخر يكمن في ما يُكوِّن الشّرعيَّة.

يُمكننا - بدُون شكٍّ - أنْ نتعرَّف في هذه الفُوبيا العالميَّة - تقريباً - على أساس هُو أيضاً عالمي. يُمكننا أنْ نفترض أنَّ الوضع التّمييزي لبعض أصناف من الأفراد كان يُملى في بعض فترات تاريخنا من الضّرورات الاقتصاديَّة، السّياسيَّة، الاجتماعيَّة، والدّيمُوغرافيَّة... وإنَّ الوضع التّابع للمرأة رُبَّما كان نتيجة لقلَّة فائدتها الاجتماعيَّة: قُوَّتها الفيزيائيَّة قد حصرتها في مهامَّ أقلّ إنتاجيَّة، وبالتّالي؛ ثانويَّة. فهي لا يُمكنها أنْ تُحارب، وهي رهن الغذاء الذي يجلبه لها الرّجل...

المُلاحظة نفسها تنطبق على العاجز أو المريض؛ حيثُ وضعه المُرتهن يُمكن أنْ يُفسِّر - جُزئيّاً - موقعه الخاصّ والشّاذّ جنسيّاً، أمَّا هُو؛ فيُمكن أنَّه يُعتبر عائقاً في التّقوية الدّيمُغرافيَّة للمجمُوعة، إذاً؛ مثل طفيلي يجب إزالته، أمَّا الأجنبي من جهته؛ فهُو يرمز إلى كُلِّ ما يشكُّ به المُجتمع في الأزمنة المُضطربة. ما هُو غريب هُو شاذٌّ، والشّاذُّ يُخيف. لذلك يجب الاحتراز من الغريب والابتعاد عنه، فهُو مُحرِّض على الحرب... ففُوبيا الآخر يُمكن أنْ يكون محتواها منطقيّاً جدّاً: يُمكننا أنْ نتصوَّر عُصُور تكون فيها حياة المرأة أقلَّ قيمة للمجمُوعة من حياة الرّجل السّليم البنية، ويكون مفهُوماً - أيضاً - أنَّه في سياق ما تكون المرأة اجتماعيّاً أقلّ حماية، ويكون طبيعيّاً - أيضاً - إذا تغيَّر السّياق يتطوَّر وضع المرأة. وهذا ما يبدو

أنَّنا نُلاحظه في العالم اليُوناني ـ الرُّوماني. فبالنّسبة للمرأة اليُونانيَّة يتحدَّث مُوسيه MOSSE عن حُرِّيَّة نسبيَّة للنّساء الأثينيَّات في النّصف الثّاني من القرن الرّابع فيما يخصُّ الزّواج... والمال... فكان هُناك "تطوُّر" بحسب مُوسيه.[1]

المرأة يُمكن لها أنْ تُطلِّقَ وتتصرَّف مثل كائن بالغ، ويُمكن لها أنْ تفسخ زواجاً، وأنْ تقتني ثروات بتأويل القانون)... وفي رُوما سجَّل فيلي VILLY[2] تحوُّلات هامَّة مُنذُ نهاية الجُمهُوريَّة: تحرُّر الأبناء الذين يستطيعون أنْ يترافعوا أمام القضاء: استقلاليَّة قضائيَّة للمرأة المُتزوِّجة تجاه زوجها (في الحُقُوق أصبحت الزّوجة الرُّومانيَّة مُعادلة لزوجها) الاعتراف بحقٍّ النّاس فعَّال لكُلِّ الأجانب، توزيع حقِّ المَدَنيَّة.

لم يبقَ إلاَّ العبيد؛ لم تعطهم رُوما ـ أبداً ـ حُقُوقاً، وذلك لأسباب اقتصاديَّة على الأرجح.

لكنْ؛ هُنا ـ أيضاً ـ في المبدأ، يُوجد إمكانيَّة تطوُّر: الحقُّ الرُّوماني والقانون يبقى مرناً ومُنفتحاً على كُلِّ التّجديدات، حسب فيللي. مثل هذا التّطوُّر لا يُمكن تلمُّسه ظاهريّاً، لا في الذّهنيَّات، ولا في العادات، ولا في القانون اليهُودي.

من المُؤكَّد أنَّ بعض المُتغيِّرات قد حصلت في حياة بعض اليهُود، لكنَّهم يهُود كاذبون، يعيشون مثل اليُونان، وليسوا يهُوداً حقيقيِّيْن، كالذين استطاعوا أنْ يحتفظوا بهُويَّتهم: ففي زمن جُوزف، مُوسى هُو ـ دوماً ـ المرجع الأعلى (مُنذُ قُرُون طويلة على حَدِّ قول جُوزف).

هذا الطّابع السّاكن للقانون اليهُودي يُمكن إصلاحه عند جُوزف الذي يستعيد ـ لحسابه ـ مبادئ النَّبْذ الكبيرة في التّوراة؛ حيثُ كُتِبَت بعض المقاطع في عهد الملك داود قبل ألف سنة، والقوانين المذكورة فيها هي أقدم من ذلك بكثير. لكنْ؛ كيف يصحُّ تغيير قوانين مُلهمة من الله ذاته؟: "لكنْ؛ بالنّسبة لنا نحنُ الذين تلقَّينا هذه القناعة أنَّ القانون مُنذُ البدء قد أُسِّس حسب إرادة الله، فسيكون من الكُفْر ألاَّ تتبعه الآن.

---

(1) مُوسيه OP.CIT.

(2) م فيللي، الحُقُوق الرُّومانيَّة، باريس ـ بوف 1993.

على أيِّ حال؛ ماذا يُمكننا أنْ نُغيِّر؟ أين نجد أجمل من ذلك؟ أو ماذا جلبنا من الخارج ونجده أفضل؟ مَنْ هُو (الرّجل) الإنسان الذي يستطيع مُعارضة إرادة يَهْوَه؟!.

النّبي وحده، النّبي الحقيقي الذي يتكلّم باسم الله، والذي هُو رسوله، عنده هذه السُّلطة. لذلك قدَّم جُوزف نفسه وكأنَّه مُوحى إليه من الله؛ لأنَّه أراد أنْ يعدل من علاقة اليهُود بالآخرين، لذلك أصبح يسُوع ابنه. وهذا يعني أنَّ الشّريعة تتطوَّر قليلاً ("قانوننا يبقى أزليّاً")، وذلك على عكس القانون الرُّوماني، الذي هُو - بالكامل - ملك البشر الذين يخترعون الأحكام القضائيَّة: القانون الرُّوماني قد وُلد من التّجربة، وخاضع على الدّوام لُمراقبة التّجربة، فهُو لا يُقدِّم نفسه كبناء مُكتمل: أو أمر منطقي لقواعد جامدة وثابتة، علم في المعنى الضّيِّق للكلمة، نظام معياري. إنَّه بحث وحياة[1]. المُشرِّع اليهُودي مُوسى - من جهته - لم يترك شيئاً، حتَّى أدقَّ التّفاصيل لُمبادرة وأهواء أتباعه على حَدِّ كتاب جُوزف. لذلك اعتبر هيرُود وكأنَّه عدوٌّ؛ لأنَّه أراد تغيير العادات القديمة، التي كانت بالنّسبة له لا تُمَسُّ.

أ ليس مُدهشاً أنْ نجد عند جُوزف مثل ما عند إيسدراس، وعند إيسدراس مثل ما عند مُوسى، وُجُهات النَّظَر نفسها فيها فُوبيا الآخر، والمثاليَّات نفسها، والتّعصب نفسه الذي لا يخفُّ عند الاحتكاك بعالم مُتغيِّر؟

جُوزف هُو مثال جيِّد لهذه الأزليَّة في الشّريعة، لهذا الخُلُود في الأوامر والنّواهي المَرضيَّة التي تهمُّنا. يَعتبر مَثَلٌ قديم أنَّ المرأة كائن أدنى، ويجب أنْ تُطيع الرّجل، وأنَّ المخصيَّ هُو مسخٌ يجب أنْ يُنبَذ، وأنَّ اللّواطي هُو وقح، ويجب إبادته، وأنَّ الزّواج المُختلط هُو "سُمٌّ" وخليط مُريع يجب أنْ يُمنع، وأنَّ الجُذاميَّ قذر، يجب أنْ يخضع لإجراءات وتدابير تمييزيَّة، وأنَّ العاجز هُو مُشوَّه مُعيب، يجب أنْ يتحمَّل شريعة صُنعت على حسابه، وأنَّ العبد هُو فرد غير شريف، ويجب أنْ يبقى سلبيّاً خاضعاً لسيِّده، وأنَّ الأجنبي هُو كائن ماكر، يجب أنْ يُطرَد... فهُو لا يستنكر القَتْل الجماعي للشُّعُوب الكنعانيَّة، ولا إبادة الديانيِّيْن، ولا الأماليسيِّيْن. على العكس من ذلك؛ فهُو يعتقد أنَّ إبقاء هذه الشُّعُوب قد يكون

(1) م.ن OP.CIT

جريمة وخطيئة، بما أنَّ الله هُو الذي أمر بإبادتهم. فـهُو ـ أيضاً ـ يتباهى بخوزقة الزّوج المختلط من قبَل بنحاس، والذبحة التي تبعتها. ويُؤيِّد ـ أيضاً ـ نَبْذ الأجانب. ويقبل ـ أيضاً ـ نفي وإقصاء زُور بابل للإسرائيليِّيْن الذين لا يستطيعون إثبات نَسَبهم وانتمائهم. وهُو يُبدي عداءً للمرأة دُون قناع. ويسعى لإظهار وشرح ـ وكان الأمر شيئاً جيِّداً ـ أنَّ الجُذامي أو العاجز يخضعان ـ عند اليهُود ـ لقوانين تمييزيَّة لا نجدها في مكان آخر.

لكنَّ جُوزف يجعل من الشّعب اليهُودي شعباً مُتفوِّقاً عالياً، فهُو لا يقول ـ بوُضُوح ـ إنَّ إسرائيل ستكون نُور الأمم، والشّعب الكاهن لإنسانيَّة خاضعة لإله قومي يهُودي في ذلك، على العكس من فيلُون (فالشّعب اليهُودي ـ بالنّسبة للأرض المسكونة كاملة ـ هُو كما الكاهن بالنّسبة للمدينة)[1]. يبتعد عن التّعليم التّوراتي. إلاّ أنّه من جهة أخرى؛ يُحدِّد الشّعب اليهُودي وكأنّه شعب مُعلِّم سوف تُصبح قوانينه مُتّبعة أكثر فأكثر من الآخرين (مثل قانون السّبت مثلاً) فهُو من جهة أُخرى؛ يُطالب بدُستُور إلهيٍّ خاصٍّ باليهُود: الفُرُوقات والاختلافات الخُصُوصيَّة في العادات والقوانين بين البشر هي غير محدودة، لكنّنا يُمكن أنْ نُلخّصها كما يلي: البعض عهد بها إلى ممالك، والآخر إلى أوليغارشيه (حُكْم الأقلّيَّة المستغلّة)، والآخرون ـ أيضاً ـ للشّعب والسُّلطة السّياسيَّة. فمُشرِّعنا لم يحطّ نظره ولا على واحدة من هذه الحُكُومات ـ وإذا استطعنا أنْ نقول هذا العُنف في اللُّغة، فهُو قد أسَّس حُكُومة إلهيَّة (تيُوقراطيَّة)، واضعاً السُّلطة والقُوّة في الله.

إذاً؛ الله يحكم في الدّولة اليهُوديَّة، والكَهَنَة ـ وعلى رأسهم للكاهن الكبير ـ يُديرون ـ باسمه ـ الأشغال الهامَّة.

يتكفَّل الكَهَنَة ـ بشكل خاصٍّ ـ في العبادة، ومُراقبة المُواطنين، والقانون، واهتمامات أُخرى. كذلك؛ يجب عليهم أنْ يحكموا، ويُعاقبوا. إنَّ إدارة الدّولة اليهُوديَّة تُمارَس وكأنَّها احتفال ديني ـ يقول جُوزف ـ : الأسرار والاحتفالات يُمارسها اليهُود كُلَّ حياتهم، وذلك بعكس باقي البشر الذين لا يُمارسون إلاَّ عدداً قليلاً من الأيَّام. طبعاً؛ عندما كَتَبَ جُوزف هذا لم يَعُدْ هُناك من دولة يهُوديَّة باقية، لكنْ؛ كان هُناك مُتَّحدات. وهي تنتظم

(1) أورده ويل وأوريو في تبشير يهُودي.

وتعيش حسب المبادئ نفسها: على رأسهم يُوجد الله، ثُمَّ الكاهن الذي يأمر، يُحاكم ويدين، ثُمَّ العامِّيُّ الذي يُطيع، ويجعل من حياته احتفالاً دينياً على شرف الشّريعة الإلهيَّة.

وحتَّى لو أنَّ جُوزف لا يقول - بوُضُوح - إنَّ الشّعب اليهُودي هُو الشّعب الكاهن للبشريَّة، فكُلُّ شيء يحملنا على الاعتقاد أنَّه يُفكِّر به: فإذا ترك للرُّومان حكْم العالم (فهُو يُعلن لفيسباسيان الإمبراطُوريَّة والسُّلطة على كُلِّ الجنس البشري - وتجاه الثُّوَّار هُو من أنصار الوضع الرّاهن: يجب أنْ يستمرَّ الرُّومان بإدارة اليهُوديَّة...) ويُعطي اليهُود الأسرار والاحتفالات بعلاقة مع الإله. يستطيع - إذاً - جُوزف أنْ يأخذ لحسابه مُقارنة فيلُون: البلدة الزّمنيَّة هي مجال الكُفَّار، الأُمم والبلدة الرُّوحيَّة هي ملك اليهُود. بالإضافة إلى هذا؛ مركز الدُّستُور الإلهي "(التّيوقراطي) الذي يجعل من الله مركز كُلِّ القيَم، ألا يجب أنْ يخضع الزّمني للرُّوحي؟ ألا يجب أنْ يُطيع العامِّيُّ الكاهنَ؟ هُنا - أيضاً - لا يبتعد جُوزف عن التّعليم التّوراتي، ويُعطي للشّعب المُختار مكانة استثنائيَّة بين الأُمم.

وهكذا نُلاحظ عبر أعمال جُوزف كُلّها أنَّ الشّريعة غير قابلة للتّطوُّر. إنَّها مُتحجِّرة. إنَّ ضحيَّة فُوبيا الآخر هُو - دوماً - مُذنب. ومُذنب لا يُحاول أحد تبرئته ولا ردَّ اعتباره.

مَنْ يستطيع أنْ يُحاسب - حتَّى في يومنا هذا - عن إبادة الديانيِّين، والكنعانيِّين، أو حتَّى الإسرائيليِّين المُتّهمين بالسُّقوط أمام سحْر النِّسوة الأجنبيَّات؟ إله واحد وغيور يُوقف عمل الضّمائر، آخذاً - على حسابه - كُلَّ سلبيَّات الشّريعة ومُبالغاتها. وذلك بشَرْعَنَة ما يتعذَّر تبريره، ففي مثل هذه الظُّرُوف؛ أ ليست فُوبيا الآخر مُعَدَّة لأنْ تستمرَّ - هي نفسها - على مدى التّاريخ اليهُودي؟.

فُوبيا الآخر والتّاريخ

أو (الغَيْريَّة المَرَضيَّة) والتّاريخ

يُمكننا أنْ نُصادف في ثقافات أُخرى أوضاعاً يكون فيها الأجنبي والمرأة وآخرون أيضاً بوضع المُستثنى من الحُقُوق، ويُمكننا - أيضاً - أنْ نُعدِّد مصادر تُثبت مثل هذه المُعاملات التّمييزيَّة، لكنْ؛ من النّادر أكثر أنْ يكون هذا الوضع - شرعيّاً - مُشَرْعَناً، مثل عند اليهُود، بشريعة سامية، مُتعالية، مُطلقة، لا تُعارَض، متينة لدرجة أنَّها اجتازت القُرُون. يُوجد هُنا - بدُون شكٍّ - خُصُوصيَّة نوعيَّة في فُوبيا الآخر، اليهُوديَّة لا يُمكن إهمالها. حتَّى لو أنَّ فلافيُوس جُوزف يُحاول إعادة تنظيم علاقة اليهُودي مع غير اليهُودي (على أنَّه مُلهَم من الله) فيجب ألاَّ يغيب عن أنظارنا أنَّ هذه التّرتيبات هي شكليَّة صرفة. في مفاهيم جُوزف، اليهُودي الذي يجب أنْ يندمج في الدّولة الكافرة والذي يجب عليه أنْ يحصل على المُواطنة غير اليهُوديَّة (لماذا لا) يجب عليه - خاصَّة - المُحافظة على قوميَّته وهُويَّته اليهُوديَّة، يجب عليه ألاَّ يُنكر التّمثيل المَدَني للآخر ولنفسه الذي يضعه ويُعارضه. إنَّ هذه الغَيْريَّة المَرَضيَّة التي هي في بناء المُجتمع اليهُودي مُنذُ زمن بعيد كان لها - بدُون شكٍّ - حوادث تاريخيَّة هامَّة.

في زمن جُوزف: لقد رأينا أنَّه أقام علاقة بين إيقاف الأضاحي لمصلحة الأجانب، وبدء الحرب.

من جهة أُخرى؛ يكتب فيدال - ناكيه[1] أنَّ المسألة المركزيَّة للقرن الأوَّل من عصرنا هي مسألة المملكة، إنْ كان ذلك من وُجهة نظر دينيَّة (المسيحيَّة)، أو من وُجهة نظر سياسيَّة (الاستقلال)، هل يُمكننا أنْ نُفرِّق هذه القضيَّة المركزيَّة للمملكة عن مسألة فُوبيا الآخر التي تُحييها، ثُمَّ تطرحها؟

---

(1) فيدال ناكيه، مدخل للحرب اليهُوديَّة لفلافيوس جُوزف، باريس مينوي 1977.

والتّعاون واحترام الهُويَّة والانتماء: فهي تُعبِّر عنها، وتُترجم بأشكال: الفصل، الإقصاء، السّيطرة، الإبادة. . . أمل المملكة ـ وهُو أحد أسباب الحرب ـ جعل من "فُوبيا الآخر" عاملاً تاريخياً من الدّرجة الأُولى.

نجد هذا العامل يُفعَّل عند ولادة المسيحيَّة. وقد يكون مُمكناً أنَّ قبول غير اليهُود في المسيحيَّة الأوَّليَّة ـ ولو بشكل صعب ـ قد ساهم بزيادة حدَّة الانفصام، الذي أصبح غير قابل للعودة بين ما بقي من اليهُوديَّة، وما أصبح مسيحيَّة. لقد سبق ولخَّصنا هذه المسألة في الفصل الثّالث.

لقد صار لفُوبيا الآخر اليهُوديَّة ـ بدُون أدنى شكٍّ ـ عواقب وانعكاسات تاريخيَّة بعيدة المدى، لأنَّها استطاعت أنْ تلوِّث جُزئياً مُفارقاً ظاهرياً الدّيانة المسيحيَّة. في الواقع، مع أنَّ بُولُس قد أجرى عظات مُجدِّدة حول الغَيْريَّة، أصبحت الكنيسة ـ أحياناً ـ مُتعصِّبة مثل الكنيس تماماً، ويُلاحظ إيزنبرغ[1] أنَّ اليهُود قد استمرَّوا بالتّمتُّع باستثناءات وامتيازات عديدة طالما دامت الإمبراطُوريَّة: لكنَّه يقول: أصبحت المسيحيَّة الدِّين الرّسمي، فخرجت من "مخبأ اللاَّشرعيَّة"، ولن يتوقَّف حتَّى تُدخل اليهُوديَّة فيه. ولكنْ؛ هُنا سوف يتغيَّر مفهوم الغَيْريَّة (الآخر)، ففي الأرض المسيحيَّة لم تَعُدْ الغَيْريَّة مُرتبطة بالانتماء العرْقي، أو الإثني، أو القومي، إنَّما ـ فقط ـ للانتماء الدِّيني.

كان عند اليهُود الهُويَّة بين الجنس والدِّين: الذي كان يهُودياً في الدِّين كان يهُودياً في القوميَّة، والعكس صحيح.

لكنَّ هذا لم يَعُدْ يصحُّ في الأرض المسيحيَّة؛ حيثُ انفصل الانتماء الإثني، أو القومي عن الانتماء الدِّيني (إلاَّ إذا استثنينا أوضاعاً استنكرها البابا). لكنَّ الآخر لم يختف تماماً: الأجنبي هُو غير المسيحي. ومُنذُ ذلك الوقت يُمكننا أنْ نُلاحظ تجاه الأجنبي موقفاً يُذكِّرنا بالذي بحثناه حتَّى الآن: موقف يُمكن أنْ يبدأ من الإقصاء (مثل يهُود إسبانيا مثلاً) إلى حَدِّ الإبادة (مثل إبادة الكاتار مثلاً).

---

(1) إيزنبرغ، قصَّة يهُود باريس. كال 1970.

(ويُمكننا أنْ نُسجِّل - من جهة أُخرى - بلاغة بحَدٍّ ذاتها في الإقصاء قريبة جداً من بلاغة التّوراة ضدَّ الكنعانيّيْن، والتي تثقل على كَهَنَـة المعابد، وتتمفصل - كما في التّوراة - حول اتّهامات بالفُسق والبُخل والكبرياء واللّواط والوَثَنيَّة[1] ينقص - فقط - قضيَّة السُّلالة أو الجنس).

إنَّ التّعصُّب الذي ظهر في الأراضي المسيحيَّة يُمكن أنْ يكون له علاقة مع النّموذج التّعصُّبي للعهد القديم. وهكذا؛ فإنَّ تُوركمادا TORQUEMADE الذي طَرَدَ اليهُود من إسبانيا ألا يُذكِّرنا بإيسدراس الذي طَرَدَ الأجانب من الشّعب المُقدَّس؟

إنَّ الاتِّهامات المُوجَّهة ضدَّ اليهُود (اتِّهامات بالقَتْل الطَّقْسي، تدنيس المُقدسَّات، سحْر...) أ ليست هذه الأُمُور هي التي وجَّهها اليهُود ضدَّ الكنعانيّيْن؟ المُفتِّش الذي يحرق السّاحرة ألا يُذكِّرنا بالوصيَّة الإلهيَّة التي تأمر بألاَّ تترك السّاحرة حيَّة؟ (خُرُوج 17.22) والقانون 390 الذي يقمع الشُّذُوذ الجنسي[2] ألا يُشكِّل صدى للنّواهي المُوسويَّة[3]؟ ومُعاملة المُنافق في الغرب؛ حيثُ يُمنع الزّواج المُختلط ألا تُذكِّرنا بالأحكام السّلفيَّة التّمييزيَّة في التّوراة؟.

إنَّ وضع المرأة يبدو أنَّه تدهور: فبالنّسبة لأُوغُوستاف المرأة هي قانورة، وبالنّسبة لـ أُوريجين هي مفتاح الخطيئة، وللقدِّيس جيرُوم هي درب فساد الأخلاق، وبالنّسبة لجان كريزُوستُون عقابٌ، شَرٌّ ضروري، خطيئة لذيذة، وجُرح في الطّبيعة[4].... إلاَّ أنَّه - وبعكس الأُسطُورة القويَّة - فإنَّ الكنيسة لم تُنكر أبداً على المرأة امتلاكها للرُّوح.[5]

إنَّ النّموذج التّوراتي لمُعاملة الآخر أخذته المسيحيَّة كما أخذت نماذج أُخرى غيره. ما هُو قسط مسؤوليَّة هذا النّموذج في اندلاع الحُرُوب الصّليبيَّة؟ الإكراه في الدِّين، الحُرُوب

---

(1) م بُوران - دريُو، زمن التّوازنات، زمن الإشقاقات XIIIE، القرن الثّالث عشر، باريس، بوان ديستوار 1990.
(2) ب شُوفان حول آخر الوَثَنيِّين، باريس، الآداب الجميلة 1990.
(3) إنَّ قمع اللّواط كما هُو مُمارس في غربنا اليهُو - مسيحي وحتَّى فترة قريبة، يجد أُصُوله وتبريراته في أُسطُورة صودوم": م ليفير" قمع اللّواط، عدد ظهر في ايستو راما رقم 17 تمُّوز 1985.
(4) ج. م أوبر، المرأة ضدَّ المرأة والمسيحيَّة، باريس - سيرف ديسليه 1975.
(5) أدريان ديلكور من جهته أصاب ببحثه عن الخُرافة التي بحسبها جادلت الكنيسة عن وُجُود رُوح عند المرأة في مُؤتمر "هاكون" 585آ - ديلكو موسيور لوغولف وزوج النّساء أو كيف نكتب التّاريخ؟، بروكسيل 1993.

إنَّ فكرة "عهد الله" المُرتبط بانتظار المسيح (دانيال 727 . 13) هي من أعراض النُّصُوص المُتأخِّرة في العهد القديم (أَشَعْيَا - حَزْقِيَال - ودانيال . . .) التي تَعدُ بالتّحرير من وُجُود أجنبي لا يُحتمَل، كما أنَّها الثَّمرُ المُرُّ لهذا الوُجُود. تُعلن هذه النُّصُوص وتُبشِّر بطَرْد الأجنبي المُستعمِر: استيقظْ، استيقظي، استيقظنَ، بكُلِّ قُوَّتك، يا صهيون! ارتدي أجمل ثيابك يا أُورشليم، المدينة المُقدَّسة! لأنَّه - مُنذُ الآن فصاعداً - لن يدخل إليك غير المُختتنين والأنجاس. انفضي عنك الغبار، وقفي، يا أُورشليم الأسيرة. حرِّري عُنقك من قُيُوده، ابنة صهيون الأسيرة! . . . مُستعمِروكِ يصيحون - كاهنة يَهْوَه - وقد احتقر اسمي كُلَّ النّهار باستمرار. لذلك سوف يعرف شعبي اسمي في ذلك اليوم؛ لأنَّني أنا أقول: " ها أنذا!"

ما أجمل أقدام الذي يحمل البُشرى على الجبال، الذي يُعلن بالسّلام، ويُبشِّر بالسّعادة، ويُعلن الخلاص، ويقول لصهيون "إلهك يملك! (أَشَعْيَا 52 . 1 - 7). تُعلن هذه النُّصُوص - أيضاً - الانفصال عن الأجنبي: انسحبوا، انسحبوا، اخرجوا من هُنا، ولا تلمسوا شيئاً دنساً! [1] اخرجوا من وسطها (بابل)! تطهَّروا، أنتم الذين تحملون أغراض يَهْوَه! لأنَّكم لن تخرجوا بسُرعة، ولن تُغادروا هاربين؛ لأنْ يَهْوَه سوف يسير أمامكم، وإله إسرائيل حرسكم الخلفي " (أَشَعْيَا 52 . 11 - 12). هذه النُّصُوص تُعلن وتُبشِّر - أيضاً - بسيطرة اليهُود على الأُمم الأجنبيَّة: والمملكة، والسّيطرة، وعظمة الممالك تحت كُلِّ السّماوات سوف تُعطى لشعب قدِّيسي - الذي في "أقصى الأعالي". مملكته هي مملكة أبديَّة، وكُلُّ المُستعمرات تخدمه وتُطيعه، (دانيال 7 . 27).

كما أنَّ هذه النُّصُوص تُنبئ عن إبادة هذه الأُمم: لأنَّني سوف أنشر الإبادة بين جميع الأُمم؛ حيثُ شتَّتك: فيك فقط لن أفعل الإبادة (إِرْمِيَا 30 . 11).

إذا كانت القضيَّة المركزيَّة للقرن الأوَّل هي قضيَّة المملكة، فإنَّ القضيَّة المركزيَّة للمملكة هي قضيَّة علاقاتها مع "الآخر". لم تُؤخذ هذه العلاقات - أبداً - من وُجهة نَظَر التّبادُل

---

(1) توراة أوستي تورد: لا تلمسوا شيئاً نجساً! لم يكن الأمر سهلاً في بلد بابل؛ حيثُ كُلُّ شيء كان نجساً، الأغذية، الخُبز (حَزْقِيَال 4 . 13)، وحتَّى الأرض نفسها (أم 7 . 17 وتوراة أوستي يُمكنها أنْ تُضيف: البابليُّون أنفسهم (حَزْقِيَال 23 . 17).

الدِّينيَّة، التّفتيش، المحرقة... وإلى ماذا نعـزي المعتقلات لليـهُود ووضعـهم السَّيِّئ غالباً أو وضع مُسلمي إسبانيا؟ ولندفع الأُمُور أبعد من ذلك: أيُّ توجُّـه يُمكـن للتّـوراة أنْ تقترحـه علـى فكر مُتعلّم ببُطء، فكر سوف لن يتأخَّر بوضع العلم مكان الله، وذلك دُون تغيير البنية العامَّة؟

أمَّا اليهُود من جهتهم؛ فهُم لم يُخففِّوا مـن مَرَضيَّتـهم الغَيْريَّة. فمن جهـة، إنَّ موقـف المسيحيِّيْن لا يُحرِّضـهم على ذلك بـدُون شـكٍّ، ومـن جهـة أُخرى؛ الشّريعة فـي العُصُـور الوُسْطى لا تـزال تمنعـهم. فـي الواقـع؛ إذا صدَّقنـا "جاكُوب كاتس"[1] فإنَّ اليـهُود يـردُّون للمسيحيِّيْن تعصُّبهم. فبحسب "كاتس"؛ إنَّ الإقصاء مُتبـادَل: "يبـدو أنَّ اليـهُود ـ مثـل المسيحيِّيْن ـ كانوا يتصرَّفون بتوافُق تامٍّ مع هُويَّتهم الخاصَّة بمُمارسة العَزْل والفَـرْز. المعـزل (أو المحجر) الذي أَسَّسه المسيحيُّون يستجيب لانتظار اليهُود له، بما أنَّه يُقوِّي الانفصـال، ويجعلـه رسمياً: وذلك عكس ما كان يُعتقد، فإنَّ إقامة حارة يهُوديَّة مُغلقة لم تكن ضدَّ رأي اليـهُود، بل استقبلوها برضى، واعتبروها تدبيراً مُلائماً وخاصَّاً بمجمُوعة مثلهـم تستجيب إجابتـهم الاجتماعيَّة والدِّينيَّة. . . . كان اليـهُود راضـين بمَـنْ يعترف بـهم كمجمُوعـة واحـدة كُلِّيَّـة اجتماعيَّة ـ اقتصاديَّة مُتميِّزة عن باقي الشّعب.

فقناعة اليهُود أنَّ اختلافاً جوهرياً يحكم طبائع اليهُود وغير اليهُود، يجب ـ بالتّأكيد ـ ألاَّ يُساهم في التّقريب بين المُتَّحدات، ولا إلى تهدئة الأوضاع التي هي ـ غالباً ـ صراعيَّة.

هذه القناعة لخَّصناهـا أعـلاه، ولا تـزال ـ حتَّى يومنـا هـذا ـ نـافذة فـي جُـزء مـن العـالم اليـهُودي، وتُقـرِّر ـ دومـاً ـ علاقاتـه مـع الآخـر (الحاخـام مايرشـيلله: يـهُود وغيـر يـهُود هُـم مُختلفون بشكل أساسي. الكافر هُو ثانوي في نَظَر الخالق)[2]. لكـنَّ هـذه القناعـة قـد عـادت بفكـر غربـي وارث للفكـر اليـهُودي. فكـرة الانتقـاء، القداسـة، التّفـوُّق كُلّـها اسـتُعيدت. أمَّا فكرة "الآخر جداً" والذي يجب إزالته؛ فقد وجدت تطبيقات أُخرى.

مـن أيـن أخـذ دُوستُوفسـكي مثـلاً فكرتــه عـن شـعب روسـي؛ أُمَّـة مسـيحيَّة؟ CHRISTOPHORE، أُمَّـة مُعـدَّة لأنْ يكـون لـها دور فـي الإنسـانيَّة، علـى عكـس بـاقي

---

(1) ج كاتس، إقصاء وتسامح، مسيحيُّون ويهُود في القُرُون الوُسْطى، زمن الأنوار، باريس ليوكوسن 1987.

(2) رابان فايرشيلا، مُحادثة سياسيَّة مع الجويش رفيو أعادها فولوار في صيف 1991.

الشُّعُوب الذين ليس لهم شيء مُماثل: هُو " الُصالحة العالَميَّة " بعد تهديم الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة والاستيلاء على استنبول! ومن أين استعار "مازيني" فكرة الأُمَّة الإيطاليَّة الُختارة التي لها مهمَّة تقوم بها. عمل "كبير" "مُقدَّس" ومُوكَل من الله، وهي إعلان حقيقة ونَشْر فكرة... وذلك بعد إجراء حرب على النّمسا! . كيف تصوَّرت الدِّيمُقراطيَّة الأمريكيَّة موضوع الأُمَّة الأمريكيَّة الُختارة، أو الفكرة الُماثلة التي هي فكرة أُورشليم الجديدة، فكرة الأرض الموعودة التي يجب تطهيرها من الوحشيَّة الهنديَّة؟ من أين أخذ مُتشيِّعو الرِّقِّ في هذه الأُمَّة الُختارة فكرة أنَّ " الزُّنُوج" يجب أنْ يُحوَّلوا إلى رقيق؛ لأنَّهم كانوا أبناء حام؟.

إنَّ بنية الأيديُولوجيَّات الإقصائيَّة الغربيَّة يبدو أنَّها أعادت إنتاج نَفْس الفكر التّوراتي في فُوبيا الآخر. يُوجد هُنا - دوماً - شعب مُختار، جنس طاهر نقي، أو أُمَّة مُقدَّسة: ويُوجد - دوماً - إنسانيَّة "أُخرى" حياديَّة نوعاً ما: ويُوجد - دوماً - شعب مُكَنْعَنٌ (نسبة للكنعانيِّيْن) التُّركي، النّمساوي، البروسي، الأسود، الهندي، أو اليهُودي، يجب إبادتهم حتَّى يُتمِّم الشّعب الُختار رسالته؛ لأنَّه يُوجد - دوماً - رسالة سلَّمها وعهدها لهم إمَّا الله، أو التّاريخ، أو الحضارة، أو حُقُوق الإنسان. إنَّه غريب حقَّاً ألاَّ يكون الُؤرِّخون قد اهتمّوا بهذه التّشابُهات في بنية الأيديُولوجيَّات، بينما كُلُّ واحد منَّا يعرف أنَّ التّوراة هي في الأساس الأعظمي لتصوُّراتنا ولثقافتنا(1).

هُناك أسئلة كان يجب على الُؤرِّخين وعُلماء الاجتماع ولجان علم الأخلاق طَرْحها مُنذُ زمن بعيد: ما هي - إذاً - مكانة مُوسى ويُوشع وإيسدراس. . في موطن خيالنا؟ أيُّ شرعيَّة يُعطي هذا الخيال لأفعالهم؟

فإذا كانت هذه الشّرعيَّة مُكتسبة، أليس هُناك احتمال أنْ يُعاد تنفيذ نموذج الإبادة الجماعيَّة؟

هل يُمكن لنا - أخلاقياً، وبدُون خطر - أنْ نترك - حتَّى الآن - انتقال الفكرة التّوراتيَّة في القَتْل الجماعي الشّرعي بدُون عقاب؟ .

---

(1) رسائل العهد القديم، باريس بيلان 1993 .

فمُنذُ مُوسى وحتّى جُوزف وبعده بزمن طويل يُمكن لنا أنْ نفترض أنَّ فُوبيا الآخر كانت عاملاً تاريخياً هاماً، حتّى لو أنّه من الصّعب تقييمها بدقّة. ويبدو أنّه من المُحتمل أنّها كانت الثّابتة الحاسمة في الاختيارات السّياسيَّة لليهُود في اليهُوديَّة، أو في تصرُّفاتهم الاجتماعيَّة في الشّتات: ومهما كان الأمر؛ لا يُمكننا أنْ نُقيِّم اقتصاد هذا العامل (فُوبيا الآخر) الغَيْري المَرَضي في دراسة حفظ الدّيانة والهُويَّة اليهُوديَّة حتّى يومنا هذا. فليس في ذلك إلاَّ إرادة اليهُود الواعية في إقصاء الكافر حسب كلمة كاتس، فهي تستحقُّ أنْ تُطرح في إطار التّاريخ القديم الذي شهد ولادتها.

في الخاتمة

التّوراة كتاب مُقدَّس؛ حيثُ مرجعيَّته الدِّينيَّة تُقدِّس الاضطهاد، وتجعل منه مثالاً أعلى للحياة، بل واجباً. ومُنذُ ذلك الحين؛ أصبح النَّبْذ والإقصاء الفيزيائي للآخر، أو "الآخر(الأكثر جدّاً)" خارج حُدُود الضّمير، ودخلوا في الصّنف الذي قرّره الله في حكمته اللاّمُتناهية أنّه أمر صالح. ومع التّوراة؛ أصبح الضّمير الإنساني مُهاناً والحسُّ النّقدي مُلغىً.

لو أنَّ أحداً يودُّ إلغاء التّمييز العُنصُري التّوراتي بإبراز وتطوير مظهره الدِّيني والضّرورة لشعب بأنْ يحفظ مُعتقداته، هذه الضّرورة هي محمُودة في حَدِّ ذاتها، لكنْ؛ لا يُمكن لها ـ بأيِّ حال ـ شَرْعَنَة الإبادة الجماعيَّة أو التّمييز العُنصُري.

إنَّه لمن المُدهش أنْ تكون مثل هذه الخُطوات نحو التّبرير مُتَّخذة في يومنا هذا، بينما حُدِّد واتُّهم التّمييز العُنصُري بسبب الدِّين بأنّه شكل من أشكال العُنصُريَّة.

ومهما كان من أمر؛ فإنَّ فكرة العُنصُريَّة التّوراتيَّة المحرَّكة بدوافع دينيَّة لا تصمد أمام ما تُورده النُّصُوص. لقد رأينا أنَّ النَّسَبَ والانتماء العرْقي يُبرِّران الإبادة لبعض الشُّعُوب، ونَبْذ بعضها الآخر. إقصاء الأجنبي في كتاب إيسدراس مثلاً يتمُّ دُون الاهتمام بمُعتقداته الدِّينيَّة. بينما على العكس من ذلك؛ فإنَّ الإسرائيلي يكون دمجه مُمكناً بمُجرَّد أنْ يُثبت نَسَبَهُ وسُلالته، وليس إيمانه المشهد الذي يُجسِّد عودة اليهُود مع زُورُو بابل هُو مثال لهذا الاهتمام العُنصُري قبل كُلِّ شيء.

صحيح أنَّ الأيديُولوجيَّة في نُصُوص العهد جعلت من الجنس عُنصُراً مُحدَّداً ومُقرَّراً، لكنَّ هذا ليس معناه أنَّ الأمر الدِّيني لا يتدخَّل في جدليَّته المتضمِّنة فُوبيا الآخر. يتدخَّل الدِّين ـ تحديداً ـ لدَعْم الأيديُولوجيَّة العُنصُريَّة، ليُعطيها ضمانة ومُوافقة إلهيَّة.

عَرَضيّاً؛ تعني كلمة "زار" في العبريَّة معنيَيْن: أجنبي ومُدنّس: وهذا ليس بالمعنى البيُولُوجي للكلمة، وهُو معنى حديث يُمكن أنْ يُفسِّر الحاجة والضّرورة إلى حفظ العرْق الصّافي من كُلِّ اختلاط، لكنَّ الأمر ربَّما أكثر إذلالاً وإهانة؛ لأنَّه بمعنى الانحطاط الرُّوحي

(الانحراف الغريزي لسُلالة حام). فمن المُناسب - إذاً - ألاَّ نعكس البناء العُنصُري: الغريزة العُنصُريَّة تسبق - دوماً - شرحها المُعَقْلَن: أكره الآخر. . . . (زمن أوَّلي)، لأنَّ (زمن ثاني) الله والعلم والحضارة يقولون إنَّ الآخر. . . يتبع عمليَّة الكَنْعَنَة؛ أيْ مثل (كنعان).

تنتقل - إذاً - من مُوسى إلى جُوزف، في المُجتمع اليهُودي فُوبيا الآخر مدعومة بشريعة توراتيَّة مُقدَّسة لا تُمَسُّ. وقد فضح سبينوزا في القرن السّابع عشر هذا البُغْض للأجنبي المفروض عند اليهُود وكأنَّه واجب مُقدَّس، وذلك في مُؤلَّفه "تراكتا تُوس".

هذا المُجتمع اليهُودي ذو فُوبيا الآخر يبدو وكأنَّه مُجتمع مُتضامن، وفي آن واحد مُحَوْجَب، وذلك حتَّى لا تختلط فيه أصناف الأفراد المُختلفة التي تُكوِّنه، ومُنفصل حتَّى لا تتدنَّس مملكة الكَهَنَة والأُمَّة المُقدَّسة بالاحتكاك بالشُّعُوب الدّنسة، فهي مُؤلَّفة من أفراد مُتواجدين على مُفترق سُلالة ذات اعتبارات رائعة وذات عهد مُقدَّس: يُصنِّف اليهُودي نفسه بنَسَبه، فهُو ابن إبراهيم، وبتديُّنه فهُو كاهن يَهْوَه. هُو ثمرة طبيعيَّة بيُولُوجيَّة وثقافة دينيَّة ممزوجتان بشكل صميمي: لذلك؛ لكي تكون يهُوديّاً - بشكل كامل - ينقصك - دوماً - شيءٌ ما إذاً؛ وإلاَّ كُنتَ مُتيهوداً.

لكنْ؛ مَنْ هُو اليهُودي بشكل تامٍّ؟

ففي هذه الأُمَّة المُقدَّسة نفسها يُوجد عدد من الطّبائع السُّلاليَّة الطّبيعيَّة والثّقافيَّة الدِّينيَّة التي تُحوجب وتُسلسل وتُصنِّف الذين ينتمون إليها، فموقع الفَرْد هُو رهن وجُزء من طبيعته ونَسَبه وجنسه ولياقة جسده. ومن جهة أُخرى؛ رهن ثقافته - تديُّنه ومعرفته بالتّوراة واحترامه للشّريعة. وهُنا - أيضاً - الطّبيعة والثّقافة مُرتبطان: فهُناك علاقة - مثلاً - بين الأُنُوثة وعدم معرفة التّوراة. المرجعيَّة العُليا لهذا المُجتمع هُو الكاهن: فهُو ذُو ذُرِّيَّة صافية طاهرة بالشّريعة. فبطهارة طبيعته وعُلُوِّ ثقافته، الكاهن هُو يهُودي أكثر من الجميع، لذلك يتقدَّم في المعبد، ويكون أكثر قُرباً من الله وقُدس الأقداس من أيِّ شخص آخر. وبعد وأقلّ من طبقة الكَهَنَة تنتظم طبقات وأصناف أقلّ نقاء وأبعد عن الله: العوامُّ الإسرائيليُّون، ذُكُوراً ونساءً وذوي عاهات وجُذاميِّين. . . وهكذا إلى اليهُود الكاذبين الذين يتكلَّم عنهم جُوزف، والذين يُنكرون ثقافتهم، ويبتعدون عن اليهُوديَّة دُون أنْ يتركوها تماماً.

هذا الشّعب المُجزّأ إلى فئات، والمُتسلسل يُشَكِّل - مع ذلك - وحدة لا تُفصم عراها: والأيديُولُوجية التي تُحييه وتبنيه هي كُلِّيَّة جامعة وكُلانيَّة (شُمُوليَّة).

يُحدِّد "لوي دُومُون"[1] كلمة كُلانيَّـة : أيديُولُوجية تُقيِّم الكُـلّ الاجتمـاعي ، وتُـهمل أو تُلحق وتُخضع الفَرْد البشري . فهُو يضع الكُلانيَّة في تعارض مع الإفراديَّة التـي تُقيِّـم الفَـرْد ، وتُهمل أو تُخضع وتُلحق الكُلّ الاجتماعي .

وبشكل لا يخضع للشّكّ ؛ كان المُجتمع اليهُودي القديم مُجتمع كُلاني "فـي الأضـاحي وجب أنْ نُصلِّي أوّلاً للسّلام العامّ، ثُمّ لأنفسهم ، أو لأنفسنا ، لأنَّنا خُلقنا مـن أجـل المُتّحـد ، والذي يُفضِّله على مصلحته الشّخصيَّة هُو أقرب إلى الله " . (هكذا يقول جُوزف) .

في الواقع ؛ تنتظم العلاقات الاجتماعيَّة حسـب بنيـة تميز الكُـلّ الاجتمـاعي . فتعتمـد على تاريخ ونَسَب وأمل أُخروي (ما ورائي) عامّ لجميع اليهُود .

هذا الشّعب الذي ليس إلاّ جسداً واحداً ، رغم اختلاف العنـاصر التـي تُكوِّنـه ، تُحرّكـه دعوة ورسالة عالميَّة تُغذِّي فيه القُدرة على التّماسُك : يجب على إسـرائيل أنْ تفـرض شـريعة الله على الأُمم ، واليهُود سوف يُصبحون الكَهَنَة الوُسطاء الشّفيعين لبشـريَّة قـرَّرت أنْ تعيـش حسب إرادة الله ؛ أيْ بطريقة يهُوديَّة .

وبالمُقـابل لـهذا التّوسُّـط الإجمـاعي اليـهُودي ؛ وجـب علـى البشـريَّة المُغفَّلـة أنْ تُؤمِّـن الحاجات الماديَّة للشّعب المُختار ؛ أيْ تُدبِّر الأمر الزّمنـي . هُنـا ليسـت اليهُوديَّـة التـي يجـب أنْ تندمج في الآخرين ، إنَّما الآخـرون يجـب أنْ يتـهوَّدوا ، دُون إلغـاء جَدَليَّـة التّمييـز العُنصُـري للدّاخل والخارج (IN/OUT) ، لقد استنتج جُوزف عبَراً من الهزيمة اليهُوديَّة ، وفَـهمَ أنَّ وعـد السّيطرة اليهُوديَّة قد أُرجئ عبر الزّمن . ويبدو لـه أنَّ قُـدُوم وحُـدُوث المملكـة لا يـزال بعيـداً ، وأنَّ على اليهُود أنْ يندمجوا مع الأُمم الكُفَّار ، دُون أنْ ينصهروا ويذوبوا . فيجـب عليـهم أنْ يُنفِّذوا هذا التّكيُّف الضّروري ، والذي يتطلَّب مجهُوداً كبيراً من قبَل اليهُود ، إذْ يجب عليهم أنْ يتحمَّلوا السّيطرة الزّمنيَّة للكُفَّار ، وأنْ يبقوا مُخلصين للإمبراطُور وقوانينه .

وذلك كُلُّه لا يتضمن خيانـة بالنّسبة لجُوزف ، فالخيانـة ليسـت إلاّ خيانـة الشّريعة التـي يجب ألاّ تُمَسّ .

لم يكن جُوزف يُحبِّذ الأجانب أكثر من سـابقيه التّوراتيِّيْـن . فـي مُؤلّفاتـه يبقـى الشّـعب اليهُودي موهوباً لصفات وميزات خاصَّة استثنائيَّة تُبرِّر موقعـه الخـاصّ فـي المشـروع الإلـهي .

---

(1) ل. دومون : أبحاث حول الفَرْديَّة ، باريس سوي 1983 .

غير أنَّه بإخضاع اليهُود للرُّومان فَرَضَ الله تجربة جديدة لشعبه الذي أخطأ. فَهِمَ جُوزف هذه التَّجربة الجديدة، وهذا النَّفي الجديد، وللتَّغلُّب عليه، تبنَّى موقفاً جديداً لمُواجهة الآخر.

هذا الموقف لا يفترض توجُّهاً خاصّاً لغير اليهُود، ولإعادة نَظَر ومُراجعة الشَّرائع التي فيها فُوبيا الآخر أو إلغاء الفصل، لكنْ؛ على العكس تماماً، فهُو أقام مسافة رُوحيَّة عوضاً عن المسافة الجَغرافيَّة للزّيلوت: فبطُقُوسهم وحياتهم الخاصَّة واحترامهم للشَّرائع الدِّينيَّة لن يختلط اليهُود بالكُفَّار، رغم أنَّهم يعيشون فيما بينهم. وإضافة إلى ذلك، فإنَّ هذه المسافة الرُّوحيَّة لا يجب أنْ تمنع اليهُود من الوُصُول إلى مُواطنة مع الكُفَّار (اليهُود لا يُحرِّضون على العصيان). فجُوزف الذي يعتبر أنَّ قانون المملكة هُو القانون، يُريد - بذلك - حفظ اليهُوديَّة الخاصَّة، ولا يدحض الممنوعات الجنسيَّة، ولا أيَّ شرع في الزَّواج والطَّهارة. لأنَّ هذه الشَّرائع - بالتَّحديد وهذه الموانع - هي التي تحفظ المُجتمع اليهُودي في طابعه المُحوجَب الكاره الأجانب، والذي يبقى جُوزف مُتضامناً معه.

تبدو كُلُّ مظاهر فُوبيا الآخر التّوراتيَّة مُنعكسة في أعمال جُوزف. نجدها في درجات مُختلفة، وليس بدُون تنويهات مُحاطة ببعض التّحديث الذي يجعل من جُوزف كاتباً مُبتكراً[1] أحياناً، هُو هجائي موهوب، ومُدافع واثق، كان همُّه إنصاف الشّعب اليهُودي وشرائعه وعاداته، وهُو - في الوقت نفسه - يُحاول إيجاد أرضيَّات مُمكنة للتّفاهُم مع الكُفَّار (الأُمم).

ويقول مُتحدِّث عن الذّاكرة اليهُوديَّة أنَّ جُوزف لم يُكتشَف من أُمَّته إلاَّ في القرن التّاسع عشر، ولذلك أدانوه وحاربوه ظُلماً، كما حصل له في زمنه. هل يُمكننا - هُنا - أنْ نستحضر باسكال في "أفكاره" عندما أقام علاقة بين المصائب التي يخضع لها الفَرْد وبين عظمته؟ فصحيح أنَّ باسكال كَتَبَ - أيضاً - لا أُصدِّق إلاَّ الرّوايات التي يُقتَل شُهُودها، لكنَّ جُوزف لو قُتل ماذا كُنَّا لنعرف عن هذه الرّوايات؟

يتمتَّع الفرِّيسيُّون بمكانة كبيرة في الشّعب؛ إذْ إنَّهم القادة الدِّينيُّون. بعد خراب المعبد أعطى فكرهم ولادة أدب حاخامي تجسَّد - بشكل خاصٍّ - في التّلمُود.

---

(1) "جُوزف ليس ذاك الفكر الكبير ولا الطّبع الكبير، لكنَّه مزيج مزيد من وطنيَّة يهُوديَّة وثقافة هيلينية وغُرُور".
ت - رانياخ، مدخل إلى ضدَّ أبيون لفلافيوس جُوزف، باريس الآداب الجميلة 1972.

مُعجم الكلمات العويصة والمُصطلحات

الإثنيَّة اليهُوديَّة : هي التّسمية الرّسميَّة للأُمَّة اليهُوديَّة في العصر السّلوقي.

الحلقة: جُزء من التّلمُود، فيه الموادُّ الشّرعيَّة التي لها قُوَّة القانون (على عكس الأغادا التي ليست معياريَّة)، الحلقة هي ثمرة أجيال من مُفسِّري الشّريعة الذين يعتقدون أنَّهم ثبَّتوا (سبيل الاتِّباع)، فهي تفرض إطاعة مُطلقة لطريقة وُجُود مُقنَّنة في أصغر تفاصيلها.

كُوهين: (جمع: كُوهانيم) الكاهن، وهُو عُضو العائلات القديمة الكَهَنُوتيَّة.

الميشنا: (في العبري تعليم) تقنين مكتوب للشّريعة الشّفهيَّة، والتي تعود إلى سيناء. تُشَكِّل الميشنا الجُزء الأوَّل من التّلمُود، وصيغت بين 200 و 220 بعد المسيح من قبَل الحاخام يهُوذا هاناسي، في التّلمُود، تُرفق بشرحها الغيمارا (في العبريَّة الطّريق للاتِّباع).

الفرِّيسيُّون: حَرْفيّاً؛ المُنفصلون (أرادوا أنْ ينفصلوا عن الأجانب وعن اليهُود الفاترين). يرجعون إلى الشّريعة المكتوبة وإلى شريعة شفهيَّة تعود - أيضاً - إلى سيناء، ويُؤكِّدون وُجُود الملائكة وقيامة الموتى والدّينونة الأخيرة.

شودهان آروخ (بالعبري: الطّاولة المُقامة): وهُو مرجع كَتَبَه يُوسُف كارو (1488 - 1575) يُدوِّن فيه القوانين، ويُقنِّن مُدوَّنة الحلقة التّلمُوديَّة. ويبقى - حتَّى يومنا هذا - مرجع الشّريعة اليهُوديَّة التي تنتظم فيها اليهُوديَّة الأرثُوذُوكسيَّة والتّقليديَّة.

الأسينيُّون: فرقة يهُوديَّة مُنظَّمة، وتعيش حياة تقشُّف، وتطوَّرت في فلسطين خلال القرنَيْن الأخيرَيْن قبل المسيحيَّة. فهي نشأت من مُعارضة الكَهَنُوت الذي كان يُعتبَر غير شرعي من السُّلطات الحشمُونيَّة. لقد انفصل الأسينيُّون عن المعبد؛ حيثُ لم يعودوا يُضحُّون، وهُم يُطبِّقون الشّريعة بشكل شديد، ويعيشون بقُوَّة واحدة بانتظار المسيح.

الوالي الرُّوماني ايتنارك: حُكَّام بعض مُقاطعات الشّرق التي لها حُكْم ذاتي تقريباً، في الفترة اليُونانيَّة ـ الرُّومانيَّة. وهُو اسم القادة المَدَنيِّيْن لبعض المُتَّحدات اليهُوديَّة في الشّتات، عام 140، عُيِّن سيمُون ماكابه قائد الإثنيَّة اليهُوديَّة، وأخذ هذا اللَّقب.

الفلسفة الرّابعة: العقيدة الزّيلوتيَّة حسب جُوزف هي الرّابعة بعد: الصّدوقيِّيْن، الفرِّيسيِّيْن، والأسينيِّيْن.

الصّدُوقيُّون: فرقة أو طائفة الصّدُوقيِّيْن، ظهروا في القرن الثّاني قبل المسيح، ويُعارضون الفرِّيسيِّيْن، ويرتابون من الحركات المسيحيانيَّة، وهي تتواجد في الطّبقات العُليا، وفيها مُعظم السّنهدرين. وعلى المُستوى الدِّيني؛ يُصرُّون على التّوراة المكتوبة، والتي ـ فقط ـ يشرحها الكَهَنَة، وهُم يُنكرون قيامة الموتى ووُجُود الملائكة. على المُستوى السّياسي؛ تعاون الصّدُوقيُّون مع المُحتلِّ الرُّوماني. لم تستمرّ هذه الفرقة بعد خراب المعبد.

قُدس الأقداس: ديبير (الحَرَم ـ الهيكل): هُو الجُزء الأكثر قداسة في المعبد، فقط الكاهن الكبير بإمكانه الوُلُوج مرَّة واحدة في السّنة يوم عيد الغُفران الكبير، ليلفظ "الاسم الفائق الوصف" (الغُفران الكبير) أويوم كيبور، وهُو الاحتفال الوحيد الذي ليس له معنى تاريخي يترجَّون فيه الغُفران الإلهي بالصّيام والتّكفير بشكل خاصٍّ.

السّامريُّون: مجمُوعة شعبيَّة يهوويَّة تزعم أنَّ لها علاقات قُربى مع أسباط لاوي وأفرايم ومناسيه، لكنَّها مرفوضة من اليهُود بسبب أُصُولها الآشُوريَّة. يعترف السّامريُّون بكُتُب الشّريعة الخمسة، لكنْ؛ ليس بالكُتُب الأُخرى للتّوراة. بين عامَيْ 332 و 128 ق.م، كانوا يُضحُّون في معبد جبل غاريزيم، دُمِّر هذا المعبد من قبَل جان هيكران عام 128، جعل القطيعة مع اليهُود نهائيَّة.

السّنهدرين: السّنهدرين، أو مجلس الحُكماء، يحتوي واحداً وسبعين عُضواً. بعضهم يتحدَّرون من عائلات كبار الكَهَنَة، وغالبيَّتهم صدُوقيُّون، والبعض الآخر هُم من الأعيان الأثرياء، وآخرون أحبار في الشّريعة، وغالبيتهم فرِّيسيُّون. يترأَّس السّنهدرين الكاهن

الكبير، واسمه النّاسي (الأمير). السّنهدرين يُشَرْعنُ، أو يُشرِّع ويدين اليـهُود إلاَّ الذين هُـم مُواطنون رُومانيُّون. وهُو يسهر على تطبيق قواعد التّوراة. حُلَّ بعد الحرب اليهُوديَّة الأُولى.

أَسَّس الحاخام يُوحنان بن زاكاي سنهدرين جديداً في يبنة. وهُو مُؤلَّف ـ بشكل خاصٍّ ـ من أحبار الشّريعة، رئيسه البطريرك، اعترف عليه الرُّومان ـ مُنذُ نهاية القرن الثّاني ـ علـى أنَّـه المُمثِّل الرّسمي للشّعب اليـهُودي. العمـل الأساسي لـهذا السّنهدرين الجديـد هُـو فـي تقنين الشّريعة الشّفهيَّة.

السّبعينيَّة: وهي ترجمة يُونانيَّـة للتّـوراة العبرانيَّـة التـي بـدأت فـي المُتَّحـد اليـهُودي فـي الإسكندريَّة حوالي عام 285 ق. م.

هذه التّرجمة المُوجَّهة للشّتات ذوي اللُّغة اليُونانيَّة سوف تُعتبَر وكأنَّها مُلهمَة من الله مـن قبَل آباء الكنيسة.

القتلة: (سيكير) سيكا، تعني خنجر، وهُو اسم ثانٍ للزّيلوت.

التّلمُود: تعني دراسـة وتعليم، وهُـو مجمُوعـة أدب لشُرُوحات الميشـنا. هـذا الأدب يحـوي وثيقتَيْـن كبـيرتَيْن: تلمُـود أُورشـليم؛ وهُـو قليـل التّفصيـل ومُغلـق للقـرن الخـامس، والتّلمُود البابلي؛ وهُو الأكثر اتِّساعاً، والأكـثر دراسـة، ومُغلـق للفـترة نفسـها. مُقسَّـم إلـى ستَّة أقسام، ويحوي ثلاثاً وستِّين دراسة.

التّنـايِّيْن: اسـم أُعطـي لحُكمـاء الفـترة الميشـينيَّة؛ حيـثُ أدرجـت آراؤهـم فـي الميشــنا. خُلفاؤهم هُم الأموراييم.

التّيتارك: الرّبعي في الشّرق الأوسط، وفي الفترة الهيلينيَّة والرُّومانيَّة هُـو لقـب أُعطـي لحاكم مُقاطعة صغيرة، والتي أهميَّتها لا تحتمل لقب ملـك. وبذلـك كـان هيرُود فيليـب ابـن هيرُود الكبير تيتارك لإتوريا وتراخويندا.

التّوراة في العبريَّة: تعليم: (عقيـدة، شـريعة) هـي مجمُوعـة الكُتُـب الخمسـة الأُولـى للكتـاب المُقـدَّس. هـي ـ أيضـاً ـ الملفُّ المخطـوط الـذي يُسـاعد علـى القـراءة العامَّـة. وهــي مجمُوعة الشّرائع اليهُوديَّة والكتابات. دراسة التّوراة هي أساس اليهُوديَّة.

يبنة: موقع السّنهدرين بعد سُقُوط أُورشليم. هذه المدينة أصبحت تحت إدارة يُوحنان بن زاكاي المركز الرُّوحي لليهُوديَّة الحاخاميَّة حتَّى بداية الحرب اليهُوديَّة الثّانية. أضاحي المعبد عُوِّض عنها بدراسة الشّريعة.

الزّيلوت: فرقة الزّيلوت هي طائفة الكانايم؛ أيْ الغيورون والمُتحمّسون لله. وحسب التُّراث الحاخامي؛ رائد الكانايم هُو بنحاس، الذي دمج زوجاً مُختلطاً أثناء المُضاجعة. أُسَّست هذه الفرقة من قِبَل يهُودي من الجليل اسمه يهُوذا بعد موت هيرُود في 6 من عصرنا. وأعلنت هذه الفرقة أنَّها من تُراث الماكابي، وأنَّها مُتحمِّسة للشّريعة، وتُريد تسريع إقامة المملكة أو المَلَكُوت. هدفها طَرْد الرُّومان. زاد الزّيلوت العُنف ضدّ اليهُود المُتعاونين مع الأجانب، وساهموا ـ بنشاط ـ باندلاع الحرب اليهُوديَّة الأُولى ضدّ الرُّومان.

الزُّهار: سفْر الزُّهار؛ (أيْ كتاب الرّوائع) هُو المُؤلَّف الأوَّل في الأدب القَبَلانـي المُعزى "لسيمُون باريوحاي" لكنَّه أُلِّف بقسمه الأكبر في إسبانيا في القرن الثّالث عشر من قِبَل "مُوسى دي ليون"، وهُو أحد الكُتُب المُقدَّسة عند اليهُود.

مصادر

كتابات العهد القديم :

كُتُب تاريخيَّة: التّكوين ـ الخُرُوج ـ الأحبار ـ الأرقام ـ **deut eronoue**، يُوشع ـ قُضاة ـ روت ـ أوَّل وثاني كتاب لصَمُوئيل، أوَّل وثاني كُتُب المُلوك. أوَّل وثاني كتاب من كُتُب الحوليَّات. إيسدراس ـ نعيمي ـ توبي ـ جوديت ـ ايستر ـ الكتاب الأوَّل والثّاني لمكابي.

الكُتُب التّعليميَّة: أيُّوب ـ أناشيد ـ أمثال ـ كَهَنَة ـ نشيد الإنشاد ـ حكمة ـ سيراسيد.

الكُتُب النّبويَّة: أشَعيَا ـ إرمِيَا ـ المبكى ـ باروخ ـ رسالة إرْمِيَا ـ حَزْقِيَال ـ دانيال ـ أوزه ـ جويل ـ عموس ـ ابدياس ـ جُوناس ـ ميشه ـ نعوم ـ حاباكوك ـ سوفوني ـ عجة ـ زكريا ـ مالاشيا.

كتابات العهد الحديث :

إنجيل متَّى ـ مَرْقُس ـ لُوقا ـ يُوحنَّا ـ أعمال الرُّسُل.

الكُتُب التّعليميَّة: رسائل بُولُس الأربعة عشر (للرُّومان، للكورنثيِّين 1 ـ 2 ـ للفالات ـ للأفسيسيِّين، إلى فيليبين، إلى كُولُوسيين ـ إلى تسالُونيكيين ـ إلى تيمونة ـ إلى تيت ـ فبليون ـ إلى العبرانيِّين ـ رسالة جاك وبُطرُس ويُوحنَّا ورسالة (يود يهُود).

كتاب نبوي. **رُؤيا يُوحنَّا.**

كتابات بين العهدَيْن:

الكتابات القمرانيَّة: قواعد المُتَّحد، ملفُّ المعبد، كتاب دمشق، قواعد الحرب، أناشيد، مزامير، شُرُوحات هابكوك من تعوم، من مزمور، تزوير التّكوين، "مُقتطفات".

تزاوير من **العهد القديم**: هينوخ، يوبيلات ـ عهُود البطاركة الاثنَيْ عشر ـ مزامير سُليمان ـ عهد مُوسى، استشهاد أشَعْيَا، الكَهَنَة العراقيُّون، رؤيا يُونانيَّة لباروخ، كتاب أسرار هنيوخ، كُتُب تاريخ العُصُور القديمة التّوراتيَّة، الكتاب الرّابع لإيسدراس. الرُّؤيا السّريانيَّة لباروخ، يُوسُف واسينيت، عهد (وصيَّة) أيُّوب، عهد (وصيَّة إبراهيم)، إرْمِيَا paralipomene. حياة آدم وحوَّاء اليُونانيَّة. رُؤيا الياس.

الميشنا.

أُعيد ـ حديثاً ـ نَشْر بعض دراسات التّلمُود لإصدارات فيرديه ورامسي، تسمح بطَرْح بعض مظاهر الميشنا:

بحث آفوت. بحث حقيقة. بحث مود قطّان. بحث مقّوت. بحث بيسّا حيم. بحث كيتو بوت. بحث ثاعنيت. بحث بيراخوت.

يُوجد ـ أيضاً ـ ترجمة فرنسيَّة لتلمُود أُورشليم: مرشواب، "تلمُود أُورشليم مُترجم" باريس **1878 ـ 1880 110** جُزء ثان، إصدار للجُزء الأوّل عام **1890**، أُعيد طبعه في **6** أجزاء عام **1960**، باريس **paris**.

شولهان أروخ:

عَمَلُ يُوسُف كارو (**1488 ـ 1575**)، يُوجد ترجمة فرنسيَّة مُختصرة بجُزءَيْن، نُشرت طبعة كولبو باريس **1987**.

أعمال فلافيو جُوزف:

حرب اليهُود. العُصُور القديمة اليهُوديَّة. ضدَّ أبيون. سيرة ذاتيَّة.

مراجع البحث

قامُوس التّوراة، باريس، بورداس 1990.

القامُوس الموسُوعي لليهُوديَّة، بإدارة فيغُودير باريس لُوسيرن 1993.

الموسُوعة التّوراتيَّة، لرايدرن، ريس ـ 974، لابيكود ديمازنك.

القامُوس الصّغير للأّهوت الكاثُوليكي، راهنر فورغر يملر ـ باريس سويل 1970.

التّرجمات التّوراتيَّة المُستخدمة في هذا العمل:

ـ توراة أوستي لـ E لُوستي وج ترنكة ـ باريس ـ سويل 1973، هذه التّرجمة تميَّزت في هذا البحث من غيرها بسبب جودتها الأكيدة في نصِّها وشرُوحها المُمتازة وردُودها العديدة. وقد وُجِّهَتْ وتصدَّتْ للتّراجم التّالية:

ـ توراة سيكون للام سيكوند، باريس 1932.

ـ توراة أُورشليم للمدرسة التّوراتيَّة في أُورشليم 1955.

ـ توراة رابينات بإدارة الحاخام الكبير زادوك خان، باريس كولبو 1989.

ـ توراة شوراكي ـ باريس ديسلي دي بروير 1989.

كتابات توراتيَّة أُخرى:

التّوراة ـ كتابات بين العهدَيْن بإدارة آ ـ ديبون ـ سُومر وفيلو ننكو. باريس غاليمار ـ مكتبة لابلياد 1987.

عمل فلافيُوس جُوزف:

حرب اليهُود ـ ترجمة ا ـ سافينيل باريس مينوي 1977.

مُؤلِّفون آخرون

كلمة النَّاشر الفرنسي

رقم 8 هذا من سلسلة منشُوراتنا هُو فترة هُدنة في الاضطراب الدّائم الذي كان الفيي توب (النَّاشر الفرنسي) مُجبراً عليه. فترة تأمُّل أساسيَّة وضروريَّة لتطوُّر نشاطاتنا ونجاح حملتنا.

هذا النّصُّ لألبيرتو دانزول يُحلِّل - بفكر ثاقب وتوثيق مُستند على مراجع هامَّة - استمرار علاقة الآخر في اليهُوديَّة عبر التّاريخ. إنَّ فهم البنى الذّهنيَّة العميقة والثّوابت من فلافيُوس جُوزف إلى فيدال - ناكيه، وعلاقة اليهُوديَّة بالآخرين أصبحت ضرورة مُلحَّة لازدياد الثّقل النّوعي لليهُوديَّة في السِّياسة العالميَّة، وإنَّ فَهْمَ هذه الحقيقة قد عُتِّم عليه - حاليَّاً - بالهُراء السّفسطائي وميتافيزيقيا الآخر أو ميتافيزيقيا المارق ولاوينات أُخرى موجُودة في الفكر الفلسفي في السُّوربُون.

هذا النّصُّ هُو من ابتكار أصدقائنا، سوف يُصبح نموذجاً أدبيَّاً ثابتاً مثل كتاب برنار لازار: مُناهضة السّاميَّة، تاريخها وأسبابها(الذي قامت دار الأوائل بنَشْره في دمشق 2004) ومثل كتاب إسرائيل شاحاك: التّاريخ اليهُودي - الدّيانة اليهُوديَّة: نقل ثلاثة آلاف عام. ومثل كتاب كارل ماركس: في المسألة اليهُوديَّة: ثلاثة نُصُوص أساسيَّة، أحدها الفيي توب والذي يُتابع ويتوسَّع في نَقْد جذريٍّ لليهُوديَّة على نقائض التُّراث اللاَّسامي.

وهذا لا يمنعنا - أبداً - أنْ نشاهد الحقيقة في أنَّ هذا التُّراث اللاَّسامي المُتعدِّد الوُجُوه، - والذي ننفصل عنه - قد حُورب - غالباً - بتطرُّف، وتعرَّض للقَدْح والتّشنيع.

الفيبي توب

العُصُور اليهُوديَّة القديمة .

كُتُب من 1 إلى 9 من ترجمة نُوديه باريس سيرف 1992 .

كُتُب من 1 إلى 20 ترجمة دانديلي باريس ليديس 1973 .

ضدَّ أبيون ، ترجمة بلوم ـ باريس ، الرّسائل الجميلة 1972 .

السّيرة الذّاتيَّة ـ ترجمة بلوتيه ، باريس1993 .

1) الحُكْمُ بالسِّرِّ التَّاريخ السِّرِّي بين الهيئة الثّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى.

جيم مارس، تر:مُحمَّد مُنير إدلبي، 2003

في هذا الكتاب المُذهل يقوم الكاتب الأمريكي المشهور وكاتب صحيفة نيُو يُورك تايمز والمبيعات الحائزة على أفضل المبيعات جيم مارس باستكشاف وتمحُّص أكثر أسرار العالم خفاء. وذلك بكشف الأدمغة المُسيطرة المُختبئة، من خلال مُحاولة للوُصُول إلى جُذُور الحقيقة؛ حيثُ يقوم بإماطة اللِّثام عن البراهين بأنَّ أصحاب الأمر الحقيقيِّين ومُحرِّكي الأحداث في العالم هُم الذين يتمكَّنون ـ عادةً ـ من التّسبُّب باندلاع الحُرُوب وإيقافها. كما يتحكَّمون بأسواق الأسهم الماليَّة ونِسَب الفوائد على العُملات. كما يُحافظون على تفوُّقهم الفئوي، حتَّى إنَّهم يُسيطرون على الأخبار اليوميَّة. وهُم يقومون بذلك كُلِّه تحت رعاية وأنظار مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكي والهيئة الثُّلاثيَّة والمُخابرات الألمانيَّة و الـ CIA وحتَّى الفاتيكان. من خلال تقصِّيه للبراهين التّاريخيَّة، ومن خلال بحثه المُحكَم، يقوم مارس ـ بعناية ـ بتقصِّي الألغاز التي تربط بين هذه المُؤامرات المُعاصرة لنا بالتّاريخ القديم للبشريَّة. والنّتيجة المُذهلة هي تحليل رائع لمُعطيات تاريخيَّة (كثير منها كان مخفياً عن جُمهُور النّاس) وهي تُلقي ضوءاً على المُنظَّمات السِّرِّيَّة التي تحكم شُؤُون حياتنا. من الأشياء المُثيرة في الكتاب: ما هي مُنظَّمة الهيئة الثُّلاثيَّة السِّرِّيَّة. ما هي مُنظَّمة المعهد المَلَكي البريطاني. ما هي مُنظَّمة الإليوميناتي. ما مُنظَّمة دير صهيون. ما هي علاقة اليهود وأساطين عائلاتهم المصرفيَّة الثّريَّة بهذه المُنظَّمات. وما هي الماسُونيَّة، وما علاقتها بهذه المُنظَّمات. ومَنْ يحكم ـ فعليّاً ـ أمريكا. ما هي مُنظَّمة مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكي. آل رُوكفلر. آل مُورغان. آل رُوتشيلد. أسرار المال ونظام الاحتياط الفيدرالي. المعهد المَلَكي للشُّؤُون الدّوليَّة (المائدة) المُستديرة، رُوديس ورَسكين، ما هُو جبل الحديد، الخليج العربي والحُرُوب للسّيطرة عليه، حرب الخليج 1991، وأسبابها الحقيقيَّة. بُوش الجَدُّ وبُوش الأب وبُوش الابن والنّفط. فيتنام. كينيدي وأسباب اغتياله، الحرب الكُوريَّة. النّازيَّة. برُوتُوكُولات حُكماء صهيون. هتلر. اليابان. الحرب العالميَّة الثّانية. الحرب العالميَّة الأولى. الثّورة الرُّوسيَّة. برُوز الشُّيُوعيَّة. الحرب بين الولايات الأمريكيَّة. مُنظَّمة الفُرسان السِّرِّيَّة. الماسُونيَّة. الثّورة الفرنسيَّة. اليعقُوبيُّون والجيمسيُّون. فرانس بيكُون وأتلانتيس الجديدة. الثّورة الأمريكيَّة. الإليُوميناتي (المُستنيرون). الماسُونيَّة ضدَّ المسيحيَّة. الرُّوزيكروشيُّون. فُرسان الهيكل المُقدَّس. الحشَّاشُون. مصرفيُّو وبُناة فُرسان الهيكل. الكاثاريُّون. الحرب الصّليبيَّة. مُنظَّمة دير صهيون. الميرُوفينجينيُّون. الطّريق إلى رُوما. القابالاة. الغنُوسطيَّة. الإيسيُّون. الأسرار والألغاز القديمة. التّناسخ في العالم القديم (زمن نُوح). أصل الإنسان. مُوسى. كُلُّ الطُّرُق تُؤدِّي إلى سُومر. الأناكيُّون. الطّوفان والحُرُوب و. . و. . هذا الكتاب الحُكْم بالسِّرِّ بما فيه من طبيعة مُقلقة ومُثيرة وحافزة بشدَّة ومُجبرة على التّفكير يُقدِّم لنا رُؤية عالميَّة فريدة بإمكانها أنْ تُفسِّر لنا حقيقة عالمنا. وما هي أصولنا. وإلى أين نتّجه؟. .

2) الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة. ماذا فعلت؟ ومَنْ خدمت؟ عبد المجيد همُّو، 2003

الكَهَنُوت الأعلى في طيبة - القُوَّة الخفيَّة اليهوديَّة - جماعة الآلهة ميترا وعبادتها - الغنُوصيَّة العرفانيَّة - الحشَّاشُون - النُّورانيُّون - البابيَّة - البهائيَّة - فُرسان الهيكل - الغاردُونا - جماعة الصّليب الوردي - الفحَّامون - أحباب الملاك الحارس - الخصَّاؤن - الماسُونيَّة: أصلها - نُشُوءها - تعريفها - من أين اسمها - محافلها - وأسماء ماسُونيَّة عالميَّة وعربيَّة - اليمين التي يُقسمها المُنتسب للماسُونيَّة - ما الامتحانات وما الاختبارات التي يخضع لها؟ الماسُونيَّة والسّياسة - التّجنيد لصالح اليهود - علاقة الماسُونيَّة بالقبالة وبالتّلمود - مُحاربة الأديان - التّوراة ولا شيء غيرها - مُحاربة الأمم - كيف سقطت الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة - كيف تفجَّرت الثّورة الفرنسيَّة - إعادة اليهود إلى فلسطين - بناء الهيكل - الماسُونيَّة والتّنظيم - الماسُونيَّة الرّمزيَّة - كيف أُقيم أوَّل محفل - محافل أوروبة - محافل أمريكا - محافل البلاد العربيَّة - مشاهير الماسونيِّين من الشّرق والغرب - اللُّوثريَّة - البيُوريتانيَّة - أحبَّاء صهيون - شُهُود يَهْوَه - الرُّوتاريَّة - بنّاي بريت - الدُّونمة - الاتِّحاد والتّرَقِّي - العلمانيَّة - الاشتراكيَّة العلميَّة - الاتِّحاد اليهودي العامّ - الرّيفُورم - بلُوتُو - أنوشيت - ثرُويد رست. كتاب يجمع مُعظم المُنظَّمات السِّرِّيَّة العالميَّة، ويشرح كيف يتمُّ الانتساب لهذه الجمعيَّات. كتاب يسدُّ فجوة في المكتبة العربيَّة، ويُعرِّي ويفضح اليهود الذين كانوا السّبب الأهمَّ وراء تأسيس مثل هذه المُنظَّمات السِّرِّيَّة.

3) مُؤامرة الصَمت. ختان الذُّكُور والإناث عند اليهود والمسيحيِّيْن والمُسلمين الجَدل الدِّيني الطِّبِّي الاجتماعي القانوني، د.سامي الذِّيب، تقديم: د. نوال السّعداوي، 2003

تعريف الختان وأهمِّيَّته - الجَدَل الدِّيني - الختان في الفكر الدِّيني اليهودي - في الفكر الدِّيني المسيحي - في الفكر الدِّيني الإسلامي - الختان والجَدَل الطِّبِّي - الآلام النّاتجة عن ختان الذُّكُور والإناث - الأضرار الصِّحِّيَّة لختان الجنسَيْن - المضارُّ الجنسيَّة لختان الجنسَيْن - الفوائد الصِّحِّيَّة المزعومة لختان الجنسَيْن - الختان والجَدَل الاجتماعي - الختان والجَدَل القانوني - مع الختان بين المُثُل والإمكانيَّات. تقول الدُّكتورة نوال السّعداوي في تقديمها لهذا الكتاب: هذا الكتاب من الكُتُب الضّروريَّة للمكتبة العربيَّة. لهذا؛ أودُّ أنْ يُنشر في بلادنا العربيَّة. وأنْ يكون في مُتناول الشُّبَّان والشّابَّات والتّلاميذ والتّلميذات في المدارس والجامعات. إنَّه أحد الأسلحة في مجال الثّقافة العامَّة؛ حيثُ تُحرم الأغلبيَّة السّاحقة من الثّقافة الحقيقيَّة؛ حيثُ يفشل نظام التّعليم في تدريب الشُّبَّان والشّابَّات على تشغيل عقُولهم. تُؤدِّي الهزيمة العقليَّة إلى هزيمة سياسيَّة وعسكريَّة واقتصاديَّة. إنَّ الثّقافة غير مُنفصلة عن السِّياسة أو الدِّين أو الحرب، والعقل هو الذي يُوجِّه اليد التي تُمسك السّيف أو البُندقيَّة.

4) العراق أوَّلاً حرب إسرائيل الخاطفة على نفط الشّرق الأوسط عملية (شيخينا).

جُو فيالز، ترجمة: مروان سعد الدِّين، 2003

إنَّ فكرة سرقة المخزون النِّفطي لشعب آخر ليست ابتكاراً إسرائيلياً، بل ربَّما تعود إلى عام 1941، عندما فرض رُوزفلت حظراً كاملاً على تزويد اليابان بالنِّفط خلال (الحرب على الإرهاب الأمريكيَّة الأولى)، ويأتي هذا الكتاب ليفضح عملية »شيخينا« التي خطَّطت لها (إسرائيل) لتُسيطر على نفط العراق، وسعت لتحقيقها، لولا الهجمات على مركز التِّجارة العالمي في أيلول 2001، وذلك بعد أنْ عقدت (إسرائيل) العزم على شنِّ اعتداء مُباغت على جنوب العراق، لإحكام السِّيطرة على حُقُوله النِّفطيَّة الجنوبيَّة، ومن ثَمَّ استخدام خطِّ أنابيب نقل النّفط العربي الموجود سابقاً (التّابلاين) لضخِّ النّفط إلى مصافيها في حيفا، كما يُوضِّح الكاتب الأمريكي بأنَّه من أجل تنفيذ هذا المُخطَّط سعت

(إسرائيل) إلى التّسلُّل إلى جنوب العراق وشمال السُّعُوديَّة، وكيف منحت بعض المُسلمين الشّيعة - دُون أنْ يدروا بأنَّ (إسرائيل) وراء هذا التّخطيط - ممرّاً مجّانيّاً إلى بُلدان أخرى، بعيداً عن عدوُّهم صدّام حُسين، ويُبرز الأمريكي فيالز كيف تمَّ التّخطيط لما سُمِّي بعملية «حُرِّيَّة العراق»، وهي الجُزء الثّاني من عملية «شيخينا»، وكيف سيتمُّ قَطْعُ رأس صدّام حُسين وتعيين جي غارنر الذي هُو عُضو في المعهد اليهودي لشُؤُون الأمن القومي، ليكون حاكماً عسكرياً للعراق، ثُمَّ سيأتي دور أحمد الشّلبي كإداري مُؤقّت للعراق، على أنْ يتمَّ - فيما بعد - إبدال الرّئيس السُّوري بشّار الأسد بالأخ الأصغر لأحمد الشّلبي، وإذا رفضت سُوريَّة هذا، فإنّه سيجري تدميرها وإعادتها إلى العصر الحجري، ولكنْ؛ لم تسر الأمور كما خُطِّط لها. . ، تفاصيل دقيقة ومُثيرة وسرِّيَّة يكشفها الكاتب الأمريكي جُو فيالز في ثنايا هذا الكتاب المُدعَّم بالصُّور والخرائط اللاّزمة.

5) دراسات توراتيَة، حنًا حنًا، 2003

يُميط الكاتب اللّثام عن بعض القضايا الوثنيَّة السُّوريَّة القديمة، منها مازال راسخاً في سماويّات اليوم، كالحيَّة والقُربان والصّليب، ومنها ما اندثر. . ، ثُمَّ يغوص الكاتب ليُعرِّي عُيُوب وفضائح شعب الله المُختار الذي تتبارك في نسله جميع الأمم دُون استثناء. . وبعدها يربط المُمارسات الصّهيونيَّة من قَتْل وإبادة واحتقار الأغيار بآيات توراتيَّة، يعمل اليهود على تحقيقها إلى الآن. . ، اليهود وعبادة الأصنام (التّرافيم) - البُخُور - القُربان، الخصاء والرَّهْبَنَة، الدَّيْر، الجنس في التّوراة، طُقُوس جنسيَّة وعلاقات زواج، عشتار ربَّة الجنس، نشيد الإنشاد (نجوى حُبٍّ في هيكل الرَّبِّ)، القمر وعباداته، الثّالُوث المُقدَّس، الصّليب، القرن، الثّور المُجنَّح (الكيروب). . ، الإله رامون، جنَّة عَدن، أساطير التّكوين، الطُّوفان، قايين وهابيل، الشّيطان، صفات إله العبرانيِّين، الأسفار السّاقطة، المسيح والعذراء، بعض الأخطاء الواردة في التّوراة، أخطاء نَسَب المسيح، بابل وسُقُوطها، وغيرها من الموضوعات التي تدحض وتُفنِّد وتُعرِّي كتاباً اسمه التّوارة.

6) القَتْل من أسفار اليهود وبرُوتُوكُولات حُكماء صهيون إلى فارس بلا جواد، مازن النّقيب، 2003

من نُقطة التّفريق بين أُمٍّ يهوديَّة تحمل طفلاً يهودياً بريئاً، رفض حافظ (مُحمَّد صُبحي) في مُسلسل فارس بلا جواد أنْ يُفجِّر مكاناً اجتمع فيه حاخامات اليهود، لأنَّ فيه طفلاً بريئاً، من هذه النُّقطة وُلدت فكرة الكتاب، يشرح الكتاب - بشيء من التّفصيل - القَتْل، العُنصريَّة، سَلْب حُقُوق وأرواح غير اليهود، من خلال الغوص في التّوراة، والتّلمود وبرُوتُوكُولات حُكماء صهيون، فاليهود - وحدهم - بشر، والشُّعُوب الأخرى حيوانات مُسخَّرة لخدمتهم، ولا يترتَّب أيُّ عقاب على يهودي يقتل غير يهودي، قَسَمُ اليهودي لغير اليهودي غير مُلزم، ألم يقل شارون يوماً: أمنيتي احتلال القاهرة ودمشق، وأتنزه عسكرياً في لُبنان، الفلسطينيُّون من السّهل مُحاصرتهم وإبادتهم، إنَّهم في فمنا، أمّا المصريُّون والسُّوريُّون فمازالوا خارج أيدينا، ويجب أنْ يكونوا في أيدينا أوّلاً، ثُمَّ في فمنا ثانياً، بعدها؛ يُمكن أنْ نقول (إسرائيل) قد حقَّقت أمنها؟، يقولون: إنَّ الصّهاينة لديهم 24 برُوتُوكُولاً، نفَّذوا منها 19 برُوتُوكُولاً، انتهت بأحداث 11 أيلول في الولايات المُتّحدة، كما يتعرَّض الكتاب إلى البرُوتُوكُولات ويشرحها - بشيء من الاختصار - ويُقارن بينها وبين مدى مُطابقتها لما قد تحقَّق منها خلال القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

7) نساء في قصُور الحكَّام (ومن الجنس ما قتل)، مازن النّقيب، ط1، 2003

بعض الرجال - سياسيِّين كانوا أم أدباء، مُلُوكاً أم رؤساء، علُماء أم من العامَّة ... - لا يستطيعون مُقاومة عيُون النساء، ولا دلعهنَّ، ولا أصواتهنَّ، ولا ... ولا ...، حكَّام ونساء من الشّرق والغرب، بعضهم رحل وأصبح في عالم النّسيان، وبعضهم مازال يقف على الشّطآن، يحلم بأنْ يكون إنساناً ليصطاد حُوريَّة من البحر، يتعرَّض الكتاب إلى عيِّنة من البشر تخلَّت عن المبادىء والقيَم والعادات والأخلاق والتّقاليد من أجل لحظة فساد ونشوة عابرة، فمَنْ منَّا لا يذكر الملك فاروق وناريمان، وقصص بيل كلينتون، والأميرة ديانا ودُودي الفايد، وجُون كينيدي وزوجته ومارلين مُونرُو، وشاه إيران مُحمَّد رضا بهلوي، والمُشير عبد الحميد، والرّئيس ميتيران ومازارين، والملك إدوارد الثّامن وأليس سيمبسُون، والملكة أليزابيث الثّانية، والأمير فيليب، والأميرة مارغريت وعاشقها المُطلّق، والأمير آندرو وسارة، وجواهر لال نهرو واللّيدي مُونتباتن، وبانازير بُوتُو وزَرَادي، وأوناسيس وجاكلين كينيدي، والأميرة كارولين وفينسان ليندُون، والأميرة مارتا وآري بين، . . . ، يربط الكتاب بين قصص حُبٍّ وعشق هؤلاء مع الخفايا والأسرار التي كانت تُحاك خلف أسوار القُصُور والمنازل، وعلاقة ذلك كُلّه - في النّهاية - بالسِّياسة.

8) سفر التّايخ اليهودي اليهود تاريخهم عقائدهم فرَقهم نشاطاتهم سُلُوكيّاتهم الحركة الصّهيونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة، رجا عبد الحميد عُرابي، 2004

تزعم - دار الأوائل - أنَّه الكتاب الأشمل في ما أُلِّف عن اليهود؛ حيثُ يتحدَّث المُؤلِّف فيه عن تاريخ اليهود وتشتُّتهم وانتشارهم في العالم، وعن كُتُبهم الدِّينيَّة وعقائدهم وفرَقهم وطوائفهم قديماً وحديثاً، وعن تعاليم حُكمائهم، وعن نشاطاتهم السّياسيَّة، وعن سُلُوكيَّاتهم وأخلاقيَّاتهم، كما يتحدَّث عن الحركة الصّهيونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة. ممَّا يتناوله المُؤلِّف جنَّة عَدَن في التّوراة، وفكرة الفردوس عند السُّومريِّين، وآدم وجنَّته، مصادر التّاريخ القديم لليهود، النّظريَّة السّاميَّة، العبريَّة والعبرانيُّون، القُرآن والعبريَّة، إبراهيم، العبرانيُّون والإسرائيليُّون والموسويُّون واليهود، أسباب انحراف اليهود، الخلطُ بين اليهود وبني إسرائيل، يعقوب والرّحيل، الهكسُوس، مُوسى، أخناتون والتّوحيد، مُوسى والتّوحيد، بُرهان أنَّ مصر هي مصران الجزيرة، الأمر بغزو فلسطين، تابوت العهد وخيمة الاجتماع، يُوشع بن نُون، عهد القُضاة، عهد المُلُوك، داود، سُليمان، بلقيس، سبأ، انقسام المملكة اليهوديَّة، مملكة دمشق الآراميَّة، الأسباط العشرة، التّوراة، السّبي البابلي، الفُرْس الإخمينيُّون، اليهود والرُّومان، تشتُّت اليهود، انتشار اليهود في العالم، الخزر، اليمن، الجزيرة العربيَّة، الحبشة، الأشكناز، السّفارد، الدّيانة اليهوديَّة، ترجمة التّوراة، التّلمود، القرَّاءون، السّنهدرين، الكَتَبَة، السّامريُّون، الصّدوقيُّون، الفرِّيسيُّون، الإسينيُّون، المسيح المُنتظَر، الدُّوغة، الصّهيونيَّة، الأحزاب الدِّينيَّة اليهوديَّة، الهسكالا، برُوتُوكُولات حُكماء صهيون، الماسُونيَّة، بناي بريت، إله اليهود، اللاّساميَّة، حاخامات اليهود، هرتزل، ألمانيا وفرنسا واليهود، إسرائيل وفلسطين بالتّفصيل الدّقيق، العلاقة الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، وغيرها من المعلومات المُهمَّة التي لا غنى عنها لكُلِّ عربي ومُسلم وغير يهودي.

9) أساطير وكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة، فيليب آجي وآخرون، تر: حمدي الصّاحب، 2004

يبحث هذا الكتاب الهامُّ جداً في كيفيَّة انشقاق بعض زُمر مُوظّفي وكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة على مدى سنين عديدة. وخاصَّة بعد حرب فيتنام؛ حيثُ ترك العديد منهم هذه الوكالة وهُم ساخطون. وبدلاً من الانشقاق والذّهاب إلى الاتّحاد السُّوفيتي فعلوا الأخطر؛ وهُو إبلاغ أسرارهم إلى العالم أجمع؛ وخاصَّة إلى الشّعب

الأمريكي. بدأ بكيفيَّة تحديد مكان الجاسُوس وكيفيَّة هَتْك أسرار الـ سي آي إيه، ومَنْ هُم رُؤساء المركز. ومَنْ هُو الجاسُوس السُّوبر (كُوردمير). والـ سي آي إيه في البُرتغال والتغييرات فيها. ثُمَّ انتقل إلى نُقطة التّحوُّل ومسألة ريتشارد ويلتسن، وُصُولاً إلى أثينا وبيان مُنظّمة 17 نُوفمبر الثّوريَّة. وماذا تفعل الـ سي آي إيه في أوروبة الغربيَّة. إسبانيا بعد فرانكو. عمليَّات الاستخبارات في اليُونان. العامل الأمريكي في اليُونان. مُونتغمري. إيطاليا ومارتشيني. الاستخبارات في فرنسا. في ألمانية الغربيَّة. وكيف تنتزع أموالُ الـ سي آي إيه أسنانَ الاشتراكيَّة البريطانيَّة، وكيف تدعم الـ سي آي إيه السُّوق المُشتركة. كيف تصنع الـ سي آي إيه الأخبار. سويسرا. ثُمَّ يُختتم الكتاب بمقاييس معنويَّات الـ سي آي إيه، ثُمَّ الـ سي آي إيه الجديدة. كتاب جدير جداً بالقراءة والتّدبُّر، وُصُولاً إلى مُحاولة استشفاف ما بين السُّطُور أكثر ممَّا على السُّطُور.

10) الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة مُنذُ البدايات النّشأة التّاريخ العقيدة التّوزُّع الجغرافي، سعد رُستُم، 2004

عرض تاريخي تحليلي لقصَّة نُشُوء الفرق والمذاهب الإسلاميَّة، وأسباب انقسامها، مع شرح أهمِّ العقائد التي ميَّزت كُلَّ فرقة، وبين التّوزع الجَغرافي لأتباعها، والأسباب الحقيقيَّة الكامنة وراء انفصالها، وأسرار انقساماتها مع التّعرُّف - بدقَّة - وموضوعيَّة إلى أهدافها ونواحيها، والوُقُوف على عقائدها الحقيقيَّة التي تميَّزت بها، برُوح موضوعيَّة علميَّة ومُتجرِّدة، أوَّل اختلاف بين المُسلمين، الخوارج، مأساة كربلاء، الانقسامات الكلاميَّة والفقهيَّة ضمن أهل السُّنَّة، المُعتزلة، الحشويَّة، الحنابلة، الأثريَّة، والأشاعرة، الماتريديَّة، النّزاع بين الرّأي والحديث، المذاهب: الحنفي، المالكي، الشّافعي، الحنبلي، التّصوُّف، الإباضيُّون، الشّيعة: اليزيديُّون، الإماميَّة الاثني عشريَّة (الجعفريَّة)، الشّيعة الجعفريُّون العلويُّون، الشّيعة الإسماعيليَّة، الحوشبيَّة، الخلفيَّة، الفاطميُّون، الصليحيُّون، المُستعلية، النزاريَّة، المُوحِّدون (الدُّرُوز)، الآغا خانيَّة، القاديانيَّة (الجماعة الإسلاميَّة الأحمديَّة) جمعيَّة أهل القُرآن (أصحاب الفَهْم العصري للقُرآن ورفض السُّنَّة والحديث)، وغيرها من الموضوعات التي تُؤكِّد أنَّ جُلَّ المذاهب والفرَق الإسلاميَّة لا تعدو وُجهات نظر مُختلفة في فَهْم الإسلام، وكُلُّها نابعة من الإسلام الحنيف، تتحرَّك فيه، وتتمسَّك بأصوله، حسب فَهْمها، وترجع إليه، الكُلُّ مُسلمون ينتمون لأمَّة واحدة هي أمَّة مُحمَّد بن عبد الله (صلَّى الله عليه وسلَّم)، ويعبدون إلهاً واحداً هو الله الواحد الأحد، الفرد الصّمد، الذي لم يلد، ولم يُولد، ولم يكن له كفؤاً أحد، ويُؤمنون بكتاب واحد هو القُرآن الكريم، ويستقبلون قبلة واحدة هي بيت الله الحرام.

11) نهاية التّاريخ في الفكر الإسلامي الحديث، علي سكيف، 2004

هل وصل سُكَّان الأرض إلى حضارة تفوق حضارتنا الحاليَّة؟ - هل شهد كوكب الأرض حضارة مُتقدِّمة أكثر من حضارتنا الحاليَّة اندثرت نتيجة حرب كونيَّة؟ - هل هُناك مخلوقات بشريَّة على كواكب أخرى؟ - هل صحيح أنَّ الكون يتمدَّد ويتوسَّع: وما هي نهاية هذا التّوسُّع؟! - هل كان أصحاب الكهف في عصر الرُّومان وكان الكهف على هذا الكوكب أم كان خارج الأرض؟! - هل الخُلُود في الجنَّة والنار أبدي؟ - هل صحيح أنَّ يعقوب بن إسحاق هو إسرائيل وذُرِّيَّته من بعده هُم بنو إسرائيل؟! - هل هُناك علامات عن قُرب يوم القيامة لسُكَّان هذا الكوكب؟ - هل نشأت المخلوقات البشريَّة على هذا الكوكب أم جاءت وافدة من كواكب أخرى؟ - هل عرف العالم قبلنا الاستنساخ بكافَّة أشكاله وأنواعه؟ - هل كان نُوح يعيش في العصر الحجري؟ أم كان عالماً متخصِّصاً بعلم الاستنساخ؟ - هل هُناك - فعلاً - جن وشياطين وأبالسة غير مرئيِّين؟ أم أنَّ هذَيْن المُصطلحَيْن يُعبِّران عن مُصطلحات توراتيَّة.

12) الفقه السِّياسي الإسلاميُّ، د.خالد الفهداوي، 2003

في هذا الزّمن وفي هذا الوقت بالذّات غدت الحاجة مُلحَّة جداً جداً من أجل وضع قواعد لتأسيس فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ. بعد أنْ أُشبع الفقه العادي إنْ صحَّ التّعبير؛ أيْ فقه المُعاملات وفقه العبادات تأسيساً ومنهجيَّة. يتناول الباحث ـ تاريخيّاً ـ السّياسة الإسلاميَّة مُنذُ عُمَر بن الخطَّاب، مُروراً بأبي حنيفة وابن خلدون والشّاطبي وابن تيميَّة والماوردي والغزالي، وصُولاً إلى المدرسة التّجديديَّة المُعاصرة. ويُعلِّل لماذا الحاجة إلى قواعد فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ. ثُمَّ يُوضِّح ما هي أسباب تعطيل الفقه السّياسي الإسلامي ومظاهره. ويُعرِّج على العلمانيَّة والاستشراق والخلافة والمُلك وإلى دَور الجامعات الإسلاميَّة في إغناء الفقه السّياسي. كما يرتدُّ الباحث إلى بحث فقه السّياسة عند الأنبياء نُوح وإبراهيم ومُوسى وعيسى، ويبحث في نحو قواعد مُؤصِّلة للتّفسير السّياسي للقُرآن الكريم. ومن ثَمَّ يصل إلى فقه هذه المرحلة التي نعيشها؛ أيْ قواعد الحرب والسّلام. ويبحث في مُصطلحات عديدة مثل: الجهاد ـ القتال ـ السّلام ـ الحرب ـ وكيفيَّة ضبط كُلٍّ من هذه المُصطلحات في القُرآن والسُّنَّة. كما يتطرَّق ـ بشيء من التّفصيل ـ إلى قواعد السّلام والحرب في مرحلة الاستضعاف (مثال السّلام مع الكيان الصّهيوني بين الشّرع والواقع). ويصل إلى بحث قواعد الحرب والسّلام في مرحلة العالميَّة، ويبحث في الدِّيمقراطيَّة والمجالس النِّيابيَّة وحُقُوق الإنسان والسّلام العالمي من ميزان الفقه السّياسي الإسلامي. ويُعرِّج إلى قواعد الحرب والسّلام في ضوء المُتغيِّرات السّياسيَّة، ويُبيِّن قواعد الفقه السّياسي الإسلامي بين الثّوابت والمُتغيِّرات. ويتناول العولمة والآخر، وهل ما يحدث الآن هُو حوار حضارات أم صدام حضارات؟ كما يبحث في المُجتمع المَدَني والإرهاب والمُنظَّمات الدّوليَّة والفقه السّياسي والسُّلطات الثّلاث، مُفصِّلاً في الخلافة والإمامة والسُّلطان والملك، وأهل الحلِّ والعقد ومجلس الشُّورى والنّظام الوراثي، والطّائفيَّة والأمَّة ودولة المُؤسَّسات والمرأة والحُقُوق السّياسيَّة والدُّستور وولاية الفقيه وفقه الدّولة وفقه الفرد، والنّظام القَبَلي والحوار القومي الإسلامي والحرب الحضاريَّة والحُرِّيَّات العامَّة والتّعدُّديَّة السّياسيَّة ومعالم النّظام الإسلامي العالمي، والدِّين والسّياسة. ثُمَّ يُعدِّد القواعد التي ارتآها تصلح لتأسيس فقه سياسي إسلامي.

13) خارقيَّة الإنسان الباراسيكُولُوجي من المنظور العلمي، د.صلاح الجابري، 2004

مُنذُ القرن السّابع عشر وحتَّى بدايات القرن العشرين فَقَدَ العلمُ شفافيَّته، وراح ينأى مُبتعداً عن كُلِّ همسة رُوحيَّة أو لمسة شاعريَّة للكون، والتصق أكثر فأكثر بأقسى جوانب الطّبيعة صلابة، وبأكثر قوى العقل البشري بُعْدَاً عن المواهب الحدسيَّة النّافذة إلى صميم الأشياء. كان لتلك الرُّؤية نتائج فلسفيَّة وخيمة على الإنسانيَّة؛ لأنّها جمَّدت عواطف الإنسان، وأغلقت منافذه الرُّوحيَّة بجُدُرٍ صلبة، فأفقدتْهُ طابعه الإنسانيّ الحقيقيّ، فكان لذلك انعكاسات نَفْسيَّة سُلُوكيَّة، نما في إطارها الدّافع العُدواني المدفوع بمُيُول حُبِّ الذّات المُوجَّهة باقتصاديَّات السُّوق وحُبِّ الثّراء السّريع على حساب القيَم الرُّوحيَّة التي بدأت تتراجع مكانتها في نَفْسيَّة الإنسانيَّة، وحلّت محلّها قيَم اللّيبراليَّة، التي تفتقر إلى أيِّ أسلوب أو آليّات لمُعالجة الانحراف الإنساني وإيقاف قتل الإنسان لأخيه. علم السّاي من العُلُوم الجديدة التي ظهرت حديثاً على السّاحة العلميَّة، والاسم الشّائع لهذا الحقل هو الباراسيكُولُوجي، ويُسمِّيه بعضهم السّيكُوترُونيك، والقُوَّة الأساسيَّة التي يُفترض أنّها تُسبِّب ظواهره تُسمَّى قُوَّة ساي Psi. تظهر قُوَّة ساي بأشكال مُتعدِّدَة، ففي بعض الأحيان تتَّخذ شكل قُوَّة إدراكيَّة ـ تخاطر، جلاء بصري (استشفاف)، تنبُّؤ بالمُستقبل ـ وأحياناً؛ تتَّخذ شكل التّأثير على الأشياء المادِّيَّة بكُلِّ أشكالها. والقُوَّة الإدراكيَّة لـ ساي هي نوع من الاتّصال بين الأحياء على

شكل تخاطر، أو بين الأحياء والبيئة على شكل استشفاف (جلاء بصري)، وقد يأتي التّخاطر والجلاء البصري على شكل تنبُؤ بالأحداث قبل وُقُوعها. يهدف الكتاب إلى إيضاح طبيعة الدّليل الذي يُقدّمه الباراسيكُولُوجي لإثبات واقعيَّة ظواهر ساي، ويُؤكّد - علمياً وفلسفياً - أنْ ليس كُلُّ المُتنبّئين موهُوبين حقيقة، بل يدخل ضمنهم المُشعوذُون والدَّجّالون والسَّحَرَة، علماً أنَّ السِّحر لا يدخل في إطار القوى أو المَلَكات الباراسيكُولُوجيَّة، وأنَّ الباراسيكُولُوجي - كأيٍّ علم آخر - انتزع نفسه من ركام هائل من الظّواهر المُختلفة وأعمال السِّحْر والكَهَانة بفضل الطّريقة العلميَّة والتّحقُّق التّجريبي.

14) لُورنس والقضيَّة العربيَّة 1888 . 1935، حسام علي مُحسن المدامغة، 2004

حفلت المنطقة العربيَّة في فترة الحُكْم العُثماني بنشاط من الرّحَّالة والمُستشرقين الأوروبيّين والأمريكان الذين اختلفوا في مغزى نشاطهم، فمنهم مَنْ جاء بحثاً عن معلومات جديدة تُغني معرفته، وتُرضي فضوله، ومنهم مَنْ جاء بناءً على توجيه من حكُومته لأهداف استخباريَّة يقصد من ورائها جَمْعَ معلومات سياسيَّة أو عسكريَّة. وتُوماس إدوارد لُورانس من الذين عملوا في المنطقة العربيَّة بتوجيه خارجي، فتحدَّث المُؤلِّف عن ولادته ونشأته الأُسَريَّة وصفاته الشّخصيَّة، وكيف انخرط لُورنس في الجيش البريطاني عند اندلاع الحرب العالميَّة الأولى، وكيفيَّة عمله في عمليّات الثّورة العربيَّة. اعتمد المُؤلّف - فضلاً عن الوثائق العربيَّة والإنكليزيَّة غير المنشورة والمنشورة - على الكثير من المصادر العربيَّة والأجنبيَّة وفي مُقدّمتها مُؤلَّفات لُورانس نفسه والتي أهمّها (أعمدة الحكمة السّبعة) ممّا جعل الكتاب غنيّاً جداً بمصادره وتحليلاته واستنتاجاته.

15) العبادات في الدّيانات القديمة المصريَّة . العراقيَّة . الرُّومانيَّة . الهندُوسيَّة . البُوذيَّة . الصّينيَّة . الزرادشتيَّة . الصّائبيَّة، عبد الرَّزَّاق رحيم صلاَّل المُوحي، 2004

عبادة قُرص الشّمس عند المصريّين القُدماء، ودعوة أخناتون إلى التّوحيد وصيام الكَهَنَة - ربُّ الأرباب عند العراقيّين القُدماء (أنُو إله السّماء، وأنليل سيِّد الرّيح العاصفة) - الدّيانة اليُونانيَّة القديمة والفلسفة والإشراك، وصيامهم - الرُّومان القُدماء وآلهتهم وصيامهم - الهندُوس والبُوذيُّون والصّينيُّون والزّرادشتيُّون والصّابئيُّون وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجُّهم و .... .

16) العبادات في الدّيانة اليهوديَّة، عبد الرَّزّاق رحيم صلاَّل المُوحي، 2004

الله في الفكر اليهودي - النُّبوَّة عند اليهود - الصّلاة (الطّهارة الوُضُوء) صلاة الصّباح - صلاة المساء - الصّلاة الجماعيَّة - صلاة الظّهيرة أو العصر - صلاة المغرب - صلاة الغُفران - صلاة القمر - صلاة السّبت - صلاة عيد شعوت - صلاة عيد المظال - صلاة العشاء الخاصَّة بالافتتاح بيوم الغُفران - الزّكاة - الصّدقة - الصّوم (فردي وجماعي) صوم الصّمت - الحجُّ (إلى بيت المقدس) - الأعياد : الفصح - المظال - الأسابيع (العُنصرة) ما هو رأي الإسلام في العبادات اليهوديَّة - وما هو تأثير الدّيانات القديمة على العبادات اليهوديَّة - وما هي التّأثيرات الإسلاميَّة في العبادات اليهوديَّة مُتمثّلة بالصّلاة وغيرها من الموضوعات التي يجهلها عامَّة النّاس.

17) العبادات في الدّيانة المسيحيَّة، عبد الرَّزَّاق رحيم صلال المُوحي، 2004

الألوهيَّة والنُّبوَّة ـ الصّلاة (عقليَّة فرديَّة ـ لفظيَّة جماعيَّة) ـ صلاة المساء وصلاة الصُّبح وصلاة الظّهيرة ـ التّسابيح ـ صلوات الاستغاثة والثّقة والحمد ـ مزامير التّعليم ـ الزّكاة ـ الصّيام (صوم الصّمت ـ الصّوم عن أنواع الطّعام) الصّيام عند الكاثُوليك ـ الصّيام في الكنيسة الأرثُوذكسيَّة الشّرقيَّة ـ صوم الأربعين ـ صوم الميلاد ـ صوم العُنصرة ـ صوم العذراء ـ صوم نينوى ـ صيام طائفَتَيْ الأرمن والقبط ـ الحجُّ ـ أثر الدّيانات القديمة على العبادات المسيحيَّة ـ ومُقارنة بين السَّيِّد المسيح وبُوذا ـ أوجه التّشابه بين المسيحيَّة وعَبَدَة بَعْل ـ تأثُّر الدّيانة المسيحيَّة بالدّيانة الميثيريَّة ـ العبادات المسيحيَّة الواردة في القُرآن الكريم ورأي الإسلام فيها.

18) أضواء على ظلال الخليج، مروان القبلان، 2003

ـ ودارت عجلة الأحداث حتَّى ما عاد بإمكان أحد أنْ يُوقفها... ـ وأصبح الملك أمام خيارَيْن أحلاهما مُرٌّ؛ إذا ساند التّحالف مَنْ يضمن له أنَّ إسرائيل لن تُهاجم العراق، أمَّا إذا اختار الوُقُوف إلى جانب صدَّام حُسين، فإنَّ العالم كُلَّه سيغضب عليه، وسيحرمه الخليج من المُساعدات السّخيَّة التي كانت تُقدِّمها له. ـ لكنَّ الأمر غير الصّحيح ـ البتَّة ـ هُو أنَّ إيران هي منبع التّطرُّف الدّيني كما يظنُّ الكثيرون، وإذا أردنا العودة إلى أصول التّطرُّف الإسلامي في العصر الحديث فإنَّ ذلك سيقودنا إلى أفغانستان والقرن التاسع عشر، وليس إلى إيران والرُّبع الأخير من القرن العشرين. ـ ومن مظاهر التّناقض ـ أيضاً ـ في الشّرق الأوسط الصّراع بين أنصار القوميَّة العربيَّة وأنصار القُطريَّة، بين المُحافظين والرّاديكاليِّين، بين حُلفاء الغرب وأصدقاء مُوسكُو، وأهمُّ من ذلك كُلّه الصّراع بين أغنياء العرب وفُقراؤهم. ـ وبتحوُّل مُجريات الأمور إلى هذا المنحى الخطير، فقد يحدث ما كان صدَّام حُسين يأمل ـ حقيقة ـ بحُدُوثه، وهُو قيام انقلاب يُطيح بالعائلة المالكة في السُّعُوديَّة. ـ ففي 17 تمُّوز 1979، خلع صدَّامُ حُسين الرَّئيسَ البكرَ، وتسلَّم القيادة في بغداد، مُتَّهماً سُوريَّة والرَّئيس الأسد ـ تحديداً ـ بمُحاولة قلب نظام الحُكْم العراقي. ـ بدأ المؤتمر أعماله يوم 30 أيَّار 1989، بحُضُور جميع الزُّعماء العرب، باستثناء لُبنان الذي ظلَّ مقعده شاغراً؛ لأنَّ سُوريَّة رفضت اقتراحاً يدعو إلى حُضُور رئيسَيْ الحُكُومَتَيْن المُتنافستَيْن. ـ ولأنَّ الموقف في الخليج لم يكن قد اتَّضح بَعْدُ، ولأنَّ أيّاً من العرب لم يكن قد حدَّد موقفه بَعْدُ، ولأنَّ السّفير اليمني لدى الأمم المُتَّحدة لم يتلقَّ تعليمات مُحدَّدة من حُكُومته، فقد فضَّل عبد الله الأشطل التّغيب عن جلسة مجلس الأمن.

19) السّيف الأحمر دراسة في الأصوليَّة اليهوديَّة المُعاصرة، د. جمال البدري، 2003

الصّهيونيَّة انعكاس لليهوديَّة، و «إسرائيل» انعكاس للصّهيونيَّة. ـ الأحزاب الدّينيَّة الإسرائيليَّة هي القاسم المُشترك بين اليهوديَّة والصّهيونيَّة و «إسرائيل». ـ إنَّ الوظيفة القوميَّة لهذه الأحزاب تجسيد لجوهر الرُّؤية اليهوديَّة الصّهيونيَّة، وليس ـ هُناك ـ فرق استراتيجي بين اليسار / اليميني/ الوسط، فكُلُّها تتبنَّى الرُّؤية التّلموديَّة. ـ ما هي السّمات والاتِّجاهات التّاريخيَّة للدّيانة اليهوديَّة؟ ـ ما هي السّمات الأساسيَّة للفكر الدِّيني الإسرائيلي؟ ـ ما هي الاتِّجاهات اليهوديَّة الحديثة قبل الحركة الصّهيونيَّة؟ ـ نشأة وتطوُّر الأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة. ـ نشأة الحركة الصّهيونيَّة في أوروبا. ـ التّطبيقات الإيديُولُوجيَّة للأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة. ـ حركة غوش إيمُونيم الثّيوقراطيَّة والدِّيمقراطيَّة الصّهيونيَّة. ـ ما هي الوظيفة القوميَّة للأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة في إطار الصّراع العربي الصّهيوني؟ ـ التّهجير والاستيعاب ـ الوظيفة الأمنيَّة والعسكريَّة.. ـ تعداد الشّـ[illegible] رئيسيَّة اليهوديَّة الإسرائيليَّة. ـ المُنظَّمات

الدِّينيَّة الجديدة وصُعُود العُنصر الدِّيني بعد 1967 . ـ توسُّع الجيش الإسرائيلي في تجنيد المُتطرِّفين اليهود . ـ تعداد أحزاب الكيان الصّهيوني التي تخوض انتخابات الكنيست.

20) مُثلَّث الدّم شارُون أمس، اليوم، غداً، د.جمال البدري، 2003

إنَّ اريك شارُون أو اريل أو ارئيل بقدر ما هُو فرد واحد في المُؤسَّسة الإسرائيليَّة الحاكمة ، فهُو ـ أيضاً ـ رمز لهذه المُؤسَّسة ؛ رمزٌ سلبي بالنّسبة لنا ، ورمزٌ إيجابي « ماشيح » بالنّسبة لهم . ـ الماشيح اليهودي ، والعصر الماشيحاني . ـ المجموعة الماشيحانيَّة «مُواطنو الدَّرجة الأولى» . ـ حاييم وايزمن ـ إسحاق بن زفي ـ زالمان شازار ـ افرام كاتزر ـ إسحاق نافون ـ حاييم هيرتروغ ـ ديفيد بن غُوريُون ـ مُوشي شاريت ـ ليفي أشكُول ـ غُولدا مائير ـ إسحاق رابين ـ مناحيم بيغن ـ إسحاق شامير ـ شيمون بيريز ـ نتنياهو ـ براك ـ اريل شارُون ـ اريل شارُون من الوحدة 101 حتَّى الكيلو 101 . ـ شارُون فوق القانون !! ـ شارُون و(إسرائيل) الكُبرى . ـ الظّاهرة الشّارُونيَّة ومُستقبل (إسرائيل) .

21) هندسة القُرآن دراسة فكريَّة جديدة في تحليل النَّصِّ، د. جمال البدري، 2003

ـ القُرآن هو صوت الله الخالد الذي يُلائم الطّبائع البشريَّة المُتّزنة مع الحياة ، وإنَّ وُجُود القُرآن استمرار للنُّبُوَّة . ـ التّفسير والتّأويل . ـ القُرآن أُنزل من أجل الإنسان ، وليس للملائكة والجان . ـ خصائص التّحليل القُرآني بـ عُلُوم القُرآن . ـ لماذا الدّائرة في هندسة القُرآن؟ وما هي نماذج هذه الدّائرة؟ ـ سُورة الشّمس ـ سُورة اللّيل ـ سُورة الضُّحى . ـ كيف نُطوِّر الرَّبطَ بين الرَّقْمِ والكلمة؟ ـ ما هي العلاقة بين الدّائرة والرَّقْم؟ ـ نماذج تطبيقيَّة من التّحليل القُرآني . ـ سُورتا الفاتحة والبقرة ـ سُورة الإخلاص ـ سُورة العلق . القُرآن والمُستقبل . إذنْ؛ الهندسة هي تفاعل أصيل بين الكلمات والأرقام مُكوِّناً صُورة مُعبِّرة ومُنظَّمة ، صُورة فيها جماليَّة الكلمات ودقَّة الأرقام ، ولكنَّها ليست كلمة ولا رَقْماً ، بل هي هندسة بموجب مفهومنا في هذا المجال ، فإذا كانت الهندسة كلاماً كانت هندسة كلاميَّة ، أو كلاماً مُهندَساً ، والقُرآن كلام الله هندسة مُقدَّسة ، فيه مُواصفات الجمال والدِّقَّة .

22) اليهوديَّة والغيريَّة غير اليهود في منظار اليهوديَّة، ألبيرتو أنزول، تر:د.ماري شهرستان، 2004

ألبيرتو أنزول كاتب فرنسي ذُو خلفيَّة ثقافيَّة علمانيَّة ، وهُو ـ في هذه الدّراسة ـ يرمي إلى إلقاء الضّوء على هيكليَّة خفايا التّفاسير اليهوديَّة والتّلمود ، ويُعرِّي دور التّلمود الآثم في بناء شخصيَّة اليهودي ، حتَّى غدا اليهودي أشدَّ المخلوقات عداوة لبني البشر ، كما أنَّه وضَّح البنى الذّهنيَّة للأحبار والحاخامات ودأبهم المُستمرّ لتكريس انعزال وانغلاق اليهودي وتكبُّره وتغطرسه ، ممَّا أدَّى إلى عدم تفاعله مع المُجتمعات الإنسانيَّة قاطبة ؛ فالذي اعتمده اليهودي هو الكنيس والتّوراة المنحولة والتّلمود ، وهُم وطن اليهودي وقضاء يَهْوَه وأوامره على الأرض من قَتْل وإبادة جماعيَّة . هُناك بشر غير قادرين على مُقاربة الله : إنَّهم نوع البشر الذين ليس لديهم أيُّ مُعتقد ديني ولا علمي ولا تقليدي مثل آخر الأتراك في أقصى الشّمال والزُّنُوج في أقصى الجنوب والذين يُشبهونهم في مناخاتها . هؤلاء يُعدُّون مثل حيوانات غير عاقلة : فأنا لا أُصنِّفهم في مُستوى البشر؛ إذ إنَّهم من بين الكائنات الحيَّة صنفٌ أدنى من البشر وأعلى من القرد . بما أنَّ لديهم وجه وملامح الإنسان وفطنة أعلى من القرد ، هذا ما قاله ابن ميمُون وهُو عَلَمٌ من أعلام اليهوديَّة الحاخاميَّة . فلنُبحر معاً لاستكشاف ما خفي .

23) كيف صَنَعَ اليهود الهُولُوكُوست؟ نُورمان فنكلشتاين، تر:د.ماري شهرستان، 2003

قال الحاخام آرنولد جاكوب فُولف مُدير جامعة دي يال: "يبدو لي أنَّهم يبيعون الهُولُوكُوست عوضاً عن أنْ يُعلِّموه". إنَّ هذا الكتاب هُو في ـ آن واحد ـ تشريح واتِّهام لصناعة الهُولُوكُوست. إنَّه يُؤكِّد أنَّ الهُولُوكُوست هُو تقدمة إيديُولُوجيَّة للهُولُوكُوست النّازي. إنَّ إحدى أكبر القُوَّات العسكريَّة وأعظمها في العالم؛ وحيثُ إنَّ فيها انتقاصات حُقُوق الإنسان هائلة قدَّمت نفسها كبلد ضحيَّة. وقد جنت أرباحاً وفوائد هائلة عن هذا الوضع ـ الضّحيَّة الذي لا مُبرِّر له. وخُصُوصاً الحصانة في مواجهة النّقد حتَّى الأكثر ثُبُوتاً وسناداً. يقول فنلكشتاين: كان أهلي يندهشون ـ غالباً ـ عندما يجدون أنَّني مُستنكر ـ إلى حدٍّ كبير ـ تزوير واستغلال الإبادة النّازيَّة ـ الجواب الوحيد والأبسط هو التُّهَم التي يستعملونها لتبرير السّياسة الإجراميَّة لدولة (إسرائيل) ودعم الولايات المُتَّحدة لهذه السّياسة. هُناك ـ أيضاً ـ دافع شخصي؛ إنَّه الحملة الحاليَّة لصناعة الهُولُوكُوست الهادفة إلى ابتزاز المال من أوروبة على حساب الضّحايا المُحتاجين للهُولُوكُوست، وضِعت استشهادهم في مُستوى أخلاقي لكازينو مُوناكو. نورمان ج. فنكلشتاين يهودي يفضح كيف صَنَعَ اليهود الهُولُوكُوست، وكيف يستثمرونه، وكيف يخدعون به الدُّنيا وأوروبة وأمريكا.

24) مُناهضة السّاميَّة تاريخها وأسبابها، برنار لازار، تر: د.ماري شهرستان، 2004

يُشكِّل هذا الكتاب مُساهمة أساسيَّة في سعة مراجعه ومنهجيَّته. وإنَّ تغييب هذا النّصّ وعدم معرفته تُشكِّل ـ بحَدّ ذاتها ـ فضيحة. قال اليهود عنه ـ وهُو يهودي أيضاً ـ إنَّ لازار مُناهض للسّاميَّة. لكنَّه يقول: اقرؤوا. وستجدو أنّي كتبتُ بتجرُّد ـ بحياديَّة ـ دراسة تاريخيَّة اجتماعيَّة. تحدَّث فيه المُؤلِّف عن أسباب مُناهضة السّاميَّة الحقيقيَّة مُنذُ القديم حتَّى العصر الحديث. فتكلَّم عن الهكسُوس والرّواقيِّين ورُوما وأنطاكية واصطدام الدّيانة الرُّومانيَّة باليهوديَّة، ومن ثَمَّ بالمسيحيَّة، ثُمَّ اصطدام الكنيسة في القرن الثّامن باليهوديَّة، ثُمَّ تحدَّث عن محاكم التّفتيش، عن اليهود وتعذيبهم وقتلهم ردّاً على ما كانوا يفعلون من جرائم لعلَّ أبسطها تسميم المياه كي يموت المسيحيُّون في الغرب... ثُمَّ فصَّل في الأدب المُناهض لليهوديَّة، ثُمَّ تحدَّث عن الثّورة الفرنسيَّة والثّورة الرُّوسيَّة وأثر اليهود فيهما... وفصَّل المُؤلِّف في حديثه عن العِرْق اليهودي وعن القوميَّة ومُناهضة السّاميَّة وعن الرُّوح الثّوريَّة في اليهوديَّة وعن اليهود وتحوُّلات المُجتمع... وختَمَ بالحديث عن مصير مُناهضة السّاميَّة (إنَّه كاتب يهودي حيادي يفضح اليهوديَّة).

25) التّمييز ضدَّ غير اليهود في (إسرائيل) مسيحيِّين كانوا أم مُسلمين.
د. سامي الذّيب، تر: ماري شهرستان، 2003

إنَّ هذا الكتاب يُساهم في فَهْم أفضل لألم الشّعب الفلسطيني، ويُؤكِّد أنَّه لن يكون لدورة العُنف (النّضال الفلسطيني) نهاية مادامت سياسة (إسرائيل) مُتمثِّلة ومُتجسِّدة بقوانين ومُمارسات قضائيَّة التي هي باستمرار ضدَّ غير اليهود لن تُعدَّل. إنَّ هذه الدّراسة تجعلنا نتلمَّس بالإصبع نَهْج الاعتداء المُستمرّ على حُقُوق الإنسان، فيُؤكِّد ـ في البداية ـ مفهوم الحُرِّيَّة الدِّينيَّة، ثُمَّ يتحدَّث عن التّرحيل والتّدمير بعد 1948م و 1967م، ويتحدَّث عن حُقُوق غير اليهود 1948م و1967م، وكيف يُحرِّف اليهود العدالة، ويتَّخذون القمع وسيلة ضدَّ غيرهم، ثُمَّ يتساءل أيّ مُستقبل منشود لغير اليهود؟

26) نزار قبَّاني وقصائد كانت ممنوعة في الدِّين السِّياسة الجنس، نضال نصر الله، 2003

نزار قبَّاني طفل بردى. طفل البساتين التي نشرت وردها وعطرها ذات يوم بين سُور الصّين ومدريد. / سُليمان العيسى/ ـ إنَّ عُمَر بن أبي ربيعة شاعر من قافلة شُعراء التّاريخ العربي؛ لكنَّ نزار قبّاني هو مدرسة الشّعر العربي

الحديث، يعيش على رُوحها آلاف الشُّعراء وأجيال من الشّباب المُثقَّف. / سميح القاسم/ . هذا الكتاب يضمُّ بين دفَّتيْه قصائد مُنعت لنزار قبّاني حين نظمها، ثُمَّ تحت ضغط الجماهير العربيَّة وحبِّها لهذه القصائد أُجيزت. كما يحكي هذا الكتاب قصَّة المنع أو المُصادرة وقصَّة الإجازة. من هذه القصائد: خُبز وحشيش وقمر ـ هوامش على دفتر النّكسة ـ المُهرولُون ـ المُستحمَّة ـ مُحاكمة غير شرعيَّة ـ بلقيس ـ وغيرها... فمنها قصائد مُنعت بحجَّة الأخلاق، ومنها بحجَّة الدِّين، ومنها بحجَّة المُجتمع والسِّياسة و...

27) لوعة الشّاكي ودمعة الباكي من جميل تُراثنا، المنسوب لصلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي.
تحقيق: مُحمَّد عايش، 2003

العشق والغرام وما يُصاحب ذلك من الوله والهُيام. هذه هي المادَّة الأساسيَّة للكتاب الذي جمع فيه مُؤلِّفه كُلَّ مُفردات الحُبِّ والعشق والغرام وما يتعلَّق بها بأسلوب السّجع المُوسيقي الجميل، مُستخدماً من ذلك الألفاظ البليغة والمُعبِّرة للحالة التي يصفها. ثُمَّ يُلخِّص ذلك بأبيات من الشّعر التي لا تخلو من البراعة ومن مُحسنَّات الشّعر وفُنُونه. يحكي المُؤلِّف ذلك كُلَّه من خلاله قصَّة يرويها تبدأ بنظرة، وتنتهي بلقاء، ولكنْ؛ ما بين النّظرة واللّقاء آهات وأشجان وزفرات وعبرات وأحداث ومُجريات، ووصف بليغ وصادق لكُلِّ ما يُحيط بالقصَّة يشدُّ القارئ، ويجعله يستمتع بالقراءة. ذلك هُو كتاب: لوعة الشّاكي ودمعة الباكي الذي يُعَدُّ صورة واضحة لواقع الأدب في ذلك العصر. نقول ذلك لأنَّ المُؤلِّف الصَّفدي ـ فضلاً عن كونه مُؤرِّخاً وهُو ما اشتهر به من خلال كتابه: الوافي بالوفيات ـ فقد كان شاعراً وأديباً رقيقاً، فقد وُصف من قِبَلِ بعض مَنْ ترجم له بأنَّه: أديب الزّمان والشّاعر المُجيد، وغير ذلك من الألقاب.

28) تطوُّر العُلُوم عند العَرَب (الشّيخ والقارورة)، د. إسماعيل الرُّبيعي، 2003

يتحدَّث هذا الكتاب عن نشاط العُلُوم والمُؤثِّرات. وعن نُشُوء الفكر الفلسفي في المجال العربي الإسلامي. كما يتحدَّث عن الطِّبِّ العربي، ويُعدِّد أهمَّ الأطبَّاء العرب والمُسلمين. وعن الرّياضيَّات وأهمِّ عُلمائها من العرب والمُسلمين. وعن الكيمياء وعُلمائها، والفَلَك وعُلمائه.

29) تحوُّلات الذّات الثّقافي العربي مُقاربات معرفيَة، د. إسماعيل الرُّبيعي، 2003

ما من أمَّة شغوفة بلَعْن الظّلام مثل العرب. فالجميع حانق وغاضب يُمارس عادة كيل الشّتائم، وجَلْد الذّات، والبُكاء على الأطلال، وفوات الفُرص، وغياب العدالة الاجتماعيَّة، وانعدام الحُرِّيَّات، والتّفرقة العُنصريَّة والطّائفيَّة. إنَّ استمرار الوعي الذّاتي لدى العرب يجعلهم يعيشون خارج السّياق التّاريخي. فالتّصوُّرات والرُّؤى عالقة في مداها من دُون إحساس بعناصر التّغيُّر والتّحوُّل، فالتّقليد هُو الموئل الذي لا فكاك ولا خلاص منه. إذن؛ أين العرب من أسئلة اللّحظة الرّاهنة؟! يبحث المُؤلِّف في نقد العقل، وتحوُّلات الذّات (العالم وفواصل التّغيير)، ومُحدِّدات التّغيير. (الطُّغاة والطُّغيان). فاتورة الأحقاد. قياس درجة الكراهية. الوعي بالخُصُوصيَّات. ترسُّبات الماضي. ما يُنتجه الواقع. مُوجِّهات التّغيير (في صُلب الوظيفة المفاهيميَّة). سيمُولُوجيا الوطنيَّة. ما بعد الوطنيَّة. مُعيقات التّغيير. كيف نستخدم التّاريخ؟ الوعي مُتَّهماً. من الأحداث إلى التّأمُّل. معيارا الذّاتي والموضوعي. بعيداً عن الأحداث؛ قريباً من الخطاب. الحَدَث تمثيل للتّاريخ ومُحرِّك له. تفكيك الخطاب الثّقافي العربي (الحَدَث الكبير يُولِّد الأسئلة الكُبرى). الحادثات تترى، واللّوك لا ينقطع. ما بعد المُثقَّف. الجاحظ. ترميم بُرج بابل. الرّجل الذي

فَقَدَ أزرار معطفه. تداخلات الوظيفة النّقديَّة. محنة المُثقَّف. مُحاولة الاقتراب من مُكوِّنات الخطاب الثّقافي العراقي المُعاصر (المحنة موقعاً). سيل من أسئلة جارفة ومُحاولات جادَّة للإجابة عنها؛ هذا هو الكتاب الذي بين أيدينا.

30) تاريخ الخطِّ العربي وغيره من الخُطُوط العالميَّة، آن زالي وآني بيرثييه، تر:سالم سُليمان العيسى، 2004

لقد جمع هذا الكتاب أسمى الصّفات المُبدعة للخطِّ العربي الذي يفتخر به كُلُّ العرب، وخُطُوط بلاد ما بين النّهرين، ومصر، والصّين، وأمريكا قبل العهد الكُولُومبي، وإفريقية، وتحدَّث مُؤلِّفاه فيه عن الحضارة الغربيَّة وعن خطٍّ بلاد ما بين النّهرَيْن / المسماري و .../ وعن القُدرة السِّحْريَّة للخطِّ، وعن خطِّ الفراعنة، والأبجديَّة الهيرُوغليفيَّة وخطِّها الخطِّ الدّيموطي والقبطي، وأساطير ولادة الأحرف الصّينيَّة وأحرفها، مُرُوراً عبر فيتنام، واللُّغة اليابانيَّة المُعقَّدة، ومدينة الأزتيك اللاّمعة، ومصير الخُطُوط المُدوَّنة قبل تأسيس كُولُومبيا، وإفريقية من الكلام فيما يتعلَّق بالرّسم إلى الخطِّ، وُصُولاً بالقارئ إلى ثورة الأبجديَّة، بدءاً بالفينيقيَّة ونُقُوشها، ومُرُوراً بالآراميِّين وهم النّاشرون للأبجديَّة، وُصُولاً إلى الخُطُوط في العربيَّة الجنوبيَّة، وفي الحبشة، وُصُولاً إلى القُرآن، وبيان أنَّ الخطَّ العربي ارتقى من الفينيقيَّة عن طريق الآراميَّة مُتخلِّلاً بين الفارسيَّة والهندُو أوروبيَّة (مثل التّركيَّة). . وكيف وصل الخطُّ إلى الهيلّلينيِّين، وابتكار الأحرف الصّوتيَّة، وكيف وُلدت من الأبجديَّة اليُونانيَّة، ومُرُوراً من اليُونانيَّة، ووُصُولاً إلى اللاّتينيَّة، وبيان أنَّ الخطَّ هُو مرآة الكلام. كتاب جدير بالقراءة. هذا أقلُّ ما يُمكن أنْ يُقال عنه.

31) وحدة الوُجُود من الغزالي إلى ابن عربي، مُحمَّد الرّاشد، 2003

يُقدِّم هذا الكتاب خُلاصة تجربة المُؤلِّف مع التّصوُّف، فيبدأ بتعاريف عديدة تُهيِّئ لقراءة الكتاب، ثُمَّ يتحدَّث عن أبعاد وحدة الوُجُود، ووحدة الأديان، ثُمَّ يُفصِّل ينابيع وحدة الوُجُود في المُعطى الإسلامي (القُرآن والحديث ...) ثُمَّ يتحدَّث عن الصّياغات الأولى لوحدة الوُجُود، (الغزالي - الجيلاني - السّهروردي - العطّار ...)، ثُمَّ يتحدَّث عن المُراوحة بين الاتِّحاد والوحدة (أبو مدين - ابن الفارض - المكزون السّنجاري)، ليصل المُؤلِّف عبر تسلسل منطقي إلى الصّياغة النّهائيَّة لوحدة الوُجُود (ابن عربي - فُصُوص الحِكَم).

32) نظريَّة الحُبِّ و الاتِّحاد في التّصوُّف الإسلامي من الحب الإلهي إلى دوامات الاتحاد المستحيل. مُحمَّد الرّاشد، 2003

يُقدِّم المُؤلِّف في هذا الكتاب مشروع رُؤية مُعاصرة للتّصوُّف الإسلامي، مُنطلقة من هدي الوحي، مُتمثِّلاً بالقُرآن الكريم أوَّلاً. . وعلى ضوء المنطق العقلي ثانياً. . ومُستأنساً بالمُعطى العلمي ثالثاً. . الكتاب يرصد الحسَّ الصُّوفي في مراحله الأولى وحتَّى عُمق القرن الخامس الهجري، مُستهدفاً تسليط الأضواء على المطبَّات التي سقط فيها فريق من الصُّوفيَّة بهدف تجاوزها اليوم وغداً، وبالتّالي؛ رسم الصُّورة المُشرقة للتّصوُّف الحضاري، باعتبار التّصوُّف الحقيقي في أفقه الأعلى توجُّهاً حضارياً. . صفاء مع الله والإنسان والعالم... إنَّه كتاب كُلِّ باحث عن ضياء الحقيقة وشذى الحُبِّ وتوهُّج الحياة وحلم الزّمان السّرمدي على دُرُوب تحقيق إنسانيَّة الإنسان. .

33) القُرآن وتحدِّيات العصر رحلة الشّكِّ والإيمان، مُحمَّد الرّاشد، 2002

الإسلام الحضاري النّابع من مُعطيات الوحي مُمثَّلاً بالقُرآن الكريم ...إسلام الانفتاح على طُول امتداد الزّمان السّرمدي ليعمَّ الخير كُلَّ بني الإنسان، ذلكم هو الصّوت الذي يحمل لواءه المُؤلِّف بعد رحلة الشّكِّ ومُغامرة التّمرُّد

والإلحاد، ليرسو في نهاية المطاف على شواطئ الإيمان المعقول الذي ينسج الحلم الأزلي على طُول امتداد التّاريخ. .
ولا يكتفي المُؤلّف بمُناقشة عدد من المُستشرقين والمُفكّرين الغربيّين الذين أساؤوا إلى القُرآن عن سُوء فَهْم أو عن سُوء طويَّة فحسب، وإنَّما يُسارع إلى تأكيد السُّقُوط الأمريكي الموعود على ضوء المُستقبل المنظور، من خلال رُؤيته لمنطق التّاريخ واستلهامه لأبجديَّات القُرآن...

34) إشكاليَّة وحدة الوُجُود في الفكر العربي الإسلامي (الله والإنسان والعالم في الحضارات الإنسانيَّة) دراسة تحليليَّة رُؤيويَّة، مُحمَّد الرّاشد، 2002

ما هُو موقف العقل البشري من تلكم المحاور الكفيلة بتحقيق شرطه الوُجُودي في الحياة وفي الممات والمُتمثّلة برُؤيته إزاء الله والإنسان والعالم؟ هذا ما سعى المُؤلّف إلى إبرازه على ضوء التّساؤلات الأزليَّة. لماذا خَلَقَ الله الكون وما فيه؟ كيف تمَّ الخَلْق الأوّل؟ لماذا خُلقنا؟ وإلى أين المصير؟ ما السّبيل إلى تحقيق خلاص فردي وجماعي في الحياة ويوم البعث والنُّشُور؟

35) الحقيقة بين النُّبُوءة والسّياسة، التّوراة، الأناجيل، نُوستراداموُس، القُرآن الكريم.
مُحمَّد نضال الحافظ، 2003

هل كان انهيار بُرجَيْ مركز التّجارة العالمي نُبُوءة؟ ما مصير مَنْ دعا إلى ضرب مكَّة المُكرَّمة بقُنبلة نوويَّة؟ ما هي العلاقة بين العراق الآن وبابل زمن نبُوخذ نصَّر؟ ما قصَّة النُّبُوءات في آخر الزّمان؟ ما هي تلك النُّبُوءات الإنجيليَّة والتّوراتيَّة والقُرآنيَّة؟ وما علاقتها بالسّياسة العالميَّة؟ ماذا يفعل اليهود والمسيحيُّون والمُسلمون تجاه نُبُوءاتهم؟ كيف تبدو نهاية اليهود و(إسرائيل) من خلال التّوراة والتّلمود والأناجيل ونُوستراداموُس والقُرآن الكريم، العراق وبابل واليهُود ونُوستراداموُس، هل نسي اليهُود كيف أسرهم نبُوخذ نصَّر وسباهم إلى بابل؟ هل يُحاول اليهُود (أمريكا ـ بريطانيا) الانتقام من العراق؟ هل من المُمكن أنْ تكون هُناك ضربة نوويَّة للعراق؟ المسيحيَّة الصّهيونيَّة ـ نشأتها ومشاهيرها، برُوتُوكُولات حُكماء صهيون، السّياسيُّون الأمريكيُّون ونُبُوءات التّوراة والأناجيل ونُوستراداموُس، معركة هرمجدون والحرب العالميَّة النّوويَّة الثّالثة، المُؤامرات اليهوديَّة الأمريكيَّة، فلسطين واليهُود والتّوراة والتّلمود ونُوستراداموُس، هل بدأ يوم القيامة؟! لنتعرَّف الحقيقة المُذهلة من خلال كتاب الحقيقة بين النُّبُوءة والسّياسة.

36) مائير كاهانا وغلاة التّطرُّف الأصولي اليهودي، تأليف: رفائيل ميرجي وفيليب سيمون.
تر: عائدة عم علي، 2003

من أقوال كهانا: الدِّيمقراطيَّة والصّهيونيَّة لا تتعايشان معاً. اليهوديَّة مُختلفة ـ كُلّيّاً ـ عن الدِّيمقراطيَّة. النّاس في هذا البلد (إسرائيل) مرضى، مرضى فكريّاً، وبالنّسبة لي لا يُوجد هُناك إسرائيليُّون، يُوجد يهود، بعضهم يعيش في (إسرائيل) وآخرون يعيشون في ... إنَّ هُناك شعباً يهوديّاً، ولأنَّ هُناك شعباً يهوديّاً فإنَّ لدينا الحقّ في المجيء إلى هذا البلد وسَلْبه من العرب. إنَّ شارُون سيِّئ جدّاً جدّاً، إنَّه كاذب، ولا يملك أيَّة مبادئ أخلاقيَّة، ولا أيَّة مُثُل، بإمكانه أنْ يفعل أيَّ شيء، وأنا أخافه تماماً كما يخافه اليساريُّون. سُؤال إلى كهانا: إذنْ؛ فأنت تتقبَّل حقيقة قَتْل المَدَنيِّين العرب؟ بالطّبع؛ بالتّأكيد، بالطّريقة نفسها التي أوافق فيها الإسرائيليِّين على قَصْف لُبنان.

37) ما بين مُوسى وعزرا. كيف نشأت اليهوديَّة؟ عبد المجيد همُّو، 2003

مُوسى وبنُو إسرائيل ـ القُرآن الكريم لم يشر إلى اليهوديَّة في زمن مُوسى ـ العهد القديم لم يشر إلى اليهوديَّة في زمن مُوسى ـ حقيقة رسالة مُوسى ـ هل العهد القديم كتاب سماوي؟ متى تمَّ نَسْخُ التّوراة وتدوينها؟ توراة مُوسى ـ الألواح وهل هي غير التّوراة؟ الزّبور وداود ـ سُليمان الحكيم ـ إثبات عدم يهوديَّة إبراهيم وأبنائه ـ وإثبات عدم يهوديَّة مُوسى والأسباط وداود وسُليمان ـ متى ظهرت اليهوديَّة في الكتاب المُقدَّس؟ كيف نشأت اليهوديَّة؟ ـ عزرا ونحميا أنشأا اليهوديَّة ـ سمات اليهوديَّة.

38) اليهوديَّة بعد عزرا وكيف أُقِرَّتْ؟ عبد المجيد همُّو، 2003

تاريخ تدوين الأسفار كُلّها ـ التّوراة والأخلاق ـ المُعتقدات ـ هل هُناك إله واحد يعبده اليهود أم هُم يعبدون آلهة عدَّة؟ الطُّقُوس ـ الوصايا ـ الوصايا الأخلاقيَّة ـ المُحرَّمات من النّساء ـ وصايا حول الزّنى ـ وصايا مُختلفة ـ الإيمان باليوم الآخر.

39) مفاهيم تلموديَّة نظرة اليهود إلى العالم، عبد المجيد همُّو، 2003

متى كُتب التّلمود؟ تعريفه ـ جمعه ـ تأليفه ـ ترجمته ـ أهمِّيَّته ـ الرُّدُود عليه ـ التّلمود والأمم الأخرى ـ التّلمود والمسيحيَّة ـ مسيح اليهود المُخلِّص ـ التّلمود والعرب ـ موضوعات تلموديَّة ـ موقف التّلمود من يَهْوَه ـ موقف التّلمود من فلسطين ـ التّلمود والآخرة ـ التّلمود والقَبَالة (تطوُّر التّلمود) ...

40) الله أم يَهْوَه؟ أيُّهما إله اليهود؟ عبد المجيد همُّو، 2003

تعدُّد الآلهة عند اليهود ـ إيل ـ يَهْوَه ـ بعل ـ آلهة أخرى ـ إيل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ـ ما صفاته؟يَهْوَه إله اليهود: من أين أتى؟ما صفات يَهْوَه؟: التّسلُّط ـ الجهل ـ حُبُّ الجنس ـ الحُزن ـ الكذب... إلخ. هل اليهود مُوحِّدون؟

41) الفرق والمذاهب اليهوديَّة مُنذُ البدايات حتَّى الآن، عبد المجيد همُّو، 2003

اليهود وفِرَقُهُم قبل الإسلام ـ نُشُوء اليهوديَّة وانقسامها ـ السّامريَّة ـ الصّدوقيَّة ـ الحسيديُّون. الفريسيُّون ـ الأسنيُّون ـ الغنوصيُّون ـ الكَتَبَة ـ المُتعصِّبون ـ الرّبّانيُّون ـ التّلموديُّون ـ القرّاءون ـ مُوسى بن ميمُون ـ الفاءون ـ القَبَالة ـ يهود الخزر ـ الأشكناز ـ اللُّوثريَّة ـ المسيحيَّة اليهوديَّة ـ شُهُود يَهْوَه ـ الصّهيونيَّة ونشأتها ـ وموضوعات أخرى مُفصَّلة تفصيلاً دقيقاً تُبيِّن موقف اليهود من المسيحيَّة، وكيف اضطهدوا المسيح وأتباعه. .

42) المجازر اليهوديَّة والإرهاب الصّهيوني مُنذُ نُزُول التوراة، عبد المجيد همُّو، 2003

هذا الكتاب يشرح ـ بوُضُوح ـ ما أحدثه اليهود من مجازر وإرهاب قديماً وحديثاً من خلال كتاب العهد القديم ووقائع الحال على مُرُور التّاريخ حتَّى العصر الحديث، من هذه المجازر: مجازر ما قبل مُوسى ـ مجازر نُسبت إلى مُوسى ـ مجازر يشوع ـ القُضاة ـ صموئيل ـ مجازر نُسبت إلى داود ـ مجازر يَهْوَه ـ مدين ـ العجل ـ سنحاريب ـ الطُّوفان ـ إيزابيل ـ ياهو ـ مجازر المكابيِّين ـ يهوديت ـ استر ـ الثّورة الفرنسيَّة ـ البلاشفة ـ مجازر فلسطين قبل الدّولة المُصطنعة ـ الاغتيالات اليهوديَّة الإسرائيليَّة لزُعماء فلسطين ـ تدمير القُرى في فلسطين من قبل 1948 حتَّى 2000 ـ عبث الصّهاينة بقرارات الأمم المُتَّحدة، وغيرها كثير. كتاب توثيقي من التّوراة ومن كُتُب اليهود التي يُؤمنون بها، يُوثِّق القتل والإرهاب اليهوديِّين، وهُو وصمة عار من وُجهة نظر الإنسانيَّة في جبين اليهود، وسجلٌّ مُشرِّف من وُجهة نظر اليهود في جبينهم.

43) الدّبلوماسيَّة القديمة والمُعاصرة، د.علي عبد القوي الغفاري، 2002

إنَّ الدّبلوماسيَّة الجديدة - بعد أحداث سبتمبر - تُنبىء - بما لا يدع مجالاً للشّكّ - أنّها دبلوماسيَّة القُوَّة، التي فاقت توقُّعات العُلماء والخُبراء، والمعاهد الاستراتيجيَّة المُتخصِّصة في القضايا القانونيَّة والدّبلوماسيَّة والعسكريَّة، والكتاب يتناول الدّبلوماسيَّة مُنذُ القديم وإلى الآن، وقواعد اختيار السُّفراء والقناصل، وشُرُوط التّبادل الدّبلوماسي بين الدُّول، وكُلّ ما يتعلَّق بالبرُوتُوكُولات الدّبلوماسيَّة.

44) امنحوني فُرصة للكلام، د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2003

- اترك السّياسة لأهلها، والثّقافة لأهلها، والحُرّيَّة لأهلها، واكتفِ بالعيش، ولا تَنَمْ إلا بعد عشاء ثقيل، ولا تنسَ.. اخلع الوعي قبل النّوم. لا.. لستُ غبيّاً.. كُلّ ما أرجوه منكم أنْ تُقاوموا فكرة إقامة نصب تذكاري لي بعد أنْ أموت.. لماذا؟ لأنّني لا أريد أنْ أغدو مكاناً أميناً يلجأ إليه مَنْ يريد أنْ يبول.. أنا أكتب.. أنت تقرأ.. هم يُقتلون.. وهو يشجب بنصف صوت، أنا أكتب ندمي لأنّي لم أحترف القتال، وأنت تقرأ وتتألَّم؛ لأنَّ الفعل بيد ذلك الذي يهزأ من ندمي ويسخر من ألمك.. - ألم يَحِنْ وقت استخدام حقّ الفيتو على العقل ليتوقَّف برهة عن المُسالمة والاستسلام؟! وإذا كان العقل والعقلانيَّة لم يعودا مُجْدِيَيْن، ألا يحقُّ لنا أنْ نُمارس الجُنُون؟! - ما الذي جعل الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة تذوي؟ - هل بإمكاننا إيقاف تبادل التُّهم والإدانات لنعمل جميعاً على إعادة نهجنا الحضاري الذي انبنى على توفير الحُرّيَّات الفكريَّة، والتّعدُّديَّة، وتعميق القِيَم الإنسانيَّة الخالدة؟! - ما المقدار الذي يحمله الإعلام المُعاصر من مسؤوليَّة التّضليل؟! - ألا فلنبدأ هُنا والآن وبكم، ثُمَّ لِيَكُن ما يكون....

45) الخديعة الكُبرى هل اليهود. حقّاً. شعب الله المُختار، د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2003

بماذا وصف مُفكِّرون أوربيُّون وأمريكيُّون اليهودَ؟ ما مدى العداء الذي يُكنُّه الصّهاينة للسّيِّد المسيح أو لنبي الإسلام؟ تقول نيستا ويبستر: إنَّ المفهوم اليهودي السّائد عن فكرة شعب الله المُختار هو مفهوم سياسي محض ابتكره الحاخامات لحَضّ اليهود على السّعي الدّؤوب للسّيطرة على العالم، ويُعتبر هذا الشّعار أساس الدّيانة الحاخاميَّة التّلموديَّة، ويأخذ اليهود بتعاليم التّلمود كدُستور لهم في الحياة. - مَنْ هم اليهود؟ - مَنْ هو إسرائيل؟ وصف اليهود في التّوراة والأناجيل والقُرآن الكريم - الماسُونيَّة - الدّولة العالميَّة - رسالة الحاخام الأكبر في إستانبول لليهود في أوروبا والعالم - الأسلحة اليهوديَّة الرّهيبة.... - الكتاب مُوَجَّه إلى الذين لا يعلمون حقيقة اليهود، وإلى الذين يعلمون حقيقتهم من أجل أنْ يُقاوموا ويُحاولوا....

46) الرَّحَّالة ك طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

عبد الرّحمن الكواكبي، تح: د.مُحمَّد جمال طحَّان، 2003

تأتي أهمّيَّة الكواكبي وأهمّيَّة كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد من أجل أنْ نتعلَّم من الماضي كي لا نُلدغ من الجحر مرَّتَيْن، ويأتي نشر الطّبائع استكمالاً لدراسة أفكاره التي بدأت في أمّ القُرى. ويقول: تمحَّصَ عندي أنَّ أصل الدّاء هُو الاستبداد السّياسي ودواؤه دَفْعُهُ بالشُّورى الدُّستوريَّة. ويقول: (ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحُكُومات خاصَّة؛ لأنَّها أعظم مظاهر أضراره). ويقول: إنَّ خوف المُستبدّ من نقمة رعيَّته أكثر من بأسه؛ لأنَّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقُّه منهم؛ وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز حقيقي، وخوفهم عن توهُّم التّخاذل

فقط؛ وخوفه على فَقْدِ حياته وسُلطانه، وخوفهم على لُقيمات من النّبات وعلى وطن يألفون غيره في أيّام، وخوفه على كُلِّ شيء، تحت سماء مُلكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط.

47) أمُّ القُرى مؤتمر النّهضة الإسلاميَّة الأوَّل، عبد الرّحمن الكواكبي، تح: د. مُحمَّد جمال طحّان 2002

الكواكبي واحد من أجدادنا الأفذاذ؛ رُوَّاد النّهضة الذين حاولوا النُّهُوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤوليَّة العُلماء في توعية النّاس ليقدروا على المُطالبة بحقُوقهم بعد أنْ يدركوا أنَّهم بشر أحرار في صُنع مصائرهم. ممَّا نادى به الكواكبي في كتابه هذا: يجب ألاَّ يصرَّ أحد على رأيه الذّاتي، وألاَّ يُمانع في العُدُول عن خطئه - سبب الفُتُور هو تحوُّل السّياسة الإسلاميَّة من ديمقراطيَّة إلى ملكيَّة مُقيّدة، ثُمَّ إلى ملكيَّة مُطلقة - إنَّ البليَّة هي فقدنا الحُرِّيَّة، حُرِّيَّة التّعليم والخطابة والمطبوعات والمُباحثات - كأنَّ مُجرَّد كون الأمير مُسلماً يُغني حتَّى عن العدل، وكأنَّ طاعته واجبة ولو كان يُخرِّب البلاد، ويظلم العباد - إنَّ طاعة أولي الأمر واجبة، ولكنْ؛ مع العدل، فالحاكم العادل الكافر أفضل من المُسلم الجائر وأولى بحكْم المسلمين - صرنا نتبع الأشخاص بدلاً من التّمسُّك بديننا الحنيف - إنَّ المنشأ لكُلِّ فساد هو انحلال السُّلطة القانونيَّة وتسلُّط فرد عليها، فضلاً عن دُخُول ديننا تحت ولاية العُلماء الرّسميّين؛ أي الجهَّال المُتعمِّمين - إنَّ الاقتصار على العُلُوم الدّينيَّة يُضعفُ المُسلمين، ولابُدَّ من دراسة العُلُوم الرّياضيَّة والطّبيعيَّة أيضاً - إذْ ترك الخُطباء التّحدُّث في الأمور العُمُوميَّة، وعدّوا ذلك لغواً. وهكذا تأصَّل فينا فَقْدُ الإحساس - إنَّ السّبب الأكبر للفُتُور هو تكبُّر الأمراء وميلهم إلى العُلماء المُتملّقين المُنافقين الذين يُزيِّنون لهم الاستبداد - إنَّ أفضل الجهاد هُو الحَطُّ من قدر العُلماء المُنافقين عند العامَّة، وتحويلهم لاحترام العُلماء العاملين حتَّى لا يلبث أنْ يحترمهم الأمراء أيضاً، ويأخذوا بآرائهم. وهكذا؛ نجد أنَّ أمَّ القُرى واحد من الكُتُب المُذهلة، إنْ حذفنا منه تاريخ تأليفه، فلن نشكَّ لحظة واحدة، في أنّه قد أُنجز تواً، وخُصُوصاً أنَّ صاحبه قد وقَّعه باسم السَّيِّد الفُراتي.

48) المُثقّف وديمقراطيَّة العبيد، د. مُحمَّد جمال طحّان، 2002

في هذا الكتاب بعض الأحاديث عن المتاهات والمفازات، فيه ما يُؤلم ويُرهق، وفيه ما يدعو إلى المُكابدة، ويحثُّ على المُعاناة. الجوُّ مُكفهر والغُيُوم داكنة وكذلك الهُمُوم، من أجل ماذا؟! من أجل الدّيمقراطيَّة، ومن أجل الثّقافة. . ولكنْ، فيه إلى جانب ذلك كُلِّه، وفوق ذلك كُلِّه تجربة قلم حيٍّ، وتجربة إنسان نابض بالبراءة والنّزاهة، إنَّه الأمل في استمرار الدّفاع عن الوطن، وعن المُواطن فيه، الآن وفي المُستقبل.

49) الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة من الخيمة إلى الإمبراطوريَّة. مُرفق خريطة شاملة للولايات المُتّحدة.
إعداد: ديب علي حسن، مُراجعة وتدقيق: إسماعيل الكردي، 2002

قليلون هُم الذين يعرفون أنَّ الولايات المُتّحدة كان الاستعمار يجثم فوق صدرها، وأنَّ حرباً أهليَّة دامية جرت فيها بين الشّماليّين والجنوبيّين، وقليلون يعرفون ما هُو دُستورها؟ وما ولاياتها؟ وما مُدُنها؟ و ما ثرواتها؟ وما قوانينها؟ وما تنوُّع سُكّانها؟ وما.... ؟ وما.... ؟! ما الجيش الأمريكي - الاستخبارات - الدِّين والسّياسة فيها - السّياسة الأمريكيَّة وأهمّ السّياسيّين الحاليّين - الكتاب يسدُّ فجوة في المكتبة العربيَّة، ويُبيِّن كيف تمَّ طرد الهُنُود الحُمْر وإبادتهم. وكيف نشأت دولة أمريكا. . ويُعَدِّدُ رُؤساءها مُنْذُ الرّئيس الأوَّل إلى الآن. . يجب على كُلِّ عربي أنْ يقرأ ما هي الولايات المُتّحدة؟ وكيف نشأت؟ وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

50) الفِرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام، نهاد خيَّاطة، 2002

لئن كان الإسلام عربي النّشأة، وسُوري الامتداد والإشعاع، فقد كانت المسيحيَّة سُوريَّة النّشأة والامتداد والإشعاع. لمحة إلى الأناجيل - الأناجيل غير المُعتمدة - أناجيل الطُّفُولة - اليهوديَّة المسيحيَّة - الأبيونيَّة - النّصارى - الدُّوكتيَّة - المرقيونيَّة - هل تزوَّج يسوع؟ مجمع نيقية والفِرَق المسيحيَّة الآريوسيَّة - إليهة الرُّوح القُدس - السّابليانيَّة - المسيحيَّة بعد نيقية - النّسطوريَّة مدرسة نصيبين - برصوما - نرسيس - باباي الأكبر - خلقيدونية والفِرَق المسيحيَّة بعد خلقيدونية - المونوفيزيَّة - القول بالمشيئة الواحدة في المسيح - التّثليث في المسيحيَّة والإسلام - الآب - ثالوث أم رابوع - التّوحيد والتّثليث بين الظّاهر والباطن - التّثليث في الفكر الإسلامي - الابن - الرُّوح القُدُس.

51) أبو حيَّان التّوحيدي إنساناً وأديباً، مُحمَّد رجب السّامرَّائي، 2002

يتناول المُؤلِّف في كتابه سيرة حياة التّوحيدي، والظُّلم الذي لحق به من ذوي الجاه والسُّلطان، وتفضيلهم مَن هُو أدنى منه مرتبة أدبيَّة وعلميَّة، كما يتعرَّض إلى التّوحيدي كأديب فارس لايُشَقُّ له غبار في ميادين عديدة كالأدب والفلسفة.

52) رمضان في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، مُحمَّد رجب السّامرَّائي، 2002

يرسم المُؤلِّف صُورة عن رمضان في ذاكرة الإنسان العربي في الزّمان والمكان، ويسرد سيرته العطرة في المظانِّ العربيَّة القديمة والمُعاصرة عن طريق التّدوين لهذه المظاهر الاحتفاليَّة به، وتدوين المظاهر الاحتفاليَّة بعيد الفطر السّعيد ومأكولاته وحُلوياته في أكثر من 22 بلداً عربيّاً وإسلاميّاً.

53) المسيحيَّة وأساطير التّجسُّد في الشّرق الأدنى القديم (اليُونان . سوريَّة . مصر).
دانييل. إ.باسوك، تر: سعد رُستُم، 2002

يُؤكِّد المُؤلِّف الباحث الأمريكي باسوك في كتابه هذا أنَّ عقيدة التّجسُّد في المسيحيَّة عقيدة خُرافيَّة، وفكرة وثنيَّة دخيلة، نفذت إلى المسيحيَّة من وثنيَّة اليُونان والرُّومان. ويرى أنَّ رسالة المسيح بذاتها كانت رسالة أخلاقيَّة توحيديَّة بسيطة، لا تعقيد فيها، فالمسيح نشأ يهوديّاً، مُؤمناً، وترعرع في بيئة توراتيَّة مُتديِّنة، من ركائزها الأساسيَّة التّأكيد على وحدانيَّة الله تعالى الخالصة، والفصل التّام بينه وبين مخلوقاته من البشر. إنَّ المسيح هُو عبد الله، وليس ابناً لله، هُو نبيُّ الله، وليس ابناً لله...

54) التّوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القدِّيسَيْن بُولُس ويُوحنَّا، سعد رُستُم، 2002

يُؤكِّد المُؤلِّف من الأناجيل الأربعة ومن رسائل بُولُس ويُوحنَّا أنَّ المسيح عيسى عليه السّلام أكَّد أنَّ الله هُو الإله الواحد الأحد وأنَّه - أيْ المسيح - بشر وإنسان، ويُؤكِّد المُؤلِّف أنَّ مَنْ يقرأ الأناجيل قراءة مُتمعِّنة لن يجد عبارة واحدة صريحة لسيِّدنا المسيح نفسه يدعو فيها أتباعه للإيمان بألوهيَّته وبلُزُوم عبادته، أو يُصرِّح فيها لهم بأنَّه ربُّ العالمين وإله الخلائق أجمعين المُتجسِّد الذي انقلب بشراً، أو يُصرِّح لهم فيها بعقيدة التّثليث...

55) الذّات الإلهيَّة والمجازات القُرآنيَّة والنّبويَّة وإزالة شُبهة التّشبيه والتّجسيم من أساسها، سعد رُستُم، 2002

إنَّ جماعة من قُدماء أصحاب الحديث، عُرفوا - تاريخيّاً - باسم الحشويَّة، لكثرة ما حَشَوا به الدِّين من أحاديث وأخبار آحاديَّة فرديَّة غريبة، وجعلوها حُجَّة في العقيدة والإيمان! فاغترّوا بظاهر ما وَرَدَ في بعض الأحاديث والأخبار وقليل من الآيات القرآنيَّة، من تعبيرات أضيف فيها اسم عُضو من أعضاء الإنسان كالوجه أو الجَنْب أو اليد أو السّاق أو

القَدَم لله تعالى... إنَّ الغرض من الكتاب هُو توضيح المعنى الصّحيح للآيات التي اشتبه فَهْمُهَا على الحشويَّة المُجسِّمة، توضيحاً ينكشف به بجلاء التّنزيه المُطلق لله سُبحانه وتعالى، وليس الغرض أبداً اتِّهام أحد في عقيدته أو تكفيره أو تضليله.

56) **نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث دراسة تطبيقيَّة على بعض أحاديث الصَّحيحَيْن.**

إسماعيل الكردي، 2002

بمُرُور الزّمن، وكما يحدث في كُلِّ تُراث ديني مُقدَّس، تكوَّنت هالة مهيبة مُبالغ بها حول صحيح مُسلم وصحيح بُخاري، فصار أيُّ تحفُّظ على عبارة وردت فيهما، أو ردٌّ لسند أو حديث فيها، أو التّشكيك بصُدُوره عن النّبي صلَّى الله عليه وسلَّم مهما أقام صاحبه على رأيه هذا من الدّلائل العلميَّة والبراهين العقليَّة، واتَّبع في قوله سلفاً أو أسلافاً من العُلماء المُتقدِّمين، وعمل بما وضعوه من قواعد وشُرُوط لقبول المتن، يُعَدُّ زيفاً وضلالاً وعُدواناً على السُّنَّة!! وسنرى - يقيناً - أنَّه وعلى الرّغم من الدِّقَّة التي اتَّبعها الإمامان البُخاري ومُسلم في انتخاب الحديث واجتهادهما في تحرِّي صحيح السّند منه، لم يخل كتاباهما من عدد من الرّوايات المُنتقدَة سنداً، أو التي لا يُمكن القبول بصحَّتها مَتْناً، طبقاً لقواعد نقد المُتُون التي قرَّرها عُلماء الحديث.

57) **حلُّ الاختلاف بين الشّيعة والسُّنَّة في مسألة الإمامة.**

مُصطفى حُسيني طباطبائي، تر: سعد رُستَم، 2002

هل الإمامة أمر مُنفصل عن الإمارة والحُكُومة أم لا؟ كيف كان سُلُوك أئمَّة أهل البيت عليهم السّلام مع وُلاة الأمور وحكَّام المُسلمين في عصرهم؟ كيف كان سُلُوك أئمَّة الشّيعة من أهل البيت تجاه فُقهاء وأئمَّة أهل السُّنَّة وعامَّتهم؟ وما هي التّعليمات التي كان الأئمَّة يقولونها لتلامذتهم ومُحبِّيهم في هذا الشّأن؟ هل الخطأ في موضوع الإمامة يُوجب حقّاً الخُسران العظيم في الآخرة والمصير إلى النّار أم لا؟

58) **سيرة السُّلطان النّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي (النّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسفيَّة).**

بهاء الدِّين ابن شدَّاد، تحقيق: أحمد إيبش، 2003

تبقى سيرة البطل الخالد صلاح الدِّين الأيُّوبي وجهاده وحُرُوبه مع الصّليبيِّين، وانتصاره الأكبر في حطِّين، وفتحه للقُدس، تبقى واحدة من أنصع صفحات تاريخنا العربي الإسلامي الوضَّاء. في هذا الكتاب الرّائع «النّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسفيَّة» ينقل لنا المُؤلِّف بهاء الدِّين ابن شدَّاد صُورة حيَّة ورواية مُباشرة عن حياة بطلنا الكبير وأعماله وبُطُولاته. ويُصوِّر لنا، كشاهد عيان ثَبْت صادق، مشاهد مُؤثِّرة وعِبَراً بليغة عن المزايا العظيمة التي تحلَّى بها السُّلطان النّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي، حتَّى احترمه الأعداء، بَلْهَ الأصدقاء، فارتفع اسم صلاح الدِّين عالياً ليقترن بأمجاد جهاده، وليقترن بالقُدس الشّريف، وليغدو صاحبه - بكُلِّ جدارة - واحداً من أعظم الشّخصيَّات التي أنجبتْهَا أمَّتنا العربيَّة الإسلاميَّة، لا، بل البشريَّة جمعاء على امتداد تاريخها. وكفى سُلطاننا صلاح الدِّين فخراً أنَّ الشّهادة بفضله ونُبله وتسامحه، فضلاً عن شجاعته وقُوَّته وحكمته كانت قد صدرت عن أعدائه قبل أصدقائه وأتباعه. إنَّ سُلطاننا النّاصر صلاح الدِّين واحد من الذين يُقال فيهم: إنَّهم نسيج وحدهم.

59) حوادث دمشق اليوميَّة غداة الغزو العُثماني للشَام 926. 951 هـ صفحات مفقودة تُنشر للمرَّة الأولى من مُفاكهة الخلاَّن في حوادث الزَّمان، ابن طُولُون الصَّالحي الدّمشقي، تحقيق:أحمد إيبش، 2002

هذا الكتاب يُقدِّم لنا صُورة حيَّة وصادقة عن حياة المُجتمع وحركته السِّياسيَّة والاقتصاديَّة وحوادثه وغرائبه وطرائفه، فضلاً عن وصفٍ وافٍ للعادات والتَّقاليد ولأنماط الحياة السَّائدة آنذاك في الفترة التي يُغطِّيها الكتاب. ويُمثِّل جُزءاً وافياً من القسم الضَّائع من كتاب (مُفاكهة الخلاَّن في حوادث الزّمان) للمُؤرِّخ الدِّمشقي الشّهير بابن طُولُون الصَّالحي، وهذا القسم يُعدُّ ـ دُون شكٍّ ـ المصدر الأوَّل لتأريخ مدينة دمشق في مطلع العهد العُثماني بين عامَيْ 926 ـ 951 هـ وهي فترة غامضة المعالم لم تصلنا عنها مصادر ووثائق كافية. فيأتي هذا الكتاب اليوم ليَسُدَّ ثغرة هامَّة، وليُضيف جُزءاً هامَّاً إلى مكتبة المصادر المُختصَّة بتاريخ دمشق وبلاد الشّام، وليرسم ـ فوق ذلك ـ صُورة حيَّة وطريفة ودقيقة للحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والثّقافيَّة والاقتصاديَّة لدمشق إبَّان دُخُولها تحت حُكْم بني عُثْمان في عهد السُّلطان سُليمان خان القانوني.

60) نقد الدِّين اليهودي، جميل خرطبيل، 2002

أسطورة العهد القديم ـ الدِّين ـ يَهْوَه ـ الخُرُوج ـ الأساطير ـ الخليقة والطُّوفان ـ ولادة إبراهيم ومُوسى ـ داود ـ سُليمان ـ اصطفاء اليهود ـ لا أخلاقيَّات شخصيات العهد القديم ـ يَهْوَه وأخطاؤه ـ صراعه وندمه ـ إبراهيم ـ راحيل ـ ثامار ـ يشوع...

61) إسرائيل والعرب حرب الخمسين عاماً، بريغمان أهرون و جيهان الطّهري، تر:سالم العيسى، 2002

من أهمِّ الكُتُب التي صدرت عالميّاً، والتي تتناول الصّراع العربي الإسرائيلي. كيف قُسِّمت فلسطين؟ الاتِّصالات السِّرِّيَّة في باريس. التّخريب في مصر ـ المُجابهة ـ حرب الأيام السِّتَّة ـ السّادات يُدهش العالم بالمُصالحة ـ كامب ديفيد ـ أيلول الأسود ـ شارُون والجميل ـ الحرب في لُبنان. مَكْرُ صدَّام حُسين ـ مُؤتمر مدريد ـ الطّريق الطّويلة ـ المُحادثات السِّرِّيَّة في أوسلو .... الحلقة المُفرغة؟ النّقاش مع سَوريَّة.

62) استراتيجيَّة الأمن المائي العربي، أ.د.إبراهيم أحمد سعيد، 2002

يُعدُّ كتاب استراتيجيَّة الأمن المائي العربي من أهمِّ الكُتُب التي تُضاف إلى مكتبتنا العربيَّة، كونه يعالج بالدِّراسة والبحث مُشكلات استثمار وتنمية الموارد المائيَّة العربيَّة وفق منهج علمي سلس ومُبسَّط. ويطرح قضايا استراتيجيَّة مائيَّة مُلحَّة تمسُّ الأمن القومي العربي، ويُبيِّن الخلفيَّة المائيَّة للمشروع الاستيطاني الصّهيوني، ودور المياه في الجيُوبُولتيك الإسرائيلي سواء في المناطق المُحيطة بفلسطين أم في منابع المياه العربيَّة الاستراتيجيَّة (الفُرات والنّيل).

63) أمريكا. إسرائيل و 11 أيلول 2001، ديفيد ديُوك، تر: سعد رُستُم، 2002

يُؤكِّد مُؤلِّف الكتاب الأمريكي أنَّ إرهاب وتجسُّس إسرائيل هو الأشدّ خطراً على أمريكا، ويُعَدِّدُ أهمَّ العمليَّات الإرهابيَّة التي قامت بها (إسرائيل) ضدَّ أمريكا. ويتّهم الإسرائيليِّين والمُوساد بإخفائهم معلومات هامَّة عن المُخابرات الأمريكيَّة حول التّخطيط لتفجيرات 11 أيلول 2001.

64) مُخيَّم جنين من النّكبة إلى الانتفاضة،علي بدوان، 2002

دراسة سياسيَّة وتوثيقيَّة بالتّواريخ والأرقام والأسماء لما تعرَّضت له مدينة جنين ومُخيَّمها على وجه الخُصُوص من همجيَّة وتدمير من قِبَل الاحتلال الإسرائيلي. كما يعرض إلى قصَّة لجنة التّحقيق الدّوليَّة وبالتّفصيل، وإلى مُداخلات هذا التّحقيق ... إلى أن تمّ إلغاء تلك اللّجنة، ومُحاولة طمس المجزرة الإسرائيليَّة في مُخيَّم جنين.

65) الحلقة المفقودة في سلسلة الحضارات القديمة للجزيرة العربيَّة، علي سكيف، 2002

اكتشاف جديد لم يصل إليه أيُّ عالم أو مُستشرق أو مُؤرِّخ غربياً كان أم شرقياً؟! الأمر الذي سيُؤدِّي إلى الكَشْف عن حقائق هامَّة جداً، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: أ- مَنْ هُو أوَّل مُكتشف للحرف والكتابة العربيَّة؟ وأين؟.. ومتى؟..! وما هُو المصدر الذي استُقيت منه الحُرُوف؟! ب- وثائق إيبلا المكتَشَفَة في سوريَّة تُبيِّنُ أنَّ إسرائيل ليس هُو يعقوب، وأنَّ بني إسرائيل ليسوا هُم أولاده أو مَنْ تكاثروا عنه، وهذا ما تُشير إليه آيات القُرآن الكريم. ج- حقائق أو دلائل تُؤكِّد أنَّ طُوفان نُوح كان نتيجة لحرب كونيَّة استُخدمت فيها أسلحة تدمير شاملة تفوق بقُدرتها التَّدميريَّة ما توصَّل إليه العالم اليوم. وأنَّ العالم ربَّما يكون قد عرف الاستنساخ في زمن نُوح عليه السَّلام. د- هل كان مُوسى عليه السَّلام ساحراً يستطيع أنْ يجعل العصا تنقلب إلى أفعى، ويُفجِّر بها الصُّخُور، فتنبع منها المياه، ويشقّ بها البحر، فتظهر اليابسة، ليمرَّ عليها هُو وأتباعه؟ أم أنَّ الحقيقة مُخالفة لهذه الخُرافات والأساطير؟

66) المرأة في حياة وشعر الجواهري، ديب علي حسن، 2002

في هذا الكتاب خلجات قلب الشّاعر المُحبِّ، الشّاعر الذي يرى أنَّ المرأة العربيَّة هي أشرف نساء الدُّنيا، وهُو الشّاعر الذي أعطى المرأة من عقله وقلبه، وآمن بها سيِّدة تنشر شذاها؛ حيثُ تستطيع، مَنْ لا يقرأ الجواهري الشّاعر المُحبَّ، فسوف يبقى بعيداً عن تذوُّق روائعه التي نظنُّ أنَّها من أجمل الشّعر العربي. في هذا الكتاب باقة نضرة من بُستان الجواهري آثرنا أنْ تكون فوَّاحة بعطر مَنْ أحبَّ من بغداد إلى لندُن إلى.. إنَّه الشّاعر الذي لا تغيب الشّمس عن مملكته الشّعريَّة نضالاً وحُبّاً وإيماناً وتفاؤلاً بالقادم.

67) ظاهرة النّصّ القُرآني تاريخ ومُعاصرة ردٌّ على كتاب النّصّ القُرآني أمام إشكاليَّة البنية والقراءة للدكتُور طيِّب تيزيني، تأليف:سامر إسلامبولي، 2002

كيف جُمع النّصُّ القُرآني؟! توحيد القراءات والرّسم للنّصِّ القُرآني. كيف نشأت القراءات؟ بيان أنَّ اختلاف القراءات لا يُؤثِّر على الأحكام. توثيق النّصِّ القُرآني من التّاريخيَّة إلى الواقعيَّة. وهميَّة وُجُود النّاسخ والمنسوخ في القُرآن الكريم وذلك لأنَّه كتاب أُحكمت آياته. الكتاب دراسة علميَّة تحليليَّة تُثبت أنَّ القُرآن الكريم ثابت مُنذُ نزوله، ولم يتعرَّض إلى الاختراق أبداً. والدَّليل الأقوى على هذا هُو أنَّه بين أيدينا وهُو قابل للدّراسة والتّأكُّد من صحَّة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس، وكيفيَّة إثبات أنَّ مضمونه لا يمكن أنْ يكون خطأ ومُناقضاً لمحلِّ خطابه أبداً؛ لأنَّ النّصَّ الرّبّاني لا يُمكن أنْ يتناقض مع محلِّ خطابه، ولا بأيِّ شكل من الأشكال.

68) الآحاد. النّسخ. الإجماع (دراسة نقديَّة لمفاهيم أصوليَّة)، سامر إسلامبولي 2002

ما فائدة الخبر الظّنِّي؟ ما موقف القُرآن من خبر الآحاد الظّنِّي؟ ما موقف الصّحابة والعُلماء من الخبر الظّنِّي؟ نقاش رسالة الألباني في أنَّ حديث الآحاد حُجَّة بنفسه. ما خُطُورة وُجُود فكرة النّاسخ والمنسوخ في القُرآن؟ هل النّسخ مُمكن للنّصِّ الخاتمي؟ نماذج من الآيات التي قيل إنَّها منسوخة وردُّ ذلك. ما تفسير: (ما ننسخ من آية أو ننسها)؟ (يمحو الله ما يشاء ويثبت)؟ (وإذا بدَّلنا آية مكان آية)؟ (اتَّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربِّكم)؟ إثبات أنَّه لا ناسخ ولا منسوخ في القُرآن ذلك الكتاب الذي أُحكمت آياته... ما هُو الإجماع؟ وما مصدريَّته؟ وما مفهومه كمصدر ربَّاني؟ مُناقشة الإجماع عند الإمام الشّافعي.... نماذج من إجماع الصّحابة وآل البيت وعُلماء الأمَّة.. نقد قاعدة (الأصل في الأفعال التّقيد). ماذا ترتَّب على الادِّعاء بأنَّ الإجماع مصدر شرعي إلهي؟

69) المرأة مفاهيم ينبغي انْ تُصَحَّحَ، سامر إسلامبولي، 2001

تفسير آيات : غضُّ البصر. حفظ الفُرُوج. إبداء الزّينة. ضرب الخمار. هل حقّاً أنَّ الرّسول الكريم قال : إنِّي رأيتُ أكثر أهل النّار من النّساء؟ أنتنَّ ناقصات عقل ودين؟! يقطع الصّلاة الكلب والحمار والمرأة؟! كيف يكون إذنها سكُوتها وهي لم تنطق بحرف؟! السّياسة والنّساء ومنصب الرّئاسة. ما قصة ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة؟! ماذا اشترط الله لتعدُّد الزّوجات؟ وكيف أهمل المُسلمون شرُوط الله تعالى؟!

70) تحرير العقل من النّقل وقراءة نقديّة لمجموعة من أحاديث البُخاري ومُسلم، سامر إسلامبولي، 2001

هل نعتمد العقل أم النّقل؟! ما الفرق بين السنَّة والحديث؟! ما هي العصمة؟ وهل هناك أئمَّة معصومون؟! هل سَحَرَ اليهودُ الرّسولَ الكريمَ؟ هل حقّاً أنَّ الرّسول الكريم نسي آيات، ثُمَّ تذكّرها؟! هل حقّاً أنَّ الرّسول الكريم قال: إنَّما الشُّؤم في ثلاثة؛ في الفرس والمرأة والدّار؟! هل صحيحا البُخاري ومُسلم مُقدّسان لايجوز المساس بهما أو نقدهما؟!

71) الألوهيّة والحاكميّة دراسة علميّة من خلال القُرآن الكريم، سامر إسلامبولي، 2000

كيف ندرس مفهومَيْ التّوحيد والإيمان باليوم الآخر؟ما هي الأهميَّة الكُبرى لهذَيْن المفهومَيْن اجتماعيّاً وتعبُّديّاً؟ لمَ دَمَجَ المُسلمون ما هُو بشري بما هُو ربَّاني في السّياسة؟! مَنْ أعطى الحقّ لهم بالحُكْم بتكفير فلان وتزندق فلان وارتداد فلان؟! ما الألوهيَّة؟ ما الرّبَّانيَّة؟ما الحاكميَّة؟ ما حاكميَّة الله؟ما حاكميَّة الإنسان؟ ما معنى (الرّحمن على العرش استوى)؟

72) العبادات في الأديان السّماويّة (اليهوديّة. المسيحيّة. الإسلام والمصريّة والعراقيّة واليُونانيّة والرُّومانيّة والهندُوسيّة والبوذيّة و الزّرادشتيّة والصابئيّة)، عبد الرَّزّاق رحيم صلاّ ل المُوحي، 2001

هذا الكتاب هامٌّ جداً جداً، لأنَّه يسدُّ ثغرة كبيرة في مكتبتنا العربيَّة الإسلاميَّة، بل والعالميَّة. والباحث في دراسته هذه، والمُوثَّقة توثيقاً دقيقاً يتناول مفهوم العبادات في الأديان الثّلاثة وفي ديانات مُندثرة مثل ديانة المصريّيْن القُدماء والعراقيّيْن القُدماء واليُونانيّيْن القُدماء والرُّومانيّيْن القُدماء، وفي ديانات مازال لها مُعتقون ومُؤيِّدون إلى الآن؛ مثل الدّيانة الهندُوسيَّة والبُوذيَّة والصّينيَّة والزّرادشتيَّة والصّابئيَّة. فكم من النّاس والمُثقّفين يعرف كيف يُصلّي اليهود؟ وكيف يُزكُّون؟ وكيف يتطهَّرون. وإلى أين يحجُّون؟ وكيف يصومون؟ وكيف يتوضَّؤون؟ وما هي أعيادهم؟ وكذلك الأمر بالنّسبة للمسيحيّيْن و... هذه الدّراسة دراسة مُقارنة هامَّة تُبيِّن - وبالنّصوص المُوثَّقة من التّوراة والأناجيل والقُرآن الكريم والسنَّة النّبويَّة - ما أصاب بعض الدّيانات السّماويَّة من تحريف وابتعاد عمَّا نزل أصلاً في كُتُبها السّماويَّة، حتّى وصل بعضهم إلى تحليل ما حُرِّمَ في كُتُبهم، وتحريم ما أُحِلَّ؟ وتبديل ما ليس يُبدَّل، رغم وُجُود دلائل قاطعة في كُتُب تلك العبادات حُرِّفت فيما بعد. ولا شكَّ أنَّه - وبعد قراءة الدّراسة - سيتَّضح - تماماً - جانب هامٌّ من جوانب تاريخ العبادات المُقارَن في العالم.

73) المرأة اليهوديّة بين فضائح التّوراة وقبضة الحاخامات، ديب علي حسن، 2002

المرأة في التّوراة (إبراهيم وسارة وهاجر، يعقوب وراحيل والزّواج من أختَيْن، يهوذا يزني بكنَّته ثامر، أمنون يغتصب أخته ثامار) سالومي ورأس يُوحنَّا المعمدان، المرأة اليهوديَّة في الحياة الدّينيَّة المُعاصرة. المرأة في الجيش الإسرائيلي، حاخامات يهود يُديرون شبكات الدّعارة و المُخدّرات في العالم. كيف حاولت (إسرائيل) تصدير عبادة الشّيطان إلى مصر؟ تفاصيل العمليَّة القذرة لاتّهام سفير مصر في (إسرائيل) بمُحاولة اغتصاب راقصة إسرائيليَّة. الكتاب دراسة موثُوقة تُبيِّن وتفضح وتُعرّي كيف لعب حاخامات يهود بالنّساء اليهوديّات وعن طيب خاطرهنَّ مُنذُ وُجِد اليهود إلى الآن.

74) تاريخ مدينة دمشق خلال الحكْم الفاطمي، د. مُحمَّد حسين محاسنة، 2001

هُو دراسة لفترة غفل عنها المُؤرِّخون تماماً، حتَّى بدت ضبابيَّة، وهي من أهمِّ الفترات في تاريخ مدينة دمشق؛ لأنَّها كانت في مُعظمها صراعاً مذهبيّاً بين السُّنَّة والإسماعيليَّة، وهي فترة استجلى فيها المُؤلِّف الدُّكتور مُحمَّد حُسين محاسنة خفايا صراعات كثيرة؛ من الفاطميِّين إلى القرامطة، إلى الأتراك والتُّركمان، إلى جماعات الأحداث الدّمشقيَّة، وقد تناول الباحث ـ بدايةً ـ جغرافيَّة المدينة وخُططها وبداية بنائها ومناخها ومياهها. ثُمَّ انتقل إلى الفتح الفاطمي لها وإلى الأحداث الخطيرة التي رافقت هذا الفتح، ثُمَّ تحدَّث عن التّنظيمات الإداريَّة والماليَّة، ثُمَّ الحياة الاقتصاديَّة، ثُمَّ الثّقافيَّة.

75) الحياة هي في مكان آخر، ميلان كُونديرا، تر: معن عاقل، 2001

لم تستسلم من قبل لأيِّ جسد آخر بهذه الطّريقة، ولم يستسلم أيُّ جسد آخر لها من قَبْلُ بهذه الطّريقة. كان بوسع العاشق أنْ يستمتع ببطنها، إلا أنَّه لم يسكنه قطُّ، وبوسعه أنْ يلمس نهدها، إلا أنَّه لم يشرب منه قطُّ. آه؛ يا للإرضاع! راحت تُراقب بشغف حركات الفم الخالي من الأسنان الشّبيهة بحركات السّمكة، وتتخيَّل أنَّ ابنها، وهُو يشرب حليبها، يشرب في الوقت ذاته أفكارها وتصوُّراتها وأحلامها. إنَّها حال فردوسيَّة. كانت تسهر بحرص على جشاء ابنها وبوله وبرازه، وليس هذا اعتناء مُمرِّضة مُهتمَّة بصحَّة طفل، إنَّما كانت تسهر على نشاطات الجسد الصّغير بشغف.

76) الوصايا المغدورة (التّرجمة الكاملة)، ميلان كُونديرا، تر: معن عاقل، 2000

هذه الدّراسة النّقديَّة مكتوبة بشكل رواية على مدى تسعة أجزاء مُستقلَّة، تتقدَّم الشّخصيَّات ذاتها وتتلاقى: سترافينسكي وكافكا وأنسير ميه وبرود، همنغواي مع كاتب سيرته. وفنُّ الرّواية هُو البطل الرّئيس للكتاب، والذي يبحث الحالات الهامَّة في عصرنا: الدّعاوى الأخلاقيَّة التي أُقيمت ضدَّ فنٍّ هذا العصر من سيلين إلى ماياكُوفسكي. الحياء بوصفه مفهوماً جوهريّاً لعصر مُؤسَّسٍ على الفرد. القُوَّة الغامضة لإرادة الموت، الوصايا، الوصايا المغدورة. وُلد ميلان كُونديرا في تشيكُوسلُوفاكيا، واستقرَّ في فرنسا عام 1975، ويُعَدُّ من أشهر الرّوائيِّين في هذا القرن، وكَتَبَ هذا الكتاب باللُّغة الفرنسيَّة. وهُو من الرّوائيِّين المُثيرين للجَدَل في العالم.

77) المُحاورة، ميلان كُونديرا، تر: معن عاقل، 2000

وضعتْ ـ بعد ذلك ـ كفَّيْها على وركَيْها، وزلقتْهُمَا على امتداد الجذع. رفعتْهُمَا فوق الرّأس، ثُمَّ تسلَّقتْ يدُها اليُمنى على امتداد ذراعها اليُسرى المرفوعة، ويدها اليُسرى على امتداد ذراعها اليُمنى، وأنهتْ حركة الذّراعَيْن. أعادتْ ـ بعد ذلك ـ يدَيْها إلى وركَيْها، وزلقتْهُمَا على امتداد السّاقَيْن، رفعت السّاق اليُمنى، ثُمَّ السّاق اليُسرى وهي مُنحنية، ثُمَّ نظرتْ إلى المُدير، وحرَّكتْ الذّراع اليُمنى مُلقيةً إليه بتنُّورتها الوهميَّة. مَدَّ المُدير يده وأحكم قبضته، وأرسل بيده الأخرى قُبلة. كانت مُتفاخرة بعُريها الوهمي، ولم تعد تنظر إلى أحد، راحت تنظر إلى جسدها المُتموِّج، وعيناها نصف مُغمضتَيْن، ورأسها مائل جانباً... تحطَّمت ـ بعد ذلك ـ وضعيَّة الزّهُو.

78) القصر المسحور (سيِّد الباب السّابع)، إيفلين بريزو بيللين، تر: فاطمة عابدين، 2001

هي رواية رائعة من عُيُون الأدب العالمي للفتيان، والرّواية من جهة تُحاول: أنْ تكون خياليَّة، ومن جهة أخرى؛ فإنَّ ما فيها من إغناءات فكريَّة تفتح آفاق فكر الفتيان، وتُدخل القِيَم التي فيها إلى خيالهم بصُورة سلسة، لتُصبح مُعتقدات تترسَّخ في وُجدانهم وعقُولهم.

79) بين ابن المُقفَّع ولافونتين (مدخل إلى دراسة مُقارنة)، فاطمة عابدين، 2001

الكتاب مُقتطفات من كليلة ودمنة لابن المُقفَّع، ومُقتطفات من أعمال لافونتين الشّعريَّة، شاعر فرنسا العظيم، والهدف من إبراز هذه المُقتطفات هو إثبات أنَّ الأفكار واحدة لدى الإنسانيَّة، وإنْ اختلفت وسائل التّعبير عنها. والكتاب مُوجَّه لليافعين والتّلاميذ والمُدرّسين.

80) الدّليل إلى ألفيَّة ابن مالك في النَّحْو والصَّرف والإعراب (تبويب وتوضيح).

مُحمَّد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، إعداد:باسمة درمش، 2002

اللُّغة العربيَّة دُرٌّ ظاهر ومكنون، وحتَّى نُحافظ على هذا الدُّرِّ فإنَّه يتوجَّب علينا أنْ نُحافظ على الصَّدفة التي تحتضن هذا الدُّرَّ وتفرزه؛ أيْ نُحافظ على قواعد اللُّغة العربيَّة سليمة مُعافاة من أيِّ خطأ أو لَغْو أو تشويه. وكتاب الدّليل إلى ألفيَّة ابن مالك يحوي قواعد اللُّغة العربيَّة، نَحْوها وصرفها، في ألف بيت وبيتَيْن من الشّعر الموزون، كما يحوي تبويباً مُفصَّلاً لكُلِّ قاعدة نَحْويَّة وصرفيَّة لمباحث الألفيَّة التي بلغت الأربعة والسّبعين مبحثاً. الدّليل إلى ألفيَّة ابن مالك: أسلوب شعري يُسَهِّلُ حفظ قواعد لُغتنا العربيَّة؛ استحضار سريع ومُكثَّف لقواعد لُغتنا العربيَّة.

81) قَتلُ المُرتدِّ الجريمة التي حَرَّمها الإسلام، مُحمَّد مُنير إدلبي، 2002

الدِّين هُو تحوُّل في القُلُوب. والدِّين ليس سياسة، ولا يسعى أتباعه إلى تشكيل أحزاب سياسيَّة. كما أنَّ الدِّين ليس وطنيَّة ذات ولاءات محدودة، وليس هُو بلداً ذا حُدُود جَغرافيَّة، بل هُو التّحوُّل الذي يكون لخير رُوح الإنسان وصالحها. إنَّ بيت الدِّين هُو في أعماق القلب. إنَّه فوق حُكْم وسيطرة السّيف. وكما أنَّ السُّيُوف لا تستطيع تحريك الجبال، كذلك فإنَّ القُوَّة لا يُمكنها أنْ تُغيِّر القُلُوب. وفي الوقت الذي كان فيه الاضطهاد باسم الدِّين هُو الموضوع المُتكرِّر في تاريخ العُدوان الإنساني، فإنَّ حُرِّيَّة الاعتقاد والضّمير هُو الموضوع المُتكرِّر في القُرآن الكريم. قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: لا إكراه في الدِّين، قد تبيَّن الرّشد من الغي. وقال أيضاً: قُل الحقُّ من ربِّكم، فمَنْ شاء فليُؤمن، ومَنْ شاء فليكفر. (ومَنْ يرتدد منكم عن دينه، فيمت وهُو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدُّنيا والآخرة وأولئك أصحاب النّار هُم فيها خالدون). فهل يصحُّ أنْ نعارض القُرآن الكريم والحديث الصّحيح والعقل الإنساني الواعي، وأنْ تحلَّ هذه الجريمة التي تُعَلَّمُ في المدارس والمعاهد والجامعات؟ !

82) انتبهوا... الدَّجَّال يجتاح العالم، مُحمَّد مُنير إدلبي، 2002

دراسة تحليليَّة علميَّة موثُوقة تُثبت بُطلان الزّعم القائل بأنَّ الدَّجَّال إنسان واحد. وتُثبت - في الوقت نفسه - أنْ ما يُسمَّى بالأعور الدجَّال قد ظهر في الأرض وأنَّه يجتاح العالم، ويعيث فيه فساداً !!! ما تفسير الحديث الشّريف: تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون فارس، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون الرُّوم، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون الدَّجَّال فيفتحها الله؟

83) أسرع الحاسبين ملامح جديدة للإعجاز العَدَدي في القرآن الكريم، عاطف صليبي، 2002

مُرفق مع الكتاب قرص كُمبيُوتر يحتوي على برامج التّراميز وبرامج القسمة. الاكتشاف المُعجز في القرن الواحد والعشرين، فهُو دَرسَ الحُرُوف المُقطَّعة التي كَشَفَتْ أنَّ القُرآن الكريم مُرمَّز (مُشَفَّر)، ثُمَّ درس كيفيَّة اكتشاف التّراميز القرآنيَّة الثلاث (الشّيفرات).

84) المسؤوليَّة في القانون الجنائي الاقتصادي دراسة مُقارنة بين القوانين العربيَّة والقانون الفرنسي.
محمود داوود يعقوب، 2001

تُعَدُّ المسؤوليَّة الجنائيَّة من الدّعامات الأساسيَّة التي يرتكز عليها مبدأ المُعاقبة حقّاً ومُمارسة، وهي - بالتّالي - السّند الأصلي للقانون الجنائي، بل هي سبب وُجُوده، وهي - أيضاً - المحور الأساسي الذي تدور حوله الفلسفة والسّياسة الجنائيَّة. وهذا الكتاب (المسؤوليَّة في القانون الجنائي الاقتصادي) هُو دراسة مُقارنة بين القوانين العربيَّة في سُوريَّة ومصر مع الاستشهاد المُطوَّل - أحياناً - بالقوانين الجنائيَّة في لُبنان والعراق والكُويت واليمن والأردن والجزائر والسُّودان والمغرب والسُّعُوديَّة والإمارات وقطر والبحرين وليبيا. وبين القانون الجنائي الفرنسي.

85) إشارات حمراء، رزان المُغربي، 2002

مقطوعات شعريَّة تسمو وترتفع بالنَّفْس البشريَّة إلى سماء العاطفة النّبيلة.

86) الجياد تلتهم البحر، رزان المُغربي، 2002

قَصَصٌ قصيرة تُعبِّر عمَّا يشوب حياة النّاس من تقلُّبات سريعة على مُختلف الصُّعُد الاجتماعيَّة والفكريَّة.

87) لماذا الاغتيالات السِّياسيَّة، مازن النقيب، 2004

88) تشنيف السَّمْع في انسكاب الدَّمْع (من جميل تراثنا).
صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي، تحقيق : مُحمَّد عايش، 2004

89) الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهُور الإسلام حتَّى الآن، مُنير الذِّيب، 2004

90) برُوتُوكُولات حُكماء صهيون، (النُّصُوص الكاملة) دراسة تحقيقيَّة تاريخيَّة ومُعاصرة.
رجا عبد الحميد عُرابي، 2004

